دراسات
في المجتمع العربي

تأليف
اساتذة بجامعة الامارات العربية المتحدة

مراجعة وتقديم

الدكتور جميل سعيد
عميد كلية الآداب

[تمهيـــــد]

بسم الله الرحمن الرحيم ، والصلاة والسلام على نبيه الكريم الامين ، وعلى آله واصحابه اجمعين ، ومن والاهم باحسان الى يوم الدين . وبعد :

فهذه « دراسات في المجتمع العربي » تناولت بعض الجوانب الهامة فيه ، مما يجدر بالطالب الجامعي ، في كل مجتمع عربي ان يلم بها . وقد تناولها الزملاء فصولا ، كتب كل منهم في مجال تخصصه فيها ، وعمد الى الجوانب الهامة التي يشترك فيها المجتمع العربي في اقاليمه المتفرقة بحكوماتهـا المستقلة . وقد شملت الحديث عن اللغة العربية واهميتها القومية والدينية لهذا المجتمع الذي وصف بها وسمي باسمها . وتناولت بلاد العرب ، بلاد « المجتمع العربي » في المشرق والمغرب ، « من الخليج الى المحيط » فتحدثـت عن اراضيها ، ومياهها ، ومناخها ، وموقعها الجغرافي ، واهميتها التجارية ، والاقتصادية ، والحضارية ، والسياسية ، والعسكرية . وتحدثت عن المجتمع العربي ، سكانها ؛ ومكانهم في الانتماء بين الاجناس البشرية ؛ وعن طرق معيشتهم في حياتهم بدوا في الصحاري ، ومستوطنين في القرى والارياف وفي المدن . وتناولت تاريخهم وحضارتهم ، وثقافتهم ، وحياتهم الاقتصاديـة والسياسية . وزادت على هذا ، ان تحدثت بشيء من التفصيل عن « الاسرة العربية » باعتبارها النواة التي يتكون منها المجتمع .

وتطلع على القارىء من هذه الدراسات صورتان مختلفتان للمجتمع العربي ، احداهما قديمة مشرقة ؛ ابتدأت بظهور الاسلام ، وامتدت الى اكثر من ثلاثة قرون . واخرى حديثة غائمة ، يعاني المجتمع العربي ما يعاني من ويلاتها . وبين الصورتين مد وجزر ، يراوح المجتمع العربي فيهما بـين الصورتين ، وقد يصل في الجزر الى الظلام ، وان كان لا يصل في المد الى الاشراق .

وعندنا ، ان من الحسن ان نشير بشيء من البيان الموجز ، الى ما نراه هاما في هاتين الصورتين ، ليكونَ الدارس على ذكر منهما حين يأخذ بالدراسة التفصيلية لهما في مواقعهما من هذه الفصول . وقد يكون اول سبل الاصلاح ان يطلع المرء على نواقصه فيعمل على تلافيها ، ثم يعمل على الزيادة فيما هو حسن ليبلغ به الكمال . وعلى هنا نقول :

« ١ »

انطلق العرب من جزيرتهم ـ بعد أن من الله عليهم بنعمة الاسلام ـ الى الاقطار المجاورة ، مجاوزينها الى الاقطار البعيدة ، يفتحونها وينشرون فيها الدين الاسلامي ، الذي يأمر بالعدل والمساواة بين الناس ، متخذين من القرآن المجيد : كتاب الله تعالى ، ومن سنة رسوله الكريم ، اساسا لثقافتهم ولحياتهم في الدنيا والآخرة . ويمتزجون بهذه الشعوب ، فيشيعون فيها اللغة العربية : لغة القرآن الكريم ، ولغة السنة النبوية الشريفة . ويقيمون مجتمعا عربيا اسلاميا تترامى اطرافه ، وتتعدد شعوبه . ويكون الدين الاسلامي هو الرابطة الاولى لهذه الشعوب . وتكون اللغة العربية ، هي لغة الدين والعلم والثقافة فيه ؛ يكتب بها المسلمون ، ويغمرون الانسانية بفيض من المعرفة والعلم والحضارة . وشملت الخلافة الاسلامية بلاد العرب هذه ، وزادت عليها ما كان لاكبر دولتين معاصرتين لها ، في المشرق ، وفي المغرب ، مملكة الفرس ، وامبراطورية الرومان . ووصل العرب الى الصين في الشرق ، وأسسوا دولتهم في الاندلس ، في جنوب اوروبا ، في الغرب .

ودار الفلك دورته . وكثرت الفتن وعملت الشعوبية عملها في الانفصال ، يساندها الفرس ، ويتحمسون لها . واستولى الاتراك على الجيش ، وعلى مقاليد الامور ، فاستقلت الولايات بدويلات ترتبط بالاسم بالخلافة العباسية ببغداد ، وضعف شأن الدولة الاسلامية ، فطمع الطامعون بها ، وغزاها الصليبيون من الغرب ، واستولوا على فلسطين ، وملكوها قرابة قرنين كاملين (١٠٩٩ م ـ ١١٨٧م) . واجتاحها التتار من الشرق ، فخربوا البلاد ، وقتلوا الناس ، وأتلفوا الكتب . ودخل العالم الاسلامي ، ومنه الوطن العربي في ظلام ...

وتقطعت الدولة الاسلامية دولا تعنى كل منها بلغتها وظل الاسلام هو الرابطة الأولى لهذه الشعوب . ولكن العربية ـ وهي اللغة الدينية المقدسة عند المسلمين جميعا ـ قصرت على الصلاة والعبادة ، وانحسرت راجعة الى مواطنها ، موطن الوحي وما اتصل به من بلاد العرب .

وفي اوائل القرن السادس عشر الميلادي ظهرت الدولة العثمانية الفتية ، واتخذت من « استانبول » عاصمة للخلافة الاسلامية ، وبسطت ظلها على العرب . ورأى العرب فيها حاميا ، ومنقذا لوحدتهم الاسلامية ، ودامت على هذا اربعة قرون . ورأى العرب امرها وهو يضعف ، وتتدخل الدول الأوربية في

شؤونها ، فبدأت الحركات الاسلامية الاصلاحية ، في بلاد العرب ، تهدف الى احياء التراث العربي الاسلامي ، وحماية البلاد العربية والاسلامية ، من التدخل الاجنبي ، فكان على سبيل المثال منها : الحركة الوهابية في نجد والسنوسية في ليبيا ، والمهدية في السودان ، و ...

وفي القرن التاسع عشر طغت الروح القومية على اوروبا ، وسرت عدواها الى الاتراك العثمانيين ، فعملوا على تتريك العرب ، وحاولوا احلال لغتهم التركية محل اللغة العربية . ورأى العرب لغتهم ، وهي تبعد من الحياة وتنزوي في الجوامع والمساجد ، فاخذوا يؤلفون الجمعيات السرية يقاومون بها الاتراك .

وكانت الحرب العالمية الاولى سنة ١٩١٤م ، ومنّاهم الحلفاء باستقلال بلادهم ، فكانت الثورة العربية الكبرى سنة ١٩١٦م ، اعلنها شريف مكة الحسين بن علي على الاتراك .

وانتهت الخلافة الاسلامية ، مع الحرب العالمية الاولى ، واصبحت البلاد العربية غنائم للانكليز والفرنسيين . وقبل الحرب كان الايطاليون قد غنموا ليبيا . واول ما حرص عليه هؤلاء المستعمرون ان قطعوا الصلات بين هذه الاقاليم العربية الموزعة بينهم ، وراحوا يبحثون في بطون التأريخ ، عما يعمق الفرقة ؛ ويثير المنافسة بينها ، فعملوا على ايقاظ شعوبية حديثة ؛ فرعونية في مصر ، وفينيقية في لبنان ، وآشورية وبابلية في العراق . وحرصوا ان تكون هذه دروسا في برامج التعليم ..

وشعر الكثير من العرب ان الخلافة العثمانية — على ما فيها من نواقص — كانت خيرا لهم بوحدتهم الاتصالية الشاملة ، ووحدتهم الاقتصادية . وظلوا يحنون ويعملون على اعادة الوحدة العربية : حلمهم في اواخر عهد الخلافة العثمانية .

وكانت الحرب العالمية الثانية سنة ١٩٣٩ ، وعملت انكلترا على ارضاء العرب ، فعاونتهم على انشاء الجامعة العربية ، فأنشئت سنة ١٩٤٥ ، وفي ميثاقها دخلت الدول العربية في ترابط او حلف ، وليس في وحدة من اي نوع ، وفي ميثاقها ايضا ان تحرص الدول العربية الاعضاء على تنسيق خططها السياسية تحقيقا للتعاون بينها ، وصيانة لاستقلالها .

وشغلت القضية الفلسطينية الدول العربية قرابة اربعين عاما ، وهي تسير بهم ، وبالقضية الفلسطينية من سيىء الى اسوأ ، وهم يوالون اتخاذ القرارات في انسحاب اليهود الصهاينة من جميع الاراضي العربية التي احتلت من عام ١٩٦٧ بما فيها القدس ، وإزالة المستعمرات الصهيونية التي انشئت بعد هذا التأريخ ، واليهود لا يزدادون الا توسعا وامتدادا . وآخر ما كان احداث لبنان ، وقد خسرت فيها القوات اللبنانية والفلسطينية المشتركة ما يزيد على ستين الف بين قتيل وجريح . والدول العربية لا تزداد مع هذه الاحداث الا فرقة وتناحرا .

وزاد على هذا دخول العراق في حرب مع ايران ، وهذه هي السنة الثالثة ، والعرب لا يبدو عليهم جد في انتصار لقطر عربي ، بل نسمع الخلافات بين اعضاء جامعة الدول العربية نفسها ، تصل الى حد تجمع فيه الجيوش على الحدود استعدادا للحرب .

على ان من حسنات جامعة الدول العربية ، ما رأيناه في تعاون يقوم بين بعض اعضائها ، كالذي كان في « مجلس التعاون الخليجي » . وقد باركت الجامعة العربية ، دخول دول الخليج العربي ، في تعاون بينها . ومن قرارات هذا المجلس : ضمان الاستقرار في الخليج العربي ، ورفض التدخل الاجنبي في المنطقة ، وفض المنازعات بين دول التعاون . والعرب يأملون ان يكون هذا بداية حسنة تقتدي بها بقية اعضاء جامعة الدول العربية ، وعسى ان تنتهي بهم الى وحدة شاملة ، والله هو الهادي والموفق والمعين .

« ٢ »

وللعالم العربي اهميته البالغة ، في نواحيه الأربع : الدينية ، والجغرافية ، والاقتصادية ، والحضارية .

أما أهميته الدينية والروحية ، فتتمثل في ان العالم العربي نشأت فيه الديانات السماوية الثلاث : اليهودية ، والنصرانية ، والاسلام . وقد كان – وما يزال – المركز الروحي ، لاهل الارض الذين يدينون بهذه الديانات . وهو في كل عام يجتذب الملايين من اهل الارض لزيارته ؛ يقصد المسلمون مكة المكرمة ، مهبط الوحي ، للحج . ويقصد اليهود والنصارى ، ومعهما المسلمون ايضاً ، القدس .

وأما أهميته الجغرافية ، فبتوسطه في موقعه بين الشرق والغرب . وقد اكسبه هذا اهمية اقتصادية ، وحضارية ، وسياسية ، وعسكرية .

كان وسيطا لانتقال التجارة والثقافة بينهما . وكان معبرا لجيوش الفرس واليونان في الحروب بينهما . وكان الفاصل بين المملكة الفارسية والامبراطورية الرومانية ، فكان المطمع وساحات الصراع لكل منهما . وقد تعاورته الدولتان في الاستيلاء والامتلاك ، وظل هذا الى ان من الله عليه بنعمة الاسلام .

وأما أهميته الاقتصادية ، فتبدو في اهمية موقعه الجغرافي ، وفي اراضيه ومياهه ، وثرواته . كانت التجارة تمر عبر اراضيه ، وعبر مياهه في القديم ، وهي تمر الآن عبر اجوائه ايضا . وارضه الواسعة ترويها الانهار الكبيرة ؛ النيل ، ودجلة ، والفرات ، والعاصي ، وهي – مع اهميتها الزراعية غنية بمعادنها ، فيها الفوسفات في المغرب وتونس ومصر . وفيها الحديد والنحاس والرصاص ، والبوتاس والزنك . وفيها الكبريت ، وهو في العراق يأتي بعد البترول في كثرته واهميته . وفيها الذهب الذي اكتشف حديثا في المملكة العربية السعودية . وفيها النفط ، عصب الطاقة الحديثة ، وينتج الوطن العربي منه ٤٠٪ أربعين بالمائة من كل ما ينتجه العالم ، ويمتلك ٦٠٪ ستين بالمائة من احتياطي العالم كله . والنفط – علاوة على ما فيه من الطاقة الجرارية – مصدر لصناعات كثيرة ، في الأغذية ، والأدوية ، والملابس ، والأصباغ وغيرها ، وهو المحرك الأول لسياسة الكثير من الدول في العالم .

ومع هذا كله ، فالعالم العربي الآن معدود بمجموعه ، في عداد الاقاليم الفقيرة ، التي يطلق عليها « اقاليم التخلف الاقتصادي » فدخله بمجموعه يبلغ نحوا من (١٦٥) بليونا من الدولارات ، على حين يبلغ دخل ايطاليا وحدها – وهي ليست في عداد الدول الغنية – نحوا من (١٧٥) بليونا من الدولارات . ودخل الفرد فيه لا يزيد على ٦٪ من دخل الفرد الامريكي .

ويضعف من امر اقتصاده هذا ، انه يعتمد في دخوله على المواد الاولية فيه ، وان دوله تعتمد على محصول رئيسي واحد هو النفط ، او القطن ، او القمح . يضاف الى هذا تبعيته في اقتصاده للدول الاجنبية ، وهي التي تسيطر عليه في الاستيراد ، وفي اجهزة النقل والتأمين ، وفي النقد والصيرفة الاجنبية . ويزيد في هذا ان اسواقه لصادراته الاولية هذه ، تعتمد على دول اجنبية

محددة ، مما يجعل التنافس كالمعدوم بينها ؛ تعتمد على السوق الاوربية المشتركة ، وعلى امريكا واليابان . ويزيد من امره في هذا ان التبادل التجاري بين اقاليمه العربية نفسها ضئيل بحيث لا يزيد في مجموعه على ٧٪ من تبادله التجاري . يضاف الى هذا نقص الايادي الفنية فيه ، مما يجعل صناعته لا تبلغ الحد الذي تنافس فيه الصناعات في الاسواق العالمية ، في اي نوع من المنتجات .

اذا علمت هذا كله ، رأيت اي نوع من التكالب هذا الذي نقرؤه عن غناه في الصحف ، واي ضرب من ضروب الاذلال هذا الذي يريده خصومه له ، وهم يعملون على اثارة الفتن بين دوله ، فيأخذون ما عنده من ثروة ويعوضونه بها اسلحة يجعلونها وسيلة للقتال بين دوله .

وأما أهميته الحضارية ، فتتمثل فيما قدم للانسانية ، قبل الاسلام وبعده . ان ارضه هذه التي تشغل الآن جزءا كبيرا هاما من قارتين كبيرتين ، هما : آسيا وافريقيا ، قد نشأت فيها الدول العظيمة القديمة ، التي كانت مصادر للحضارات في العراق ومصر والشام واليمن ..

وحين من الله على العرب بنعمة الاسلام ، اخذوا بانشاء حضارة عربية اسلامية جديدة ، لم تكن امتدادا لواحدة من هذه الحضارات القديمة . لقد عظم الاسلام العقل ، وجعله مدار التكليف ، واهاب بالانسان ان يركن الى عقله ويتدبر ويتفكر . وفي القرآن الكريم : « انا جعلناه قرآنا عربيا لعلكم تعقلون »(١) وفيه : « كذلك يبين الله لكم الآيات ، لعلكم تتفكرون »(٢) ، وحث القرآن على طلب العلم . واولى سور القرآن الكريم نزولا سورة العلق ، وفيها : « اقرأ وربك الاكرم الذي علم بالقلم ، علم الانسان ما لم يعلم » وعظم الله اهل العلم ورفعهم درجات على غيرهم ، قال ــ جل من قائل ــ : « يرفع الله الذين آمنوا منكم ، والذين اوتوا العلم درجات »(٣) ، وقال تعالى : « قل هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون »(٤) ، وفي حديث الرسول الكريم : (طلب العلم فريضة على كل مسلم)(٥) .

---

(١) سورة الزخرف ، الآية : ٣ — (٢) سورة العنكبوت : الآية / ٤٣

(٣) سورة المجادلة : الآية / ١١ — (٤) سورة الزمر : الآية / ٩

(٥) سنن ابن ماجة جـ : ١ ، ص/٥

بهذه الروح انطلق العرب من جزيرتهم الى اقطار الارض ، يفتحونها وينشرون فيها الاسلام ، ويكون الدين الاسلامي ــ الــذي ساوى بــين المسلمين ــ هو الرابطة الاولى لهذه الشعوب ، وتكون اللغة العربية ، لغة الدين والعلم ، بها يكتب المسلمون ويغمرون الانسانية بفيض من المعرفة والعلم والثقافة .

ومع ان القرآن شرع فيه الاساس لبناء دولة راسخة الاركان والقواعد ، سواء منه ما يتصل بالفرد في حياته الدينية والاجتماعية ، وعلاقته بالدولة ، او ما يتصل بالدولة وعلاقتها بمواطنيها في الداخل ، وتحديد علاقتها بغيرها من الدول في الخارج ، مع هذا رأى الخلفاء ان هذه البلدان المفتوحة ، في الشرق وفي الغرب ، كانت لها نظم في دواوين الدولة وادارتها ، يحسن بهم ان يطلعوا عليها ويعرفوها . وقد اخذ الخليفة عبدالملك بن مروان بالعمل على ترجمة دواوين الدولة ، من الفارسية في العراق ، ومن اليونانية في الشام وفلسطين ، ومن الرومية والقبطية في مصر . .

ونشطت حركة الثقافة والترجمة في عهد الرشيد والمأمون ، فنقلت امهات كتب الفلسفة وغيرها الى العربية .

ومع ان الدولة الاسلامية ، ادركها الضعف ، وطمع بها الطامعون ، وغزيت وذهبت دولها وخربت بلدانها ، واتلفت كتبها ، مع هذا كله ، فان المخطوطات العربية الموزعة الآن في عواصم الغرب وامريكا وروسيا تزيد على مئات الآلاف . وحسبك ان تعلم ان مما يقال عن اسبانيا وحدها ، أن ما احرق فيها من كتب المسلمين ، بعد خروجهم من الاندلس ، في دفعة واحدة ، قد زاد على مائة الف كتاب ... ومع هذا فما تزال مكتبة الاسكوريال الآن بها آلاف من كتبهم . وحسبك ان تعلم ايضا ان مما بقي في مكتبات تركية الآن يزيد على مائة واربعين الفا من الكتب الخطية . وناهيك بما هو موجود منها في مكتبات انكلترا ، وفرنسا ، والمانيا وغيرها ... ولتكتمل الصورة عند القارىء اقول : كنت من بعيد مدرسا في جامعة برنستن بامريكا . واشترت مكتبتهم في دفعة واحدة ستة آلاف مخطوط عربي وطلب الي آنذاك ان اساهم في فهرستها .

هذه هي صورة المجتمع العربي الاسلامي قديما ، اما صورته الحديثة فهو من المجتمعات المتخلفة في العلم ، شأنه في الاقتصاد والسياسة او يزيد والامل كبير بأهله ، ان تتعاون دولهم ، وتتضاعف جهودهم في طلب العلم ، كما تتضاعف جهودهم في العمل ، وفي القرآن الكريم : « وقل اعملوا فسيرى الله

عملكم ورسوله والمؤمنون »[1] .

« ٣ »

وتعددت الصور في دراسة المجتمع العربي ، تبعا لحكوماته المستقلة التي يدرس فيها ... ورأى اتحاد الجامعات العربية ، منذ عامين ان يؤلف كتاب في المجتمع العربي ، يكون بأيدي طلاب الجامعة ، يطلعون فيه على ما في المجتمع العربي ، وتكون مادته من عوامل الوحدة العربية . وقبل هذا كانت جامعة الموصل احدى الجامعات العراقية ، قد نظمت سنة ١٩٧٥ ، حلقة دراسية دعت اليها الكتاب العرب ، وانتهت الى وضع منهج لكتاب « المجتمع العربي » ايضا ... ويبدو ان التأليف في هذا لم يظهر بعد .

وكان مما اقترح فيه ان يشمل التأليف ، ناحيتين هامتين : ناحية تتحدث عن المجتمع العربي في اقاليمه ودوله المستقلة التي ما تزال تحس بالعوامل الهامة التي تشترك فيها هذه الاقاليم جميعا ، مما يتعلق باللغة ، والدين ، والاشتراك بالتراث الحضاري والثقافي ، والتكامل الاقتصادي ، مما يجعلها تتوق ان تكون دولة موحدة ووطنا واحدا ، كما سبق ان كانت في ايام عزتها ــ ومنعتها .

وناحية اخرى تأخذ بالدراسة التفصيلية لكل اقليم منها . وتكون الناحية الاولى ، هي التي يدرسها الطلاب في الجامعات العربية عامة . اما الناحية الثانية فلا بأس ان ينفرد كل اقليم بما يخصه منها . وقد عالجت هذه الفصول النواحي العامة المشتركة في الوطن العربي ، والمجتمع العربي ، مع بعض التفصيل في الناحية الاقليمية في دولة الامارات العربية المتحدة ، كالذي اشارت اليه في توطين البدو في « مشروع غياثي » . وقد تفضل الاستاذ الدكتور عزالدين ابراهيم ، مدير هذه الجامعة في حديث له عن المجتمع العربي بدولة الامارات العربية المتحدة ، فوضع الخطوط العريضة التي يحسن ان يهتدى بها في هذه الدراسة ، التي نرجو ان تتم في القريب ان شاء الله .. ونسأله ــ سبحانه ــ العون والهداية في القول والعمل ، وهو الهادي والمعين .

جميل سعيد ابراهيم
عميد كلية الآداب
بجامعة الامارات العربية المتحدة

---

(١) ــ سورة التوبة ، الآية : ١٠٥

الفصل الاول
اللغة العربية
والمجتمع العربي والاسلامي

فصل كتبه :
الأستاذ الدكتور جميل سعيد ابراهيم
عميد كلية الآداب

ـ اللغة العربية ، والمجتمع العربي والاسلامي :

المجتمع العربي ، مجتمع اسلامي ، والاسلام عماده القرآن الكريم ، دستور المسلمين لحياتهم في الدنيا والآخرة . واللغة العربية هي الوسيلة الوحيدة لفهم القرآن الكريم . ومن هنا رأينا ان نتحدث عن اللغة العربية ، وعن صلتها بالعرب وبالاسلام والمسلمين . وان نشير بشيء من الايجاز ـ الى نظرة المسلمين من غير العرب ، الى العرب ، اهل هذه اللغة ، وموقفهم منها ، ومن اهلها العرب .

وعندنا ان هذا الحديث يمس المجتمع العربي عامة ، لأن اللغة العربية هي لغته ، ولأن هذه اللغة هي الوسيلة الاولى ، التي تعطف عليه الشعوب الاسلامية غير العربية ، وتجعلهم ينظرون اليه غير نظرتهم الى بعضهم ، اكراما لهذه اللغة ، لغة القرآن الكريم ، دستور الاسلام والمسلمين في دنياهم وآخرتهم . ونرى ان نتناول هذا بشيء من البيان والتفصيل ،لشدة مساسه بمجتمعنا العربي الاسلامي ، فنقول :

معلوم ان القرآن الكريم ، انما نزل بلغة العرب ، وفي فاتحة سورة يوسف : « الر ، تلك آيات الكتاب المبين ، انا انزلناه قرآنا عربيا لعلكم تعقلون » وقال ـ تعالى ـ « وكذلك انزلناه قرآنا عربيا ، وصرفنا فيه من الوعيد لعلهم يتقون » (سورة طه ـ الآية : ١١٣) . وقال ـ تعالى ـ : « كتاب فصلت آياته قرآنا عربيا لقوم يعلمون » (سورة فصلت ، الآية : ٢) وقال ـ جل من قائل ـ : « لسان الذي يلحدون اليه اعجمي ، وهذا لسان عربي مبين » (سورة النحل ، الآية : ١٠٣) .

وكان كذلك ، لأن الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ عربي منهم ، قال تعالى : « وما ارسلنا من رسول الا بلسان قومه ليبين لهم » (سورة ابراهيم الآية : ٣) .

وبين ان موسى بن عمران حين بعث الى فرعون لابلاغ رسالته ، ذكر العقدة التي في لسانه ، والحبسة التي في بيانه ، فدعا الله سبحانه بقوله : « واحلل عقدة من لساني يفقهوا قولي » (سورة طه ، الآية : ٢٧) وقال : « ويضيق صدري ولا ينطلق لساني » . (سورة الشعراء ، الآية : ١٣) وقال : « واخي هارون هو افصح مني لسانا فارسله معي ردءا يصدقني » (سورة القصص ، الآية : ٣٤) .

وبين سبحانه ان جبريل الروح الامين ، هو الذي نزل به على قلبه ، صلى الله عليه وسلم ــ بلسان عربي مبين لينذر به ، اول ما ينذر به العرب الذين يفهمونه ويذوقونه ، قال تعالى : « وانه لتنزيل رب العالمين نزل به الروح الامين ، على قلبك لتكون من المنذرين بلسان عربي مبين » (سورة الشعراء ، الآية : ١٩٥).

* * *

والآن لا بد لنا من البيان : من هم العرب الذين عنوا بهذا ؟

فنقول ان هذا القرآن ، وهذا الدين انما ارتبط بالعرب لسانا لا جنسا فهو بلاغ وبيان لهؤلاء الذين يفهمون لغة العرب ويذوقون بها هذه المعجزة البيانية الكبرى . ومعلوم ان مكة والمدينة وغيرهما من مدن العرب وبواديها كانت بها الاجناس التي تنتمي للعرب لغة لا جنسا . كان بها السود الذين تربوا في بيئة العرب ونشئوا على لغتها ، وكان منهم الشعراء الأبيناء ، ويكفي ان نشير الى عنترة ، صاحب المعلقة المشهورة في الجاهلية ، وان نشير الى سحيم ، عبد بني الحسحاس ، وهو مخضرم ، قال عنه النقاد العرب : انه استاذ عمر بن ابي ربيعة القرشي ، في فن الغزل ، وان نشير الى نصيب والى شعره الرقيق الذي قال فيه الفرزدق حسدا ، حين استمع الى انشاده ، بحضرة الخليفة سليمان بن عبدالملك ، واغضب سليمان بقوله :

فخير الشعر اكرمه رجالا وشر الشعر ما قال العبيد

نقول : بهذه الروح ــ روح العرب لسانا لا جنسا ــ نظر الاسلام الى العرب ، والى الموالي الذين خالطوهم وهم من غير جنسهم ، واعتبرهم مثلهم في نظر الاسلام ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « الولاء لحمة كلحمة النسب » وقال ــ صلى الله عليه وسلم ــ « مولى القوم منهم ، ومولى القوم من انفسهم (اخرجه البخاري عن انس . الجامع الصغير ٩١٢٤ ، ورسائل الجاحظ ، مناقب الترك ، ص١٢) وعلى شبيه ذلك صار حليف القوم منهم ، وحكمه حكمهم .

ويورد ابن عساكر : « عن ابي سلمة بن عبدالرحمن قوله : « وجاء قيس بن مطاطية الى حلقة فيها سلمان الفارسي وصهيب الرومي وبلال الحبشي ،

فقال : هذه الاوس والخزرج قد قاموا بنصرة هذا الرجل (يعني النبي) فما بال هؤلاء (يعني سلمان وصهيبا وبلالا) وما يدعوهم الى نصره وهم ليسوا عربا مثل قومه ؟... قال : فقام اليه معاذ بن جبل ، فاخذ بتلابيبه ـ (ما على نحره من الثياب) ثم اتى النبي فاخبره بمقالته فقام النبي مغضبا يجر رداءه ، لما اعجله من الغضب واتى المسجد ، ثم نادى : « الصلاة جامعة » ليجمع الناس ، وقال : « ايها الناس الرب واحد ، والأب واحد ، وان الدين واحد ، وليست العربية باحدكم من اب ولا ام وانما هي اللسان ، فمن تكلم بالعربية فهو عربي » .

وهكذا ترى الرسول الكريم رأى العربية لغة ولم يرها عرقاً ولا جنساً ، ورأى سلمان الفارسي وصهيباً الرومي وبلالا الحبشي عرباً ، وان كانوا من غير العرب في عرقهم وجنسهم .

وهكذا ترى تعلق الاسلام باللغة العربية واعتبارها سبيل الوحدة الجامعة بين المسلمين على اختلاف قومياتهم وأجناسهم وألوانهم ، يراها وحدة جامعة لهم ، وهي في نظر الاسلام ، ونظر رسوله الكريم أقوى ربطاً لهم من رباط اللون والعرق والجنس .

ونحن لا نعجب بعد هذا أن يتعلق المسلمون ـ من أي جنس وأي لون ، وأية قومية ، بهذه اللغة الشريفة المقدسة ، التي نزل بها الوحي الالهي ونزل بها القرآن الكريم ، كتاب الله ودستور المسلمين ، وهداهم في دنياهم وفي آخرتهم .

وواضح أني أشير بهذا الى غير العرب الذين اعتنقوا الاسلام فأحبوه ، وأحبوا قرآنه الكريم ، وأحبوا نبيه العربي محمدا ـ صلى الله عليه وسلم ـ وأحبوا لغة العرب ، لأن بها كلام الله في قرآنه ، وأحبوا العرب لأن هذه اللغة الشريفة المقدسة لغتهم ، ولأن هذا النبي الكريم صلوات الله عليه منهم . وهؤلاء عندنا ـ نحن العرب المسلمين ـ عرب بالمعنى الذي أراده الاسلام ، وأراده رسوله الكريم . ولست أتوجه في حديثي هذا الى الشعوبية منهم . والشعوبية تعني : تحقير العرب ، وتجريدهم من كل ميزة خيرة كريمة . وتعني الازدراء والبغض لكل ما هو عربي أو يمت الى العرب : تكره الجمل حيوان العرب في صحرائهم ، وتكره النخلة لأنها تنبت في أرض العرب ، وتعيب اللغة العربية لأنها لغة العرب . ويصل بها الكره لهم والتعصب عليهم الى كره الاسلام والسعي الى هدمه . وترى أول المعاول في هذا أن تسعى الى لغتهم تهدمها لأنها ترى في هدمها هدم دينهم وقرآنهم .

كان هذا في القديم ، وما زال هذا كائنا الى الآن ــ ويرحم الله نصر بن سيّار ، حين قال فيهم :

قوم ، يدينون دينا ما سمعت به عن الرسول ولم تنزل به الكتب
فان تكن سائلا عن اصل دينهم فان دينهم أن تُقتل العرب

ولحكمة اقتضتها حكمة الله عز وجل ، جعل المجلين في الرد على هؤلاء في القديم أناسا من جنسهم وعرقهم ، لا من جنس العرب ، يقول الجاحظ (البيان والتبيين : ١/٢٩) : اعلم أنك لن ترى قوما قط أشقى من هؤلاء الشعوبية ، ولا أعدى على دينه ولا أشد استهلاكا لعرضه ، ولا أطول نصبا ولا أقل غنما من هذه النحلة . وقد شفى الصدور منهم طول جثوم الحسد على أكبادهم ، وتوقد نار الشنآن في قلوبهم وغليان تلك المراجل الفائرة ، وتسعر تلك النيران المضطرمة .. » .

ويقول ابن قتيبة :

« ولم أر في هذه الشعوبية أرسخ عداوة ، ولا أشد تعصبا على العرب من السفلة والحشوة وأوباش النبط ، فأما أشراف العجم وذوو الأخطار منهم ، وأهل الديانة فيعرفون ما لهم وما عليهم ، ويرون الشرف نسبا ثابتا » (ص/٢٧٠ ــ كتاب العرب) (منشور ضمن رسائل البلغاء ، ص/٩٥) .

ولا تعجب بعد هذا أن ترى الأعلام الأفاضل الذين يستشهد بكلامهم من الذين تعلقوا باللغة العربية وأحبوها لأنها الأساس في فهم الكتاب والسنة ــ أعاجم الأسماء ، والنسب والنسبة ، ويطلع عليك منهم الطبري ، والجرجاني ، والفارسي ، والقزويني ، والزمخشري ، والرازي ، والسكاكي ، وغيرهم وغيرهم ..

ونعود الى حديثنا عن الاسلام واللغة العربية ، فنقول :

يقول ابن خلدون في الفصل السادس والثلاثين من مقدمته ، بعنوان : « في علوم اللسان العربي » :

« أركانه أربعة ، وهي : اللغة والنحو والبيان والأدب . ومعرفتها ضرورية على أهل الشريعة : لأن الشريعة كلها من الكتاب والسنة ، وهي بلغة العرب ونقلتها من الصحابة والتابعين عرب ، وشرح مشكلاتها من لغاتهم . ولابد من معرفة العلوم المتعلقة بهذا اللسان لمن أراد علم الشريعة » .

وتعلق المسلمون باللغة العربية ، لأنها السبيل الوحيد لفهم القرآن الكريم ، كتابهم المقدس في دينهم ودنياهم ، وهي السبيل الى فهم الحديث الشريف ، ورأوها مقدسة لأن بها كلام الله في قرآنه المجيد . ورأوها لغة أهل الجنة : يقول السيوطي : (في المزهر : ١/٣٠) وأخرج ابن عساكر في التأريخ عن ابن عباس رضي الله عنهما : « أن آدم عليه السلام ، كانت لغته في الجنة العربية » .

وهكذا ترى أن اللغة العربية ، قد تعلق بها المسلمون لناحيتيها الدينية ، والقدسية : لأنها اللغة الشريفة التي نزل بها كلام الله ، وأنها عندهم لغة أهل الجنة ، ولأنها الوسيلة أيضا لاكتساب علوم الشريعة الاسلامية .

ولشدة تعلق المسلمين باللغة العربية ، اشترطوا لناقلها ، ما كانوا يشترطونه في ناقل الحديث النبوي الشريف ، (١/١٣٨) "يشترط أن يكون ناقل اللغة عدلا ، رجلا كان أو امرأة ، حرا كان أو عبدا ، كما يشترط في نقل الحديث ، لأن بها معرفة تفسيره وتأويله ، فاشترط في نقلها ما اشترط في نقله .."

وهكذا ترى أن علماء اللغة ، ظلوا على ما رسم الأوائل في رواية الحديث وفيه التشدد والتحفظ في روايتها ، شأنهم في رواية الحديث .

وعقد السيوطي في مزهره (٢/٣٠٢) بابا في : « معرفة آداب اللغوي » قال فيه : « أول ما يلزمه الاخلاص وتصحيح النية ... ثم التحري في الأخذ عن الثقات » لقوله — صلى الله عليه وسلم : « إن العلم دين فانظروا عمن تأخذون دينكم » قال : « ولا شك أن علم اللغة من الدين لأنه من أهم فروض الكفايات وبه تعرف معاني ألفاظ القرآن والسنة .. » .

ورووا عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، أنه قال : « لا يقرىء القرآن إلا عالم باللغة » .

وعن ابن عباس : إذا سألتم عن شيء ، من غريب القرآن فالتمسوه في الشعر ، فان الشعر ديوان العرب » وحسبنا منهم أن قالوا : « إن علم الحديث وعلم اللغة أخوان يجريان من واد واحد » وأن قالوا :

حفظ اللغات علينا ... فرض كفرض الصلاة
فليس يضبط دين ... الا بحفظ اللغات

(المزهر ٢/٣١٢)

* * *

ومعلوم أن العرب فتحوا العراق والشام ومصر ... ونشروا الدين الاسلامي ، ولكن عربيتهم فسدت باختلاطهم مع غيرهم من هذه الأمم التي فتحت بلدانها ودانت بالاسلام ، وأصبح شأنهم قريبا من شأن غيرهم في وجوب تعلم اللغة العربية . وتشدد المسلمون الأوائل في الحث على تعلمها ، ورأى بعضهم أن اتقانها الى الحد الذي يدرك به اعجاز القرآن واجب ديني . وان ليس للمسلم ان يكتفي بالتسليم بهذا اخذا بالتقليد . يقول الجرجاني ، عبدالقاهر ــ رحمه الله : « فان قال قائل منهم : فان لنا طريقا الى اعجاز القرآن وهو : علمنا بعجز العرب عن ان يأتوا بمثله ، وتركهم ان يعارضوه ــ مع تكرار التحدي عليهم ، وطول التقريع لهم بالعجز عنه . ولأن الامر كذلك ما قامت به الحجة على العجم قيامها على العرب » . (دلائل الاعجاز ، ص : ٦١) .

ويرد الجرجاني على صدر كلامهم هذا بأن يراه معيبا من ناحيتين ، ناحية العقل الذي يأخذ بالتقليد ، وناحية الايمان الذي لا يكون عن يقين . يقول : « ... فبنا ان ننظر : اي اشبه بالفتى في عقله ودينه ، وازيد له في علمه ويقينه ، ان يقلد في ذلك ، ويحفظ متن الدليل ، وظاهر لفظه ، ولا يبحث عن تفسير المزايا والخصائص ما هي ؟ وكيف يكون ان تظهر في الفاظ محصورة ، وكلم معدودة معلومة ، بان يؤتى ببعضها في اثر بعض ، لطائف لا يحصرها العد ولا ينتهي بها الامد ؟ ام ان يبحث عن هذا كله ويستقصي النظر بابا فبابا ، حتى يعرف كلا منه بشاهده ودليله ، ويعلمه بتفسيره وتأويله ، ويوثق بتصوره وتمثيله ، ولا يكون كمن قيل فيه :

يقولـــون اقـــوالا ، ولا يعلمونها ولو قيل هاتوا حققوا لم يحققوا ؟

ويرد على الناحية الثانية ، وملخصها : بأن الحجة في ادراك الاعجاز ليست قائمة على العجم ، او انها تقتصر على العرب في اول العهد بالاسلام ــ يرد على القائل بهذا ، بقوله : « خبرنا عما اتفق عليه المسلمون من اختصاص نبينا عليه السلام بان كانت معجزته باقية على وجه الدهر ، اتعرف له معنى : غير انه لا يزال البرهان منه لائحا ، معرضا لكل من اراد العلم به ، وطلب الوصول اليه ، والحجة فيه وبه ظاهرة لمن ارادها ، والعلم بها ممكنا لمن التمسه ؟ فاذا

كنت لا تشك في ان لا معنى لبقاء المعجزة بالقرآن الا ان الوصف الذي له كان معجزا قائم فيه ابدا ، وان الطريق الى العلم به موجود ، والوصول اليه ممكن ، فانظر اي رجل تكون اذا انت زهدت في ان تعرف حجة الله تعالى وآثرت فيه الجهل على العلم ، وعدم الاستبانة على وجودها . وكان التقليد فيها احب اليك ، والتعويل على علم غيرك آثر لديك » ؟ ويزيد في هذا بأن يقول : « وهل رأيت رأيا اعجز ، واختيارا اقبح : ممن كره ان تعرف حجة الله تعالى من الجهة التي اذا عرفت منها كانت انور وابهر ، واقوى واقهر :؟! » (دلائل الاعجاز ، ص/٦٢) .

وهكذا تراه رأى الايمان بالتقليد ، معيبا للانسان في عقله ومنتقصا لايمانه ، في دينه . ورأى الحجة بادراك الاعجاز قائمة على العجم قيامها على العرب . ورأى الحجة في ادراك الاعجاز لا تقتصر على ادراكها يوم نزل القرآن الكريم ، بل هي حجة باقية على المسلمين ، عربهم وعجمهم ، امد الدهر . ومن هنا وجب على المسلمين ان يدركوا هذا الاعجاز بأنفسهم . وطبيعي ان اول الطريق في ادراكه انما هو تعلم اللغة العربية واتقانها ، اتقانا يصل بهم الى معرفة الحسن والاحسن والبليغ والأبلغ ، حتى يصل الامر الى ادراك الاعجاز في كلام الله تعالى الذي تحسه الاذهان ، وتتقاصر عن الاتيان بمثله .

رأى الجرجاني ان الجهة التي بها تعرف البلاغة ويدرك بها الاعجاز انما هي : « استقراء كلام العرب وتتبع اشعارهم والنظر فيها (ص/٩٠) .

ودافع الجرجاني عن الشعر ، وحث على دراسته ، وجعل الاخذ بها واجبا دينيا . وصبغ حديثه في دفاعه عن الشعر ، بصبغة عاطفية دينية ، اكسبته حماسة وقوة . ونحن لا نكاد نرى مثل حديثه هذا ، في الدفاع عن الشعر ، عند امة من الامم ، التي بالغت في العناية بشعرها . ونرى ان ننقل من قوله في هذا ما يغنينا ببيانه المشرق ، عن التعليق والتوضيح له ، قال : « وذاك انا اذا كنا نعلم ان الجهة التي منها قامت الحجة بالقرآن وظهرت ، وبانت وبهرت ، هي ان كان على حد من الفصاحة تقصر عنه قوى البشر ... وكان محالا ان يعرف كونه كذلك الا من عرف الشعر الذي هو ديوان العرب وعنوان الادب » ورأى : « ان الصاد عن ذلك صاد عن ان تعرف حجة الله تعالى » .

« وكان مثله مثل من يتصدى للناس ، فيمنعهم من ان يحفظوا كتاب الله تعالى ، ويقوموا به ، ويتلوه ويقرأوه ، ويصنع في الجملة صنيعا يؤدي الى ان يقل

حفاظه والقائمون به ، والمقرئون له » ويقول : « فسواء من منعك الشيء الذي ينتزع منه الشاهد والدليل ، ومن منعك السبيل الى انتزاع تلك الدلالة ، والاطلاع على تلك الشهادة . ولا فرق بين من اعدمك الدواء الذي تستشفي به من دائك وتستبقي به حشاشة نفسك وبين من اعدمك العلم بأن فيه شفاء ، وان لك فيه استبقاء » . (دلائل الاعجاز ، ص/٦٠ — ٦١) .

ومن هنا صارت الكتب التي تبحث في مسألة الاعجاز كتب بلاغة ، واصبحت كتب البلاغة غايتها الاولى معرفة الاعجاز . يقول العسكري ابو هلال — في كتابه « الصناعتين » : « اعلم علمك الله الخير .. ان احق العلوم بالتعلم واولاها بالتحفظ .. علم البلاغة ومعرفة الفصاحة الذي يعرف به اعجاز كتاب الله تعالى .. وقد علمنا ان الانسان اذا اغفل علم البلاغة واخل بمعرفة الفصاحة لم يقع علمه باعجاز القرآن من جهة ما خصه الله به من حسن التأليف وبراعة التركيب » . والعلوى جعل كتابه « الطراز المتضمن اسرار البلاغة وحقائق الاعجاز .. » في ثلاثة كتب ، جعل الاول في مقدمات العلم والفصاحة ، وجعل الثاني في المعاني والبيان والبديع ، وقال عن الثالث : نذكر فيه ما يكون جاريا مجرى التتمة والتكملة لهذه العلوم الثلاثة ، نذكر فيه فصاحة القرآن العظيم ، وانه قد وصل للغاية التي لا غاية فوقها ... ونذكر وجه اعجازه ، ونذكر اقاويل العلماء في ذلك .

وهكذا ، لا تكاد تجد كتابا قديما في البلاغة ، الا وغرضه الاول ان يصل بك الى معرفة اعجاز القرآن . وحسبك ان ابن خلدون قال في مقدمته عن علم البلاغة : « واعلم ان ثمرة هذا الفن انما هي في فهم الاعجاز من القرآن ... وهي اعلى مراتب الكلام .. » .

* * *

ورأى المفسرون ، والفقهاء أن لا غنى لهم عن اتقان لغة العرب ، ومعرفة البلاغة فيها لفهم القرآن ، ولادراك معانيه واعجازه ، يقول الطبري المتوفى سنة ٣١٠ هـ « ... بيد ان الرسول عربي ، وان القرآن نزل بلسانه ، فالواجب ان تكون معاني كتاب الله المنزل على نبينا محمد (صلى الله عليه وسلم) لمعاني كلام العرب موافقة وظاهره لظاهر كلامهم ملائما .. فاذا كان ذلك كذلك فبين اذ كان موجودا في كلام العرب الايجاز والاختصار ، والاجتزاء من الاخفاء بالاظهار ، وبالقلة من الاكثار في بعض الاحوال واستعمال الاطالة والاكثار ،

والتردد والتكرار ، واظهار المعاني بالاسماء دون الكناية عنها ، والاسرار في بعض الاوقات ، والخبر عن الخاص في المراد بالعام ، وعن العام في المراد بالخاص الظاهر ، وعن الكناية والمراد منه المصرح ، وعن الصفة والمراد الموصوف ، وعن الموصوف والمراد الصفة ، وتقديم ما هو في المعنى مؤخر ، وتأخير ما هو في المعنى مقدم ، والاكتفاء ببعض من بعض وبما يظهر عما يحذف ، واظهار ما حظه الحذف ، ان يكون ما في كتاب الله المنزل على نبيه محمد (صلى الله عليه وسلم) من ذلك ، في كل ذلك له نظيرا ، وله مثيلا وشبيها . ونحن مبينون جميع ذلك في اماكنه ان شاء الله ذلك ، وامد منه بعون » . وهكذا ترى ان الطبري لا يكاد يترك فنا من فنون القول الا بين حاجة المفسر اليه ..

ودرج المفسرون على هذا .. وهكذا ترى ان القرآن الكريم اصبح العامل الاول في دراسة اللغة العربية وتعلمها ، بها نزل كلام الله ، فهي اللغة المقدسة ، وتدوينها يأخذ ما يأخذه الحديث الشريف من العناية . وبها يفهم كلام الله تعالى ، ويؤخذ منه الاحكام ، ما يتعلق منها بالعبادة وبالحياة . وبها يعرف اعجاز القرآن . وسبيل المعرفة يتدرج من فهم اللغة الى فهم الشعر وتذوقه والى معرفة فنون القول في الفصاحة والبلاغة . فهي حاجة المتعبد ، والقارىء والمفسر والفقيه ، وانها هي السبيل الاول الى وحدة المسلمين ، وحدة تتضاءل عندها الوانهم واجناسهم ولغاتهم .

نقول : واذا رأيت للعربية هذه المكانة في المجتمع العربي والاسلامي ، لا تعجب ان ترى خصوم العرب والاسلام والمسلمين يعمدون الى طمسها وهدمها ، كانوا كذلك قديما ، وهم الآن اشد تكالبا على العرب والمسلمين وعليها منهم في القديم ، وما سد في وجههم طريق الا عمدوا مسرعين الى غيره . يقولون مرة : ان حروفها التي تستعملها في الكتابة غير صالحة للطباعة الحديثة ، وانها لا تؤدي النطق العربي على وجهه الاكمل ، يقولون هذا وهم يعلمون ان ما من لغة من لغات الدنيا تستطيع حروف لغتها ان تؤدي الفاظها على الوجه الذي تؤديه الحروف العربية في النطق العربي .

وينصحون العرب باستبدال حروفهم بالحروف الاوروبية وما ذاك الا ليباعدوا بين العرب والمسلمين وبين تراثهم العربي الاسلامي ، الذي درجت عليه الاجيال . ونأسف ان نقول انهم نجحوا في بعض البلدان الاسلامية ،

فباعدوها عن الخط العربي ، وقطعوا ابناءها عن تراثهم القديم المكتوب به ، وسرهم ان رأوا في هذا اول المعاول لهدم اللغة العربية .

ويشيعون مرة اخرى ان اللغة الفصحى لم تعد ملائمة لحياة العرب الحاضرة في عصرهم ، واولى لهم ان يستبدلوها بلغات عامية دارجة ، يشيع كل منها في اقليم من اقاليم العرب المسلمين ، ويؤسفنا ان نراهم يوشكون ان ينجحوا في هذا لاننا نرى الكثير من الروايات المسرحية صارت تعرض باللغات واللهجات الاقليمية .

ويعمدون الى اشاعة باطلة اوشك ان يؤمن بها الكثير من اهل العلم من رجالنا وهي ان العربية لم تعد صالحة للتعبير عن العلوم العصرية ، ونرى الكثير من جامعاتنا العربية الاسلامية تنطوي عليها هذه الفرية وتكاد تصدقها .

على ان الله سبحانه يقيض لهم من اهل جلدتهم من يتولى الرد عليهم في عصرنا الحاضر هذا ، كما هيأ الله للشعوبيين من يرد عليهم من اهل جنسهم ولغتهم من قبل .

يقول براون ، وهو الكاتب الانجليزي الذي اعجب بالمسلمين وتراثهم ، يقول عن اللغة العربية ، في مقدمة كتابه : « تأريخ الادب في ايران » :

« واللغة العربية تمتاز بانها لغة دين عظيم ، ونحن نختلف عن المسلمين في كوننا نعتبر الانجيل انجيلا سواء اقرأناه في اللغات الاصلية التي كتب بها ام في لغتنا الحالية . اما المسلمون فيعتبرون القرآن الكريم كلمة الله وانه تنزيل من رب العالمين . فاذا قرأنا مثلا « قل هو الله احد » فان الله وحده هو الذي يخاطبنا بهذا القول ، ولا يمكن ان يفسرها احد بان النبي هو الذي يحدثنا به ، ولذلك جرى المسلمون على ان يقولوا : « قال الله تعالى » اذا شاءوا الاستشهاد بآية من آيات القرآن . بينما يقولون : قال النبي عليه الصلاة والسلام اذا ... استشهدوا بحديث من احاديث النبي . وبناء على ذلك قالوا : ان القرآن لا يمكن ترجمته ، ترجمة صحيحة الى لغة اخرى ، لأن المترجم مضطر الى ان يورد في ترجمته قدرا من التفسير يستعين به على اظهار معانيه . وهذا القدر قد يفسد المعنى او يمس الاصل . ولست اعلم الا ان المستشرقين وحدهم هم الذين اقدموا على نشر ترجمات للقرآن لا يصحبها الاصل العربي ، اما المسلمون فقد جروا على ان يكتبوا الترجمات الفارسية او التركية او الاردية بين سطور الاصل

العربي وان يقصروا همهم على الترجمة الحرفية للالفاظ والمفردات[١] » .

ويتحدث عن اللغة العربية وحاجة المسلمين الى تأدية الصلاة بها ، والى ان المسلم غير العربي يكون له الشرف بين ابناء جلدته من المسلمين غير العرب اذا هو احسن الالمام بها يقول :

« بالاضافة الى ذلك فان المسلم سواء اكان فارسيا أم هنديا ، أم أفغانيا أم من أهل الملايو عليه ان يؤدي الصلوات خمس مرات يوميا بالعربية وان يتلفظ بالشهادة او ما في حكم ذلك من الصيغ الدينية باللغة العربية ايضا ولذلك وجب عليه ان يلم الماما ولو يسيرا بهذه اللغة ، فاذا ما تعمق فيها استحق بين اهله وابناء قومه مكانة رفيعة ، ومنزلة عالية » . ويبين ان اللغة العربية قد اغنت غيرها من لغات المسلمين ، من غير العرب بفيض من العبارات الفنية ، المتعلقة بالدين والفقه ، ومصطلحات العلوم التي نشأت في ظلال الحضارة العربية الاسلامية ، يقول :

« يضاف الى ذلك اننا نجد ان لغات الشعوب التي اعتنقت الاسلام قد غمرها منذ البداية سيل من الالفاظ العربية يتكون من العبارات الفنية المتعلقة بالدين والفقه ، ثم من مصطلحات العلوم الوضعية التي نشأت في ظلال الحضارة العربية الاسلامية ، ثم من مجموعة من الالفاظ العادية التي استطاعت ان تحل محل الكلمات الاصلية في لغات هذه الشعوب » . ويرى لو ان احدا من الشعوب الاسلامية غير العربية أراد ان يكتب بلغته ، بحيث يخلي ما كتبه من الالفاظ العربية الكثيرة التي مازجتها ، لعسر عليه ذلك ، يقول : « ولو ان احدا اراد ان يكتب شيئا بحيث تكون كتابته خلوا من الالفاظ العربية لتعسر عليه الامر كما يتعسر على الذي يريد ان يكتب شيئا بالانجليزية بحيث تكون كتابته خالية من كلمة يرجع اشتقاقها الى اصل « يوناني » او « لاتيني » او « فرنسي » ولربما استطاع بعض الناس ان يفعلوا ذلك على نطاق ضيق ، ولكن كتاباتهم تظل عسيرة الفهم اذا لم يستعن القارىء على فهمها بمعجم من المعاجم اللغوية (تاريخ الادب في ايران ، ص :١٤) .

ويتحدث براون عن اناس تعصبوا لهذا ، في الحديث وفي القديم ، ولكنهم باءوا بالفشل فيه ، ويورد مثالين لهذا ، احدهما ما حاوله الامير جلال في كتابه

---

(١) ــ ينظر كتاب تاريخ الادب في ايران ، جــ ١ ص . ١٤)

المسمى « خسرو نامة » اي كتاب الملوك ، والآخر ما حاوله الفردوسي في ملحمته التي سماها « الشاهنامة » يقول :

(وقد حاول « الامير جلال » مثل هذه المحاولة ولكنه باء بالفشل عندما كتب كتابه المسمى « خسرو نامة » اي « كتاب الملوك » وهو تاريخ مختصر للدول التي قامت في فارس قبل الاسلام) ويقول : « والشاهنامة نفسها ، وقد الفها « الفردوسي » منذ الف سنة تقريبا وقصد متعمدا ــ كما تدلنا على ذلك المقارنة بينها وبين الشعر المعاصر لها ــ ان يصوغها في اقدم العبارات والاساليب ، لا يستطيع احد ان يدعي انها خالية من الالفاظ العربية ، كما يظن ذلك بعض الناس ممن لا قدر لهم على التحقيق والتمحيص » . (تأريخ الادب في ايران ــ ص : ١٥)

ويقول في صلاحية العربية للاغراض العلمية : « والعربية في الحقيقة من اصلح اللغات لتأدية الاغراض العلمية ، فهي غنية بالاصول وبالمشتقات الناتجة عن هذه الاصول ، والمشتقات فيها كثيرة ، وهي تتفق مع الاصل في اتصالاتها به من حيث المعنى ، وان تحور معناها قليلا بحسب اشتقاقها او صياغتها » (ص :١٦) ثم يسوق الامثلة على هذا . (انظر ص : ١٧) من كتابه .

والآن : نرجو ان نكون قد وضحنا صلة اللغة العربية ، بالمجتمع العربي الاسلامي ، وصلتها بالدين الاسلامي ، لأنها الوسيلة الاولى لفهم القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة . ووضحنا نظرة المسلمين غير العرب الى العرب وهم اهل هذه اللغة الشريفة ، التي هي الرابطة الاولى لوحدة العرب والمسلمين في دينهم ودنياهم .

* * *

الكتب التي اشير اليها في هذا الفصل :

١ ــ القرآن الكريم

٢ ــ صحيح البخاري

٣ ــ البيان والتبيين ــ للجاحظ ــ ط ــ عبدالسلام هارون ــ القاهرة

٤ ــ تاريخ ابن عساكر ــ ابن عساكر .

٥ ــ الادب في ايران ــ براون ، ترجمة الدكتور ابراهيم امين الشواربي ــ ط ــ القاهرة .

٦ ــ تفسير الطبري ــ الطبري ــ ط ــ القاهرة .

٧ ــ رسائل الجاحظ ــ الجاحظ ــ ط ــ عبدالسلام هارون ــ القاهرة .

٨ ــ دلائل الاعجاز ــ عبدالقاهر الجرجاني ــ ط ــ القاهرة ــ محمد رشيد رضا .

٩ ــ كتاب الصناعتين ــ لابي هلال العسكري ــ ط ــ الاستانة .

١٠ ــ كتاب الطراز ــ للعلوي ــ ط ــ القاهرة .

١١ ــ مقدمة ابن خلدون ــ ابن خلدون ــ ط ــ بيروت .

١٢ ــ المزهر ــ للسيوطي ــ ط ــ القاهرة .

١٣ ــ رسائل البلغاء ــ محمد كرد علي ــ ط ــ دمشق .

الفصـــل الثـانـي

المقومات الطبيعية للوطن العربي

اعـــداد
الدكتور طه عبد العليم رضوان
جامعة الامارات العربية المتحدة

المحتـويات

الموضــــوع	رقـــم الصفحة
١ ــ امتداد الوطن العربي وخريطة :	ــ ٣٠ ــ
٢ ــ حدود الوطن العربي :	ــ ٣٤ ــ
٣ ــ موقع الوطن العربي وخريطة :	ــ ٣٨ ــ
٤ ــ البناء الجيولوجي وخريطة :	ــ ٥٠ ــ
٥ ــ المقومات والمعالم التضاريسية وثلاث خرائط :	ــ ٥٠ ــ
٦ ــ المقومات المناخية :	ــ ٦٨ ــ
٧ ــ النباتات الطبيعية :	ــ ٦٩ ــ
٨ ــ المـــوارد المعدنية :	ــ ٧٠ ــ
٩ ــ مصادر الماء في الوطن العربي :	ــ ٧٢ ــ

المقومات الطبيعية للوطن العربي

اطلق الآشوريون في القرن التاسع قبل الميلاد لفظ العرب على بدو شمال شبه الجزيرة العربية ، وحتى بعد ان انقسم عرب شبه الجزيرة بين العرب القحطانية او العاربة في بلاد العرب السعيدة في الجنوب والعرب العدنانية او المستعربة في الشمال فقد ظلوا يعرفون باسم العرب . وجاء الاسلام ليدعم هذه التسمية ولتنسحب على ملايين البشر الذين يتحدثون اللغة العربية سواء في داخل شبه الجزيرة العربية او في خارجها . بل ان العرب اليوم خارج شبه الجزيرة اكثر مما هم في داخلها عددا . ولذلك انسحب الاصطلاح على كل الذين يتحدثون باللغة العربية وبينهم الكثير من اوشاج العرق وروابط الدين والبناء الاجتماعي والتاريخي والآمال المشتركة . واصبح الوطن العربي الافروآسيوي متميزا في كل خرائط العالم بتجانسه الكبير سكانيا وتاريخيا واقتصاديا وطبيعيا بحيث اصبح الحدث الواحد في اقصى شرقه يؤثر على كل الاحداث في اقصى غربه ، رغم تعدد الدول والانظمة السياسية والاقتصادية التي تتبعها كل منها . وكأنه أشبه بالعائلة الواحدة أو القبيلة المتفرقة البطون والبقاع . وهو الأمر الذي لا تشاركه فيه الكتل السياسية والأحلاف المختلفة .

وقد حاول المستعمرون في الحرب العالمية الثانية التخلص من كلمة العرب والوطن العربي الواحد الذي كان ينادي به الاحرار في كل اركانه ودوله فابتدعوا فكرة تقسيمه سياسيا وعسكريا وابتدعوا له اصطلاح الشرق الادنى وهو القريب منهم ليضم اليونان مع ليبيا ومصر ومنطقة الشام . ثم الشرق الاوسط ليشمل بقية الدول العربية مثل بلاد العرب ومصر والسودان والصومال وبلاد الشام ويضم اليها كلا من تركيا وايران ... وهي مصطلحات قصد بها تمزيق الوطن العربي وجر ذيول النسيان على معنى المشرق العربي واستبداله بمصطلح الشرق الاوسط .

ومهما كان الأمر فأرض العرب هي اليوم نفسها أرضهم بالامس . وهي أرض متصلة محددة تحديدا طبيعيا وبشريا في غاية الوضوح ــ كما سنرى ، بحيث لا يختلف فيها اثنان ، بمآذن مساجدها في كل مكان وبترديد اللغة العربية على كل لسان . ومنذ عشرات القرون من الزمان . وقد يتساءل بعضنا هل يحق لنا ان نطلق على هذه الارض اسم الوطن العربي او اسم العالم العربي ! ذلك ان الانتماء والسلوك يختلف كثيرا في الحالين ! وفي الواقع اننا نجد هذه الارض وطنا لنا جميعا على المستوى الفردي والجماهيري ، وفي نفس الوقت نجدها عالما على مستوى الدول والحكومات . وهذا هو الحرج الذي نعانيه ــ والذي حتما سيزول قريبا ..

أولا : امتداد الوطن العربي

تنفرد أرض الوطن العربي بين كل أجزاء هذا الكوكب بقدر كبير من التجانس ومن التدرج في الظروف الطبيعية والبشرية قل أن يتكرر في أرض أخرى . وقد إمتد في الماضي عبر ثلاث قارات يوم أن كان يمتلك الاندلس ، ولكنه إنحسر اليوم في افريقيا وآسيا . وهو يتكون من مستطيل هلالي الشكل تقريبا فيما بين الخليج والبحر العربي شرقا ، والمحيط الاطلسي غربا وهي مسافة تزيد على الستة آلاف كيلومتر . أي أطول قليلا من سُبع طول محيط الكرة الارضي الاستوائي (٤٠,٠٠٠ كم) وبينما يقل عرضه في بعض المواقع عن الالف كم ، يزداد في مواقع أخرى إلى نحو ٤٠٠٠ كم .

ويشغل الوطن العربي مساحة تقرب من ١٤ مليون كم٢ اي نحو ٩,٤٪ من مساحة اليابس العالمي ، بينما لا يزيد سكانه عن ٣,٥٪ من سكان العالم[١] . وهو بذلك يلي الاتحاد السوفييتي في المساحة كما يتفوق على مساحة اوروبا كلها وعلى مساحة كل من كندا والصين والولايات المتحدة[٢] .

وتتوزع هذه المساحة بين تسع دول عربية في افريقيا يبلغ مجموع مساحتها ١٠,١٦٢,٠١١ كم٢ . اي بنسبة ٧٢,٨٪ وبين ثلاث عشرة دولة في آسيا تبلغ مساحتها ٣,٨٠٠,٤٢٦ كم٢ اي بنسبة ٢٧,٢٪ وذلك كما يتضح من الجدول رقم (١) .

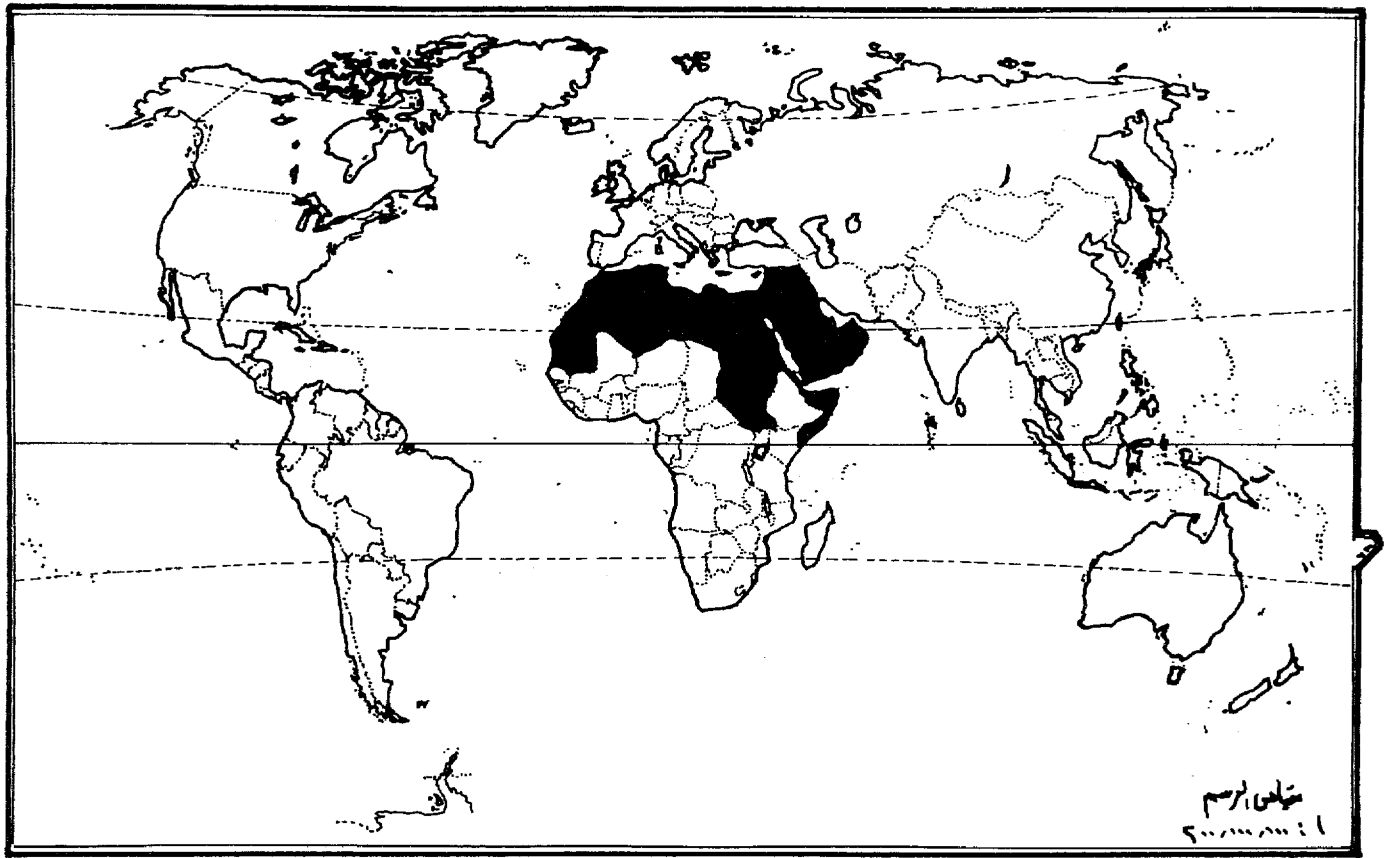
وليس الوطن العربي مجموعة من الجزر تفصل بينها البحار ، كما انه ليس تكوينا شرفيا واقتصاديا كمجموعة الكومنولث البريطانية المتناثرة فوق قارات العالم المختلفة . ولكنه رقعة واحدة متصلة توجزها العبارة البليغة الجامعة المانعة « من المحيط الى الخليج » حتى البحر الفاصل وهو البحر الاحمر يضيق كثيرا بحيث سهل على الناس قديما عبوره ، كما ينقطع عند الشمال ليتصل البر الآسيوي بالافريقي[٣] (أنظر الشكل رقم ١).

---

(١) تبلغ مساحة اليابس العالمي ١٤٨.٧٨٠.٠٠٠ كم٢ وسكانه ٤٥٠٠ مليون نسمة .

(٢) تبلغ مساحة الاتحاد السوفييتي نحو ٢٢.٤ مليون كم٢ وأوروبا ١٠.٥ مليون كم٢ أما كندا فمساحتها ٩.٩٧ مليون كم٢ ، والصين ٩.٥٦ مليون كم٢ ، والولايات المتحدة ٩.٣٦كم٢ .

(٣) يوسف ابو الحجاج (١٩٨١) مساق المجتمع العربي ــ وزارة التربية والتعليم بدولة الامارات العربية المتحدة ص/ ١٠٠ .



(شكل ١)

موقع الوطن العربى

جدول رقم (١)

مساحة دول الوطن العربي – وعدد سكانها مع نسبها المئوية

م	الدولـــــــة	العاصمة	المساحة بالكم٢	النسبة	السكان بالمليون	النسبة ٪
١	الجمهورية العراقية	بغداد	٤٣٨,٤٤٦	٣,٢	١٣	٧,٨
٢	الجمهورية / ع / السورية	دمشق	١٨٥,١٨٠	١,٣	٨	٥
٣	الجمهورية /ع/ اليمنية	صنعاء	٢٠٠,٠٠٠	١,٥	٧	٤,٥
٤	الجمهورية اللبـنانية	بيـروت	١٠,٤٠٠	٠,٠٨	٣	١,٨
٥	المملكة الاردنية	عمـان	٩٥,٣٩٦	٠,٧	٣	١,٨
٦	المملكة /ع/ السعودية	الرياض	٢,١٤٩,٦٩٠	١٥,٦	٩	٥,٤
٧	دولة البحرين	المنامة	٦٦٣	٠,٠٠٥	٠,٣	٠,٢
٨	دولة قطـر	الدوحة	١٠,٣٦٠	٠,٠٨	٠,٢	٠,١
٩	جمهورية اليمن /د/ش	عـدن	٢٨٧,٦٨٣	٢	٢	١,٢
١٠	دولة الامارات /ع/م/	ابوظبي	٧٧,٧٠٠	٠,٦	١	٠,٦
١١	دولة الكويت	الكويت	١٧,٨١٨	٠,٢	١	٠,٦
١٢	سلطنة عمـان	مسقط	٣٠٠,٠٠٠	٢,٢	١,٥	٠,٩
١٣	فلسطين	القدس	٢٧,٠٩٠	٠,٢	٢	١,٢
	مجموع دول آسيا		٣,٨٠٠,٤٢٦	٪ ٢٧,٢	٥١	٪ ٣١
١	الجماهيرية/ع/ الليبية	طرابلس	١,٧٥٩,٥٠٠	١٢,٦	٣	١,٨
٢	الجمهورية التونسية	تونس	١٦٤,١٥٠	١,٢	٦	٣,٦
٣	الجمهورية الجزائرية	الجزائر	٢,٣٨١,٧٤٢	١٧	١٧	١٠,٣
٤	المملكة المغربية	الرباط	٤٥٩,٠٠٠	٣,٣	١٩	١١,٥
٥	جمهورية السودان / د	الخرطوم	٢,٥٠٥,٨١٣	١٨	١٨	١٠,٩
٦	جمهورية الصومال	مقديشو	٦٣٧,٦٥٧	٤,٧	٣,٥	٢
٧	جمهورية مصر العربية	القاهرة	١,٠٠١,٤٤٩	٧,٢	٤٥	٢٧,٢
٨	جمهورية موريتانيا	نواكشوط	١,٠٣٠,٧٠٠	٧,٢	١,٥	٠,٩
٩	جيبوتـي	جيبوتي	٢٢,٠٠٠	٠,٢	٠,٣	٠,٢
	الصحراء الغربية**	العيون	٢٠٠,٠٠٠	١,٥	٠,٣	٠,٢
	مجمـــوع دول افريقيا		١٠,٠٦٢,٠١١	٪ ٧٢,٨	١١٤	٪ ٦٩
	مجموع الدول العربية		١٣,٩٦٢,٥٣٧	٪ ١٠٠	١٦٥	٪ ١٠٠

** لا زالت منطقة متنازع عليها بين كل من المملكة المغربية والجزائر وموريتانيا وسكانها الاصليين .

ثانيا ـ حدود الوطن العربي

تتفق معظم حدوده السياسية الحالية مع حدود طبيعية واضحة ، اللهم الا في بعض المواقع . وكما إحتوى في داخل حدوده معظم الناطقين بالعربية ، اللهم إلا بعض الاقليات ذات الالسن غير العربية كما في جنوب السودان والأكراد والأتراك وإن كانت تقيم شعائر الاسلام باللغة العربية ، فانه يفتقد خارجها بعض الأقليات العربية التي إقتطعت منه لصالح الدول المجاورة .

ففي العراق مثلا تبتعد الحدود السياسية في جنوب شرق العراق عن السفوح الغربية لجبال زاغروس وبالتالي يقع كل إقليم عربستان السهلي المتمم لمنطقة شط العرب في داخل الحدود الايرانية ، وهو السبب المباشر (بالاضافة الى أسباب اخرى عميقة) الذي قامت عليه حرب ضروس منذ عدة شهور . والى الشمال من بغداد تتوغل الحدود العراقية في داخل زاغروس ، وبذلك تضمّ جزءا من الشعب الكردي إلى العراق ، تاركة بقية الأكراد في إيران وتركيا .

اما الحدود السورية في الشمال فهي تبتعد كثيرا عن السفوح الجنوبية لجبال طوروس وهضبة الأناضول وبالتالي تترك الى الشمال منها سهلا عربيا بسكانه العرب في داخل تركيا[1] كذلك منحت فرنسا (التي لا تمتلك) لواء الاسكندرونة العربي أرضا وسكانا واقتصادا عام ١٩٣٦ لتركيا (اي لمن لا يستحق) .

وبذلك نستطيع القول بأن سور العرب العظيم يتمثل في جبال زاغروس وطوروس فهما يفصلان العرب عن غيرهم من الأقوام والسلالات .

أما منطقة فلسطين فقد شهدت في هذا القرن أنكى إغتصاب دولي وأخسه ، وتمرد على أرضها سرطان صهيوني مخيف شوه كل الحدود في المنطقة كما تعمل فلسفة الأمن الاسرائيلي والتوسع الجيوبولتيكي على عدم إستقرار الحدود السياسية وتعرضها للتغيير من حرب لاخرى؛ الأمر الذي يستدعي حسما سريعا لهذا الدخيل واحتوائه بالكامل بكل السبل المتاحة والممكنة .

وأما بقية الحدود لشبه الجزيرة العربية فهي حدود بحرية طبيعية متمثلة في مياه الخليج العربي والبحر العربي والبحر الأحمر . وقد نظمتها عدة

(١) د. محمود طه ابو العلا (١٩٧٧ ط ٢) جغرافية العالم العربي . مكتبة الانجلو المصرية ـ القاهرة ص٢٧ .

إتفاقيات بين دول المنطقة.وقد حصلت دول الخليج العربي في هذه الاتفاقيات على معظم مياه الخليج العربي . أما في البحر الاحمر فلأنه بحيرة عربية بالكامل فلا توجد مشكلات على الحدود البحرية بين دوله كما تنعدم في البحر العربي لاتساعه ، هذا وقد لعبت مياه هذه البحار الثلاثة أدواراً كبيرة في نشاط المنطقة الإقتصادي والعمراني والسياسي .

هذا وتبلغ أطوال سواحل شبه الجزيرة العربية ٧٥١٥ كم على النحو التالي :

١ ــ ٢١٦٣ كم تمثل طول ساحل الخليج العربي بواقع ١٩ كم للعراق عند رأس الخليج ثم ٢١٣ كم للكويت و ١٢٦ كم للبحرين و ٣٧٨كم لقطر و ٥٤٩ كم للمملكة العربية السعودية و ٧٧٨ كم لدولة الامارات العربية المتحدة ثم ١٠٠ كم لعمان (يبلغ طول الساحل الايراني المقابل ١١٧٧كم) .

وتحتل مساحة الخليج العربي ٢٤٨,٠٠٠كم٢ وحجم مياهــه ٨٥٠٠٠ كم٢ ويتراوح عرضه ما بين ٢٠٠ ــ ٣٠٠ كم وإن ضاق عند مضيق هرمز إلى ٦٠ كم فقط . كما يتصل متوسط عمق المياه بالقرب من الساحل العربي ١٨ مترا ومن الساحل الايراني ٣٠ مترا وعند مضيق هرمز ١٤٥ مترا . وتكثر على ساحله العربي الجزر الرسوبية والقبابية المحلية . وتمتلك دولة الامارات العربية المتحدة وحدها منها مائتي جزيرة . ويشغل هذا البحر الداخلي الرصيف القاري لشبه الجزيرة العربية وكان في الماضي الجيولوجي السحيق مقبرة لملايين الأطنان من الكائنات البحرية المختلفة التي تحولت فيما بعد بفعل الضغط والحرارة إلى النفط فضلا عن أن ضحالة مياهه حاليا تمثل بيئة نموذجية عالمية لنمو اللؤلؤ ولتكاثر الاسماك .

٢ ــ ٢٩٧٢ كم تمتد على طول خليج عمان وبحر العرب منها ١٦٠ كم لسواحل دولة الامارات ثم ١٦٠٠كم لسلطنة عمان ثم ١٢١٢ كم لجمهورية اليمن الديموقراطية . وبحر العرب هو جزء مباشر من المحيط الهندي ويتميز ساحله العماني باتساع رصيفه القاري الذي لا يزيد عمق الماء فيه عن ٢٠٠ متراً ومن ثم بغناه في الأسماك . بينما يضيق هذا الرصيف عند الساحل اليمني وتقترب منه كثيرا المياه العميقة . وعندما تتحدد دوليا

المياه الاقتصادية بمائتي ميلا بحرياً (٣٧٠كم) فلن يستفيد من ذلك من دول شبه الجزيرة العربية إلا عمان واليمن الجنوبي .

٣ ــ وأخيرا يمتد الساحل ٢٣٨٠ كم على الجانب الأسيوي للبحر الأحمر بواقع ٤٥٢ كم لجمهورية اليمن العربية و ١٨٩٠كم للسعودية ثم ٣٨كم للأردن وأخيراً ٧ كم لفلسطين على رأس خليج العقبة . (يقابل ذلك على الجانب الافريقي للبحر الاحمر ٣٣٩٩ كم منها ١٤٢٥ كم لمصر و ٧١٧ كم للسودان ثم ١٠١٢ كم لاريتريا وأخيرا ٢٤٥ كم لجيبوتي) . ويشغل البحر الأحمر نفسه ٤٥٥٦٨٠ كم٢ ويبلغ طوله من باب المندب حتى رأس سيناء ١٨٧٥كم ومتوسط عرضه ٢٠٠ كم مع أقصى إتساع له ٣٦٠ كم وأقله ٢٣ كم عند مضيق باب المندب . ويزيد عمق بعض قيعانه عن ٢٠٠٠م . وقد إزدادت أهميته كثيرا بعد حفر قناة السويس ومن ثم إزدادت أهميته الملاحية محليا وعالميا .

أما الحدود السياسية في أفريقيا فيتمشى معظمها بالكاد مع حدود طبيعية مثل الحدود البحرية في البحرين الأحمر والمتوسط ثم المحيط الاطلسي ، أما الحدود الجنوبية فإعتبارا من موريتانيا حتى السودان تعتبر حدودا إصطناعية تعسفية فرضها المستعمر فرضا لتحقيق مصالحه الخاصة ولاثارة المشكلات والخصومات على طولها .

فظروف السطح والمناخ بل والناس والاقتصاد متشابهة على طول الحدود إلى حد كبير بحيث يمكن أن تقع إلى الشمال أو إلى الجنوب من الحالية دون ما خسارة كبيرة على طرفيها لا في الأرض ولا في الموارد .

وعلى كل حال فهذه الحدود في قلب الصحراء يمكن إعتبارها حدودا جغرافية فاصلة واضحة حيث تفصل سلالات البحر المتوسط في شمالها عن السلالات الزنجية في جنوبها بل إن دعاة التمييز العنصري يعتمدون عليها في تقسيم القارة إلى قسمين : « أفريقيا البيضاء في شمالها وافريقيا السوداء الى الجنوب منها » ، (انظر الشكل رقم « ١ ») .

فاذا ما وصلنا إلى السودان فان حدوده الجنوبية الغربية تلتزم بخط تقسيم المياه بين منابع النيل ومنابع الكونغو . أما حدوده مع أوغندا فترسمها مرتفعات الأنشولي التي ترتفع بعض قممها الى ٣١٨٧ مترا في أقصى الغرب

ومرتفعات الأيماتونج في الشرق وهي من الصخور الأركية القديمة . فاذا تجاور السودان مع إثيوبيا فان الحدود بينهما تلتزم بحواف الهضبة الحبشية إلى أن تصل إلى ساحل البحر الأحمر مع إرتيريا . وبذلك يبدو جنوب السودان كمنخفض حوضى تحيط به المرتفعات من جميع الاتجاهات .

أما الحدود في الصومال فلم تسلم من الأذى والنهب والتكالب الاوروبي عليها . فقد إنتزعت منه أطرافه الغربية المختلفة في هود وأوجادين وسلمته هدية للأحباش ، كما أهدت الادارة الانجليزية المنطقة الواقعة بين نهري جوبا وتانا الى كينيا . اي ان حدوده البرية لا تضم كل الشعب الصومالي . الأمر الذي يزيد التوتر في منطقة القرن الافريقي . ثم يتصل الصومال بجيبوتي شمالا وهذه بأرتيريا العربية ولا يفصل هذا كله عن السودان في الغرب الا هضبة الحبشة مسببة شذوذا في المنطقة وإنقطاعا عن الجسم العربي الكبير في افريقيا هو نقطة الضعف فيه . ولو إحتوته المنطقة العربية مستقبلا لأصبح الشمال الافريقي كتلة عربية متكاملة .

ورغم نقط الضعف في بعض الحدود الخارجية للوطن العربي إلا أن تمشي معظمها مع حدود طبيعية من شأنه ان يحدد معالم هذا الوطن ويكفل له الاستقرار والأمن(١) . ومما يزيده إستقرارا إحاطته بدول إسلامية كثيرة صديقة حتى يتفرغ أهله للرسالة وللتحضر وللتنمية . وهو وضع جغرافي لا يتميز به أي موضع آخر في هذه الأرض . فضلا من الله ونعمة .

اما الحدود الداخلية بين مختلف دوله فهي وليدة هذا القرن ولعب فيها الإستعمار كثيرا . فلقد كان وطننا كله تحت الحكم العثماني لا تفصله حدود إدارية ولا سياسية ولم توجد أصلا به مشكلات على الحدود بين شعوبه . فلما إقتسم الاوروبيون الدولة العثمانية التي سموها بالرجل المريض وخضع العرب للإستعمار بدأ في رسم مستعمراته متتبعا بعض الظاهرات الجغرافية وما أقلها ، ومتعسفا في فرضها في أغلبها . بل كانت شركات البترول وغيرها هي التي ترسم الحدود السياسية بين دول شبه جزيرة العرب وفق إمتيازاتها ومصالحها الخاصة . وكثير من هذه الحدود فلكي محض وخطوط مستقيمة . وبمرور الزمن نجحت الحدود المخلوقة والمفروضة في تمزيق الصف العربي وفي تقوقع الشعوبيات الضئيلة في داخلها بل وتحجرها أحيانا ومن ثم الى صعوبة

---

(١) محمد صبحي عبدالحكيم وآخرون / ١٩٨٠ ط ٣/ الوطن العربي ارضه ، سكانه ، موارده . مكتبة الانجلو المصرية ــ القاهرة ص ٥ ــ ٨ .

تحقيق الإنتماء العربي لكل الأرض العربية . وهي أقصى ما خطـط له المستعمرون من إجهاض للمنطقة ومن إستنزاف لمصيرها ولمواردها . ومن ثم تحول الوطن العربي الى العالم العربي الذي نعيشه اليوم(١) ولكننا في داخل هذه الحدود لا زلنا نملك حق التصرف وحق تغيير المعالم الداخلية وحرية الحركة والمصير . ويمكن أن تتحول الحدود من معنى المعتقل إلى معنى الرمزية والإستقلال لتكون أحد مقومات قوة العرب ووحدتهم . فالحدود الداخلية بين أقطار الأمة العربية لا ينبغي أن تقطع ما أمر الله به أن يوصل ولا أن تفسد الوحدة الأصيلة العريقة التي عاشها كل العرب منذ فجر الاسلام إلى أن لوثها الإستعمار الصليبي الحديث .

ثالثا : موقع الوطن العربي

أولا : الموقع الفلكي :

يمتد الوطن العربي فلكيا بين دائرتي العرض٢ ° جنوب خط الإستواء حيث جنوب الصومال و ٢٠ ـ ٣٧ ° شمال خط الإستواء حيث حدود كل من سوريا والعراق كما يمتد بين خطوط الطول ١٧ ° غربا عند أنوادبيو بموريتانيا و ٦٠° شرقا عند بلدة الحد بعمان وبذلك يشمل كل شمال أفريقيا وجزءا من شرقها ووسطها ثم جنوب غرب افريقيا .

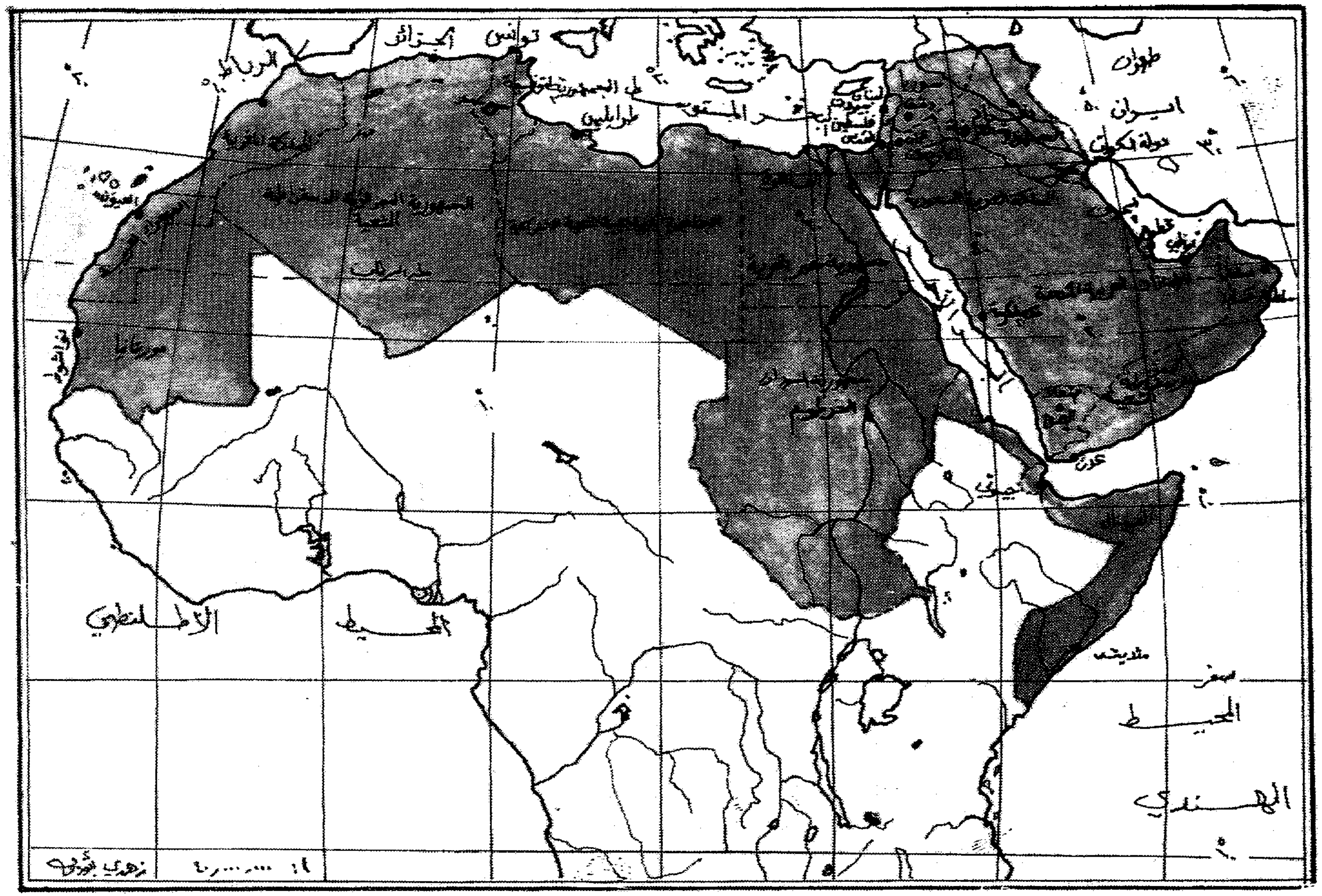
ثانيا : الموقع الجغرافي :

كما تتشكل السوائل في الأوعية التي تحويها فكذلك يتشكل موقع الوطن العربي بالعلاقات المكانية والضوابط الجغرافية المحيطة به والمؤثرة فيه . فهو بموقعه الفلكي المداري وشبه المداري عرضة لهذه الانواع المناخية . ثم هو بنفس الموقع يحتل وسط العالم القديم وينطبق عليه بعض معنى الآية الكريمة « وكذلك جعلناكم أمة وسطا » . فالعالم قديما لم يكن معروفا منه إلا سواحله المطلة على البحر المتوسط والبحر الأحمر والمحيط الهندي وبعض سواحل الصين . ولم يكن شمال أوراسيا ولا غرب وجنوب افريقيا معلوما . ناهيك عن العالم الجديد .

ومن ثم كان الموقع البري المتوسط لبلاد العرب على درجة كبيرة من الأهمية في ذلك الزمان . كما يتحكم الموقع في ثلاثة شرايين هامة للملاحة

---

(١) د. طه عبدالعليم رضوان / ١٩٨٠ / في جغرافية العالم الاسلامي ـ دار الكتاب الجامعي القاهرة ص ٤٠



(شكل ٢)

اقطار الوطن العربي

العالمية وهي البحر المتوسط والاحمر والخليج العربي . أنظر الشكل رقم (٢) .

بالاضافة الى إطلاله على كل من المحيطين الاطلسي والهندي . وتزداد أهمية هذا الموقع البحري بإمتلاكه لمخارج هذه البحار متمثلة في مضيق جبل طارق بموقع طنجة ثم برزخ السويس فباب المندب فمضيق هرمز . كما تزداد أهميته بفضل سهولة إتصال العمق الأرضي بالبحار المحيطة وعدم وجود حواجز جبلية تعيق الحركة بينهما ، هذا بالاضافة إلى نقص الموارد الداخلية في بعض المواقع مما دفع سكانها الى ركوب البحر لكسب الرزق ، ومن ثم الإتصال بالعالم الخارجي وكسب مهارة الإتجاهات العالمية والتفتح على الغير . وهي بحار دفيئة صالحة للملاحة طول العالم ، وتقل بها الأنواء الخطيرة على الملاحة .

أي ان الوطن العربي قوة برية مائية معا وسكانه كما هم حلفاء البحر وملاحوه فهم سادة الارض وطرقها التجارية . ومن زمن بعيد .

ولا تقل أهميته اليوم في الملاحة الجوية لصفاء سمائه واعتدال ريحه عن مميزاته الأخرى حيث تعتمد على مطاراته الهامة مثل القاهرة ودمشق وبيروت والرياض ودبي وأبوظبي والكويت خطوط الطيران العالمية في الطيران من الشرق الى الغرب او من الشمال الى الجنوب .

أهمية موقع الوطن العربي :

إنه نعمة ونقمة في آن واحد . هو نعمة للعرب إن أحسنوا السيادة فيه والقيام عليه . وهو نقمة عليهم إن وهنت منهم العزائم ومزقتهم مخالب القوى الاجنبية . وهو الذي تؤكده أحداث اليوم بحيث تسلب المصالح الاجنبية والمتضاربة مواهب الموقع العامة . صحيح تتميز بعض المواضع فيه بأهمية خاصة الا أن أياً منها لا يمثل أهمية الموقع العام ككل . فموقع الوطن العربي هو محصلة جغرافية لعدة ظروف ولكل إمتداده الحالي ولا ترجع أهميته الى قطر واحد بعينه او الى موقع خاص فيه . ولقد تعددت وظائف هذا الموقع الفريد وتنوعت عبر العصور وشهدت أراضيه الكثير من التطورات والأحداث الايجابي منها والسلبي وترك كل ذلك بصمات واضحة على شعوبه ، على النحو الآتي :

اولا : الوظيفة التجارية للوطن العربي :

على الرغم من عدم وُفاء الإنتاج الزراعي اليوم بحاجات العــرب ومتطلباتهم بالاضافة إلى تشابهه بين معظم دول الوطن العربي ، إلا أنه لم يكن كذلك في الماضي عندما كان يوجد فائض كبير يجد طريقه الى الخارج وإستبداله بما ينقص الوطن العربي . كذلك قام هذا الوطن بدور الوساطة التجارية بين آسيا الموسمية وأوروبا الجنوبية « البحرسطية » والغربية المحيطية . فقد جاب العرب بحار الصين وأرخبيل الملايو واندونيسيا قبل ظهور الاسلام وتاجروا مع سفالة الزنج « موزمبيق » حاليا ومدغشقر وشرق افريقيا . بل إن أكواخ إقليم عسير المصنوعة منَ القش والطين وكذلك ما يزرعه من الموز والذرة والتمر والزراعة المتنقلة التي يمارسها أهله كلها تؤكد صلته القديمة بشرق افريقيا لتشابه هذه الأنشطة بينهما(١) .

وبذلك قام موقع العالم العربي بهمزة الوصل بين الشرق والغرب تجاريا وحضاريا . ذلك أن جميع الطرق التي كانت تربط آسيا واوروبا لا تعدو ان تكون إحدى ثلاث طرق هامة هي :

١ ــ الطريق الشمالي :

ويبدأ من بحر إيجه ليتبع ساحل البحر الأسود في آسيا الصغرى الى بحر قزوين ثم وسط آسيا حتى الصين ، إما عن طريق الحرير الجنوبي الذي يتبع آموداريا (جيحون) فشمال عقدة بامير ، حتى ممر تيرك فمدينة كشغر على نهر تاريم في صحراء تكلا مكان ثم شمال جبال التاين تاغ فجبال تيان شان حتى ارض الصين الام عبر نهر الهوانج . وإما عن طريق نهر سرداريا (سيحون) فمدينة كوكندا باقليم فرغانة ثم جبال تيان شان فممر زُونجاريا ثم صحراء جوبي فمدينة بكين(٢) .

---

(1) Fisher W.B. (1961) "The Middle East" London. P. 454.

(٢) د. طه عبدالعليم رضوان ــ المرجع السابق ص٣٣ .

٢ ـ الطريق الاوسط والطريق الشامي :

ويبدأ من الساحل الشرقي للبحر المتوسط ليعبر بلاد الشام والعراق ثم يواصل الإتجاه شرقا الى أواسط آسيا او جنوبا الى الهند . وكانت معظم الطرق تتجمع في بغداد في عهد الزهو الاسلامي . كما كانت حلب وحماه وحمص محطات قوافل هامة على الطريق لها أهميتها . كما كانت التجارة كثيرا ما تتبع طريق الخليج العربي باب الشرق السحري والذي شهدت سواحله الكثير من ميلاد المراكز التجارية بين الحين والآخر ثم موتها عندما تتحول التجارة الى شقيقه الى الغرب منه وهو البحر الأحمر فيرحل إليه التجار الأثرياء تاركين الفقراء على أرض الخليج يتناطحون من أجل البقاء إلى أن يشرق عليهم مركز تجاري جديد فتدب الحياة مرة أخرى على السواحل . وبينما تنعي خرائب هرمز وسيراف ولنجة على الجانب الايراني من بناها،إنبعثت الحياة في تيريدوس وتيلوس وان كانت تحت أسماء جديدة هي البصرة والبحرين(١) .

هذا ولم يجد الذين عاشوا على سواحل الخليج في الماضي تجاوبا من البيئة البرية ، كما لم توفر لهم الطعام أو المرعى والوفرة المطلوبة منهما . فغاصوا في مياه الخليج بحثا عن اللؤلؤ والأسماك من ناحية كما ركبوه من أجل التجارة من ناحية اخرى . فموقع الخليج العربي في وسط العالم القديم وكذراع بحري هام للمحيط الهندي متوغلا في يابس جنوب غرب آسيا وفي إتجاه شمالي غربي من شأنه أن يقرب المسافة بين منطقة جنوب آسيا المدارية الانتاج وبلاد البحر المتوسط بصناعاتها ومنتجاتها المختلفة . كما إلتقت عند رأسه القوافل البرية القادمة من الصين ووسط آسيا ، أو القادمة من جنوب شبه الجزيرة العربية والمتجهة إلى سواحل الشام . الأمر الذي دعم وساطته التجارية بين كل هذه الأقاليم . كما أن وقوعه بين العديد من المراكز الحضارية المجاورة جعله شديد الإحتكاك بسكانها وتلبيته حاجات المترفين منهم من المنتجات التي خف وزنها وغلا ثمنها من التوابل والحرائر والبخور والمرمر والعاج والحلي والأسلحة . فقد كان يتوسط الحضارات السندية بباكستان والسومرية والبابلية بالعراق الجنوبي والفرعونية بمصر والاغريقية بكريت واليونان(٢) . فلما جاء الاسلام

---

(١) محمد متولي (١٩٧٨ الجزء الاول) حوض الخليج العربي ـ مكتبة الانجلو المصرية ـ القاهرة ص١٦ ـ ١٧ .

(٢) محمد متولي ، ومحمود ابوالعلا (١٩٨٢) جغرافية الخليج ـ مكتبة الفلاح بالكويت ص١٥ ـ ١٦ .

واصبحت المنطقة مصدرا للحضارة إلى العالم كله رشحته كل هذه المؤهلات لحمل الحضارة الإسلامية في كل إتجاه . سواء الإنتشار البري لها او البحري .

كذلك إستفاد ملاحو هذا الخليج مع آهالي خليج عمان ومنذ أقدم العصور من نظام الرياح الموسمية . فكانوا يبحرون معها شرقا إلى الهند في الصيف وغربا إلى شرق أفريقيا في الشتاء . فكانوا بذلك بنادقة المحيط الهندي وفينيقيوه .

كما كان الخليج العربي يفضل طريق البحر الأحمر في الملاحة بين الهند وسواحل البحر المتوسط لقلة حواجزه المرجانية وقلة أعاصيره . ولم يكن يقلل من قيمته الملاحية إلا طول مرحلته البرية خاصة في عصر دواب الحمل .

لهذه المزايا جميعها ولغيرها سارعت الدول الأوروبية بعد عصر النهضة وفي فترة الضعف العام الذي إنتاب العالم الإسلامي إلى التكالب على منطقة الخليج ، إلى أن نجح الانجليز في مطلع القرن ١٩ في إبعاد كل المنافسين عنه لينفردوا به إقتصاديا وسياسيا وعسكريا . وحتى عقدين فقط مضيا من الزمن .

وقد تركت هذه الظروف الطبيعية بصماتها على حياة السكان ودورهم الحضاري . فعندما كان برهم بيئة طرد سكاني ولا تسمح موارده وخيراته بالإستقرار الطويل ولأعداد كبيرة من السكان كان البحر رحيما بهم فمنحهم جوفه الخيرات وسهلت مياهه لهم سبل التجارة فنجحوا في ذلك في حين فشل نظراؤهم على الجانب الفارسي المقابل مما يؤكد قدرة العرب ومهارتهم . كما أهلهم حبهم للنشاط وللحركة ومعرفتهم بالأقاليم القريبة والبعيدة على نشر حركة المد الإسلامي في المشرق الآسيوي برا وبحرا .

وإن إتهم البعض بأن الخليج العربي قد فصل بين مجموعتين من المسلمين ، مجموعة عربية سنية في غربه واخرى غير عربية وشيعية وذات نحل مختلفة في شرقه . فها هي كنوزه الجيولوجية اليوم قد جعلته درة نفيسة في المشرق العربي وحققت له الكثير من المعجزات والانجازات العمرانية والتنموية وحولته الى منطقة جذب سكاني من الدرجة الاولى وتدفقت عليه الهجرات البشرية من كل حدب وصوب ... هذه الفرصة المتاحة هي التحدي الحقيقي لشعب الخليج في إعادة نشره للإسلام وتعريبه للجماعات التي حلت به وفتح المراكز العربية في بلادها الأصلية لنشر موجة جديدة من الإسلام والتعريب .

٣ ـ الطريق الجنوبي او المصري :

وهو برمائي حيث إستخدم النيل حتى القلزم (السويس) أوحتى قنا ثم تستخدم الجمال لعبور الصحراء الشرقية من وادي قنا الى القصير على البحر الأحمر ومنه إلى المحيط الهندي[١] وان كان البحر الأحمر أقل إستخداما في الماضي لكثرة حواجزه المرجانية وارتفاع درجة حرارته طفيفا مع الرطوبة العالية بالاضافة إلى تعرضه الى هبوب عواصف من الشمال[٢] . ولكن يقلل من هذه المساوىء قصر المرحلة البرية التي تقطعها التجارة من رأس خليج السويس حتى ساحل البحر المتوسط وهي المسافة التي ترجحه بريا عن شقيقه طريق الخليج العربي .

كانت هذه هي الطرق التجارية الرئيسية والدولية بين الشرق والغرب إلى أن ضاقت أوروبا ذرعا بالعرب وبالمسلمين فاكتشفت طريق رأس الرجاء الصالح بالدوران حول أفريقيا الجنوبية ومن ثم جمدت أهمية الموقع الجغرافي وأفلست الكثير من موانيه على البحار الثلاث المطروقة وحولتها إلى بحار من الدرجة الثانية بل ومحلية فقط ، وإنتقلت الأهمية العالمية في الملاحة إلى المحيط الأطلسي ، ولم يسترد موقع العالم العربي أهميته التجارية مرة أخرى الا بعد حفر قناة السويس التي أعادت الحياة والحركة لكل موانىء البحار المتصلة بها . ومرة أخرى بعد سيادة عصر الطيران إرتفعت اسهم مطاراته محليا ودوليا ولم يعد هناك غنى عنها .

ثم لما ظهر البترول إخترقت خطوط أنابيبه البلاد العربية لتصل إلى موانىء التصدير مثل خطوط العراق الى سوريا ولبنان ، وخطوط التبلاين السعودي الى لبنان وخط سوميد المصري فيما بين السويس وغرب الاسكندرية . وهكذا تفرض الوظيفة التجارية للموقع وجودها في كل العصور سواء كان الموقع ممرا لها أو وسيطا لنقلها أو قدّم فائضه للتبادل التجاري .

---

(١) محمد محمود الصياد وآخرون ١٩٧٠ « المجتمع العربي » دار النهضة المصرية ص ٢٩ ـ ٣٠ .

(٢) محمد عبدالغني سعودي ١٩٧٥ « الوطن العربي » المكتبة النموذجية القاهرة ص٧ .

ثانيا : الأهمية الدينية والحضارية لموقع الوطن العربي :

لقد كانت شبه جزيرة العرب كريمة إلى أبعد الحدود طوال تاريخها . فهي لم تقدم للبشرية الأديان السماوية فحسب والتي توالى ظهورها في عدة مواقع من أرضها ولكنها أنتجت كذلك الكثير من الحضارات في مصر والعراق واليمن والشام ، كما أخرجت الكثير من الهجرات البشرية لتعمير الجهات القريبة والبعيدة على السواء . وهي هجرات سلمية معمرة وان لم يحفظ التاريخ المدون الا القليل منها . ولا شك أن هذه الهجرات قد أدت الى زيادة التجانس العرقي لسكان الوطن العربي .

فمن المسلمات أن شمال شبه الجزيرة العربية كان الموطن الأصلي للعناصر السامية والتي تعتبر من شعوب البحر المتوسط . وهذه الأخيرة تنتمي إلى الجنس الابيض او القوقازي .

وقد دفعت شبه الجزيرة أعداداً كبيرة منهم على فترات متقطعة من الزمن إلى الهوامش الغنية المحيطة بهم . فخرجت إلى العراق في منتصف الألف الرابعة ق.م هجرة عربية سامية إختلطت مع السامريين وتكونت منها الحضارة البابلية . ثم تبعتها هجرات أخرى من الآشوريين والاكاديين ثم الكلدانيين . فكونت الاكادية مع السومريين الحضارة السومرية الاكادية . وفي حوالي ٢٥٠٠ سنة ق.م خرج الأموريون الى أراضي الرافدين والكنعانيون الى غربي الهلال الخصيب ، ثم الفينيقيون الى فلسطين والآراميون الى سهل البقاع . وبينما سادت اللغة العربية العبرانية فلسطين حتى قبيل ظهور المسيح سادت الآرامية بحروفها الابجدية المنطقة حتى ظهور الاسلام . كما خرج الأنباط الى سيناء في حوالي عام ٥٠٠ ق.م وأخيرا فتح الاسلام في القرن السابع الميلادي الأبواب كلها لأكبر الحركات البشرية للتعارف وللتمازج وحتى اليوم . وخرجت كثير من البطون العربية لتختلط بأهل الأمصار المفتوحة فازدادت الوحدة الدينية والعرقية تأصلا وروابطا .

ولا زالت المناطق المقدسة تستقبل سنويا الآلاف والملايين إستجابة للغذاء الروحي الذي توجهه لكل العالمين . فهي بذلك المركز الروحي للارض الذي لا يمكن إستبداله او نقله او تجميده . كما أنه لم يكن من المعقول أن تنتشر الأديان إنتشارها الواسع إلا من هذا الموقع المتوسط . اما لو كانت هامشية التواجد في الصين او في امريكا مثلا لتقوقعت هناك ولما سمع بها أحد .

اما الهجرة الفلسطينية الحديثة في الإقليم فهي أكبر الهجرات الإضطرارية في المنطقة لترد إلى الأصل القديم الذي جاءت منه منذ آلاف السنين . وذلك الى حين .

ومن خلال الدين الاسلامي كانت البلاد العربية منارات للعلم وللتقدم لكل العالم . فلما قصّرت في إسلامها الصحيح أصبحت تتسول علومها من الخارج وفقدت مركزها القيادي الإرشادي .

اي ان الوطن العربي اليوم في حالة ردة عن أداء وظيفته الحضارية الإلزامية ، وهي نكسة لا بد ان تجد طريقها للتصحيح قريبا إن شاء الله حتى يعود الفضل إلى أهله ويعاود الوطن بث إشعاعه الحضاري الانساني وما ذلك ببعيد .

ثالثا : الاهمية الاستراتيجية والعسكرية للموقع :

ما اكثر ما سجله التاريخ والأحداث عن القيمة الاستراتيجية للوطن العربي بريا وبحريا قديما وحديثا . فلقد نشأت في القديم الكثير من الإمبراطوريات على أرضه كالفرعونية والبابلية والآشورية والفينيفية وغيرها ، كما نشأت على أطرافه إمبراطوريات كبيرة تصطرع على أرضه كالفارسية والرومانية الى أن إحتوى العرب الإمبراطوريتين معا ونقلوا الصراع خارج هذه الارض ، وفي اوروبا ذاتها .

وفي العصر الحديث وألعاب التوازن الدولي ، تجاهد الكتلتان الاشتراكية والرأسمالية في استمالة بلد من هنا وبلد من هناك للإنحياز الكامل بجانبها ، او منحها مزايا التواجد العسكري في قاعدة بحرية او أرضية أو جوية أو حق المرور عند الحاجة أو على أسوأ الأحوال عدم قيام قواعد عسكرية مضادة على أرضها . وما وجود إسرائيل اليوم إلا إحدى محاولات القوى الأجنبية المستمرة للسيطرة على جزء من هذا الموقع المتوسط الخطير الفريد . وان لم يكن مباشرة فعن طريق هذا الإرهاب الصهيوني .

كذلك عبرته الجيوش المختلفة قاصدة أو متجهة إلى الاقاليم الممتدة على أطرافه كما فعلت غزوة الاسكندر المقدوني قديما . وكما فعلت جيوش الحلفاء والمحور في الحربين العالميتين الاخيرتين . ولذلك فليس غريبا أن تقررت على

ساحته بداية النهايات لهاتين الحربين . من أجل هذا ينبغي التصميم على تحييد الموقع في أي حرب مقبلة تجنبا للاخطار وحفاظا على الارواح والاقطار .

رابعا : الاهمية الاقتصادية للموقع :

كما كان الإقليم في الماضي سلة للخبز وللفواكه وللأقطار المحيطة به فانه اليوم يقدم الذهب الأسود عصب الطاقة الحديثة ، والفوسفات والحديد وغيرهما من الخامات الاولية اللازمة للصناعة . الأمر الذي يجلب اليه جميع المستثمرين والطامعين ويزيد قوة التنافس الأجنبي عليه . ولو حول مادته الحفرية إلى المنتجات الصناعية الحديثة لتضاعفت أرباحه واتسعت أسواقه عما هي عليه لو ظل مصدرا للمادة الخام فقط . كما أنه في المستقبل عندما تتحول الطاقة إلى الشمس سيكون أغنى أقاليم العالم بها لأنه من اكثرها حرارة وطوال العام .

الخلاصة :

هذه هي المواهب العامة لموقع الدول العربية التي يحتاج تفصيلها وتخصيصها إلى دراسات خاصة بكل دولة على حدة . ولكن يكفي القول هنا ان الوطن العربي كان ولا زال معبرا هاما للناس وللأفكار وللجيوش وللتجار بين قارات العالم المختلفة ، وانه كذلك حلقة الوصل بينهما جميعا . وان هذه المواهب تعود بالخير على أهله وقاطنيه وعلى العالم كله في حالة القوة والسيادة فيه . وتعود على الجميع بالأخطار والأضرار في حالة ضعفهم وتعرضهم للغزو الخارجي وزوال الحياد عنه .

فقد جاء الاغريق والرومان طلبا للسلطان وللثراء في أرضه فحققوا ذلك ثم جلوا عنه وجاءه التتار وسرعان ما إبتلعتهم حضارته . وجاءه الأتراك السلاجقة ثم العثمانيون ليقهروه فاذا بهم يستقرون بأرضه ويبنون مجدهم وعزهم عليها ثم يقومون حراسا عليها . وجاهد نابليون في إقامة امبراطورية له فيه ففشل . وجاء الانكليز والفرنسيون والطليان ومزقوه وسرقوه وجعلوا أهله شيعا وأحزابا ولكنهم أخيرا رحلوا الى غير رجعة . وأخيرا جاءت اسرائيل وتعلم تماما ان مصيرها الرحيل طال الزمن أو قصر .

لقد فشل غزاته جميعا لأنهم ارادوا إبتلاعه وتغيير معالمه والتسلط عليه من خارجه ولم يدرك الا القليل منهم أنه الأرض الأم التي تحتضن لتربي وتبتلع لتهضم وتنمو ، وانه مقبرة الغزاة .

لقد إمتص الكثير من الصدمات والضربات وظل هو كما هو . مقدما كل عطاياه وخدماته ومواهبه للجميع مؤديا لوظيفته الجغرافية في كرم وفي شمم وفي إتزان ، فهو مفترق الطرق العالمية وهو كذلك ملتقاها Crossroad وضريبة المحافظة على الموقع النادر حدوثه هي مسؤولية الدول العربية كافة . وعلى قدر تكاتفها وتعاونها يكون مقدار ما تجني من العزة والمنعة وعلى قدر تخاذلها وتمزقها يكون التمزق والهوان للوطن العربي ، وما أعظم الخسارة حين ذاك .

رابعا : البناء الجيولوجي

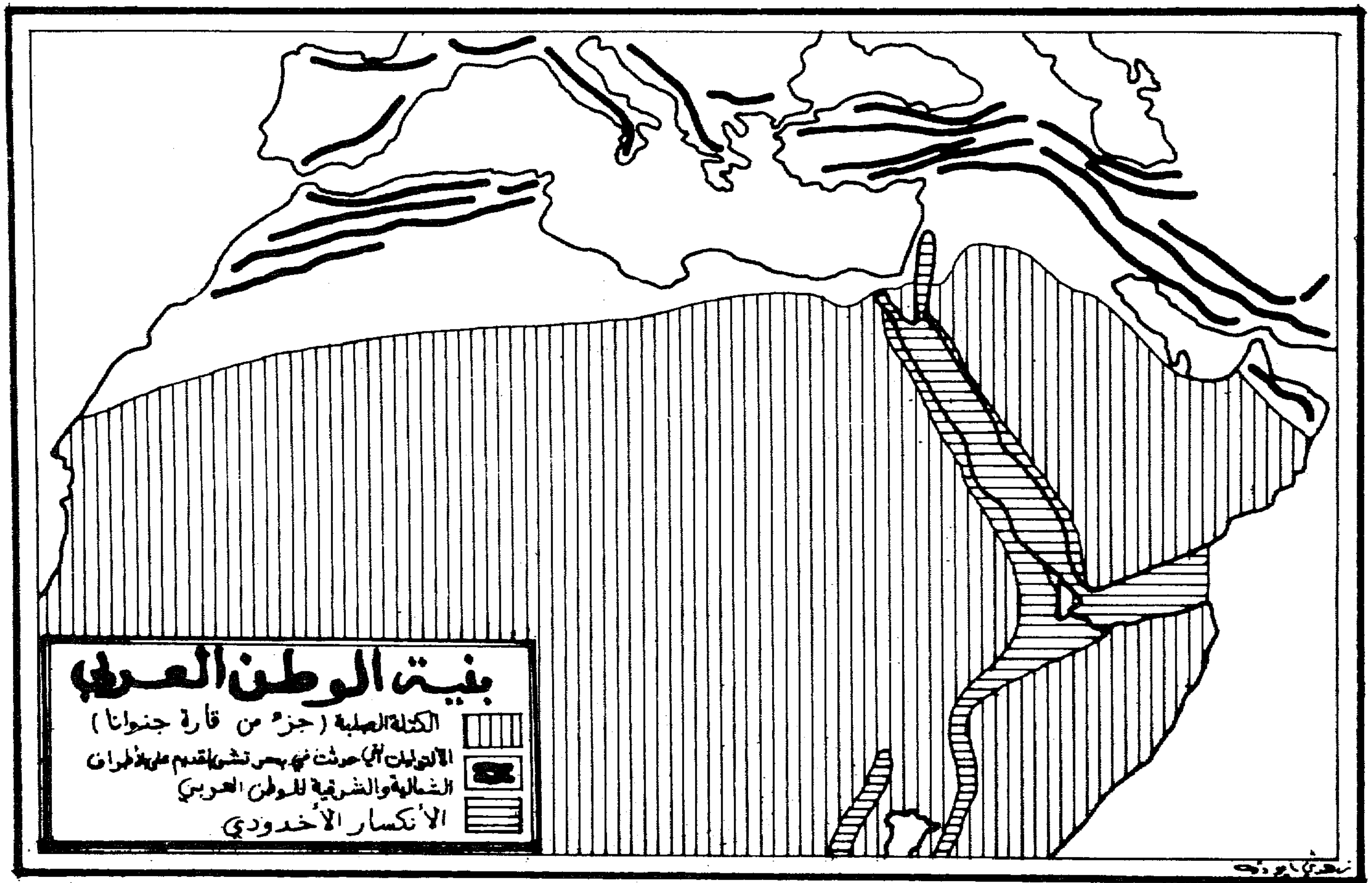
قد يبدو ان لا علاقة بين البناء الجيولوجي للوطن العربي وبين بقية مقوماته الجغرافية ولكن الواقع أن العلاقة بينهما كبيرة وفعالة ، فنحن نعيش على صخوره ، وهذه لها دلالاتها من حيث توزيع التربات والمعادن ومظاهر السطح المختلفة بل وتنوع المناخ وحرف السكان .. الخ .

ويتكون الوطن العربي أساسا من صخور نارية صلبة بلورية غاية في القدم من الجرانيت والبازلت ومن تحول بعضهما إلى صخور النيس والشست على التوالي . وهي صخور تحتوي علي الكثير من المعادن الفلزية كالذهب والفضة والنحاس والحديد والرصاص . وتظهر هذه الصخور في مواقع الجبال القديمة مثل جبال البحر الاحمر على الجانبين وتبستي والأحجار وفي هضاب نجد والحمادة ... ولكن الكثير منها قد أثرت فيه عوامل التعرية وغطته بطبقات متفاوتة في الارسابات المحلية والمنقولة . كما تعرضت أطرافها لطغيان مياه البحار المحيطة ومن ثم تراكمت عليها طبقات رسوبية بحرية مختلفة الأعمار والسمك انظر الشكل رقم (٣ أ ، ٣ ب) .

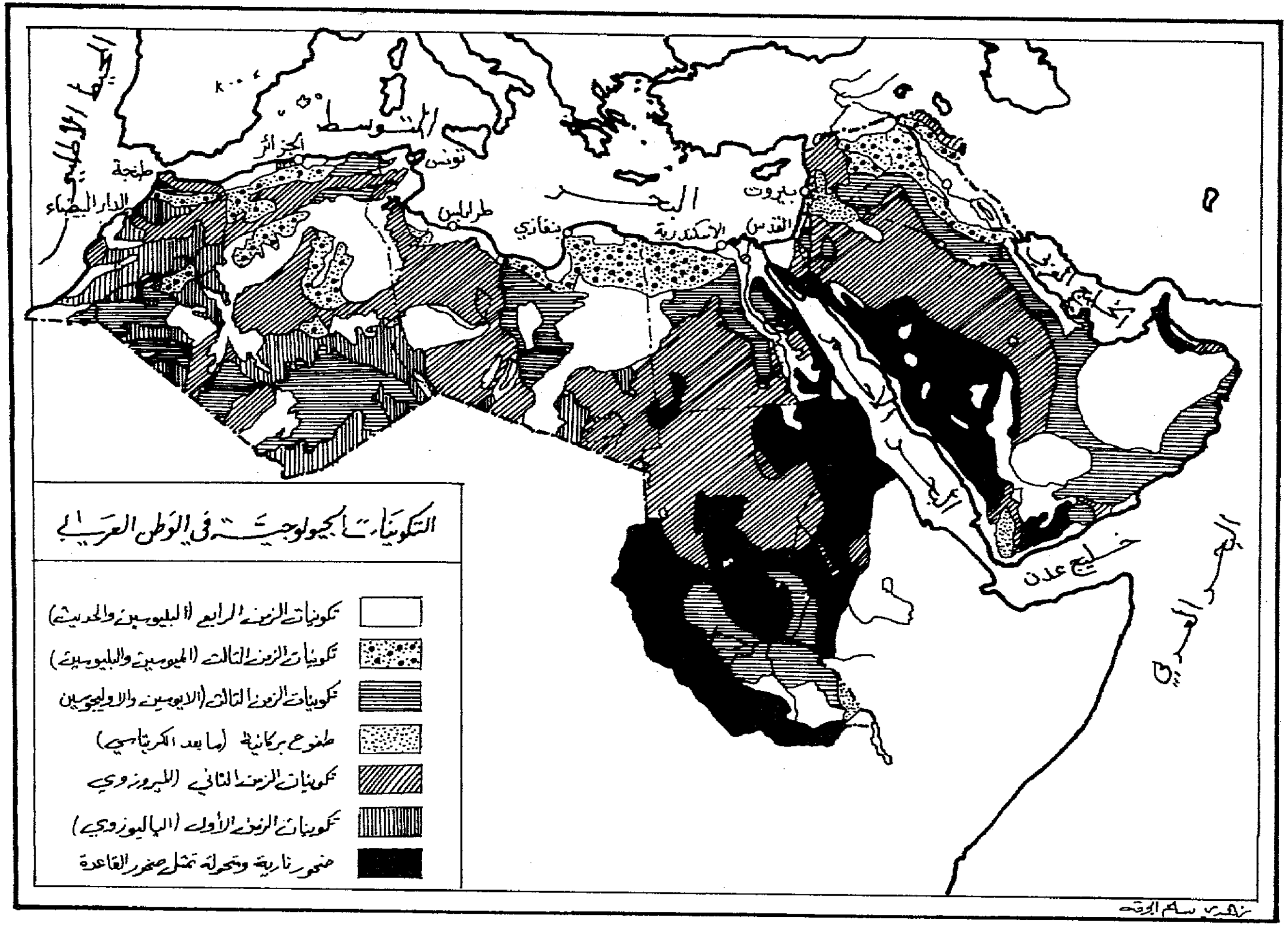
والأمر الذي يلفت النظر ويستدعي التأمل وان لم يرق بعد إلى مستوى الحقيقة العلمية هو إقتصار الوطن العربي اليوم على النواة الام لقارة جندوانا القديمة التي تمثلها الكتلة الافريقية والرصيف العربي الآسيوي . وهي النواة التي تفصلها عن بقية أراضي العالم الاسلامي وغيره الجبال الالتوائية الجديثة التي كانت في يوم من الأيام مناطق الضعف والحركة في القشرة الأرضية ثم إنضمت الى اليابس ، وقد يؤيد هذه العلاقة توقف إنتشار اللغة العربية فيما وراء هذه القضبان وإستمرار إنتشارها في القارة الافريقية حتى اليوم ، حيث الارض المتصلة وجندوانا في كل مكان منها .

خامسا ـ المقومات والمعالم التضاريسية

يعيش معظم الناس حياتهم على سطح الأرض . فعليه يقيمون مساكنهم ويشقون طرقهم ويخططون لمزارعهم ويستخرجون معادنهم بل ويقبرون فيه موتاهم وذواتهم . ومن ثم فهو يلعب دورا كبيرا في تشكيل نمط الحياة المتاح


بنية الوطن العربي
الكتلة الصلبة (جزء من قارة جندوانا)
الالتواءات التي حدثت في بحر تثس القديم على الأطراف الشمالية والشرقية للوطن العربي
الانكسار الأخدودي

شكل رقم (٢٤)



المحيط الأطلسي
البحر المتوسط
الدار البيضاء
طنجة
الجزائر
تونس
طرابلس
بنغازي
الإسكندرية
القدس
بيروت
البحر الأحمر
خليج عدن
البحر العربي
التكوينات الجيولوجية في الوطن العربي
تكوينات الزمن الرابع (البليوستوسين والحديث)
تكوينات الزمن الثالث (الميوسين والبليوسين)
تكوينات الزمن الثالث (الايوسين والاوليجوسين)
طفوح بركانية (ما بعد الكريتاسي)
تكوينات الزمن الثاني (الميزوزوي)
تكوينات الزمن الأول (الباليوزوي)
صخور نارية ومتحولة تمثل صخور القاعدة
زهير سليم الجزيني

(شكل رقم ٣ب)

والممكن في كل موقع . ومع بساطة تضاريس الوطن العربي إلا أنها تحتوي على بعض التناقضات الظاهرة ففيها البحر الميت أكثر منخفضات العالم عمقا حيث ينخفض اكثر من ٣٠٠ متراً تحت سطح البحر ويليه منخفض القطارة . كما فيها بعض القمم المرتفعة التي تزيد عن ٤٠٠٠ متراً مثل قمة طوبقال بالمغرب . وكما تعرضت للعوامل الجيولوجية المختلفة فقد أثرت فيها معظم عوامل التعرية . وهذه صورة سريعة من أشكال هيئة الأرض وما يمكن أن تقدمه كل منها للسكان . شكل رقم (٤) .

أ ـ الجبـــال :

١ ـ جبال البحر الأحمر ، في كل من مصر والسودان ومعظمها من الصخور الأركية القديمة عند هضبتي الجلالة الشمالية والجنوبية ذات الأحجار الجيرية الإيوسينية من الزمن الثالث . ومن أعلى قممها في مصر جبل الشايب شمال سفاجة حيث تزيد على الألفي متراً . وهذه الجبال تمثل الحافة القافزة للأخدود الافريقي العظيم . وبينما تنحدر بشدة نحو البحر تاركة سهلا ساحليا ضيقا وأودية قصيرة عميقة فانها تنحدر بيسر صوب النيل وتقطعها أودية طويلة تجري بالمياه أحيانا وتمثل مناطق الرعي والقوافل الرئيسية في صحراء مصر الشرقية . ومن أمثلتها وادى العلاقي والحمامات وقنا . وتواصل الجبال إمتدادها في شمال شرق السودان وبنفس الخواص تقريبا . وكثيرا ما تستخدم بعض مرتفعاتها كمصيف للسودانيين . كما أن سهلها الساحلي يختلف ضيقا وإتساعا تبعا لإنحدار الجبال نفسها . وتتكون رواسبه مما تحمله الأودية الجافة ومن تكوينات الجير والجبس البحرية ومما تحمله الأمواج من رمال وما خلفه النشاط المرجاني من صخور عندما كان منسوب مياه البحر الأحمر أعلى مما عليه اليوم . وتقوم الزراعة والمراعي على الأمطار القليلة التي قد تتساقط شتاء هنا بجانب الصيف .

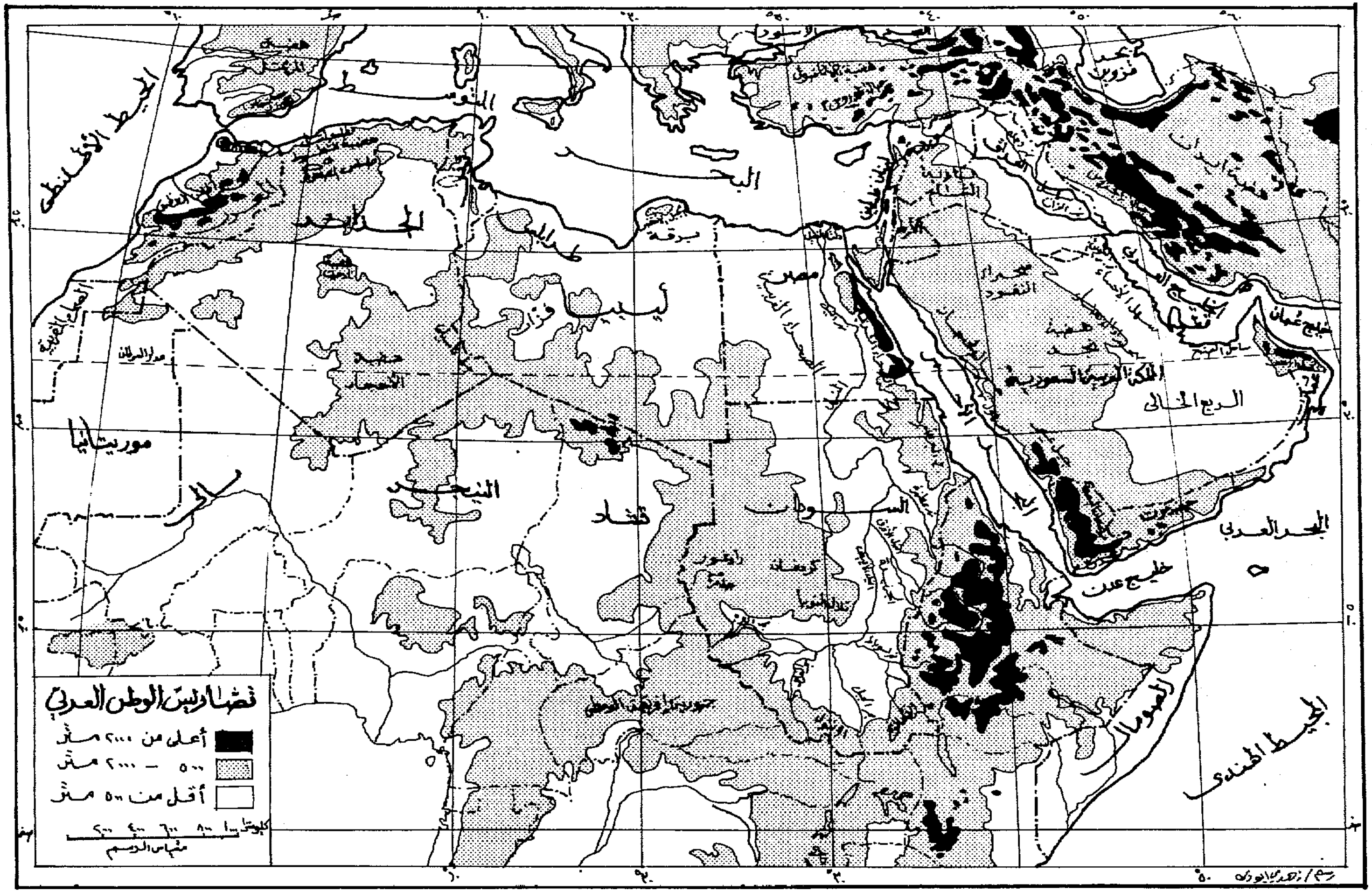
٢ ـ جبال الحجاز وعسير واليمن ، وهي تمثل الحافة الشرقية القافزة للاخدود وتقطعها عدة أودية جافة . وبينما تنحدر بشدة نحو الغرب تنحدر ببطء نحو الشرق ، ويبلغ متوسط إرتفاع جبال الحجاز الف متراً . أما عسير في جنوبها ٤٠٠٠ متراً ، كما أنها اكثر إتساعا ، وهي تشبه بحشائشها الطويلة نسبيا وأمطارها الصيفية ووديانها ذات الأدغال وأشجار السنط والأثل بل

ومساكنها القبابية طروف السافانا السودانية على الجانب المواجه . كما تقطعها عدة أودية قد تجري بالماء ولكنه لا يصل الى البحر أبدا حيث يضيع في رمال السهل الساحلي في حالة السيول العارمة .

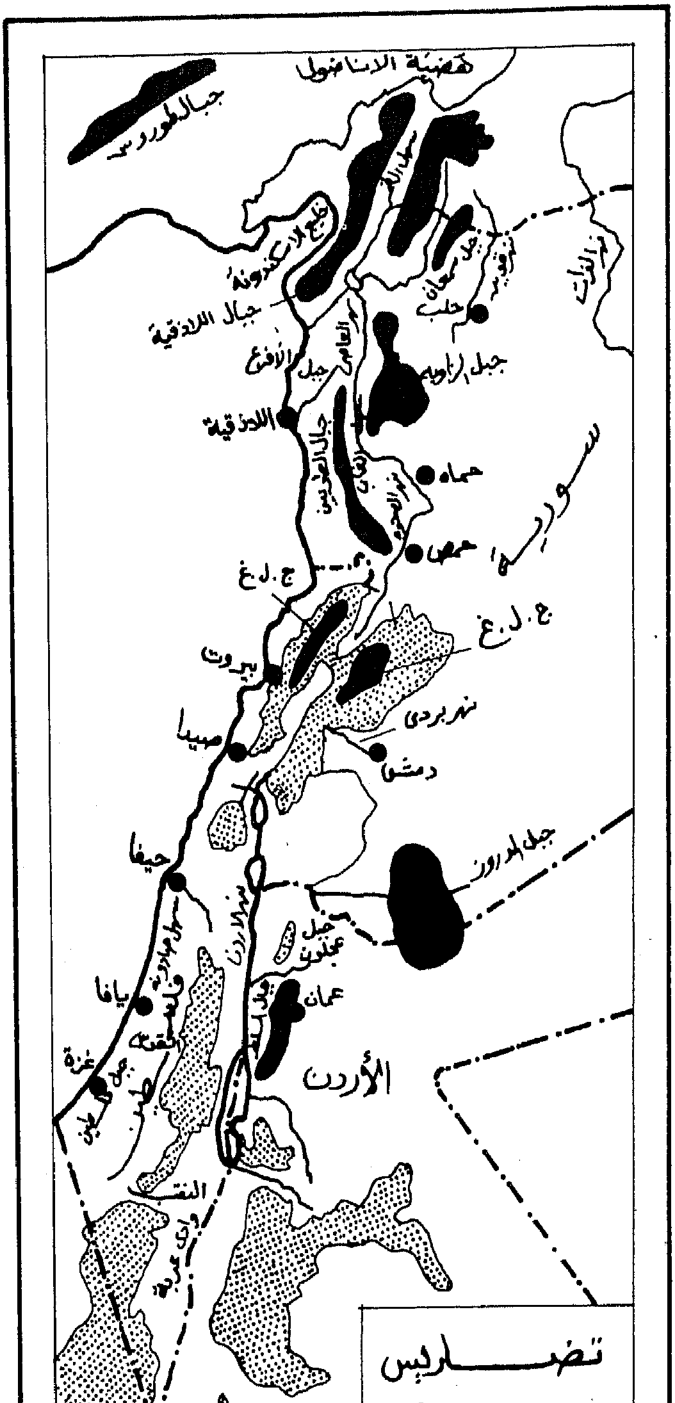
كما تتميز أعالي بعض الوديان بالعمق الكبير لشدة الحفر الرأسي وكذلك بأحراج الشجيرات الشوكية او الدائمة الخضرة أحيانا ؟ كما تنمو الحشائش الرخصة في بطون الأودية . وقد حول الأهالي الكثير منها إلى مدرجات لزراعة الدخان والقمح والموز والبلح والخضار من أجل الاكتفاء الذاتي . وتفصل بين السلسلتين واحات المدينة ومكة وغيرها . كما يكثر بهما الطفح البركاني . وفي أقصى الجنوب تمتد بنفس المواصفات سلسلة جبال اليمن الرئيسية حيث نجد أعلى قمم شبه جزيرة العرب وهي قمة النبي شعيب إلى الغرب من صنعاء ٣٩٧٠ مترا كما نجد كثيرا من الطفوح البركانية القديمة منها والحديثة، وهي سبب شهرة اليمن الزراعية منذ أقدم العصور .

وهذه الجبال جميعها تترك بينها وبين البحر الأحمر سهلا ساحليا يضيق ويتسع ويعرف باسم سهل تهامة . وهو حار مرتفع الرطوبة مرهق للنشاط البشري . وبينما تسوده الظروف الجافة في الشمال تتحسن رطوبته كثيرا في الجنوب ، كما أنه يتكون من الرمال التي تحملها الأودية المختلفة والتي تقذف بها الامواج . كما تعيق الحواجز المرجانية وإستقامة الساحل كثيرا النشاط الملاحي . وهو اكثر ما يكون إتساعا في اليمن حيث يبلغ متوسط إتساعه ٨٠كم وحيث تساعد أمطاره الصيفية في زراعة محاصيل مدارية كثيرة .

٣ ــ وفي بلاد الشام نجد الأخدود ممثلا في خليج العقبة ثم البحر الميت وبحيرة طبرية وسهل البقاع اللبناني ووادي العاصي حتى تركيا . وعلى جانبي الأخدود نجد مرتفعات مختلفة ممثلة في هضبة الجليل ومرتفعات الأردن في فلسطين ثم جبال لبنان الغربية والشرقية الجيرية التي ترجع الى الزمن الثاني والمتميزة بظاهرة الكارست وبكثرة ينابيعها وعيونها والأودية التي تشقها . ونجد إمتدادا لهما في سوريا حيث نجد مرتفعاتها الغربية المطلة على البحر المتوسط ممثلة في جبال الأنصارية والعلويين من نفس الحجر الجيري الجوارسي والتي يفصلها عن جبال لبنان الغربية وادي النهر الكبير الجنوبي الانكساري وعن جبل الأقرع في شمالها والذي ينتهي في تركيا النهر الكبير الأخدودي ، وهي جبال غزيرة الأمطار خاصة سفوحها الغربية مما يجعلها مناطق عمران مثالية .


تضاريس الوطن العربي
أعلى من ٢٠٠٠ متر
٥٠٠ — ٢٠٠٠ متر
أقل من ٥٠٠ متر
مقياس الرسم
المحيط الأطلنطي
المحيط الهندي
البحر العربي
خليج عدن
خليج عمان
الربع الخالي
المملكة العربية السعودية
النفود
مصر
برقة
ليبيا
فزان
الجزائر
موريتانيا
النيجر
تشاد
السودان
الصومال
البحر

(شكل رقم ٤)



هضبة الاناضول
جبال طوروس
خليج الاسكندرونة
جبال اللاذقية
جبل الأقرع
اللاذقية
حلب
جبل الزاوية
حماه
حمص
سوريا
ج.ل.غ
ج.ل.غ
بيروت
صيدا
نهر بردى
دمشق
جبل الدروز
حيفا
نهر الأردن
جبل عجلون
عمان
يافا
غزة
الأردن
النقب
وادي عربة
العقبة
تضاريس
بلاد الشام

(شكل ٥)

هذه السلاسل تنحدر نحو الشرق إلى هضاب داخلية ثم الى سهول جافة بعد ذلك . كما تنحدر منها العديد من الأنهار التي تصب في البحر المتوسط . والى الشرق من نهر العاصي نجد جبل الزاوية ثم إمتداده شمالا تحت إسم جبل سمعان بين سوريا وتركيا . شكل رقم (٥)

٤ ـ وفي أقصى جنوب شرق الجزيرة توجد مرتفعات عمان التي يرجع تكوينها إلى الزمنين الثاني والثالث معا ، وقد ترك الزمن أثره في نوعية صخورها وزيادة تعقيدها والنسبة الكبيرة للصخور المتحولة فيها . كما تعرضت لعمليات إنكسارية كثيرة خلفت عدة أودية إنكسارية غرق بعضها بمياه البحر مكونا أخوارا طويلة وموانىء ضيقة . كما لا يزيد إرتفاعها عن ٣٠٠٠م ممثلة في الجبل الاخضر . وان بدت كل المنطقة كهضبة متوسطة الإرتفاع يكثر سكانها في سهولها الهامشية مثل سهل الباطنة التي تصيبها الأمطار الصيفية .

٥ ـ أما مرتفعات الأطلس في المغرب العربي فهي من التكوينات الالتوائية الحديثة وتمثل إحدى مناطق الضعف في القشرة الارضية ولا زالت تعاني من النشاط الزلزالي والبركاني بعكس بقية الوطن العربي المستقر على أرض صلبة منذ ملايين السنين . وبها أعلى قمم الوطن العربي ممثلة في قمة طوبقال (٤١٦٥) مترا والتي تغطيها الثلوج ويغذي ذوبانها بعض الانهار . ويمكن التمييز بين سلسلتين واضحتين في هذه الجبال إحداهما على ساحل البحر المتوسط وأخراهما في الداخل .

ففي تونس مثلا نجد نهايات جبال الأطلس ممثلة في جبال كروميري في الشمال وهي جبال معقدة التكوين ومتعامدة على خط الساحل مما أوجد بيئة بحرية مثالية للموانىء العميقة والمحمية ..

ثم في مرتفعات تبسا والدورسال إلى الجنوب منها ويجري بينهما ماجرده . نهر تونس الوحيد المشهور بزراعته ومدنه الهامة . وتفصل الدورسال بين شمال تونس الرطب البحرسطي وبين وسطها وجنوبها شبه الجاف والجاف ، ويتغضن سطح دورسال كثيرا وبه عدة أودية .

اما في الجزائر فنجد أطلس التل(١) التي يتراوح إرتفاعها ما بين ٢/١ الى

---

(١) مشتقة من كلمة تيلوس اللاتينية التي تعني الارض المغلة .

٢كم وتنقسم الى عدد من القمم والهضاب التي تفصل بينها الأودية العميقة مما أدى الى تقسيمها وعزلة كل قسم منها واكتفائه الذاتي عن غيره ، ويخترقها نهر شليف الذي يصب بالقرب من الجزائر العاصمة . وهذه الجبال تترك سهلا ساحليا مختلف الإتساع على طول البحر المتوسط وعليهما يعيش ٩٠٪ من شعب الجزائر .

وفي جنوبها هضبة الشطوط التي في أصلها عبارة عن عدة منخفضات ذات تصريف داخلي وتتجمع فيها أمطار الشتاء لتحولها إلى بحيرات ضخمة عظيمة الإتساع تسمى الشطوط منها الشط الغربي والشط الشرقي وشط الهدنة ، سرعان ما تجف صيفا لتتحول إلى سبخات مالحة . وهي عموما من تكوينات رسوبية أتت بها الوديان المنحدرة اليها من الجبال المحيطة .

أما أطلس الصحراء في جنوب هضبة الشطوط فهي أقل في الوعورة والإرتفاع من أطلس التل ولا تمثل عقبة في طرق المواصلات بين شمال الجزائر وجنوبها الصحراوي وبها عدة سلاسل مشهورة مثل قصور أولاد نائل/زيبان ثم أورس التي بها أعلى قمة في الجزائر وهي جبل شيليا ٢٣٢٠مترا .

فاذا ما إنتقلنا إلى المملكة المغربية فاننا نجد إمتداد أطلس التل في أطلس الريف التي تحوي الكثير من الصخور القديمة إلى جانب الرسوبية الحديثة مما زادها تعقيدا وتضرسا كما لا تترك بينها وبين البحر المتوسط إلا سهلا ساحليا ضيقا تكثر به السبخات لكثرة الأودية التي تحمل إليه مياه الأمطار الغزيرة على أطلس الريف ، ومع أن الدولة إستردت معظم إقليم الريف خاصة حول طنجة . إلا أن اسبانيا لا زالت تمتلك فيه مدينتي مليلة وسبتة .

والى الجنوب من هذه السلسلة الساحلية يجري نهر سيبو المشهور بمدنه تازا وفاس ومكناس ثم الهضبة الهرسينية القديمة (المزيتا) لنجد سلسلتي جبال أطلس الوسطى ثم أطلس العليا او العظمى التي تقع بها قمة طوبقال والتي تمثل أعلى السلاسل الجبلية للنظام الالبي في كل افريقيا والتي تمثل فاصلا حقيقيا في جزئها الجنوبي يفصل بين المغرب البحرسطية وإقليم الصحراء(١) خاصة بعد إجتياز آخر هذه السلاسل المتوازنة وهي أطلس الداخلية . كما أنها مصدر هام لمنابع كثير من أنهار الدولة .

---

(١) محمد رياض وكوثر عبدالرسول (١٩٧٣ ــ ط ٢) افريقيا دراسة لمقومات القارة دار النهضة العربية . بيروت ص١٠٨ ــ ١٠٩ .

الخلاصة :

تتميز معظم هذه السلاسل الجبلية بالوفرة النباتية من أشجار النباتات النفضية او الإبرية المخروطية وكذلك بالمراعي الغنية او الفقيرة على السواء ثم إمكانية الزراعة في بطون أوديتها أو مجاريها النهرية الهامة الى جانب التعدين منها واستخراج الفوسفات وغيره . ثم النشاط السياحي في أرجائها المختلفة لمناظرها ولاعتدال مناخها ووفرة نباتاتها من الأمطار كما كانت ممراتها وأوديتها طرقا هامة للمواصلات وللحركة . ومن ثم فقد لعبت الجبال دورا هاما في حياة الشعب العربي وكانت إحدى مناطق العمران والقوة فيه .

ب : الهضاب : انظر شكل رقم (٤)

وهي في معظمها متوسطة الإرتفاع ما بين ٤٠٠ ــ ٦٠٠ متراً وتشغل مساحات واسعة من الوطن العربي وتعد من أكثر أشكاله التضاريسية إنتشاراً . كما أنها من بقايا جندوانا الأركية القديمة .

ومن ثم فقد شهدت الكثير من الأحداث الجيولوجية التي دمرت بعض نتوءاتها وحولت معظم سطحها إلى سهول تحاتية متفاوتة في سطحها نتيجة لعوامل التعرية الهوائية والمائية ملايين السنين ، كما وأن مكوناتها السطحية الأحدث عمرا ودرجة في صلابتها وتماسكها تساعد على تنويع مظاهر السطح بها أمام عوامل التجوية والتعرية المختلفة . وقد قسمها البحر الأحمر الى قسمين آسيوي وافريقي .

فاما الهضبة الافريقية فكثيرا ما تعرف باسم الصحراء الكبرى وهي هضبة عظيمة المساحة ، إذ تمتد من البحر الأحمر حتى المحيط الاطلسي اي نحو ٥٠٠٠ كم ومن ساحل البحر المتوسط حتى جنوب السودان أي نحو ٢٠٠٠كم في المتوسط وانحدارها العام نحو البحر المتوسط شمالا ، ويمكن تمييز الظاهرات التضاريسية الهامة الآتية فيها .

١ ــ وجود حافات قارية في أقصى الشمال كما في الجبل الاخضر ببرقة ونطاق طرابلس الجبلي ثم هضبة البطنان والدفته بليبيا . وتبدو كسلاسل جبلية للقادم من البحر نحو الداخل ، حيث ترتفع فجأة الى أن تندمج تدريجيا في الهضبة جنوبها .

٢ ــ وجود عمود فقري من الكتل المرتفعة في وسط الصحراء تمثله هضبة الحجار ، وكتلة تبستي وهضبة تاسيلي فيما بينهما .

ومن أهم هضاب الحجار تادميت في أقصى شمالها الغربي اي في وسط الجزائر تماما . ثم تاسيلي الآجر والحجار معا بالقرب من الحدود الجزائرية الليبية وهي التي تحتضن حوض فزان الليبي وتحد غرب هضبة حمادة الحمراء الليبية .

أما مرتفعات تبستي بين ليبيا وتشاد فيصل إرتفاع قمة جبل مروى فيها الى ٣١٤٠ م في داخل ليبيا . كل هذه المرتفعات تمثل بقايا السلسلة القديمة التي قطعتها عوامل التعرية وحولتها الى كتل جبلية تحاتية .

بالاضافة الى هذه السلسلة هناك جبل العوينات ١٩٢٤م المثلث الحدود بين مصر والسودان وليبيا ، ثم مرتفعات دارفور التي يمثل جبل مرة البركاني ٣٠٤٠م ، أعلى قممها ومعظمها من الأحجار الجرانيتية القديمة .

٣ ــ كما تتميز الهضبة الافريقية بعدة أحواض منخفضة مثل منخفض الجوف وبسكره وحوض السودان الجنوبي الذي يجري به النيل، ومنخفض الفيوم . وهي نفسها التي سهلت وجود الواحات بحكم قرب المياه الجوفية من السطح وسهولة إستغلالها في الإعاشة من أمثال واحات مصر الخارجة والداخلة والبحرية والفرافرة وسيوة وواحات ليبيا وهي جنوب جالو ، أوجله ، الكفرة ، مرادة ، الجوف ، غدامس . ثم واحات الجزائر ، عين البيض عين القطارة ، عين صلاح .. الخ .

٤ ــ واخيرا وجود العديد من الوديان الجافة في كل الهضبة والذي ينحدر منها نحو البحر او في الداخل مثل أودية العلاقي ، قنا ، الحمامات، حوف في مصر والوادي القارع في برقة والى الكبير في طرابلس والآجال والشاطىء في فزان بليبيا وأودية اغرفر/ ميا/ الناموس ودرعه في الجزائر[١] .

ويتميز سطح الهضبة الأفريقية بتنوع مظهره من منطقة لأخرى فقد تغطيه الرمال او الحصى او الصخور . وعلى هذا ينقسم مظهره الى :

---

(١) محمد صبحي عبدالحكيم وآخرون ص٣٩ ــ ٤١ .

(١) تكوينات العرق اذا سادتها الرمال والكثبان الرملية مثل بحر الرمال العظيم بين مصر وليبيا وجنوب واحة جغبوب والعرق الشرقي الكبير جنوب شط ملغير والعرق الغربي الكبير جنوب اطلس الصحراء بالجزائر . وهي تعيق الحركة بالسيارات .

(٢) تكوينات الرق او السرير إذا غطتها الرمال الخشنة والحصى والحصباء والزلط بعد تعرية السطح من الرمال الناعمة مما يحدث صريرا عند السير عليه مثل سرير كلنشو في برقة بليبيا لمسافة ٦٠٠ كم ما بين واحتي جالو شمالا وتازريو جنوبا . وهي وان صعب إجتيازها بالدواب إلا أنها مدقات السيارات في الصحراء . ورغم إحتواء جوفها على بعض المياه الجوفية إلا أنها فقيرة في نباتها وحيوانها .

(٣) تكوينات الحمادة ، وهنا تبدو الصخور الصلبة على السطح مثل الحمادة الحمراء في مساحة ١٠/١ مليون كم٢ فيما بين مرتفعات أطلس وحافة حوض فزان ، وحمادة مرزوق في فزان وحمادة تادميت في الجزائر . وتتميز جميعها بالجدب الشديد وبالوعورة الشديدة وصعوبة الحركة عليها .

واما الهضبة العربية ، فتتشابه تماما مع أفريقيا إلا أنها تنحدر بوجه عام من الغرب والجنوب الغربي الى الشرق والشمال الشرقي ويتراوح متوسط ارتفاعها ما بين ٥٠٠ ــ ٩٠٠ مترا وتنقسم إلى هضبة بادية الشام في الشمال ونجد في الوسط وحضرموت في الجنوب . ولإختلاف مقاومة صخورها لعوامل التعرية المختلفة تكونت فيها الأحواض المنخفضة التي ملأتها الرمال بعد ذلك مثل تكوينات العرق في صحراء النفود الفاصلة بين الشام ونجد وصحراء الرّبْع الخالي بين نجد وحضرموت ومرتفعات عمان ثم أخيرا صحراء الدهناء الرملية بين نجد وسهول الاحساء . وكذلك منخفضات الثرثار بالعراق ، ودمشق وتدمر بسوريا ، وكذلك مزقت الهضبة الأودية الكثيرة التي كانت تجري بالمياه في العصور المطيرة مثل وادي سرحان في بادية الشام وحوران والرمة في شمال نجد والدواسر ما بين عسير والربع الخالي ووادي حضرموت في الجنوب . أما الصخور الشديدة الصلابة فقد قاومت التعرية وظلت مرتفعة على شكل حافات صخرية او كتل جبلية متفرقة مثل جبلي طويق وشمر في شمال نجد وجبل سنجار في العراق وعبد العزيز وبشرى والدروز في سوريا .

جـ ـ السهول :

وهذه إما سهول ساحلية أو سهول فيضية من تكوين الأنهار :

١ ـ **فاما السهول الساحلية** ، فهي تضيق وتتسع حسب ظروف السطح خلفها وخطوط المناسيب وحسب إتجاه الساحل نفسه ، كما تتميز في توفيرها للموانيء الطبيعية وفي أهميتها الاقتصادية تبعا للظروف المناخية .

وتعتبر السهول الساحلية المطلة على البحر المتوسط والمحيط الاطلسي من أهمها بشريا واقتصاديا وعمرانيا . فهي متوسطة الإتساع فيما بين اللاذقية وطرابلس ثم تنعدم فيما بين الأخيرة وبيروت بسبب إشراف الجبال على البحر مباشرة ثم تتسع عند صيدا وصور وكذلك عند عكا في فلسطين حيث تتصل بسهل مرج بن عامر ... ثم تظهر في سهول صارونة وسهل فلسطين الجنوبي .

أما السهول الساحلية في كل شمال أفريقيا فتبدأ من السهل الشمالي لسيناء الغني بعيونه وآباره وفيما بين كثبانه الرملية الكثيرة . كما تكثر به السبخات والبحيرات الساحلية . وكذلك الشأن في شمال دلتا النيل حيث الملوحة العالية في تربته . أما إلى الغرب من الاسكندرية وحتى حدود ليبيا فهو منطقة سهلية متميزة بغناها النسبي في الأمطار والأعشاب بحيث يمكن نجاح الزراعة الجافة بها وتحويلها الى مناطق سياحية ومنتجة . اما في ليبيا فاكبر سهولها هو الجفار المثلث الشكل الى الشمال من مرتفعات طرابلس (٣٧٠٠٠كم٢) ثم نجد سهل تونس ثم عنابة والجزائر ووهران ثم سهل ملوية في المغرب ، وهي كلها ناجحة في زراعتها ومزدحمة بسكانها ويحدد إتساعها جبال الأطلس جنوبا . أما السهول المطلة على المحيط الاطلنطي فاحيانا تنعدم وأحيانا تشرف الجبال عمودية على خط الساحل تاركة بين ألسنتها المختلفة سهولا تخترقها الانهار مثل سهول سيبو وسوس .

أما السهول الساحلية المطلة على البحر الأحمر من جانبيه فهي فقيرة ورملية وكثيرا ما تكون مالحة بالإضافة إلى ضيقها ومناخها غير المناسب (الحر الشديد والرطوبة) .

واما السهول الساحلية في الصومال خاصة فيما بين نهري جوبا وشبيلي فهي أخصب مناطق الصومال وأكثرها سكانا وإقتصادا .

وأخيرا نصل الى السهول الساحلية في الخليج العربي فهي رملية وسبخية وكثيرة الأملاح ومع ذلك فسهول الاحساء فيها مناطق زراعية من عهود قديمة وكذلك شمال دولة الإمارات وسهل الباطنة العماني . أما قيمتها الحالية فتتمثل في البترول وفي ثقلها السكاني والعمراني . ولقد كانت على ممر التاريخ هي مراكز العمران والحركة السكانية والموانىء الهامة والنافذة الملاحية على العالم الخارجي . ولا غرو في أن نجد معظم سكان دولة الامارات على هذا الساحل الهام .

٢ ـ **واما السهول النهرية الفيضية الرسوبية** : فتتمثل أحسن تمثيل في وادي النيل ودلتاه بمصر . وعلى الرغم من ضآلة مساحتها ٣٢٠٠٠كم٢ فانها أرض الحضارة والعمران منذ آلاف السنين ، ويعيش على اديمها وخيرها اليوم ٤٥ مليون نسمة . وهي ذات تربة منقولة من أصل بركاني في الحبشة ويتراوح سمكها ما بين ٨,٣ م في الوادي ، ونحو ١٠ أمتار في الدلتا . ويلتحق بها منخفض الفيوم الذي كونته التعرية الهوائية ثم ترسبت فيه مياه النيل قديما عن طريق فرع قديم كان يصب فيه خلال فتحة اللاهون . ونهر النيل نفسه قصة طويلة من منبعه إلى مصبه تستحق الدراسة في مجال آخر .

يلي ذلك السهول الشمالية لدجلة والفرات في العراق وتبلغ مساحتها ثلاثة أمثال سهول النيل في مصر ٩٣٠٠٠ كم٢ وتبدو على شكل مستطيل طوله ٦٥٠كم شمالي غربي جنوب شرقي إعتبارا من سامراء والرمادي حتى شط العرب . ويختلف السهل الرسوبي هنا عما في مصر في عدم إكتماله وكثرة بحيراته « أهواره » وتعرجات مجراه ومستنقعاته الكثيرة وتكرر فيضانه وخروجه عن المجري العادي . كما يختلف النهران كثيرا في قصة حياتهما عن النيل .

هذا بالإضافة إلى عدة سهول أخرى في سوريا على نهر الفرات والعاصي وعلى جوانب الأنهار القصيرة اللبنانية مثل سهول البقاع حول الليطاني . ثم سهول ماجرده وشليف وأنهار المغرب مثل سيبو وأم الربيع وسوس وغيرها ... وكثير من الأدوية الجافة قد يحتوي في بعض اجزائه على رقع رسوبية خصبة .

هذا التنويع المتدرج والبسيط في مظاهر السطح من جبال عالية على أطراف الهضبة الافريقية في شرقها وجنوبها وشمالها وكذلك الحال في قرينتها الأسيوية بسوار من المرتفعات بحيث تحتضن كل منها الهضاب الداخلية بما فيها من منخفضات وواحات وبعض القمم الجبلية التحاتية القديمة . كما قد

تخترقها السهول الفيضية . وتحيط بكل هؤلاء السهول الساحلية دون وجود عقبات تضاريسية معقدة تفصلها بعضها عن بعض كما تفعل سلاسل الهملايا او الأنديز مثلا ... كل هذا قد سهل الحركة بين أجزاء الوطن العربي . كما أدى تنوع السطح إلى تعدد الأنشطة الإقتصادية والى تباينها مما سهل التبادل التجاري بين منتجات الواحات والجبال والسهول الفيضية والسهول الساحلية كما خلق أنماطا من الحياة والأنشطة السكانية تكاد تتكرر على طول الموقع كلما تكرر النمط التضاريسي ، وهكذا عملت بساطة السطح وتنوعه المحدود إلى خلق درجة من الإنسجام والتجانس بين معظم أجزاء الوطن العربي .

سادسا ـ المقومات المناخية

ليس من بين العوامل الطبيعية ما له الأثر المباشر على الناس وأمزجتهم وطبائعهم وأنشطتهم ما للمناخ . فنحن نتأثر بالحرارة في كل ساعة من ساعات اليوم ويسأل بعضنا بعضا ... الجو لطيف او الجو شديد الحرارة او الجو عالي الرطوبة . وتتردد هذه الكلمات بيننا جميعا صباحا ومساء ومن شأن ذلك ان يخلق بين العرب في كل بلادهم أحاسيس وطبائع وإهتمامات مشتركة بل وعادات في المأكل والملبس متقاربة كثيرا مما يزيد وحدتنا قوة وتجانسا .

وكما هي القاعدة يتأثر مناخ الوطن العربي بموقعه الفلكي بين دائرتي العرض ٢جـ و ٣٧ش ، وكذلك بتوزيع اليابس والماء فيه ومن حوله . فافتقار الوطن العربي إلى البحار الداخلية وعدم توغل البحار الكبيرة المحيطة في يابسه يجعل أثرها الملطف قليلا وقاصرا على السواحل ، اللهم الا ذلك البحر المتوسط الذي يتأثر الجزء الاكبر من الوطن العربي بأعاصيره وبأمطاره شتاء . ويعمل إمتداده الهائل فوق مساحات أرضية شاسعة في القارتين على زيادة القارية المناخية في أرضه بوجه عام وتمكن الجفاف من منطقة القلب بوجه خاص . ولا يتأثر بالتيارات البحرية في الوطن العربي إلا المملكة المغربية حيث يمر على سواحلها الأطلسية تيار كناريا البارد الذي يخفض درجة حرارة الصيف على السواحل .

وأخيرا يؤدي تنوع التضاريس إلى وجود إختلافات كثيرة من حيث درجة الحرارة والرطوبة وكمية الأمطار . فمعروف أن المناطق المرتفعة اكثر إعتدالا في حرارة صيفها وانخفاضا في حرارة شتائها من الجهات الساحلية . لذا يقصد

المصطافون الجبال في لبنان والمغرب . كما أن المناطق المرتفعة يصيبها قسط أكبر من الامطار خاصة على جوانبها المواجهة للرياح من المناطق المنخفضة والمنبسطة .

ومن دراسة الأرصاد الجوية للكثير من بلدان الوطن العربي يتبين أن أشهر الصيف فيها لا يقل متوسط حرارة شهوره عن ٢٥ °م عدا المناطق الجبلية وبعض السواحل بينما تقل عن ١٨ °م في أشهر الشتاء الا المناطق الجنوبية في السودان والصومال مثلا .

وبينما هناك جهات تسقط الأمطار عليها شتاء وأخرى تسقط عليها صيفا فان القطاع الأعظم من الوطن العربي أمطاره قليلة وعشوائية وغير منتظمة .

كذلك يتعرض الوطن العربي بالاضافة إلى رياحه الدائمة كالتجارية والعكسية ورياحه الموسمية الصيفية إلى رياح محلية مترية تسبب الضيق لدى العرب جميعا مثل السموم والطوز والخماسين والهبوب والسيروكو والسولاني وغيرها .

هذه الضوابط العامة قد ساعدت على خلق جو من الوحدة العامة لكل العرب وفي كل بيئاتهم بحيث لا يشعر الفرد عند الإنتقال من بلد لآخر بوجود فروق مناخية صارخة أو غير مألوفة . حيث تسود أربعة مناخات هامة هي الصحاري المدارية الجافة والسافانا وشبه المداري الموسمي والبحر المتوسط :

سابعا : النباتات الطبيعية

يرتبط بالتوزيع السابق للمناخ الغطاء النباتي السائد . بعضه ظل كما هو ولكن الأغلب منه قد عدل فيه الأنسان وحل محله مشروعات اخرى مناسبة .

١ ــ ففي إقليم البحر المتوسط توجد نباتات دائمة الخضرة تتمثل أشجارها في الزان والبلوط والفلين والقسطل وكذلك الزيتون والموالح . وقد قطع معظمها الإنسان ليزرع الموالح والعنب والزيتون والحبوب الغذائية ولم يبق منها الا القليل على مرتفعات المغرب ولبنان .

٢ ــ وفي إقليم السافانا السوداني بدءا من سافانا الدهاليز الغنية في منطقة السدود بالجنوب إلى سافانا الحشائش الطويلة في شمالها ثم السافانا الفقيرة والشوكية ، وأخيرا الاستبس في أقصى الشمال ... في هذا الاقليم تنمو الحشائش الصيفية وهي ذات أوراق خشنة بحكم حرارة الصيف

وسرعة النتح . وتزيد عن المترين طولا ــ وتربى عليها ملايين الرؤوس من الماشية جنوبا ومن الأغنام شمالا . ولكنها ثروة مهدرة وفي حاجة الى رعاية وتطوير وتصنيع أي إلى تشغيل المنطقة إقتصاديا . كما يستخرج من أشجار الطلح والهاشاب والباوباب في السافانا القصيرة الصمغ العربي المشهور . أما منطقة السدود في أعالي النيل فهي تمثل اكبر فقد مائي في العالم كله . فهنا تضيع كل مياه هضبة البحيرات النيلية حيث تنساح في منخفض شديد الإستواء على شكل مناقع خالدة ينتشر فيها الغاب والبوص والبردى والعوسج ، ولذلك تقام حاليا في المنطقة قناة جونجلي من جوبا حتى الملكال لتوفير هذا الماء الضائع ولتوسيع شبكة الري واستصلاح ملايين الافدنة للزراعة . أما في السافانا الغنية فتختلط بالحشائش أشجار مدارية هامة كما في اليمن وجنوب عسير وجنوب الصومال .

٣ ــ واما النباتات الصحراوية فهي حشائش حولية تنمو على المطر كالخردل والشيح البابونج ونباتات معمرة كالنخيل والدوم والحنضل . وهي تنمو رقعا متفرقة وليست في نطاقات متصلة . كما يدخل الكثير منها في صناعات الادوية .

٤ ــ وأخيرا تنمو على المرتفعات نباتات متدرجة بعضها شجري غابي وبعضها رعوي حشائشي وتبعا لدرجة الحرارة وكمية الرطوبة والأمطار تتحدد كثافة النباتات وأنواعها . فبعض الغابات نفضى وبعضها مختلط وفي أعالي الجبال قد نجد الغابات الإبرية المخروطية . كما قد تخلو المرتفعات الصخرية العارية من النباتات تماما .

هذا التنوع ما بين الغابات وحشائش المراعي الغنية والقصيرة بالاضافة إلى النباتات الصحراوية قد أسهمت جميعا في تحديد شخصية الوطن العربي وفي تحديد المجالات الحرفية التي قد يعمل بها السكان . مؤدية بذلك دورا في التجانس العام في الوطن العربي .

ثامنا ــ الموارد المعدنية

ان الذي يتذكر كيف إستجابت الحكومات العربية لنداءات شعوبها عقب حرب رمضان ١٣٩٣هـ بوقف ضخ البترول عن الدول التي تساعد الصهاينة ، يدرك تماما كيف وحد هذا المورد المشاعر العربية من الخليج الى المحيط وبعث فيهم روح الكبرياء والاعتزاز بوحدتهم وبأرضهم وبهدفهم .

والواقع ان الدول اليوم تتطاحن وتتعالى بما لديها من الموارد . وكلما ظهر لها مورد إزدادت أسهم قوتها وحضارتها . والوطن العربي غني بمعادنه وثرواته . وكلما أستغل فيه أحد موارده شعر جميع العرب بالفخر والاطمئنان أنهم يملكون شيئا هاما في أرضهم وانه يدعم تكاملهم البنيوي والاقتصادي .

وأول ما يسترعي الإنتباه هو ذلك البترول الذي تدفق منذ نحو نصف قرن حتى أصبح الوطن العربي أول منطقة في العالم كله في إنتاجه إذ يزيد ما ينتجه عن ٤٠٪ اليوم من كل ما ينتجه العالم . كما أنه يملك نحو ٦٠٪ من كل إحتياطي العالم . والبترول اليوم ليس فقط مصدر الطاقة الرئيسي الذي لا يجارى ولكنه أيضا مصدر هام لكثير من الصناعات الضرورية في العالم كله سواء ملبوسات أو أغذية او بلاستيك او روائح .. الخ .

وهو اليوم المحرك الأول لسياسة الكثير من الدول ، كما أنه الذي يعين العرب على إجتياز فجوة التخلف واللحاق بالركب الحضاري الحديث ويخطى سريعة . وسوف يتغلب العرب على أزمة النفط الطارئة ويحولونه إلى مصدر صناعة وقوة .

كذلك يمتلك العرب الفوسفات في دولة المغرب وتونس ومصر وغيرها وينتجون اكثر من ربع إنتاج العالم كله . اما الحديد وان كان إنتاجه لا يزيد عن ٢٪ من حديد العالم فانه يكفينا في هذه المرحلة من التطوير ، وان كانت تستخرجه اليوم موريتانيا والجزائر ومصر إلا أن قاعدة شبه جزيرة العرب الاركية بهضابها وجبالها تملك منه الكثير وذلك للمستقبل القريب .

كما تمتلك نحو ٢٪ من إحتياطي النحاس في العالم وان كان انتاجنا الحالي ٢/١٪ فقط من انتاج العالم ، يأتي من الأردن والمغرب والسعودية ثم موريتانيا ومصر .

وهناك عدة معادن اخرى ممثلة في الرصاص والكبريت والمنجنيز والكروميت والكوبلت والموليبد هذا غير الزنك والجبس والبوتاس والنطرون وهي ما يطلق عليها مجموعة الصناعات الاستخراجية الصغيرة . واما الكبيرة فتقتصر على البترول والفوسفات(١) .

---

(١) محمود طه ابو العلا (١٩٧٧) جغرافية العالم العربي ـ مكتبة الانجلو المصرية ـ القاهرة ص١٤٥ ـ والصفحات التالية .

ولا شك ان هذه الثروات تضاعف من قوتنا وتفتح مجالات العمل أمام الآلاف من عمالنا وتمد طرق المواصلات والعمران في صحارينا وتعيد تخطيط بنائنا الاقتصادي والحضاري ..

تاسعا : مصادر الماء في الوطن العربي :

حقا ... « وجعلنا من الماء كل شيء حي » فلا حياة لنا الا بالماء العذب . فمن الملاحظ على الوطن العربي سوء توزيع موارده المائية فيه . فبينما تتمتع بعض أقطاره بوفرة في المياه طول العام تعاني أقطار أخرى من عجز شديد فيها . وتتمثل موارد الماء في الوطن العربي في ثلاثة أنواع هي : المياه الجارية والأمطار والمياه الجوفية .

اولا ـ المياه الجارية : وسواء كان مصدرها الأمطار او ذوبان الجليد والثلوج فما أعظم الادوار التي لعبتها وتلعبها حتى اليوم في أرضنا . فهي مهد الملاحة الداخلية في بلادنا والتي مهدت لركوب البحار في مراحل حضارية متقدمة . وهي المشاتل الأولى للحضارات القديمة كالفرعونية والبابلية والآشورية . وهي أهم مراكز تجمع السكان قديما وحديثا كما أنها من أهم مصادر البروتين المائي . وأولا وأخيرا هي مصدر رخاء شعوبنا الزراعية ... ومن ثم قامت عليها مشاريع الري المختلفة من سدود وخزانات وترع .

كما تعتبر الأنهار في الوطن العربي محاولة ناجحة من الطبيعة لإعادة توزيع الأمطار بشيء من العدالة . فالنيل مثلا يبدأ رحلته من أقصى الجنوب ويقطع اكثر من ٦٠٠٠ كم ليروي أرضا صحراوية جافة وليخلق اكبر واحة فيضية يعرفها العالم في مصر . ودجلة والفرات والعاصي وكل أنهار لبنان خاصة الليطاني وأنهار المغرب العربي مثل ماجردة وشليف وسيبو وأم الربيع وسوس وملوية ثم السنغال بموريتانيا وشبيلي وجوبا بالصومال .. كلها مراكز هامة للتجمع السكاني والنشاط البشري .

ثانيا : مياه الأمطار : وحتى اليوم نجد ٨٠٪ من أرض العرب الزراعية تعتمد على المطر . وكذلك معظم المراعي . والأمطار إما شتوية كما في معظم حوض البحر المتوسط في أراضي الشام وشمال أفريقيا .. ومنها ما تجري به الأنهار القصيرة في هذه الأقطار ... وإما أنها صيفية كما في معظم السودان

والصومال وموريتانيا وكذلك اليمن . ولأنها تسقط في فصل الحرارة العظمى يقل تأثيرها الفعلي عن الأمطار الشتوية . ولكنها في نفس الوقت تخلق أنماطا زراعية ورعوية مختلفة مما ينشط التبادل التجاري بينهما . وأما معظم الأراضي الصحراوية العربية فلا تنتظم بها الأمطار كما تخلو من المياه الجارية ، وهذه هي المشكلة الكبرى ، كما قد تسقط بها الأمطار على شكل سيول جارفة تدمر اكثر مما تعمر .

ثالثا ــ المياه الجوفية : وتزداد أهميتها كثيرا في الأقطار المحرومة من المصدرين السابقين . بعض هذه المياه تجمع من عصور جيولوجية بعيدة خاصة أيام العصور المطيرة في خزانات جوفية وله دورة مائية خاصة به وهو أساس المخزون العالمي اليوم . وبعضه يتجدد سنويا نتيجة تسرب مياه الأمطار الساقطة او الجارية إلى باطن الأرض . والذي من شأنه إصلاح ملوحة المخزون القديم وتجديده بإستمرار .

وكلما كان مستوى الماء الجوفي قريبا من سطح الأرض سهل إستغلاله والعكس صحيح . وقد عرفت البلاد العربية الجافة فضله من زمن بعيد فاستغلت ينابيعه وعيونه الطبيعية ، كما حفرت بعض آباره صناعيا بل وشقت له القنوات الجوفية لتقيه شدة الحر والجفاف وهي المعروفة باسم الافلاج في المشرق العربي والفجارا في المغرب العربي . ومعظم صحارى الوطن العربي إنما تعتمد على هذا المصدر الإعتماد الرئيسي . وتحدد مواقع الآبار الدروب الهامة ومناجع السكان ومواقع الواحات .

وفقنا الله ان نكون امة واحدة .

والحمد لله والشكر لله والصلاة والسلام عليك يا رسول الله .

* * * * * *

الفصـــل الثالث

الحضارة الاسلامية والثقافة العربية

الدكتور فوزي رضوان العربي

المبحث الأول : الحضارة الاسلامية

المبحث الثاني : الثقافة العربية

المبحث الأول

الحضارة الاسلامية

١ ـ تعريف الحضارة :

من الافكار الشائعة بين المثقفين العرب ان حضارة اية امة عبارة عن علومها وآدابها وفنونها الجميلة وصنائعها واطوارها للحياة المدنية والاجتماعية واسلوبها للحياة السياسية . ولكن الحقيقة ان ليست كل هذه الامور بالحضارة ذاتها وانما هي نتاج الحضارة ومظاهرها [١] .

ويرى الامام ابو الأعلى المودودي أن تعبير كلمة « حضارة » يتكون من العناصر الخمسة التالية :

١ ـ تصور الحياة الدنيا .
٢ ـ غاية الحياة .
٣ ـ العقائد والافكار الاساسية .
٤ ـ تربية الافراد .
٥ ـ النظام الاجتماعي[٢] .

والحضارة الاسلامية حضارة عملية ما دامت على اسلاميتها ، فما كانت الدنيا في نظر ابنائها الا مزرعة للآخرة وكانوا على الدوام يبذلون مساعيهم في ألا ينفقوا لحظة من لحظات حياتهم الدنيا ، ما بقيت لهم ، الا في تعهد هذه المزرعة بالسقي والري ويبذروا فيها اكثر ما يستطيعون من البذور ليكون نصيبهم أوفر ما يكون من حصاد الآخرة .

٢ ـ الحضارة الاسلامية :

لقد أدت الرسالة الاسلامية دورا لا نظير له في تكوين الأمة العربية وتوسيع نطاق العروبة مع ترسيخ أركان بنيانها ، وتشديد مقاومتها لعوامل التجزئة التي عصفت بها .

---

١ ـ ابو الاعلى المودودي : الحضارة الاسلامية ، اسسها ومبادئها . الطبعة الثانية دار العربية للطباعة والنشر والتوزيع بيروت ترجمة محمد عاصم الحداد ، ١٩٧٠ص٤ .

٢ ـ المرجع السابق ص٩ .

وكانت الحركة الاسلامية واقعة تاريخية هامة ، اوجدت تحولا انقلابيا خطيرا في احوال العرب ، كما أنها أثرت في سير التاريخ العام ايضا تأثيرا قويا جدا[1] .

ولقد كان الوطن العربي مهدا لكثير من الحضارات القديمة في مصر والشام وبابل وآشور وعمان واليمن . كما نشأت فيه عدة امبراطوريات امتد نفوذها وسلطانها الى الشرق والغرب . كما كان مهبط الديانات السماوية الثلاثة فيه نشأت وفيه انتشرت وعليها حافظ كما كان مبعث كثير من الوان الفكر والثقافة العالمية والحضارة الانسانية التي بقيت على مر الزمان .

وكان نتيجة لاعتناق العرب للاسلام وتحليهم بفضائله وايمانهم بتعاليمه وخضوعهم لنظامه قيام نهضة روحية شاملة . فبفضل الاسلام اصبح العرب اخوانا متحابين يجمعهم التوحيد وتظللهم جميعا راية الاسلام . وحد الاسلام بينهم في العقيدة فأصبحوا أمة عربية اسلامية قوية عزيزة الجانب . ثم كانوا بعد ذلك دعاة الاسلام وحملة لوائه يدعون اليه وينشرونه في جميع بقاع الارض ، ويمحون عن طريق الدعوة كل ما اعترضها ووقف في سبيل نشرها كان الاسلام اذاً هو الحافز والدافع الاكبر لخروج العرب من فلوات الجزيرة الى العمران . فاحدث في تاريخ الشرق تلك الهزة النفسية التي تركت آثارها في أخلاق أبنائه وآدابهم وتاريخهم الى اليوم[2] .

وهكذا كان الاسلام من يوم أن بعث به الرسول أساسا للنهضة العربية الأولى ، نهضة روحية واصلاحية عامة شاملة ، ابتدأت في جزيرة العرب ثم لم تلبث أن هاجرت وغزت الامم والبلاد المجاورة حتى حققت للعرب معنى لوعيهم وتوثبهم : أمة واحدة ، ولغة واحدة ، ورسالة تاريخية ، ووجهة واحدة .

ولم يقتصر الفتح الاسلامي عند حد نشر الدين الجديد وتغذيته البلاد المفتوحة بالعروبة فهو لم يكن غزوا أو فتحا استعماريا كالذي تعاني منه البشرية ، الأمر الذي تشهد به قوة الاندماج وحركة التعريب وسرعتها الفائقة بين الناس كرد فعل ضد السيطرة الاستعمارية للرومان والفرس . وانما كان الفتح الاسلامي حركة تحرير شملت جانبي الاسلام كدين وكدولة : حركة تحرير للخواطر والوجدان ، وتحرير من ظلم ومفاسد الحكام .

(١) ابو خلدون ساطع الحصري : ابحاث مختارة في القومية العربية/دار المعارف بمصر .. سنة ١٩٦٤ — ص٣٥٤ .

(٢) عزالدين فودة : المجتمع العربي — دار الفكر العربي — الطبعة الثانية — سنة ١٩٦٦م ص : ٧٤ .

وشغل العرب بتحقيق شخصيتهم الفكرية وتأكيد ثقافتهم الذاتية بوضع أساس كيان ثقافي عربي . فظهرت الدراسات العربية في اللغة والنحو والادب والتاريخ وفنون الرواية والشعر والنثر . ونشطت المدارس الاسلامية في علم التفسير والحديث والفقه . وقد كانت حركة عربية تعمل في هدى المبادىء الاسلامية ، وتمثل جانبا واسعا من النهضة القومية للعرب لم تقتبس من علوم ومعارف الشعوب الاخرى الكثير .

غير أن الأمر في هذا الشأن من عصر النهضة القومية في صدر الاسلام يستدعي ان نفرق بين عهد الخلفاء الراشدين وعهد الدولة الاموية ، ولا سيما فيما يتعلق بنظام الحكام . فقد كان الخلفاء الراشدون ينظرون الى الخلافة نظرة دينية ، وكان همهم الأكبر أن يحملوا الكافة على الشريعة الاسلامية وأحكامها ، فلما قامت الدولة الاموية قلبت الخلافة الاسلامية الى ملك دنيوي ووطدته تسعين سنة في دمشق من المحيط الاطلسي الى حدود الهند والصين ، ثم في قرطبة حيث ظلوا اكثر من قرنين ونصف اصحاب الملك والسيادة في الاندلس .

وما ان انتهت فترة صدر الاسلام في اواخر العهد الأموي حتى كانت الثقافة والحضارة العربية قد وضعت خطوطها الرئيسية . فكان من العرب من عنوا باستنباط احكام الفقه من القرآن والحديث ، ومن اشتغل بنقل الحديث والتفسير وسيرة الرسول ، وعلوم القرآن والفقه وعلوم اللغة . وهكذا اتخذت الدولة طابعا عربيا متناسقا وموحدا في نظمها وحضارتها .

وحتى بعد أن صار هناك مجال لاسهام غير العرب في الدواوين ، فقد أصبح ذلك مقتصرا على من يعرف العربية . وكان هذا بدء تعريب من نوع جديد ، اذ أصبح نتاج واسهام هؤلاء الافراد والجماعات جزءا من الثقافة العربية . وهو تيار له أهميته في اغناء الثقافة العربية ، وفترة انتقال حيوية في تاريخها اصبحت مقدمة للفترة التالية ، فترة الاتصال بالثقافات الأخرى بصورة أعمق وأشمل في عهد العباسيين ، ولم تعد فترة الاتصال أو النقل عن الثقافات ومعارف الشعوب الاخرى أمرا عرضيا كما كان الحال في عهد الامويين ، وانما اصبح الاقتباس من ثمار الثقافات اليونانية والفارسية والهندية عنصرا اساسيا في اغناء الثقافة العربية وانمائها . وهكذا كان لابناء الشعوب الاخرى ممن يتكلمون العربية ويدرسونها يد طولى في بناء النهضة الفكرية في بغداد برعاية بني العباس .

واذا كان الطابع العربي قد ضعف في الجيش بعد أن أصبح الجيش من المرتزقة وحدهم ، فان الأمة العربية لم تنحل أو تختفي كأمة صاحبة رسالة وثقافة ، فلم يعد العرب الى وطنهم الاصلى في الجزيرة ، وانما استقروا في هذه الامصار والبلاد حيث كانوا ، وبدأوا يمتهنون مهنا اخرى ويعيشون حياة مدنية ويختلطون بالاهالي ويتزاوجون معهم — ومن هذا الاختلاط والامتزاج بدأت تظهر عناصر اخرى جديدة لها صفات جديدة كانت مصدر خصب ونماء للحضارة والثقافة العربية ، وأصبحت تتفاعل مع غيرها من العوامل في صورة منسقة لتؤدي الى نتيجة معينة هي تعريب هذه البلاد جميعا التي اصبح الاسلام دينها والتعاليم الاسلامية والثقافة العربية ثقافتها واللغة العربية لغتها(١) .

وكان من نتيجة تميز الحضارة العربية بالصفات الانسانية وأهمها عدم التفريق بين الناس استنادا للعرق أو اللون أو المعتقد ، أن احتوت حضارة العرب على أعلام من العرب والفرس والترك والبربر ، وضمت المسلم والمسيحي واليهودي ، والتاريخ السياسي يذكر أن عددا كبيرا من غير المسلمين تولى مراكز عالية ورئيسية في الدولة .

لقد أظهر العرب نبوغا سياسيا يندر في غيرهم من معتنقي ديانة جديدة . إذ فهم الخلفاء الأولون أن الأوضاع والديانات لا تلزم بالقوة . والتاريخ يدلنا بأنهم حيثما دخلوا مصر وسوريا وأسبانيا كانوا يعاملون الأهالي برفق تاركين لهم الخيار بالسير على الشرائع والمعتقدات التي يرغبونها ، ولا يطالبونهم مقابل محافظتهم عليهم الا بجزية قليلة بالنسبة للضرائب التي تقاضاها منهم الأسياد السالفون .

والخلاصة أن التاريخ لم ير تسامحا كتسامح العرب ولم يشهد ديانة كديانتهم في الرقة والتسامح(٢) .

ولا نستطيع ان نذكر في التاريخ شعبا وصل الى الدرجة التي ادركها العرب في تلك المدة الوجيزة . فقد نشروا من الوجهة الدينية ديانة من اعظم الديانات السائدة في العالم ، وشيدوا من الوجهة السياسية صروح احدى الممالك الكبرى التي عرفها التاريخ ، ومدنوا اوروبا من الوجهة الاخلاقية والعقلية(٣)

---

(١) المرجع السابق ص : ٨١ .

(٢) عمر فاخوري : « كيف ينهض العرب » دار الآفاق الجديدة ــ بيروت ١٩٨١ ص١٠ .

(٣) جوستاف لوبون : « حضارة العرب » ترجمة عادل زعيتر . عيسى البابي الحلبي ، القاهرة ١٩٦٩م .

ولقد ساهمت الحضارة العربية الاسلامية ، التي ظلت مبدعة طوال قرون عديدة ، مساهمة أساسية في الفكر الأوروبي والحياة الاوروبية ، ويتمثل ذلك في الروح العلمية عند العرب وحبهم للمعرفة ، وبحثهم عن الحقيقة وتعلقهم بها ، وانجازاتهم الكبرى في العلوم الطبيعية ، وحيويتهم المتدفقة . كل ذلك كان من امارات النهضة الاوروبية التي اهتمت بالعلم الطبيعي ، وهكذا امتلأت روح الانسان ثانية بالحماسة للمعرفة واندفعت بشعلة العبقرية ، واستطاعت ان تجد وتسرع في العمل والانتاج والاختراع . كان ذلك بفضل العرب الذين حفظوا وأكملوا مختلف فروع المعرفة ، وأبقوا روح البحث العلمي وجعلوا تلك الروح تواقة طيعة ومستعدة لاكتشافات أبعد مدى .

والواقع أن الدولة العربية منذ تاريخها وضعت الأسس للبحث العلمي فأسست المعاهد المخصصة لطلاب العلم ، وأجرت على مرتاديها الأرزاق ، فقد أسس الخلفاء « بيوت الحكمة » وجهزوها بالمكتبات ، واستقدموا اليها أفضل العلماء وأسسوا المدارس والجوامع ووضعوا لها نظما تشبه نظم المدن الجامعية اليوم ، وأهمها جامع القرويين في المغرب وجامع الزيتونة بتونس والجامع الأزهر بالقاهرة وجامع قرطبة بالأندلس وهي المراكز الأساسية للاشعاع العلمي وبناء الحضارة الاسلامية . والى جانب المعاهد العلمية أنشأت المكتبات ، وجعلت محتوياتها في متناول كل مطلع ، وأشهرها المكتبة العباسية ببغداد والفاطمية في القاهرة ، والأموية في قرطبة .

وأقبل الناس على السفر والسياحة في أنحاء العالم الاسلامي المترامية الأطراف ، وحتى ما وراءها سعيا وراء العلم وبحثا عن أساتذته ، وكانت وحدة الثقافة واللغة هي التي كانت تشعر كل عربي أنه في وطنه حيثما كان[١] .

ان الفتوح العربية تركت أثرا بالغا في تاريخ هذه المنطقة التي تشغلها شعوبنا اليوم . وقد أجمع الباحثون الذين عرضوا لهذه الظاهرة بالدراسة على انها لم تستهدف مجرد الفتح والتوسع ، وانها ليست اندفاعة من الاندفاعات المدمرة التي تحمل في اعقابها البؤس والخراب كغزوات المغول ، وانما كانت الفتوحات العربية تحمل في زحفها شعارات واضحة خلاصتها الجهاد ضد الحكومة الباغية اذا اختارت سبيل المقاومة ، والسلام للشعوب بعد تحريرها وتطبيق المثل الانسانية العليا في الحرية والاخاء والمساواة .

---

(١) احمد السمان : « المجتمع العربي » ـ دار الفكر بدمشق ١٩٦٢ ص٧٨ .

وثمة نتيجة أخرى ترتبت على حركة الفتوح العربية ، وهي أن المنطقة الممتدة من الخليج الى المحيط أصبحت بعد الفتح العربي مسرحا لتطورين هامين صبغا شعوب المنطقة ، أولهما الهجرة لكثير من القبائل العربية من مواطنها في أعقاب الفتح واستقرارها في البلاد المفتوحة ، وثانيهما انتشار الاسلام واللغة العربية على نطاق واسع بين الشعوب التي أظلها حكم العرب .

ولا شك أن هذا كله أدى الى سرعة تداخل الدماء العربية في دماء أهل البلاد ، وكان ذلك من أهم النتائج التي حققها الفتح العربي .

وهناك عامل آخر ساعد على تحقيق الوحدة السياسية الشاملة للبلاد العربية ، هو أن النظم التي استخدمها العرب في حكم تلك البلاد لم تكن جامدة ، وانما امتازت بالمرونة الى حد بعيد ، بمعنى أنها كانت ذات قابلية عظيمة للأخذ والعطاء ، فأخذ العرب من النظم والتقاليد الجديدة ما لا يتعارض مع أحكام الشريعة ، حتى أصبحت النظم العربية بمضى الزمن متلائمة مع كل بيئة وكل ثقافة وكل تقاليد ، وكان من نتيجة ذلك أن شعرت شعوب المنطقة في الحكم العربي براحة نفسية كبرى ، ولم تشعر أبدا بأن الحكومة الاسلامية حكومة غريبة عنها .

ولم تكن الوحدة التي أظلت هذه المنطقة الممتدة من الخليج الى المحيط وحدة سياسية فحسب ، وانما كانت أيضا وحدة ثقافية وفكرية اتخذت أكثر من مظهر ، فكان من مظاهرها اللغة العربية التي وضح انتصارها على اللغتين الفارسية واليونانية منذ القرن الثالث الهجري . واتخذت أداة للمخاطبة والثقافة والعلم[1] .

ثم ان شعوب المنطقة كلها انفعلت بثقافة عربية موحدة ، وازدهرت في ركاب العرب الحضارية نتيجة لما حققوه في جميع تلك البلاد من أمن واستقرار ، وأصبحت الأماكن التي استقر بها العرب مراكز للعلم والمعرفة ، وازدهرت الثقافة العربية بانتشار اللغة العربية وانتشار العقيدة الاسلامية .

ولا شك أن أهم ما ساعد على انتشار وازدهار هذه الحركة الفكرية كان تفهم العرب للثقافات القديمة واقبالهم عليها وتأثر الفكر العربي بثمار الفكر اليوناني والفارسي والهندي وغير ذلك من الثقافات التي اتصل بها العرب وأخذوا

---

(١) السيد الباز العريني وآخرون : المجتمع العربي . دار النهضة العربية للطباعة والنشر ــ بيروت ــ لبنان ١٩٦٨ ص١٠٥ .

عنها وأضافوا اليها . وكان أن استطاعت الحضارة العربية أن تهضم هذه الثقافات وأن تطبعها بطابع عربي واضح .

ان الحضارة العربية كغيرها من الحضارات التي عرفتها الانسانية في تاريخها الطويل لم تظهر فجأة ، وانما مرت حياتها بأطوار تاريخية شأن كل حضارة .

وكان أهم ما أحدثه الاسلام من أثر في حياة الانسان العربي هذه التغيرات الاجتماعية والنفسية ، فقد نشأ الفرد يحس بذاته ويشعر بكيانه ويتحمل وحده المسؤولية كاملة ، كما ضمن الاسلام للفرد حرية التفكير والعمل في نطاق الجماعة وفي الحدود التي تكفل بقاءها وسلامتها . وهنا اتجهت الحضارة الاسلامية الى دراسة الانسان وتقدير طاقاته ، والعمل على استغلالها لخيره ، يهديها في ذلك دين يعتمد على وحي موصولة أسبابه بالسماء ، ينظم هذه الطاقات ويشرع لها في اسلوب معجز وبيان مقنع ، يخاطب العقل ويثير الوجدان ويصقل النفس ويهذب الحس حتى يتم بذلك التعاون بين هذه الطاقات لتحقيق الرفاهية للانسان وحماية الجماعة . ولقد تحدد دور القرآن الكريم في حياة هذه الحضارة فيما يلي :

١ ــ اصلاح العقيدة
٢ ــ تنظيم حياة المجتمع .
٣ ــ تصفية النفس وانماء الارادة الخيرة وتربية الضمير الانساني .

وتلك من الأصول القوية لبناء حضارة تمتاز بالأصالة والعمق . كما وضع القرآن الكريم الأسس لبناء دولة راسخة الأصول والقواعد . ويتمثل هذا الدور في :

١ ــ التشريع لحماية الفرد وتنظيم حياته :
٢ ــ تقرير الأصول العامة لشؤون الدولة الداخلية والخارجية وتحديد علاقاتها بسواها .

٣ ــ أثر المدن العربية :

عملت المدن العربية على تنشيط الفكر العربي بما أعدته من ألوان الثقافات المترجمة ففي البصرة انصهرت ثقافات وتفاعلت فيها معارف ، وأخصها الثقافة اليونانية : وهي التي أدت الى ظهور الحركات المجددة في الفكر الاسلامي ، وأهمها الاعتزال ، وقد استطاع علماؤه كواصل بن عطاء ، وأبي

الهذيل العلاف ، وأبي اسحاق النظام أن يضعوا الأسس الأولى للاستفادة من الثقافة اليونانية في تعميق الفكر العربي حتى يسهم بجهده في تفسير الوجود وظواهره المختلفة .

وفي مصر أنشئت الفسطاط وبنى بها جامع عمرو بن العاص ، وكان يومئذ كبقية المساجد العربية الاسلامية يقوم بالدور الذي تقوم به الجامعة اليوم فيدوي في أرجائه أصوات الطلاب ، ويثور بينهم الجدل وتشتد الخصومة اما طلبا للحقيقة أو مغالبة في الرأي(١) .

ومثل ذلك كله نجده في المدن العربية الاسلامية التي أنشأها العرب في البلاد المفتوحة في القيروان وغرناطة وما اليها ، وان كانت الدراسة في هذه المدن تكاد تكون صورة لما كان عليه الأمر في المدن العربية الشرقية ، فقد تحولت هذه المدن جميعها الى معاقل للفكر وحصون للثقافة . .

وفي بغداد ظهرت حركة الترجمة واسعة من كل علم وفن ، ولم تقتصر الترجمة على التراث اليوناني فحسب ، وانما تجاوزته الى الترجمة عن التراثين الهندي والفارسي .

فالحضارة العربية في المشرق قامت بعملين هامين :

١ ــ حفظ التراث الانساني في العلم بترجمته الى العربية وجمعه من العبث .

٢ ــ اضافة الجديد اليه في كل نوع منه ، ولا تزال بحوثها في هذه النواحي يشار اليها في تاريخ العلم .

ولا شك ان الأمة العربية كانت قد وصلت الى أعلى المراتب في العلم والحضارة ولكنها بعد ذلك انقطعت عن التقدم وجمدت في مكانها ، ثم أخذت تتقهقر في جميع الميادين : مدارسها أهملت العلوم بأجمعها ، علماؤها وأدباؤها صاروا يقتصرون على اجترار الأبحاث القديمة من غير ابتكار ولا تجديد .

وقد حدث ذلك كله في الوقت الذي اخذ الاوروبيون ينهضون نهضتهم المعلومة بفضل العلوم التي اقتبسوها من العرب ، ثم صاروا يتقدمون في ميادين الابتكار والاختراع بسرعة كبيرة تتزايد يوما عن يوم . واستمر الحال على هذا المنوال قرونا عديدة تخلفت خلالها الأمة العربية عن ركب الحضارة والعلوم تخلفا كبيرا(٢) وبعدت الشقة بينها وبين الدول الاوروبية .

---

(١) المرجع السابق ذكره ص١٤٩ (٢) ابو خلدون ساطع الحصري : المرجع السابق ص١٦

المبحث الثاني
الثقافة العربية

١ ـ مفهوم الثقافة :

ان المقصود بدراسة الثقافة هو دراسة التصرفات الاجتماعية للانسان وما يصاحب هذه التصرفات من انتاج . والثقافة اختراع اجتماعي ، كما أنها تنتشر وتكتسب عن طريق الانتقال والتعلم [١] .

ولما كانت الثقافة تظهر نتيجة للاختراع الاجتماعي كان طبيعيا أن تختلف مظاهرها من مجتمع لآخر ، وأن يكون لكل مجتمع ثقافته التي يتميز بها ، وهذا يتمثل في اختلاف كثير من نماذج التصرف من مجتمع لآخر ، وان كان هذا لا يمنع من وجود بعض العناصر الهامة لثقافة تشترك فيها كل المجتمعات[٢] .

ويمكن تمييز وظيفتين واضحتين للثقافة :

الأولى : ان الثقافة اخترعها الانسان لحل المشكلات التي صادفته في حياته والتي ساعدته على التغلب على البيئة الطبيعية والسيطرة عليها وتسخيرها في خدمته . وهكذا فان الثقافة هي البيئة الاجتماعية التي اخترعها الانسان وأسلوب الحياة الذي يميز مجتمعا انسانيا عن مجتمع آخر ؛ وعلى هذا الاساس يتميز المجتمع العربي عن المجتمعات الانسانية الأخرى بممارسته للثقافة العربية .

والثانية : هي قدرة الثقافة ذاتها على الانتقال من جيل الى آخر عن طريق عملية التعلم سواء أكانت مقصودة أو غير مقصودة . وتنتقل الثقافة من جيل الآباء الى جيل الأبناء مع وجود امكانية حدوث تعديلات وتغيرات ثقافية تتمثل في الاختراعات وما يقتبسه المجتمع من استعارات ثقافية .

وفي ضوء هذا التعريف تصبح الثقافة نظرية في السلوك كما هي نظرية في المعرفة . وقد عرفها العالم العربي مالك بن نبى بأنها مجموعة من الصفات

1. Clyde Kluchohn, Mirror for Man (W.Y.) 1949 P. 21.

2. Adamson Hohel, Man in the primitive World, N.Y.: 1958, P.7.

الخلقية والقيم الاجتماعية التي يتلقاها الفرد منذ ولادته ، وهي المحيط الذي يشكل فيه الفرد طباعه وشخصيته[1] ويركز التعريف السابق على الجانب الروحي وغير المادي للثقافة . ولذلك يميل الكثير من العلماء الى تركيز مفهوم الثقافة حول الآداب والفنون والمعتقدات واللغة والقيم .

٢ ـ مفهوم المجتمع العربي :

المجتمع مجموعة من الناس يعيشون في مكان معين ، يتمثلون قيما واحدة وتجمعهم فيه مصالح مشتركة وعلاقات منظمة تختلف باختلاف طبيعة كل مجتمع .

والمجتمع العربي استكمل عناصر ومقومات وحدته في البيئة والثقافة والتاريخ ، وتسوده ارادة مشتركة .

والمجتمع العربي أرض تقطنها جماعة بشرية لهم لغة واحدة يتحدثون بها ، ووحدة في الفكر والتاريخ والتقاليد والعادات ، ثم ارادة مشتركة في الحياة المشتركة ، وشعور شامل بوحدة المصير .

وللمجتمع العربي من الشعور المشترك والتراث وارادة الحياة المشتركة والعلاقات الطبيعية القائمة على أساس التكامل بين جماعاته والتماسك بين أفراده ما يجعل منه أسرة واحدة كبيرة[2] .

وقد وضح مفهوم الوطن العربي في تعريف الجامعة العربية لوصف العربي ـ كما جاء في خطاب أمينها العام في الجمعية العامة للأمم المتحدة لدى دعوته مراقبا في ٣ نوفمبر ١٩٥٠ ـ اذ قال : « حددت الجامعة العربية وصف العربي بأنه الشخص الذي يقطن أرضنا ويتكلم لغتنا ويشاطرنا ثقافتنا وأمانينا »[3] .

أقام المجتمع العربي في وطنه الكبير حضارة عريقة امتدت على الزمن ، ولم تجر عليها الأيام كما جارت على غيرها من الحضارات المندثرة والتي عمرت خلال فترة قصيرة من الزمن . ولعل أبرز مظهر من مظاهر الاستمرار في حضارة العرب ومجتمعهم « اللغة العربية » التي تعتبر بحق أقدم اللغات الحية المعاصرة وأطولها عمرا .

---

(١) مالك بن بني : شروط النهضة ومشكلات الحضارة ترجمة عمر مسقاوي وعبدالصبور شاهين ـ دار الفكر بالقاهرة . الطبعة الثالثة ١٩٦٩ .

(٢) عزالدين فودة « المجتمع العربي » ـ دار الفكر العربي طبعة ثانية ١٩٦٦ ص١٠

(٣) المرجع السابق ص٩٥ .

ان حضارة وثقافة المجتمع العربي على خلاف غيرها من حضارات وثقافات المجتمعات الأخرى المعاصرة ، تجمع بين القدم والاستمرار . ولا يعني القدم والاستمرار في الحضارة والثقافة ان المجتمع العربي هو مجتمع محافظ على القديم أو عازف عن التجديد . ذلك أن العرب الى جانب احتفاظهم بتراثهم كانوا مجددين ، تتمثل أفكارهم بافكار وثقافات الشعوب الأخرى المجاورة .

ويتميز المجتمع العربي بأنه عاش تاريخه الطويل خلال ثلاثة عشر قرنا مضت ، تظله راية واحدة ويخضع لسيادة قانونية موحدة للخلافة الرشيدة في المدينة المنورة والخلافة الأموية في دمشق ، والخلافة العباسية في بغداد ، فالخلافة العثمانية في استنبول . وكان الخليفة في بغداد هو الذي يحمل وحده لقب « أمير المؤمنين » وهو وحده الذي يدعى له على منابر المساجد في مصر أو الشام الى غير ذلك من مظاهر الاعتراف بسيادته والخضوع له . وما كان ظهور الخلافة الأموية المستقلة في الأندلس أو الخلافة الفاطمية في مصر وتلقيب القائمين عليها بألقاب السيادة للخلفاء أو الدعوة لهم وحدهم في المساجد ليغير من واقع الأمر شيئا . فهذه الخلافة في الأندلس أو تلك في القاهرة انما قامت لظروف استثنائية مرت بحياة الأمة العربية وخلال فترات محدودة من تاريخها الطويل .

وما من أمة تستطيع أن تمحص واقعها في دقة وصدق ، ما لم تربط بين هذا التراث التاريخي وامكانيات الواقع الحاضر وشروط استمرارهـا في المستقبل ، بل ما من مجتمع يستطيع أن يتناسى واجبه وغايته في اقامة صرح للقيم التي يسعى الى تحقيقها في وجدان كل مواطن [١] .

وتتكون الأمة العربية منذ القدم حتى اليوم من الشعوب العربية ، فان كل شعب يتكلم العربية هو شعب عربي . وكل من ينتسب الى شعب من هذه الشعوب العربية ، هو عربي[٢] .

وحياة الأمم وأحوالها لا تسير على وتيرة واحدة ، بل انها تتغير وتتطور على الدوام ويكون هذا التطور تارة على شكل تقدم واعتلاء ، وطورا على شكل تقهقر وضعف .

---

(١) المرجع السابق ص١٥ .

(٢) انظر : جميل سعيد : « اللغة العربية والمجتمع العربي الاسلامي » المقدمة .

والأمة العربية خضعت لهذا القانون العام ، مثل سائر الأمم بالاختلاف الهائل الذي بدأ بين ماضيها وحاضرها ، خلال هذه التطورات .

في عهد تقدم الأمة العربية كان رجال الفكر والعلم في البلاد الأوروبية ينهلون من مناهل العلم القائمة في الأندلس ، ويتهافتون على درس المؤلفات العربية من ترجماتها اللاتينية أو من نصوصها الأصلية . وصارت الجامعات تتنافس على اقتناء الكتب العربية ، واستكمال وسائل تعليم اللغة العربية ، وكان علماء الفلك مثلا يصرحون بأن معرفة اللغة ضرورية لمن يريد أن يحيط بحقائق هذا العلم ، وكان رجال الفكر يعترفون ـــ بوجه عام ، ان التبحر في العلم والفلسفة لا يمكن أن يتم من غير درس المؤلفات العربية وفي أواخر ذلك العهد ، صار المفكرون ـــ في البلاد العربية ـــ يتساءلون فيما اذا كان يمكن الاستغناء عن اللغة العربية في تحصيل العلوم[١] .

واليوم نتساءل : من هو العربي ؟ وما هي الأمة العربية ؟ وما هي الشعوب التي تدخل في مفهوم كلمة العرب . سمعنا من يقول « ان العربي هو الذي يتكلم العربية » ومن يقول « من يريد أن يكون عربيا » ومن يقول « هو من يعتز بالعروبة » .

والمصدر الأساسي لهذه الاختلافات هو تعدد الدول العربية وانقسام الأمة العربية بين هذه الدول المتعددة . فقد انقسمت البلاد العربية بعد الحرب العالمية الأولى الى دول عديدة ليس مراعاة لمصالح الأهلين بل تنفيذا لرغائب المستعمرين ، والفروق التي تظهر لنا الآن بين أهالي هذه الدول العديدة انما هي فروق عارضة سطحية لا تبرر قط اعتبارهم منتسبين الى أمم مختلفة ... لمجرد انتسابهم الى دول مختلفة ، تكونت كلها من جراء المناورات والمساومات التي قامت بها الدول الأجنبية . والمشاكل الداخلية والخارجية لم تكن خاصة بنا وجدنا ان كل أمة من الأمم التي نهضت وتوحدت جابهت من المشاكل مثل ما جابهنا ، وصادفت من العقبات مثل ما صادفنا . ولكنها تغلبت في آخر الأمر على جميع تلك المشاكل واجتازت كل تلك العقبات .

---

(١) أبو خلدون ساطع الحصري : ابحاث مختارة في القومية العربية . المرجع السابق ص١٥ .

٣ ــ الثقافة العربية :

الثقافة تنمية للأفكار ، وهي أسلوب التفكير والعمل ، وتختص بالأمور الذهنية والمعنوية . والثقافة تختص بكل أمة على حدة ، وترتبط بلغة الأمة وأدبها . لأن اللغة واسطة التفكير ، فضلا عن كونها واسطة لنقل الآراء والأفكار ولتبليغ الأحاسيس والانفعالات ، وتختلف ثقافات الأمم باختلاف لغاتها وآدابها . والأمم تتميز عن بعضها البعض بثقافات خاصة ، وتشترك مع بعضها بحضارات عامة ، بينما تكون الثقافة خاصة بكل أمة على حدة(١) .

واذا نظرنا الى المجتمع العربي من الخليج الى المحيط لوجدنا بين أبنائه حداً أدنى من الوحدة والاتفاق والانسجام في الأفكار والمثل والعقيدة والاخلاق والعادات والأنظمة . غير أن القول بأن هناك قدرا مشتركا يسود المجتمع في هذه العناصر أو المظاهر للثقافة الواحدة ، ليس معناه انها واحدة عند جميع أفراده . ففي كل ثقافة مظاهر عامة سائدة ومقبولة من الجميع ، كما أن هناك عناصر أخرى فرعية تتقبلها جماعة دون غيرها مثل اللهجات وبعض العادات والفنون المحلية . وليس في وجود هذا النوع الثاني من الثقافة خطر على وحدة المجتمع بل قد تتفاعل مع العناصر السائدة وتندمج في صلب ثقافة الأمة(٢) .

فوجود قدر من الاختلاف بين الأفراد والجماعات في الأمة والمجتمع لا تتعارض مع وحدة الثقافة فيه طالما أن هناك اشتراكا عاما في الأفكار والمثل والعقائد وغيرها من مقومات الوحدة الثقافية الممثلة في وحدة اللغة التي تعبر عن الاتساق في الأفكار والمشاعر ، وفي غلبة عقيدة دينية مشتركة تعبر عن رسالة العرب في الحياة ، وفي نظم الحكم المشتركة ممثلة في وحدة الشريعة الاسلامية .

٤ ــ خصائص الثقافة العربية :

ومن خصائص الثقافة العربية ما يلي :

١ ــ أن هناك ثقافة عربية تشكل اللغة العربية اطارها وهي لغة ذات تاريخ قديم متصل الحلقات .

٢ ــ أن التراث الفكري لهذه الثقافة تراث خصب غني ، اتسعت آفاقه لثمار الثقافات القديمة الأخرى التي احتك بها العرب في أيام نهضتهم .

(١) ساطع الحصري : « ابحاث مختارة في القومية العربية » المرجع السابق ص١٧٩ .

(٢) عزالدين فودة : « المجتمع العربي » المرجع السابق ص١٩٧ .

٣ ــ لم تكن حواضر البلاد العربية مراكز لحركة النقل والترجمات عن الآثار والتعاليم للحضارات القديمة الأخرى فحسب ، وإنما أصبحت ينابيع للفكر والنبوغ العربي وموردا للثقافة العربية بكل مظاهرها ، وظهرت فكرة الارتياد عند رجال العلم وطلاب الثقافة كأثر واضح لدرجة الوحدة الثقافية التي بلغها المجتمع العربي في تلك العصور . وكان الأساتذة يتوافدون الى مراكز التعليم في مختلف الأقطار التي تتكلم العربية .

٤ ــ ان لهذه الثقافات آدابها وفنونها وآثارها التي انطبعت بطابعها الخاص وتأثرت بظروفها ومزاجها . فالفكر العربي تأثر تأثرا شديدا بالقرآن الكريم الذي كان أساسا للتعليم ولعلوم الفقه واللغة والكلام .

٥ ــ ان مكان نبوغ هذه الثقافة وعصرها كان وسطا بين أمم الشرق والغرب ووسطا بين عصور قيام الثقافات ونشوء الحضارات والمدنيات مما أهلها لدور الوسيط الذي انتقلت خلاله الثقافات القديمة الى العالم الحديث(١) .

وقد نشأ في غرناطة فيلسوف مسلم لم يسبق له مثيل في تاريخ الفلسفة وهو ابن طفيل المتوفى سنة ١١٨٥م ، والذي وضع رواية « حي بن يقظان » حاول فيها اثبات أن المرء اذا ترك لنفسه ولم يتأثر بعوامل خارجية من تربوية أو غيرها يستطيع أن يدرك حقيقة الخالق وواجباته نحوه وترجم هذا الكتاب الى اللاتينية أحد أساتذة جامعة اكسفورد عام ١٦٧١م .

ومما لا ريب فيه أن قصة « روبنسون كروزو » الطريفة منسوجة على منوال « حي بن يقظان » وحتى القرن الخامس عشر الميلادي كانت كتب ابن سينا تحتل مكان الصدارة في الجامعات الأوروبية .

٦ ــ تمتاز الثقافة العربية بالنسبة للثقافات الأخرى بأنها ثقافة محررة وانها كانت وسيلة لتحرير الشعوب التي تقبلتها وغذتها من الخرافات والوثنيات والعصبيات والمظالم ، وطريقا الى ايقاظ الوعي في هذه الشعوب وتغذيتها بمثل أخلاقية جديدة وفلسفة في الحياة والاجتماع متميزة .

لقد أخذت الفكرة القومية المبنية على أساس اقامة الدولة على أسس مشتركة في الأمة ــ اللغة ــ الوطن ــ المشاعر ــ التاريخ ــ تتسرب الى الشرق

---

(١) المرجع السابق : ص١٨٤ .

وتفعل فعلها في بعض مثقفيه ، وبدأ الناس يتحدثون عن الوطن والأمة والقومية والحرية(١) .

ان نظرة العرب الفطرية وخيالهم الغريزي وروحهم الأدبية والابتكارية ظهرت في آثارهم الجديدة ، حتى انهم أثروا في وقت قليل في البناء والفنون والعلوم ، ووضعوا عليها ذلك الطابع الخاص الذي يعرفنا بنظرة واحدة انها صنع أيديهم وثمرات أفكارهم . فالحضارة العربية لم تقترن بزمن ، بل بدأت منذ زمن بعيد وسايرت أحداث الأرض وتمازجت مع حضارات الأمم وثقافاتها(٢) .

ان اللغة العربية صارت لغة الدين والصلاة عند العرب غير المسلمين أيضا ، فالعرب النصارى ترجموا الكتاب المقدس الى العربية ، فصاروا يتلون الانجيل باللغة العربية ، ويبتهلون الى الله باللغة العربية ، ويرتلون أناشيدهم الدينية باللغة العربية ، كما صار رجال دينهم يعظونهم باللغة العربية ، لذلك نستطيع أن نقول : أن اللغة العربية أصبحت لغة الدين والصلاة عند المسلمين والنصارى على حد سواء .

والدولة التي تأسست في صدر الاسلام كانت دولة عربية قامت على أساس دعوة دينية ، وكان شعارها حماية تلك الدعوة والقيام عليها(٣) .

٥ ــ القيم في المجتمع العربي :

ان كثيرا من القيم التي ظلت تتوارث عبر قرون طويلة وتتعمق في باطن التاريخ لهذه المنطقة تتعرض اليوم لاجتياح عادات وتقاليد غريبة وقادمة من وراء البحار أومن وراء المحيطات ، وفي تراثنا وتقاليدنا قيم رائعة لا بد أن نذود عنها ضد محاولات مسحها من خارطة حياتنا الاجتماعية .

ولما جاء الاسلام وأمر العرب بطلب العلم ، عكفوا على دراسة التراث الفكري القديم ، ووضعوا لأنفسهم طريقة علمية في البحث والاستنتاج فأثبتوا

---

(١) عمر فاخوري : « كيف ينهض العرب » المرجع السابق ــ دار الآفاق الجديدة ــ بيروت ١٩٨١ ــ ص/٤٢ وانظر ايضا : توفيق علي برو : « القومية العربية في القرن التاسع عشر ص/١٥٦ .

(٢) عمر فاخوري : « كيف ينهض العرب » المرجع السابق ص/٦٤ ، وانظر ايضا محمد عزة دروزة « الوحدة العربية » ص/٣٨٤ .

(٣) علي عبدالرازق : الاسلام واصول الحكم عام ١٩٢٥ ص٩٢ .

كفاءتهم كطلاب علم ونقلة وتراجمة ثم أصبحوا مع الزمن أساتذة المدنية ومنشئي تراثها ، ومؤلفي كتبها في أوج تألقها ، وتركوا للأجيال تراثا حفظ للعالم حضارته القديمة وأضاف اليها حضارة جديدة كانت الطريق الى النهضة العلمية الحديثة وتبرز قيمة الفرد وقيمة المجتمع في آن واحد ، فالعربي يحمل الولاء لقبيلته وأسرته الواسعة، كما تقدم له قبيلته الحماية ، فتنصره وتثأر له ، وتنصر من يمنحهم حمايته . فوحدة القبيلة وتضامنها وولاء كل فرد فيها لمجموعها كانت دعامة الحياة الاجتماعية . والسلطة في العشيرة لشيخها الذي ينتخب رئيسا من الأسرة الأكثر نفوذا . وبذلك يجمعون بين مبدأي الانتخاب والوراثة .، وليس هذا الرئيس فوق الآخرين ولكنه واحد منهم ، لأن الحياة في الصحراء تسوى بين الناس ، والقرارات الهامة انما يتخذها رجال العشيرة في اجتماعاتهم ولكل منهم أن يعلن عن رأيه .

ان البدوي الذي يمتطي ناقته ويجتاز بها مساحات صحراوية حارقة يبحث عن الماء وعن العشب يحمل بين ضلوعه الصلبة المتحدية قيما وعادات وتقاليد هي بمعيار الارث الانساني تمثل انجازا حضاريا لا يقارن[١] .

ولا يزال البدو يحافظون على تماسكهم وممارسة عاداتهم المتميزة التي حافظوا عليها ارثا من سلف لخلف طوال التاريخ . وكثير من الناس ينظرون اليوم الى البادية على انها رمز للتخلف والعزلة وحاجز صخري يقف في وجه استخدام وسائل العصر والتفاعل مع معطيات الحياة الجديدة .

وزعامة القبيلة أمر شاق ، فشيخ القبيلة قائدها في الحرب ، وقاضيها في السلم وكافل أفرادها كل يوم . وقد أتاحت مجالس العشيرة ، والاجتماعات في الأسواق الرسمية فرصة للمفاخرة واظهار الكفاية الشاعرية فكانت القبيلة تفاخر منافستها في الخطباء والشعراء ، وهم لسان الرأي العام في الصحراء .

ولكن الشيء المؤكد أن البادية كنظام سياسي ، له قواعده وله نظمه التي تسيره وتتحكم في الربط بين القبائل كأفراد وبين هؤلاء الأفراد وشيخ القبيلة[٢] .

---

(١) حسن قايد : « بادية الامارات ــ عادات وتقاليد » مؤسسة الاتحاد للصحافة والنشر والتوزيع ص/ ٩ .

(٢) المرجع السابق : ص/ ١٤ .

ولا يقوم النظام السياسي في البادية على أساس قوانين منظمة كما يحدث في الدولة الحديثة . ان النظام القبلي في البادية يحكمه وينظمه العرف والعادات والتقاليد التي تضرب في الجذور العميقة لتاريخ هذه القبائل . والنظام القبلي الذي يتحكم بنواميس البادية أشد صرامة وأكثر احتراما وتقديسا من قبل أفراد القبيلة من ذلك الاحترام الذي نراه للقوانين الوضعية ، والسبب ان التزام البدوي بعادات القبيلة ينبع من اقتناع يصل الى حد التعصب لكل ما اتفق عليه الضمير الجمعي في القبيلة . وكل ما انحدر من تراث قد يكون موغلا في بعض الأحيان في القدم وينحدر من عهود الأجداد الأوائل الذين أسسوا هذه العادات وبدأوا يمارسون هذا السلوك .

ودرجة التمسك القوي بالنظام القبلي في البادية مرجعه الى احساس الكل بضرورة حماية هذا النظام ، واقتناع الجميع بأنه ملك لهم وجزء من حياتهم وبأنه لم يفرض عليهم من سلطات فوقية جاءت بقرار أو بقانون انها قواعد ونظم للعمل وللانتاج وللتعامل بين الناس .

وكان مقياس القيم عندهم صلتها بالفضائل الاجتماعية ، فالكرم فضيلة ، لأنه يمثل فضل المرء على سواه ، وكذلك المروءة والشجاعة والمحافظة على العهد فهي فضائل اجتماعية(١) .

أما الصلات بين القبائل فكانت في أكثر الأوقات صلات حرب ، اما تنافسا على الماء والمرعى ، واما ثأرا لكرامة ، واما عصبية لحليف ، فحياة العرب القلقة أثارت فيهم العصبية القبلية ، والغلظة والقسوة في معاملة الأعداء .

على أن العرب كانوا يشعرون برابطة عامة تجمع قبائلهم ، فكانوا يجتمعون في كل عام في مواسم معينة ليقيموا أسواقا يتبادلون فيها البضائع ، ويعرضون فيها فنونهم ولا سيما أشعارهم ، وكانوا يقصدون مكة لأداء شعائر الحج في شهر ذي الحجة ، أحد الأشهر الحرم التي يمتنع فيها الاعتداء والقتال ، وكان موسم الحج أكبر محافلهم وأشملها ومنه استمدت قريش مكانتها المرموقة بين قبائل العرب . وكذلك كانوا يقصدون أسواقا موسمية في مختلف مناطق الجزيرة العربية ، فكانت مثل سوق عكاظ مجمعا للتجارة والشعر والاتصال .

---

(١) احمد السمان : « المجتمع العربي » المرجع السابق ص/٦٣ .

ولم يكن العرب في تاريخهم منعزلين عن العالم الذي يحيط بهم من كل جانب ، بل كانوا بحكم موقع جزيرتهم يدركون أنهم أمة وسط بين الشعوب ، فكانوا منذ عهد بعيد يحملون التجارة بين الشام ومصر وبين اليمن ، كما كانوا يحملونها بين فارس والبحر الأحمر .

هذه الأمة الممزقة في حروب قبائلها ، المتحصنة وراء رمالها ، يوحدها الاسلام وتكون دولة تجمع شملها وترفع علمها في مدة عشرين عاما ، فتقدم للتاريخ مثالا فذا لحدوث معجزة لم يكن أحد يتوقعها .

٦ ـ مآثر الاسلام :

لما جاء الاسلام وأمر العرب بطلب العلم ، عكفوا على دراسة التراث الفكري القديم ، ووضعوا لأنفسهم طريقة علمية في البحث والاستنتاج ، فأثبتوا كفاءتهم كطلاب علم ونقلة وتراجمة ، ثم أصبحوا مع الزمن أساتذة المدينة ومنشئى تراثها ، ومؤلفي كتبها في أوج تألقها ، وتركوا للأجيال تراثا حفظ للعالم حضارته القديمة وأضاف اليها حضارة جديدة كانت الطريق والوسيلة الى النهضة العلمية الحديثة .

. يهدف الاسلام الى سعادة الناس في دنياهم وفي آخرتهم وفي الآيات الكريمة عرض حقيقة الانسان ، وفي ذلك قوله تعالى :

(فلينظر الانسان مم خلق ؟ خلق من ماء دافق يخرج من بين الصلب والترائب)(١) .

(أولم ير الانسان أنا خلقناه من نطفة فاذا هو خصيم مبين ، وضرب لنا مثلا ونسى خلقه)(٢) .

(يا أيها الانسان ما غرك بربك الكريم ، الذي خلقك فسواك فعدلك . في أي صورة ما شاء ركبك)(٣) .

هذه الآيات تنديد بغطرسة الانسان وكبريائه ، وأن هناك في العالم قوى أخرى فوق قوته هي التي تمنحه الحياة وتسلبه اياها متى تشاء هذا من

---

(١) الطارق ٥ ـ ٧

(٢) يس : ٧٧ .

(٣) الانفطار : ٦ .

جانب ، ومن جانب آخر فان الاسلام يبين للنوع البشري انه ليس من الذلة والمهانة والابتذال حيث يحسب نفسه . وفي ذلك يقول تعالى : (ولقد كرمنا بني آدم وحملناهم في البر والبحر ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلا)(١) .

فالانسان ، كما هو واضح ، ليس من علو المكانة وارتفاع المنزلة حيث يحسب نفسه عندما يميل الى جانب الافراط ، ولا هو من الدناءة والمهانة حيث يضع نفسه عندما يميل الى جانب التفريط . فالله تبارك وتعالى قد جعل الانسان خليفته ، أي : نائبا عنه ، في أرضه ، وأعطاه من العلم ما لم يعطه الملائكة وجعل لعلمه فضيلة على تسبيح الملائكة وتقديسهم اذ أمرهم بأن يسجدوا له فسجدوا في قوله تعالى : (واذ قال ربك للملائكة اني جاعل في الأرض خليفة ، قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك قال اني أعلم ما لا تعلمون . وعلم آدم الأسماء كلها ثم عرضهم على الملائكة فقال أنبئوني بأسماء هؤلاء ان كنتم صادقين . قالوا سبحانك لا علم لنا الا ما علمتنا ، انك أنت العليم الحكيم)(٢) .

ان منزلة الانسان ، من حيث هو نائب عن الله وخليفته في الأرض أعلى وأشرف من منزلة كل شيء في السماوات والأرض وما كل هذه الاشياء الا دونه حيث ما خلقت الا ليتمتع بها ويتصرف فيها على ما تقضيه مرضاة مولاه ، ومن العار عليه أن يطأطىء رأسه لشيء من هذه الأشياء ، فانه بذلك انما يظلم نفسه ويتخلى بنفسه عن منصب الخلافة الالهية ، وانما هناك كائن واحد هو الذي يجب على الانسان أن يطأطىء له رأسه ويتزلف اليه بطاعته واتباع أحكامه ،! وهو بسجوده له والتذلل اليه لا يزيد نفسه الا شرفا وعزة وكرامة الا وهو الله مولاه الذي خلقه وجعله خليفته في الارض(٣) .

وكل شيء يستخدمه الانسان ويتصرف فيه وينتفع به في هذه الدنيا ليس ملكا له ، وانما لله سبحانه وتعالى هو مالكه وصاحب الأمر والسلطة في شأنه . فدائرة صلاحية الانسان محدودة بأن يتبع هدى الله ولا يتصرف في شيء في هذه الدنيا الا حسب أوامره وأحكامه ، فلا يتبع هواه أو يتخذ أحدا غير الله مالكا

---

(١) الاسراء . ٧٠ .

(٢) البقرة : ٣٠ ، ٣٦ .

(٣) ابو الاعلى المودودي : الحضارة الاسلامية . اسسها ومبادئها . المرجع السابق ص٢٢ .

وحاكما لنفسه يتعدى حدود دائرة صلاحياته . قال الله تعالى : (يا داود انا جعلناك خليفة في الأرض فاحكم بين الناس بالحق ولا تتبع الهوى فيضلك عن سبيل الله . ان الذين يضلون عن سبيل الله لهم عذاب شديد بما نسوا يوم الحساب)(١) . (قل اللهم مالك الملك تؤتي الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء وتعز من تشاء وتذل من تشاء بيدك الخير انك على كل شيء قدير)(٢) .

٧ ـ الأخلاق في الاسلام :

الأخلاق معايير للسلوك ، وهي ثقافة فرعية تتنوع وتتعدد طبقا للأوضاع التي تشارك فيها والقوة التي تساندها والأفراد والجماعات التي تلتزم بها(٣) .

وتعتبر الأخلاق أكثر فعالية وقوة من العادات الشعبية لأنها تعبر بطريقة مباشرة عن القيم الثقافية الأساسية للمجتمع ، كما أنها تعتبر أكثر أهمية للأفراد من العادات الشعبية ، وتنظم الأخلاق قواعد السلوك والزواج ، والأمانة وغيرها .

وبالرغم من أهمية الأخلاق كمعيار ثقافي ، الا أنها مع ذلك ليست مقيدة للأفراد أو الزامية لهم في المجتمع كما أنها لا تقاوم مجرى التغير الاجتماعي ولا تقف ضده على الاطلاق .

وترضى الأخلاق احتياجات البشر ورغباتهم وأفكارهم ، كما أنها تعتبر أداة منظمة للسلوك السياسي والاجتماعي والديني للأفراد .

وللأخلاق فائدتها للجماعة البشرية ، فهي من جانب لا تعبر عن أية ضرورة فيزيقية كالطعام أو النوم ، ومن جانب آخر فهي مستقلة عن رغبات الأفراد الذين يقبلونها طواعية ويعتبرونها أفعالا طيبة ذات قيمة .

ومما يكاد يجمع عليه رأي الحكماء والفلاسفة ان نظام العالم لا بد له من الاختلال والانتهاء يوما من الأيام ، غير أن فيهم عددا لا يستهان به يقولون : ان الموت انما هو فناء محض لا حياة بعده بأي شكل من الأشكال .

---

(١) ص : ٢٦ .

(٢) آل عمران : ٢٦ .

3. Paul Sites: "Control and Constriant" Macmillan Publishing Inc. N.Y.: P.28.

فاذا ما قام أي مجتمع على تلك الفكرة الأخيرة من الأخلاق فلا بد أن تنقلب كل تصوراته المعنوية وقيمه رأسا على عقب . وفي هذه الحالة لا يقوم كل نظامه للأخلاق والأعمال الا على الاثرة والأنانية وحب الذات . وجملة القول ان الانسان ما دام لا يخاف أو لا يرجو نتيجة سيئة أو حسنة وراء هذه الدنيا ، فانه لا يطمح ببصره وراء أعماله الا الى النتائج العاجلة الظاهرة في هذه الدنيا نفسها .

وفي ذلك يقول الامام أبو الأعلى المودودي : « ... ولقائل أن يقول في هذا المقام : ان الدنيا ليست فيها للجزاء أو العقاب الخسائر والمنافع المادية والجسدية فحسب ، بل هناك في داخل الانسان قوة تعرف بالضمير يكون تأنيبها وعدم ارتياحها عقوبة كافية للانسان على اقتراف الذنوب والآثام ، ارتياحها جزاء كافيا للانسان على أدائه الحسنات والخيرات والصالحات ... اذا قيل هذا : قلت جوابا عنه : ان هناك من الذنوب والآثام ما أن فوائده الدنيوية ولذائذه المادية تجعل الانسان لا يبالي بتأنيب الضمير ، وهناك من الحسنات والصالحات ما لا بد للانسان اذا أراد اداءه أن يقوم بتضحيات جسيمة لا يكاد مجرد ارتياح الضمير أن يكون جزءا كافيا عليها . ثم اننا اذا فكرنا في حقيقة الضمير نفسه علمنا ان ليست وظيفته ان يخلق التصورات الخلقية ، وانما وظيفته أن يؤيد ما يرسخ في ذهن الانسان من التصورات الخلقية بنوع خاص من التربية والتعليم ، لأجل هذا فان ضمير الكافر لا يؤنبه على كثير من الأعمال التي يؤنب عليها ضمير المسلم اياه »[1] .

اذن فان مجتمعنا انسانيا اذا تبدلت تصوراته المعنوية ، وانعكست مقاييسه للخير والشر فانه لا بد أن تتغير مع ذلك وجهة الضمير نفسه ، فهو اذن لا يؤنب الافراد أبدا على أعمال قد تخلى المجتمع عن الاعتقاد بفسادها ، ولا يشعر بشيء من الارتياح والطمأنينة اذا ما اقترفوا أعمالا لا يعتقد المجتمع بصلاحها .

---

(١) ابو الاعلى المودودي : المرجع السابق ص٤٢٧ .

الفصـــل الرابع
الخلفية التاريخية للمجتمع العربي

حركات الترابط السياسي في المجتمع العربي

إعـــداد
الدكتور عبد الوهاب أحمد

خلفية تاريخية :

يتمتع الوطن العربي بموقع جغرافي فريد في العالم اذ انه يربط بين قاراته الكبرى الثلاث ألا وهي : آسيا وافريقيا واوروبا ، ويشرف ويتحكم من حيث الملاحة والتجارة على أهم ممرات مائية هي البحر المتوسط ، والبحر الأحمر والخليج العربي .

ومع اتساع الوطن العربي وامتداده الشاسع من المحيط الاطلسي غربا الى الخليج العربي شرقا ، ومن جبال طوروس شمالا حتى خط الاستواء جنوبا ، فان رقعته تمثل وحدة سكانية متصلة تربط بينها روابط وشيجة أهمها وحدة اللغة والدين والثقافة والتاريخ والمصالح المشتركة والارادة والمصير المشترك .

وقد أضفت هذه الخصائص الأساسية للوطن العربي أهمية خاصة على المنطقة من النواحي الحضارية والاقتصادية والسياسية ، وجعلت منه مهدأ لأهم الحضارات الانسانية حضارة وادي النيل وبلاد ما بين النهرين واليمن ، ومهبطاً للرسالات السماوية اليهودية والمسيحية والاسلام .

وازدادت هذه الأهمية بصورة ملحوظة نتيجة لظهور الاسلام الذي كان ولا يزال معجزة عصره . وجاء الاسلام بثورة فكرية واجتماعية شاملة فيها تأكيد على وحدانية الله والتمسك بالعقيدة الاسلامية بكل ما فيها من قيم روحية وانسانية وفيها رفض قاطع للعصبية القبلية بكل ما تنطوي عليه من مفاهيم جاهلية . وأصبحت العقيدة الاسلامية هي الرابطة الأساسية بين الشعوب الاسلامية حيث لا فضل لعربي على أعجمي الا بالتقوى . كما أصبحت اللغة العربية ، لغة القرآن الكريم من أهم وأمتن الروابط التي تجمع بين المسلمين .

وعندما خلصت الجزيرة للعرب والمسلمين ، وتم توحيدها دينيا وسياسيا في أمة واحدة هي الأمة الاسلامية ، وتحت قيادة واحدة هي الخلافة الاسلامية حمل العرب راية الاسلام خفاقة خارج الجزيرة العربية وحققوا الفتوحات الاسلامية المشهورة . وقد أدت تلك الفتوحات التي أحرز فيها المسلمون انتصارات باهرة الى نشر الاسلام وتوسيع رقعته وبسط سيادته على ممتلكات الدولة الفارسية في الشرق والدولة البيزنطية في الغرب . وكان نشر الاسلام هو الدافع الأساسي لتلك الفتوحات . ورحب أهل البلاد المفتوحة بالفاتحين العرب الذين حملوا اليهم رسالة الاسلام الخالدة التي تدعو الى الوحدانية والتسامح

والعدل والشورى ، ورأوا فيها مخرجا من الاضطهاد الديني والطغيان السياسي الذي عانوا منه كثيراً تحت الحكم الفارسي والبيزنطي . وسرعان ما أصبح التشريع الاسلامي الذي يستند على القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة أساس القانون في البلاد المفتوحة التي اعتنق أهلها الاسلام وحل محل القوانين الوضعية التي كانت سائدة آنذاك لا سيما القوانين الفارسية والرومانية . ولم يلبث أهل البلاد المفتوحة ان اعتنقوا الاسلام ودخلوا فيه أفواجا بفضل ما لمسوه من عدل وتسامح ، وما عاد عليهم من فوائد روحية ومادية . وانطبعت كافة الشعوب التي دانت بالاسلام بطابع اسلامي في تركيبها الاجتماعي وتكوينها الفكري وثقافتها وكثير من عاداتها وتقاليدها مما أضفى عليها طابعاً اسلامياً مشتركاً يميزها عن بقية شعوب العالم رغم تباين أجناسها وألسنتها . وأصبح أهل البلاد المفتوحة يكونون العمود الفقري للجيوش الاسلامية وأسهموا في نشر الدين الاسلامي وامتداد الرقعة الاسلامية كما حدث في المغرب العربي وبلاد الأندلس .

وباتساع الدولة الاسلامية انتشرت اللغة العربية ، لغة القرآن الكريم ولغة الدولة الرسمية ، انتشارا عاما وسريعا ، وازداد اقبال أهل البلاد المفتوحة على تعلمها وتمكن بعضهم كالموالي من اجادتها نثراً وشعراً ، وازدهرت تبعا لذلك حركة النقل والترجمة والتأليف .

وشجعت هذه الظاهرة الخليفة الأموي عبدالملك بن مروان على القيام بترجمة دواوين الدولة من اللغات الأجنبية التي كانت تكتب بها منذ الفتح الى اللغة العربية وتم في عهده ترجمة ديوان العراق من الفارسية وديوان الشام وفلسطين من اليونانية الى العربية . كما تم في عهد ابنه الوليد بن عبدالملك نقل ديوان مصر من الرومية القبطية الى العربية وأخذ الأقباط أنفسهم يتكلمون اللغة العربية .

ونشطت الحركة الثقافية بصورة ملحوظة في عهد الخليفة العباسي المأمون ابن هارون الرشيد حيث تمت ترجمة أمهات الكتب الفلسفية اليونانية وغيرها من الفلسفات القديمة التي ساهمت في إثراء التراث الاسلامي والحضارة الاسلامية .

وأسست المساجد ومعاهد ودور العلم المختلفة والمكتبات ، وملك العرب جميع علوم الأمم المتحضرة السابقة ، وأصبحوا سادة العلم بما تعلموه وترجموه .

كما قام المسلمون بكثير من الاصلاحات الادارية والفنية التي تتصل بالقضاء والشرطة والطرق والري والهندسة والجسور في كافة البلاد المفتوحة لا سيما مصر وبلاد الشام والعراق وشمال افريقيا . وحقق المسلمون تقدماً كبيراً في مجال معرفة علوم الكون وازدهرت العلوم الرياضية والطبيعية ازدهاراً لم يسبق له نظير وكذلك ازدهرت الزراعة والتجارة والصناعة .

وأخذ المسلمون ينتقون ويقتبسون أحسن ما في الحضارات القديمة السائدة آنذاك كالحضارة اليونانية ، والفارسية ، ويضيفون اليها عناصر اسلامية جديدة مستمدة من العقيدة الاسلامية الأصيلة . وساهم ذلك في تكوين حضارة عربية اسلامية متكاملة ومتميزة عن غيرها من الحضارات الانسانية الاخرى . وكان لاتصال وتفاعل العرب الفاتحين مع شعوب البلاد المفتوحة التي أقبلت على تعليم اللغة العربية ، أثر كبير في نشر الحضارة الاسلامية . كما أن تحول غير العرب عن دياناتهم السابقة واعتناقهم الاسلام ساعد على نمو وتطور تلك الحضارة بانصهارهم فيها واضافتهم لها مما انتقوه واقتبسوه من حضاراتهم السابقة .

ونجحت الحضارة العربية الاسلامية في توحيد الشعوب الاسلامية وصهرها في بوتقة واحدة ذات طابع انساني خالص يدعو الى المساواة والعدل والاخاء بين كافة المسلمين . واهتمت الحضارة الاسلامية اهتماماً خاصاً بأخلاق وسلوك المسلم وبتربيته تربية اسلامية مستمدة من قيم الاسلام ومثله العليا . وأهم ما يميز الحضارة الاسلامية عن سواها من الحضارات الانسانية الأخرى انها تجمع وتوازن بين التقدم المادي والرقي الخلقي والروحي . وتقيم أساس عقيدتها وفلسفتها على قيم وغايات تربط كل الغايات المحدودة للحضارة الحديثة من وطنية وقومية وانتاج وعقل وعلم بغاية للوجود الأعلى منها وأمثل ، هي القيم والغايات الاسلامية ، وتربطها جميعا بالوجود العام ويرتبط الوجود كله بالله سبحانه وتعالى المستعلي عليها جميعا(١) .

واتسمت الحضارة العربية الاسلامية بسمات روحية عقلية تتمثل في الايمان المطلق بالله سبحانه وتعالى ، وبكتبه وملائكته واليوم الآخر ، وفي كبح جماح الغرائز والشهوات وفي التسامح الديني . كما تميزت بالنزعة الانسانية الشاملة ، واهتمت بالمبادىء الأخلاقية والتربوية وجعلتها المحور الذي تدور فيه

---

(١) محمد المبارك ، المجتمع الاسلامي المعاصر ، ص٤١ .

كافة نشاطاتها النظرية والعملية . واعتمدت الحضارة العربية الاسلامية على العلم والايمان فخاطبت العقل والقلب معاً وأثارت العا''ة والفكر في ان واحد وشحذت همم المسلمين وشجعتهم على البذل والعطاء .

ولا شك ان الحضارة العربية الاسلامية التي اعتمدت على أصول العقيدة الاسلامية الأصيلة ، ونمت وتطورت وازدهرت في ظل الدولة الاسلامية التي انصهرت في بوتقتها كافة الشعوب المسلمة قد أسهمت بنصيب وافر في مسار ونهضة الحضارة الانسانية جمعاء . لا سيما الحضارة الأوروبية الحديثة ، ولعبت الأندلس دوراً هاماً وكبيراً في بلورة ونقل تلك الحضارة العربية الاسلامية الى أوروبا الغربية . فقد عنى خلفاء وأمراء الأندلس المسلمون بتشجيع حركة النقل والترجمة والتأليف ، فترجموا كتباً جديدة وأعادوا ترجمة كتب العلوم الهامة وأثروا المكتبات العامة والخاصة التي تكاثرت آنذاك بتلك الكتب القيمة النفيسة .

ولم يكتف المسلمون بنقل العلوم والفنون الى أوروبا بل وسعوها وشرحوها وأضافوا اليها الكثير مما أثرى حضارة أوروبا الغربية وفتح لها آفاقاً جديدة ساعدتها للوصول الى ما هي عليه اليوم من تقدم وازدهار .ويكفي أن نشير هنا الى أن طرق البحث العلمي الحديثة هي من مبتكرات العلماء المسلمين الذين استندوا في بعض أبحاثهم على التجربة والاختبار ، وعلى البحث المنسق المدعوم بالمشاهدات والاستنتاجات التي اعتمدوا عليها في بيان الآراء والنظريات . ومما يزيد من عظمة تلك الانجازات الفكرية والحضارية انها تمت في وقت كان يعاني فيه العالم العربي الاسلامي من القلق والاضطرابات وعدم الاستقـرار السياسي .

ولكن في أواخر العصر العباسي الثاني تكاثرت عوامل الضعف والانحطاط الداخلية والخارجية التي أدت الى تدهور واضمحلال الحضارة العربية الاسلامية . وقد لعبت الحركات الشعوبية الانفصالية التي وجدت في مساندة الفرس وتأييدهم دوراً هاماً وخطيراً في ذلك . كما كان لتغلغل النفوذ التركي في ادارة شؤون الدولة الاسلامية أثره الفعال في ذلك الضعف والتدهور . ومما زاد من ضعف الخلافة العباسية ضخامة الدولة الاسلامية واتساع أجزائها وصعوبة اتصال تلك الأجزاء بالحكومة المركزية مما مهد لولاة البلاد النائية من بغداد ، وخاصة قادة الجيش ، أن يستقلوا بادارة شؤون ولاياتهم دون خشية

بطش سريع أو عقاب عاجل . ونشأت بذلك دويلات عديدة لا يربطها بالخلافة العباسية سوى تبعية الاسم وأخرى مستقلة عنها تماماً .

وبفشل الخلفاء العباسيين في القضاء على بذور الانقسام السياسي الذي نبت في أرض اسبانيا باقامة دولة عربية أموية مناوئة للدولة العباسية بزعامة عبدالرحمن الداخل ، صقر قريش في عام ١٤١ هـ /٧٥٦م ، سرت عدوى الانفصال والاستقلال في اسبانيا على غيرها من ولايات الدولة العباسية لا سيما مصر وشمال افريقيا . وبالرغم من ضغط الأخطار الخارجية والداخلية وانقسام الدولة الاسلامية الى دولة عباسية في بغداد ، ودولة فاطمية شيعية في القاهرة وأخرى عربية أموية في قرطبة بالاندلس ، فقد تمسكت الشعوب الاسلامية بالدين الاسلامي واللغة العربية والاسلامية كرابط أساسي بينها ورمز لوحدتها . كما ظلت متمسكة بنوع من الوحدة الروحية والثقافية بالرغم من زوال السلطة المركزية للدولة الاسلامية والتفكك السياسي الذي ظل يلازمها .

وكان الاسلام ومذهبه السني يمثل عصب تلك الوحدة . وشددت الغالبية العظمى من الشعوب الاسلامية على التمسك برباط تلك الوحدة الدينية والثقافية والحضارية وتمكنت بذلك من الصمود أمام الضربات الدينية التي تلقتها على يد الفرق الاسلامية من خوارج وشيعة ومعتزلة والضربات العنصرية التي تلقتها على يد الشعوب المناوئة للاسلام والمسلمين .

ولهذا فقد تحمست شعوب البلاد العربية الاسلامية لقيام الأيوبيين باسقاط الخلافة الفاطمية الشيعية في القاهرة في عام ١١٧١م . وتقدمت الصفوف مساندة الأيوبيين في دفع الخطر الصليبي الذي كان يهدد المشرق العربي الاسلامي بأسره .

وتمكن القائد الجسور صلاح الدين الأيوبي بفضل دعم ومشاركة الشعوب العربية الاسلامية له من وقف الزحف الصليبي الغاشم في موقعة حطين المشهورة في عام ١١٨٧م .

كما التفت شعوب البلاد العربية الاسلامية أيضا حول المماليك الذين أقاموا دولتهم في مصر والشام في الفترة ما بين (١٢٥٠ ــ ١٥١٧م) ، واستكمالا لدور الأيوبيين لانهاء الحروب الصليبية ، ودفعا لموجة الغزو المغولي التخريبي التي اجتاحت المشرق العربي الاسلامي وخربت بغداد عاصمة

الخلافة العباسية ، وقضت على الخلافة الاسلامية فيها في عام ١٢٥٨م وتصدى المماليك للمغول وأوقفوا زحفهم الكاسح بالانتصار عليهم في موقعة عين جالوت المشهورة في عام ١٢٦٠م . كما تمكنوا من دحر الجيوش الصليبية واخراجها من الشام في عام ١٢٩١م ، وقام سلاطينهم باحياء الخلافة العباسية وتراثها العربي الاسلامي في القاهرة .

وهكذا تجددت الحضارة العربية الاسلامية في ظل دولة المماليك التي أصبحت القوة العظمى الوحيدة المدافعة عن كيان ووحدة الشعوب الاسلامية . وأضاف المماليك بذلك الى زعاماتهم السياسية القائمة على الدفاع عن وحدة المنطقة وسلامة شعوبها السند الروحي المستمد من دورهم في الحفاظ على الخلافة العباسية الاسلامية وحماية المقدسات الاسلامية .

وهكذا فرغم التفتت والانقسام السياسي الذي أصاب الأمة الاسلامية ورغم الغزو المغولي البربري لدار الاسلام وتدميره لبغداد ، مركز الحضارة الاسلامية آنذاك فقد تمكنت الحضارة العربية الاسلامية ، التي كانت ولا زالت تحمل في طياتها عناصر البقاء والاستمرار والخلود ، من الصمود أمام الاخطار بل وتمكنت ايضا من الانتعاش والازدهار من جديد . وعندما أصاب المماليك الترف ودب فيهم الضعف بسبب الخلافات والانقسامات وتضارب المصالح ، ظهرت الدولة العثمانية الفتية التي قضت على المماليك في عام ١٥١٧ م وأخذت تعمل على حماية الأماكن الاسلامية المقدسة من الخطر البرتغالي الذي كان يتهددها ، وعلى تجديد الحضارة العربية الاسلامية التي تبناها الأتراك العثمانيون .

ومما تجدر الاشارة اليه في هذا الصدد أن الشعوب العربية الاسلامية لم تحارب ولم تقاوم الفتح العثماني الذي رأته منقذاً لوحدتها وحامياً لمقدساتها الاسلامية التي كانت تتهددها الأخطار من كل جانب . وكان لولاء العرب وعطفهم نحو الخلافة الاسلامية متمثلة في الخلافة العثمانية في استانبول أثره الفعال في قبول الشعوب العربية للحكم العثماني الذي استمر طوال أربعة قرون (١٥١٧ ــ ١٩١٨)م .

وكانت الولايات العربية تتمتع بوضع خاص إبان الحكم العثماني باعتبار ان شعوبها عربية اسلامية تتحدث اللغة العربية ، لغة القرآن الكريم ، وباعتبار ان جميع مآثر الحضارة الاسلامية التي بنى عليها الاتراك العثمانيون

امبراطوريتهم مستمدة ومرتبطة بتلك اللغة وبتلك الولايات . وظلت الدولة العثمانية ولفترة طويلة تؤمن بتنوع الثقافات وتعدد الشعوب . وقد ساعد ذلك على التعايش والتفاعل الثقافي والحضاري بين الأتراك وشعوب الامبراطورية العثمانية لا سيما العرب الذين شعروا بالأمن والاستقرار والحماية من الأخطار الاجنبية التي كان تتهددهم من كل جانب .

ولكن بدأت الجفوة والخلافات السياسية تظهر بين العرب والاتراك عندما أخذ الأتراك بفكرة القومية الطورانية الضيقة وشرعوا في تتريك الامبراطورية العثمانية وتوجس العرب خيفة من ضياع لغتهم وطمس معالم حضارتهم ، فأخذوا يعملون على الانفصال عن الامبراطورية العثمانية بكافة الوسائل وشتى الطرق ، ولا سيما بعد أن بدأ الضعف يدب في أواصل الدولة العثمانية ، وأخذت تتهددها الأخطار الخارجية والداخلية . وتجلى ذلك الضعف في سلسلة الهزائم المتلاحقة التي ألحقتها الدول الأوروبية المتحالفة ضد الجيوش العثمانية . وكان ظهور روسيا كدولة قوية متطلعة الى ممتلكات الامبراطورية العثمانية من أهم العوامل التي أدت الى تدهور وسقوط الدولة العثمانية . وكانت دول أوروبا الغربية تقف وراء روسيا وتدعمها في موقفهـا ضد الامبراطورية العثمانية التي كانت تشكل في الماضي خطراً حقيقياً عليها ظل يؤرقها ويدفعها للخلاص منها ومن الخلافة الاسلامية التي التف حولها المسلمون وحققوا انتصاراتهم المذهلة على أوروبا المسيحية والتي توجت بفتح القسطنطينية سنة ١٤٥٣م .

وأمام ضعف الامبراطورية العثمانية وعجزها عن الحفاظ على وحدة الشعوب الاسلامية ومقدساتها التي أخذت تتهددها الأخطـار الأجنبيـة استجمعت الشعوب الاسلامية قوتها الذاتية التي تبلورت في تيارين أساسيين أولهما التيار الاسلامي الذي تمثل في الحركات الاصلاحية الاسلامية التي ظهرت في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر ، وثانيهما التيار القومي المتمثل في حركة القومية العربية الحديثة وأخذا يعملان على بعث واحياء التراث العربي الاسلامي ، وتوحيد الأمة العربية الاسلامية والنهوض بها لاستعادة مجدها وحضارتها .

المبحث الثاني

حركات الترابط السياسي في المجتمع العربي :

انتظمت البلاد العربية الاسلامية في القرنين الثامن والتاسع عشر حركات اسلامية اصلاحية تدعو الى العودة الى جوهر الاسلام والتمسك بتعاليمه السمحة الاصيلة متمثلة في القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة ، وتتلخص الأهداف الاساسية للحركات الاصلاحية الاسلامية في العمل على تجديد الاسلام واحياء شرائعه السمحة واقامة دولة اسلامية كبرى تسود فيها المساواة والعدل وتخضع لسطوتها كافة البلاد الاسلامية وتحكم بالكتاب والسنة . وتحقيقا لهذه الغايات والأهداف النبيلة أخذت الحركات الاصلاحية ـ الاسلامية تعمل على تجديد دعوة التوحيد وتحرير العقيدة الاسلامية مما لحق بها من خرافات لا تمت الى الاسلام بصلة ، والى تجديد الدعوة الى العدل والشورى والوحدة الاسلامية . وقد ساهمت هذه الحركات الاصلاحية ـ الاسلامية في ظهور يقظة فكرية شاملة في البلاد العربية أدت الى بلورة الشعور الوطني والقومي عند العرب وظهور اليقظة العربية الحديثة .

وتبلور التيار الاسلامي في الحركات الاصلاحية ـ الاسلامية التي عرفت بالحركات السلفية والتي انتظمت العالم العربي الاسلامي في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر ، كالحركة الوهابية والحركة السنوسية والحركة المهدية وفي حركة الجامعة الاسلامية التي تزعمها السيد جمال الدين الأفغاني وتعهدها من بعده تلامذته ومريدوه وعلى رأسهم الشيخ محمد عبده ورشيد رضا .

الحركة الوهابية :

ظهرت الحركة الوهابية في اقليم نجد بالجزيرة العربية بزعامة الشيخ محمد بن عبدالوهاب التميمي (١٧٠٣ ـ ١٧٩١ م) في وقت امتلأت فيه الحياة الدينية والاجتماعية في العالم الاسلامي عامة والجزيرة العربية خاصة ، بالبدع والضلالات والخرافات التي تصرف المسلم عن جوهر دينه وترمي به في متاهات الشرك والالحاد التي عاش فيها العرب أيام الجاهلية الأولى . وتعتبر الحركة الوهابية أول رد فعل ديني على مفاسد وانحلال المجتمع العربي الاسلامي في العصر الحديث . ورأى محمد بن عبدالوهاب هذا الانحلال متمثلا

في انتشار البدع والضلالات وارتكاب المعاصي والمنكرات وتعظيم الناس للقبور والأضرحة وتبركهم بالأولياء والاحجار وابتعادهم عن روح الاسلام البسيطة السمحة وعن وحدانية الله ، فعزم على تغيير تلك الحالة والرجوع به الى بساطته وسيرته الأولى وتخليص الاسلام من الشوائب التي ألصقت به والتمسك بالقرآن الكريم نصاً وروحاً .

وكان محمد بن عبدالوهاب يرى أن ضعف العقيدة والشرك بالله هو أساس الشرور التي اجتاحت الأمة الاسلامية . ولهذا بنى تعاليمه على تعميق مفهوم وحدانية الله والتقيد التام بالمعنى الحقيقي لشهادة « أن لا اله إلا الله » واتباع السلف الصالح في كافة الأعمال والقضاء على كل مظاهر الشرك بالله ، واعادة بناء المجتمع الاسلامي والوقوف في وجه الحضارة الغربية المادية . ولما كان التوحيد هو أساس دعوته فقد اطلق على أتباعه اسم (الموحدين) الا أنه غلب عليهم الاسم الذي أطلقه عليهم خصومهم ألا وهو (الوهابية) .

ونادى محمد بن عبدالوهاب بدعوته تلك بعد أن تعمق في دراسة مذهب الامام أحمد بن حنبل وتأثر بحركة ابن تيمية الاصلاحية وزار مكة والمدينة وطاف في الحجاز والاحساء ، وزار البصرة وبغداد ودمشق ، واتصل بعلماء الاسلام وأخذ عنهم وقام بتأليف عدة كتب ورسائل في التوحيد والفقه والسيرة والحديث ضمنها آراءه في الاصلاح .

وتقوم الدعوة الوهابية على المبادىء التالية :

١ ــ العودة بالاسلام الى سيرته الأولى الصافية النقية .

٢ ــ تعميق وحدانية الله المتمثلة في شهادة « أن لا اله إلا الله » .

٣ ــ انكار تأويل القرآن الكريم وتكفير كل من يقول بذلك معتمداً في ذلك على قوله تعالى « ولا يعلم تأويله الا الله » .

٤ ــ فتح باب الاجتهاد وتحرير الفكر الديني عند المسلمين .

٥ ــ التقشف في العيش واجبار المسلمين على الصلاة والزكاة والقيام بأركان الاسلام كافة .

ولكي ينتقل بدعوته تلك من مرحلة الاحياء الديني الى مرحلة الاصلاح الشامل وبعث الأمة الاسلامية والنهوض بها من عثرات الحكم العثماني رأى رائد تلك الدعوة ضرورة الاستعانة بحاكم قوي لدعمه ومساعدته في نشر

أفكاره . واتصل الشيخ محمد بن عبدالوهاب بالأمير الطموح محمد بن سعود حاكم الدرعية ووجد فيه خير حليف لتحقيق الأهداف التي كان ينشدها . وتعاهد ابن سعود مع ابن عبدالوهاب على العودة الى صفاء الاسلام ونشر الدعوة الوهابية بالحجة والسيف ومحاربة البدع والضلالات التي علقت بالاسلام . وبتحالف الامام والأمير والفكر والسيف تحققت المعجزات ونجحت الدولة السعودية الفتية في اطار الدعوة الوهابية في خلق نظام اسلامي للحكم تطبق فيه الشريعة الاسلامية على المذهب الوهابي ، وكانت السلطة الدينية في يد الامام بالتشاور مع علماء المسلمين وأهل الرأي في الدولة .

وهكذا اتحدت العقيدة والقوة لانجاح الحركة الوهابية . وكان الاتفاق كاملا بين الشيخ والامير ، وعاشا في انسجام كامل يكمل بعضهما البعض ، وصار تاريخ الدعوة الوهابية هو تاريخ المملكة العربية السعودية .

ورغم أن التأييد والدعم الحربي للدولة السعودية الوهابية كان يرتكز على ولاء القبائل النجدية وحلفائها من القبائل الأخرى ، الا أن الدعوة الوهابية كانت تعتمد من حيث المبدأ على الرابطة الدينية أكثر من الروابط القبلية وتعتبرها الرابطة الحقيقية التي تجمع بين كافة المسلمين ، وكان في هذا تحد جريء وخطير للدولة العثمانية التي كانت صاحبة السلطة المركزية الوحيدة لكافة العالم الاسلامي . وتمكنت الدعوة الوهابية من توجيه قدرات البدوي الحربية الى حرب دينية مقدسة مكنتها من السيطرة على نجد في عام ١٧٤٥م والاستيلاء على الحجاز وعسير واليمن كما أغارت على بعض أطراف العراق وطرقت أبواب سوريا .

وعندها ادركت السلطة العثمانية حقيقة الخطر الوهابي على ممتلكاتها في العالم الاسلامي فرصدت كل طاقاتها الحربية للقضاء عليها . وبعد فشل ولاتها في العراق وبلاد الشام في وضع حد للحركة الوهابية أوعزت السلطة العثمانية لواليها في مصر محمد علي باشا ، للقضاء على النفوذ الوهابي . ولأسبابه الخاصة رحب محمد علي باشا بالمهمة التي كلف بها ، وقام بغزو الحجاز وتمكن من القضاء على الحكم السعودي الوهابي الأول في عام ١٨١٨م ، ولكن البيت السعودي واصل كفاحه من أجل استرداد سلطته من الحكم وتمكن عبدالعزيز آل سعود من العودة من منفاه بالكويت واستولى على الرياض عنوة وأسس الدولة السعودية الوهابية من جديد في عام ١٩٠١م .

وهكذا فقد تمكن الشيخ محمد بن عبدالوهاب بمساعدة الأمـراء السعوديين من القيام بحركة اصلاحية دينية سلفية ركزت أنظارها على الاسلام وعقيدته السمحة وأخذت تبحث عن وسائل دفعها واحيائها ، وتعمل من أجل اقامة حكم اسلامي يحفظ للاسلام والمسلمين أسباب القوة والعزة والكرامة التي كانت لهم في صدر الاسلام . وكان في الدعوة الوهابية تحد لكل الظروف الدينية والسياسية والاجتماعية التي كانت سائدة في العالم العربي الاسلامي آنذاك ، ومحاولة جادة لاصلاحها .

الحركة السنوسية :

مؤسس هذه الحركة هو سيدي محمد بن علي السنوسي المولود في أحدى قرى الجزائر في عام ١٧٨٧م . بدأ تعليمه الديني في الجزائر ثم انتقل الى جامع القرويين دارساً ومدرساً ومن ثم انتقل الى ليبيا معلماً ومرشداً . وبالرغم من رفض الحركة السنوسية المبدئي للخلافة العثمانية اذ أنها كانت تحصر الامامة في قريش الا أنها وأمام الأخطار الأوروبية المسيحية التي كانت تحيط بالأمة الاسلامية آنذاك ، لا سيما في شمال افريقيا ، فقد اعترف الزعيم السنوسي بمزايا الوجود التركي كحاجز ضد مزيد من التوسع الايطالي والفرنسي في ليبيا وشمال افريقيا عامة ، وظل على ولائه للدولة العثمانية رغم استقلال حركته الفعلي عنها .

وتتلخص أهداف الحركة السنوسية في الآتي :

١ ـ محاربة الانحلال الاجتماعي والفساد الاداري والسياسي واحياء الشريعة الاسلامية .
٢ ـ العودة بالاسلام الى نقائه وبساطته الأولى .
٣ ـ الاعتماد على كتاب الله وسنة نبيه في الأحكام الدينية .
٤ ـ فتح باب الاجتهاد .
٥ ـ تنقية الاسلام مما علق به من بدع وضلالات .

وتمكنت الحركة السنوسية بفضل التنظيم الدقيق لنشاطاتها الدينية والدنيوية وبفضل قوة ايمان اتباعها وتفانيهم في خدمتها والاخلاص لها ، من التصدي للنفوذ الأوروبي المسيحي في المنطقة متمثلا في الاستعمار الايطالي والفرنسي . ولعبت (الزاوية) دوراً هاماً وبارزاً في تنظيم الحركة السنوسية وتحقيق أهدافها . وكانت الزاوية مركزاً لتعليم الدين وأصول الدعوة والتداول في كافة المسائل الاجتماعية والسياسية والاقتصادية التي تهم أعضاء الواحة الذين غالباً ما كانوا ينتمون الى قبيلة واحدة وكانوا يتعبدون بالليل ويتفاكرون في شؤونهم الدينية والدنيوية ، وينهضون في الصباح الباكر للقيام بأعمالهم الرعوية والعسكرية . وكانوا في ذلك يتمثلون بالصحابة رضوان الله عليهم الذين وصفوا بأنهم (رهبان بالليل فرسان بالنهار) .

وكثيراً ما كانت تقام تلك الزوايا في الواحات التي تتوسط الأماكن الزراعية والرعوية أو تقع في ملتقى طرق القوافل التجارية . وكانت الزوايا غالباً

ما تكون محصنة ومعدة لصد هجمات الأعداء ودفع خطرهم . واختار مؤسس الحركة واحة جغبوب البعيدة عن أنظار السلطة والتي تتوسط واحات المنطقة الصحراوية وتربط بين شمال افريقيا والسودان الغربي لتكون مركزاً لنشر دعوته وأقام فيها زاوية جغبوب المشهورة ليتعلم فيها أتباعه أمور دينهم وأصول الدعوة السنوسية ويعملون على نشرها في البلاد المجاورة لا سيما السودان الغربي .

وتوفي السنوسي الكبير في واحة جغبوب في عام ١٨٥٩م بعد أن انتشرت دعوته في شمال افريقيا وغرب افريقيا . وخلفه في زعامة الحركة ابنه محمد المهدي (١٨٥٩ ــ ١٩٠٢م) الذي بلغت الحركة السنوسية في عهده ذروة نشاطها وانتشارها . ويمكن تلخيص الانجازات التي حققتها الدعوة السنوسية في الآتي :

١ ــ اصلاح المجتمع الليبي البدوي بنشر الدعوة الدينية السنوسية التي نظمت سلوك الأفراد والجماعات ووجهتهم الى العمل والانتاج والبناء ، وأشاعت فيهم روح التعاون والاخاء والسلام .

٢ ــ نشر العلم والمعرفة في الصحراء الافريقية بانشاء الزوايا المتعددة التي كانت تعتبر مركزاً ثقافياً هاماً .

٣ ــ نشر الاسلام والدعوة السنوسية بين القبائل الوثنية في الصحراء الكبرى وغرب وأواسط افريقيا . وأصبحت الواحة مركزاً للدعوة السنوسية ، وأخذ الناس يتقاطرون عليها حتى غدت مركزاً اسلامياً يضارع الأزهر الشريف في أهميته . وزاد من أهمية هذا المركز وقوع الواحة في طريق القوافل الذاهبة الى الحج والآتية منه ، وكان بعض هؤلاء وغيرهم يفضلون الاستقرار في الواحة والاقبال على التعليم فيها .

الحركة المهدية :

أما الحركة المهدية في السودان فقد ظهرت في الربع الأخير من القرن التاسع عشر في عام ١٨٨١م بزعامة محمد أحمد المهدي . وهي امتداد للحركات الاصلاحية الاسلامية التي سبقتها . ولد مؤسس هذه الدعوة في جزيرة لبب من أعمال دنقلا بشمال السودان في عام ١٨٤٤م . ودرس القرآن الكريم والتوحيد في مدارس الخرطوم الدينية ثم مال الى التصوف واشتهر بالزهد والتقشف ،

وكعادة الزعماء الدينيين في السودان التحق باحدى الطرق الصوفية . ووقع اختياره على الطريقة السمانية . وبعد وفاة شيخه محمد القرشي الذي أخذ منه البيعة بعد اختلافه مع الشيخ محمد شريف نور الدائم زعيم السمانية أصبح المهدي شيخاً للطريقة السمانية .

وذهب المهدي الى جزيرة أبا على ضفاف النيل الأبيض حيث بنى جامعاً للصلاة و (خلوة) لتدريس القرآن الكريم وأخذ يدعو الى الطريقة السمانية . وجاب المهدي معظم أنحاء السودان متنقلا بين الناس من بلدة الى أخرى ومتعرفاً على همومهم ومشاكلهم .

وكان لضيق الحالة المعيشية في السودان وتدهور الأحوال الاجتماعية والسياسية أثر كبير في اقناع المهدي بدعوته واعلان الجهاد على الحكم المصري ـ التركي . وبدأت المجابهة في عام ١٨٨١م ، حين تصدى المهدي لقوات الحكومة التي كانت تريد القبض عليه ، وانتصر عليها في معركة حاسمة بالقرب من جزيرة أبا . وبعد انتصاره المفاجيء هاجر المهدي الى جبل قدير في أقصى غرب السودان ، تيمناً بهجرة النبي صلوات الله وسلامه عليه ، وخوفا من مداهمة قوات الحكومة له في جزيرة أبا التي لا تبعد كثيراً عن الخرطوم .

وهناك في قدير أخذ المهدي يعمل على تحريض الناس على الحكومة ويحثهم على الثورة والاستعداد والتأهب لمجابهة قوات الحكومة التي كانت تتعقبه .

كما أخذ يبعث بالرسائل والمنشورات الى مختلف أنحاء السودان لا سيما الشيوخ وزعماء القبائل يعلن فيها انه المهدي المنتظر ويطلب منهم الهجرة اليه والانضمام الى صفوفه حتى يتمكن من نشر دعوته وتحقيق أهدافه وليملأ الأرض عدلا وقسطاً كما ملئت جوراً وفسادا .

ورفع المهدي شعار الجهاد وتمكن من تحقيق انتصارات عسكرية ساحقة على جيوش الحكومة المصرية ـ التركية التي كانت تلاحقه . وقللت تلك الانتصارات من شأن أعدائه ورفعت من شأنه كثيراً ، وازداد عدد المهاجرين اليه حتى تجاوز أنصاره من المحاربين العشرين ألف مقاتل . وواصل المهدي انتصاراته التي توجها بفتح الخرطوم في ٢٦ يناير ١٨٨٥م . وبسقوط الخرطوم في أيدي أنصار المهدي ومقتل الجنرال غردون حاكم عام السودان آنذاك ، تمكنت الحركة المهدية من اجلاء القوات المصرية ـ التركية ومن تحرير السودان من الحكم الأجنبي .

وتقوم تعاليم الحركة المهدية الدينية على الآتي :

١ ــ العمل بالكتاب والسنة والتوكل على الله وترك العمل بالمذاهب الأربعة .

٢ ــ الاكثار من كلمة التوحيد ، وتلاوة القرآن الكريم ، وتلاوة (الراتب)(١) والتأكيد على صلاة الجماعة والجهاد في سبيل الله .

٣ ــ تحريم زيارة القبور ، والرقص والغناء وشرب الخمر والدخان . كما دعا المهدي الى البساطة في الملبس والمأكل واحتفالات الزواج والجنازة .

اما اهداف الحركة المهدية فيمكن تلخيصها في الآتي :

١ ــ احياء التراث الديني السلفي والعودة بالاسلام الى سيرته الأولى .

٢ ــ القضاء على الحكم المصري ــ التركي الذي كان قائماً في السودان . وعلى كل مظاهر الفساد الاجتماعي والسياسي التي كانت سائدة آنذاك .

٣ ــ اقامة دولة اسلامية كبرى تشمل كافة العالم الاسلامي .

وتوفي المهدي في يونيه ١٨٨٥م ، أي بعد فتح الخرطوم بفترة وجيزة ، وخلفه في الحكم عبدالله التعايشي الذي أطلق عليه المهدي خليفة الصديق تيمناً بالنبي صلى الله عليه وسلم وبخليفته أبا بكر الصديق رضي الله عنه .

ولم يكن عبدالله التعايشي بقوة سلفه ولا بنفوذه الروحي ، فتكاثرت عليه المشاكل الداخلية والخارجية وشغلته عن اقامة دولة المهدية الكبرى . وبالرغم من هذا فقد قام عبدالله بمحاولة جادة لغزو مصر الا أنه لم يتمكن من ذلك وانهزمت جيوشه في موقعة توشكي في عام ١٨٨٩م على أيدي القوات المصرية ــ الانجليزية بقيادة جرنفل .

وبهزيمة جيوش المهدية في الجبهة الشمالية بدأت موجة الانحسار للدعوة المهدية التي كانت تتوق للانتشار خارج السودان وتحلم بأن تعم كافة البلاد الاسلامية . وتأزم موقف الدولة المهدية داخلياً وخارجياً وداهمتها الأخطار الاستعمارية من كل جانب . وجاءت الضربة القاضية في عام ١٨٩٧م على أيدي الجيش المصري ــ الانجليزي بقيادة كتشنر الذي تمكن من هزيمة أنصار المهدي هزيمة ساحقة في موقعة كرري بالقرب من أم درمان ، ومن اسقاط الدولة المهدية .

(١) مجموعة من الآيات الكريمة والاحاديث الشريفة جمعها المهدي في كتيب صغير عرف بالراتب وفرض على اتباعه حفظها .

الجامعة الاسلامية :

ومؤسس حركة الجامعة الاسلامية هو السيد جمال الدين الأفغاني (١٨٣٩ ـ ١٨٩٧م) وهو كما يقول هو وتلامذته ومريدوه ، أفغاني الأصل سني المذهب ولكن معارضيه وعلى رأسهم أبو الهدى الصيادي فيدعون انه ايراني الأصل شيعي المذهب . وتعتبر حركة الجامعة الاسلامية التي لقيت الحماس والتأييد من كافة المسلمين امتداداً طبيعياً للحركات الاصلاحية ـ الاسلامية السالفة الذكر .

وكان هدف الأفغاني الأول من تبني هذه الفكرة الرائدة هو تخليص الاسلام من الشوائب التي علقت به ، وتحرير الشعوب الاسلامية من سيطرة الدول الأجنبية لا سيما بريطانيا التي كانت تحكم معظم البلاد الاسلامية واستنكر الأفغاني انقسامات المسلمين الى فرق وطوائف متعددة ، وأخذ يدعو الى وحدة الشعوب الاسلامية وتحريرها بالثورة على الاستعمار الغربي المسيحي لا سيما الاستعمار البريطاني الذي كانت تعاني منه الأمة الاسلامية كثيراً .

وأرجع الأفغاني أسباب تأخر المسلمين وضياع مجدهم وتدهور حضارتهم الى اهمالهم لأمور دينهم التي كان تمسكهم بها سبباً في نهوضهم وقوتهم ومجدهم وعزتهم . وكان يرى ان استرجاع عزة المسلمين وقوتهم رهن بعودتهم الى دينهم والتمسك بقيمه الأصيلة .

كما كان يرى أن تحرير عقل المسلم من الأوهام والخرافات التي علقت به عامل هام من عوامل النهوض بالأمة الاسلامية . ولهذا فقد دعا الأفغاني الى تحرير الفكر الديني من القيود والتقليد وفتح باب الاجتهاد ، كما دعا الى التوفيق بين العلم والايمان ، وكان الأفغاني يرى أن لا خلاف بين ما جاء في القرآن الكريم والحقائق العلمية الحديثة . أما اذا برز خلاف ما فذلك يدل على عجز في تفسير الآيات القرآنية . ولا بد من الاجتهاد والرجوع الى التأويل .

ودافع الأفغاني عن الاسلام والحضارة الاسلامية وتصدى للمفكرين الغربيين الذين تهجموا على الاسلام وادعوا انه لا يشجع على تطوير العقل ويرفض العلم والأفكار الجديدة . وأكد أن الاسلام يحث على طلب العلم ، ويعمل على تنمية الفكر الانساني وانه دين مرن متسامح لا يعارض العلم فيما ثبتت صحته علميا . ويقول في ذلك « ان الدين لا يصح أن يخالف الحقائق

العلمية ، فان كان ظاهره المخالفة وجب تأويله»[1] . وكان الأفغاني يستشهد في كل ذلك بالآيات القرآنية الكريمة والأحاديث النبوية الشريفة ويدلل على ذلك بالانجازات العلمية والمآثر الفكرية التي حققها المسلمون في مجالات الفلسفة والآداب والعلوم .

وكانت حياة الأفغاني ونهجه الديني التجديدي ونشاطه السياسي الثوري تجسيداً للوحدة الاسلامية التي ظل يدعو لها طوال حياته . فقد ولد الأفغاني وترعرع في أفغانستان وتلقى علومه الدينية والفلسفية هناك ثم انتقل الى الهند ودرس اللغة الانجليزية والرياضيات والعلوم الحديثة ثم عاد الى أفغانستان حيث شارك في الحياة السياسية مشاركة فعالة . واضطرته الظروف السياسية المضطربة الى مغادرة أفغانستان الى استنبول حاضرة الامبراطورية العثمانية ماراً بمصر التي اضطر للعودة اليها مرة أخرى في عام ١٨٧١م بعد أن اجبرته خصوماته السياسية العنيفة في استنبول على مغادرتها . ومكث الأفغاني في مصر ثماني سنوات تعتبر من أخصب وأنفع سنين حياته وأكثرها حركة ونشاطاً . وكانت تلك الفترة شاقة وحرجة في تاريخ مصر . وقد شارك الأفغاني فيها وتفاعل معها ، وتصدى لكافة جوانبها الدينية والدنيوية وانغمس بها بكل مشاعره أحاسيسه .

وساهم الأفغاني بفضل تعاليمه الدينية العميقة وآرائه الحرة الجريئة في صنع جيل واع في مصر كان أساسه نخبة من شباب الأزهر المتميزين وعلى رأسهم تلميذه وخليفته الشيخ محمد عبده ، وسعد زغلول زعيم مصر المشهور .

وقد شارك ذلك الجيل الرائد مشاركة فعالة في نهضة مصر الدينية والثقافية والسياسية . وشجع الأفغاني أتباعه على الكتابة والنشر في الصحف والمجلات لتوجيه الرأي العام المصري والعربي الاسلامي لتحقيق الغايات التي كان ينشدها . ويعتبر الأفغاني بحق من الشخصيات الاسلامية الفذة التي تركت آثاراً عميقة في العالم العربي الاسلامي الحديث .

ولم يطمئن ولاة الأمر في مصر لتحركات الأفغاني التي كانت تقلق مضاجعهم فأمر توفيق باشا الذي تولى حكم مصر بعد عزل والده الخديوي اسماعيل بنفي الافغاني من مصر في عام ١٨٧٩م . وغادر الأفغاني مصر الى الهند حيث أقام ثلاث سنوات فيها للدراسة والتأليف ثم ذهب الى باريس ودعا

---

(١) احمد امين ، زعماء الاصلاح ص١٢٢ .

اليه تلميذه الشيخ محمد عبده الذي كان آنذاك منفيا في بيروت . وهناك في باريس عملا سوياً في سبيل الدعوة الاسلامية فقاما بتأسيس جمعية العروة الوثقى ، وأصدرا جريدة « العروة الوثقى » في عام ١٨٨٤م وتقاسما أعباء التحرير ، فكان للأفغاني التوجيه ورسم الخطط وابداء الافكار ، ولمحمد عبده التحرير والصياغة وتفصيل المعاني(١) وكانت العروة الوثقى تدعو المسلمين الى الوحدة والنهوض ببلادهم والثورة على بريطانيا والتحرير منها ، وبث روح العزة وتأسيس الحياة الاجتماعية والدينية والسياسية على أسس أصول الاسلام الأولى ومحاربة العقائد الدخيلة التي تدعو الى الاستسلام وافهام الشعوب الاسلامية أن الاسلام يتنافى مع المدنية ويعوق التقدم والرقي(٢) .

وضاق الانجليز ذرعاً بالعروة الوثقى التي ناصبتهم العداء وبالأفكار التحريرية التي تنادي بها فعملوا بالتعاون مع السلطات الفرنسية على عدم انتشارها في العالم الاسلامي بل وتمكنوا من تعطيلها نهائيا بعد ثمانية أشهر فقط من صدورها .

وبتوقف العروة الوثقى غادر الأفغاني باريس الى بلاد فارس التي ما لبث أن غادرها بسبب الخلافات السياسية وأخذ الأفغاني يتجول في البـلاد الاسلامية والأوروبية الى أن استقر به المطاف في الآستانة التي استدعاه اليها السلطان عبدالحميد الثاني في عام ١٨٩٢م . وضاق به المقام هناك حين عزف السلطان عنه وعن تحقيق أهدافه . وظل الأفغاني في دار الخلافة في استنبول حتى وفاته سنة ١٨٩٧م .

وتتلخص دعوة الأفغاني في حث المسلمين على تحرير أنفسهم بالثورة على الاستعمار والاستبداد لا سيما الاستعمار البريطاني . وكان يرى أن الوحدة الاسلامية وارتباط المسلمين وتمسكهم بالعروة الوثقى التي لا انفصام لها هي المخرج الوحيد للأمة الاسلامية . وحرص الأفغاني على اظهار مرونة الدعوة الاسلامية وابرازها بصورة لا تتعارض مع التقدم العلمي الحديث .

---

(١) احمد امين ، زعماء الاصلاح ص٣٢٧ .

(٢) نفس المصدر ، ص٣٢٨ .

محمد عبده :

واصل الشيخ محمد عبده دعوة أستاذه الأفغاني الى الوحدة الاسلامية ومقاومة الاستعمار الغربي والنفوذ الأجنبي ولكن بأسلوبه ونهجه الخاص . وركز محمد عبده على الاصلاح الديني والاجتماعي والسياسي عن طريق التربية والتعليم ورأى أن هذا هو الطريق الأمثل لتحرير الفكر واعادة هداية الدين واصلاح المجتمع ومقاومة الاستعمار وتحرير الشعوب الاسلامية .

ونالت دعوة الشيخ محمد عبده حظاً وافرا من النجاح وصار زعيمها علماً من أعلام اليقظة العربية الاسلامية الحديثة .

ولد محمد عبده في عام ١٨٤٩م في قرية « محلة النصرة » في أسرة من الفلاحين عرفت بالعلم والتقى . وتعلم القراءة والكتابة في كتاب القرية ثم التحق في عام ١٨٦٢م بالمسجد الأحمدي في طنطا ليتقن تجويد القرآن الكريم . ولما أكمل تعليمه هناك عاد الى قريته ليعمل في الزراعة ثم انتقل الى القاهرة في عام ١٨٦٦م ليتابع تعليمه في الأزهر الشريف ودرس هناك الفقه والمنطق والتوحيد والفلسفة والتاريخ ونال شهادة العالمية في عام ١٨٧٧م وعين مدرساً للتاريخ في دار العلوم .

وفي هذه الفترة تعرف محمد عبده بالأفغاني واتصل به ولازمه فتحابا في الله وتوطدت الصلة بينهما . وأتاح الأفغاني لتلميذه النجيب والحبيب الى نفسه فرصة الاطلاع على كثير من المؤلفات الغربية والحديثة التي كانت قد ترجمت الى العربية فتفتحت آفاقه واتسعت مداركه وازدادت رغبته في العمل لصالح الأمة الاسلامية عن طريق الاصلاح الديني والخلقي والاجتماعي .

وتحول محمد عبده تدريجياً من التصوف الخيالي الى الاصلاح الديني العلمي وبدأ المتصوف يكتب في الصحف ويتناول موضوعات أدبية ودينية وسياسية واجتماعية وتربوية متنوعة . ويعمل على نشر أفكاره وآرائه الاصلاحية الحرة الجريئة . ولما كان الخديوي توفيق يعارض الاصلاح فقد قام بعزله من وظيفته التدريسية ، وأمره بالالتزام بقريته . وبوساطة من رياض باشا الذي تولى رئاسة الوزارة في عهد توفيق عين محمد عبده في ١٨٨٠م محرراً في « الوقائع المصرية » جريدة الدولة الرسمية وفي وقت قصير أصبح رئيساً

لتحريرها وضم الى هيئة التحرير سعد زغلول والشيخ عبدالكريم سلمان ابراهيم الهلباوي[١] .

واهتم محمد عبده في منصبه الجديد في الوقائع المصرية بالدعوة الى الاصلاح الاجتماعي . وكتب عن التعليم في مصر ونشر نقداً لاذعاً لنظارة المعارف ولأوضاع المدارس والمعلمين وطرق التعليم . كما قام بكتابة سلسلة من المقالات حول الأوضاع الاقتصادية انتقد فيها بعض العادات الاجتماعية السيئة ودعا الى التخلص منها ونادى باحترام القوانين واطاعتها .

وفي هذه الفترة تفاقمت الأزمة الاقتصادية والسياسية في مصر اثر تزايد النفوذ الاجنبي ، وبدأت الثورة الوطنية . وما لبث محمد عبده بعد أن عمت الثورة وتأجج أوارها ، أن رمى بثقله الى جانب الوطنيين واشترك في ثورة عرابي عام ١٨٨٢م فحكم عليه بالسجن ثلاثة آشهر والنفي ثلاث سنوات خارج مصر . وأقام محمد عبده عاماً في بيروت ١٨٨٣م وانتقل الى باريس بناء على دعوة أستاذه الافغاني الذي كان يقيم هناك بعد أن طرده الخديوي توفيق من مصر في عام ١٨٧٩م . وفي باريس واصل محمد عبده والأفغاني دعوتهما الاصلاحية وأصدرا « العروة الوثقى » المشهورة .

وعندما توقف صدور العروة الوثقى غادر الأفغاني باريس الى فارس وتوجه محمد عبده الى تونس ومنها الى بيروت حيث أخذ يدرس في مساجدها ومدارسها ويؤلف في التوحيد والمنطق ويكتب في مجلة « ثمرات الفنون البيروتية » . وبعد وساطة أخرى من صديقه القديم رياض باشا عاد محمد عبده الى مصر في عام ١٨٨٨م أي بعد مضي ست سنوات في المنفى .

غير أن الأوضاع في مصر قد تغيرت آنذاك وأصبح الانجليز هم المسيطرون على الحكم والادارة . ويبدو أن الشيخ محمد عبده قد آثر في تلك الظروف الحرجة أن يسالم الخديوي ويهادن الانجليز ويتخلى عن السياسة وينصرف تماماً الى التجديد والاصلاح الديني والاجتماعي . وتحقيقا لأهدافه الاصلاحية الشاملة ركز الشيخ محمد عبده جهده واهتمامه على اصلاح العقيدة الاسلامية واللغة العربية والتعليم الديني والمؤسسات الدينية كالأزهر والأوقاف والمحاكم الشرعية . وكان يرى أن الاصلاح الداخلي الحقيقي هو وسيلة الجلاء والتحرر .

---

(١) احمد امين ، زعماء الاصلاح ص٣١٦ .

واتخذ تفسير القرآن الكريم أهم وسيلة لاصلاح العقيدة ، يدرسه ويحاضر فيه وينشر دروسه في التفسير في مجلة المنار ليقرأ في كافة العالم الاسلامي[١] . وكان في تفسيره يحاول التوفيق بين الاسلام ونظريات المدنية الحديثة ويتبع طرقاً من التأمل للتوفيق بين الدين والعلم . وعمد الى استعمال العلوم الحديثة في تفسيره للآيات القرآنية الكريمة ودعا الى التوازن بين العلم والايمان . وقال في ذلك « الا أنه من واجب العقل أن يتواضع أمام الله وأن يتوقف عند حدود الايمان . أما ضمن هذه الحدود فليس هناك حاجز يعترضه ويعرقل نشاطه أو أي شيء يحد من نظرياته التي يمكن أن تصدر وفقاً لهذه الافكار »[٢] .

وسرعان ما عين محمد عبده قاضياً ثم مستشاراً قانونياً في محكمة الاستئناف وامتاز في قضائه بتحريه الدقة والحق وتقديره للعدالة أكثر من نصوص القانون . ولما توفي الخديوي توفيق عام ١٨٩٢ وخلفه الخديوي عباس الذي أبدى تفهماً واستعداداً للاصلاح أخذ محمد عبده يقترب اليه ويوثق الصلة به ، ويحسن اليه برنامجه في الاصلاح لا سيما اصلاح الأزهر والأوقاف والمحاكم الشرعية . وأولى الشيخ محمد عبده اصلاح الأزهر اهتماماً خاصاً ، وكان يرى أن إصلاح الأزهر أعظم خدمة للاسلام ، فان إصلاحه إصلاح المسلمين وفساده فساد لهم[٣] .

ورحب الخديوي بذلك وعينه في مجلس ادارة الأزهر وكلفه بتقديم تقرير عن الاصلاح المرجو فيه . ورغم أن الشيخ لم يصل الى ما يريد من الاصلاح بسبب مقاومة شيوخ الأزهر التقليديين لادخال العلوم الحديثة الا أن جهوده قد أثمرت في تحقيق بعض الاصلاحات المالية والادارية والتعليمية وفي ايجاد طبقة متميزة من العلماء لها حماسته وغيرته . وفي عام ١٨٩٩م أصبح الشيخ محمد عبده مفتياً وشغل هذا المنصب حتى وفاته عام ١٩٠٥م .

ووهب الشيخ حياته لاصلاح العقيدة الاسلامية وتنقيتها مما علق بها من الخرافات والأوهام وتحرير الفكر من قيد التقليد ، واصلاح اللغة العربية . وكانت نقطة الانطلاق في تفكير الشيخ محمد عبده هي السعي الى اقامة المجتمع

---

(١) احمد امين ، زعماء الاصلاح ، ص٣٥٧ .

(٢) علي المحافظة ، الاتجاهات الفكرية عند العرب ، ص٨٤ .

(٣) علي المحافظة . الاتجاهات الفكرية عند العرب ، ص٨٥ .

الاسلامي بمحاربة الانحلال وتجديد الاسلام . واعتبر النظرة العقلية هي الأصل الأول للدين الاسلامي والوسيلة الوحيدة للايمان الصحيح .

والمجتمع الاسلامي الذي أراده محمد عبده هو مجتمع الفضيلة والسعادة والرخاء والقوة الذي يعتمد فيه المسلم على العقل في شؤون الدنيا والدين . وتحقيقاً لهذه الغاية دعا الشيخ محمد عبده الى تجديد الدعوة الاسلامية واصلاح حال المسلمين عن طريق تطهير الاسلام من البدع والضلالات والعودة به الى نقائه الأول ، وهاجم التقليد والمقلدين ، كما فعل أستاذه الأفغاني من قبله ، وحذر من طغيان الفكر الغربي الحديث ، ودعا الى التوازن بين العلم والايمان .

ورغم الروابط الفكرية والدينية القوية التي جمعت بين الأفغاني ومحمد عبده فاننا نلاحظ اختلافاً واضحاً في مواقفهما السياسية . فبينما اتسمت مواقف الأفغاني بالثورة والعنف كان محمد عبده أميل الى الاصلاح والتجديد الديني والاجتماعي والسياسي عن طريق التعليم والتربية الاسلامية الصحيحة .

رشيد رضا (١٨٦٥ ـ ١٩٣٥م) :

وعلى غرار الأفغاني ومحمد عبده انبرى في بلاد الشام مجاهد سوري هو محمد رشيد رضا يدعو الى بعث الأمة الاسلامية واحياء السنة وتطبيق مبادىء الاسلام الأولى النقية كما كانت عليه من قبل في عهد السلف الصالح ، والى الملاءمة بين الدين والعلم الحديث . وأصبح رشيد رضا الزعيم الروحي للحركة السلفية التي دعا اليها من قبله الأفغاني ومحمد عبده .

ولد رشيد رضا في عام ١٨٦٥ م بقرية القلسون قرب طرابلس الشام وبدأ تعليمه على الطريقة التقليدية ثم التحق بالمدارس الحديثة في طرابلس حيث بدأ تعليم العلوم الحديثة من منطق ورياضيات وطبيعيات . كما أتقن العلوم الدينية واللغة العربية وألم باللغة الفرنسية . وفي عام ١٨٩٧م ذهب الى مصر حيث حصل على درجة العالمية وأمضى هناك بقية حياته . وفي مصر التقى بالشيخ محمد عبده الذي سبق أن تعرف عليه لأول مرة في طرابلس في حوالي عام ١٨٨٥م ، وتأثر به وبآرائه وآراء أستاذه الأفغاني الاصلاحية تأثيرا عميقاً ، لا سيما بعد اطلاعه على المجموعة الكاملة لمجلة « العروة الوثقى » التي وجدها

وسط أوراق والده الخاصة . وتوثقت الصلة بينهما وتعمقت ولازمه الى وفاته وصار وريثه الروحي وتابعه المخلص الناشر لآرائه والمدافع عن شخصيته ومبادئه والمؤرخ لحياته .

وفي عام ١٨٩٨م أصدر رشيد رضا مجلة « المنار » التي حلت محل العروة الوثقى في الدعوة الى التجديد الديني والوحدة الاسلامية ومحاربة الجمود والتقليد . وأوضح أهداف المجلة في افتتاحية العدد الأول الذي صدر في ١٥ مارس ١٨٩٨م ولخصها بقوله : « انما أنشئ المنار للدعوة الى الاصلاح الاسلامي بجميع أنواعه ولا سيما الديني باصلاح التربية والتعليم » ووهب رشيد رضا حياته في سبيل انجاح تلك المجلة التي بث فيها كل آرائه وانطباعاته حول العالم العربي والاسلامي وتطلعاته الى اصلاحه . وبدأ رشيد رضا مسيرته الاصلاحية بنشر المقالات الضافية بعنوان الاصلاح وبعناوين أخرى متشابهة وكانت هذه المقالات تتناول كافة جوانب الاصلاح وتؤكد على تقصير علماء المسلمين فيما يجب عليهم من اصلاح ومقاومة البدع والمنكرات وتلقى عليهم تبعة ضعف الأمة وضياع دينها ودنياها ، وتطالبهم بالاصلاح الواجب عليهم[1] .

وظلت المنار تصدر مع بعض الانقطاع حتى وفاة صاحبها في عام ١٩٣٥م . والى جانب اصدار المنار فقد قام رشيد رضا بتأليف مجموعة من الكتب أبرزت اتجاهاته في الاصلاح الديني والاجتماعي والسياسي . ومن أشهر مؤلفاته تفسير القرآن الكريم المشهور بتفسير المنار ويقع في اثنى عشر مجلداً ، و « تاريخ الاستاذ الامام » الذي ترجم فيه لاستاذه محمد عبده ، وكتاب « الخلافة » الذي وصف بأنه أحسن عرض موثق للنظرية الاسلامية في الدولة منذ ظهور كتاب الاحكام السلطانية « للماوردي ، قبل قرابة تسعة قرون[2] .

كما حقق تطلعات أستاذه محمد عبده فقام بانشاء دار الدعوة والارشاد في القاهرة في عام ١٩١٤م لتهيئة الدعاة والموجهين الدينيين المسلمين .

ورغم أن أصله السوري قد أبقاه على هامش الحياة السياسية في مصر ، الا أن تشبثه بآراء محمد عبده وانتسابه اليه جعله يقوم بدور فيها . وكان رشيد

---

(١) علي المحافظة ، الاتجاهات الفكرية عند العرب ص١٨٩ .

(٢) عبدالكريم رافق ، العرب والعثمانيون ص٥٢١ .

رضا يؤكد في كتاباته ان اتباع تعاليم الاسلام البسيطة السمحة بشكلها الصحيح سيؤدي بلا شك الى وحدة المسلمين وتقدمهم ونهضتهم ويدفعهم الى التضحية والبذل والعطاء ، ويقودهم الى النجاح في الدنيا والآخرة .

وتقوم آراء رشيد رضا في التوحيد والاصلاح الديني على الأسس التالية :

١ ــ استقلال الفكر وحرية العقل في العلم واجتناب تقليد العلماء . ولم يدخر جهداً في الاتيان بالأدلة القرآنية والأحاديث النبوية الشريفة ليؤكد أن الاسلام دين العقل والعلم والحكمة ، والحجة والبرهان ، بالاضافة الى كونه « دين القلب والوجدان والضمير » .

٢ ــ ابطال البدع والخرافات والتقاليد والعادات التي أفسدت العقائد والأخلاق وروجت في المسلمين الدجل والخرافات .

٣ ــ الاهتداء بالكتاب والسنة والاعتماد عليهما في تصحيح العقائد وتزكية النفوس وتهذيب الأخلاق ، واتباع السلف الصالح في كافة العبادات .

٤ ــ تحري الحق والعدل المطلق ، والمساواة في الحقوق بالشهادات والأحكام وحفظ المصالح ودرء المفاسد والمظالم .

٥ ــ اصلاح نظام التربية والتعليم ولا سيما في الأزهر الذي طالب بتطوير مناهجه وتحسينها وبتدريس العلوم العصرية فيه كالعلوم الرياضية والطبيعية التي وصفها بأنها « محور الثروة والعزة والقوة » .

٦ ــ الدفاع عن الاسلام بالرد على الملاحدة ودحض مزاعمهم وحججهم الباطلة .

٧ ــ القيام بوعظ وارشاد المسلمين في مساجدهم وكافة أماكن تجمعهم في بدوهم وحضرهم بالخطب والدروس العامة .

القومية العربية الحديثة :

جاءت فكرة القومية من أوروبا الى المشرق العربي مع ما جاء من أفكار وتيارات سياسية وثقافية في أواخر القرن التاسع عشر . واختلفت نشأة القومية باختلاف الظروف السياسية والاقتصادية والاجتماعية والفكرية وتباين البيئات الجغرافية والأطوار التاريخية التي مر بها كل قطر .

ولم تتفق الآراء حول تعريف القومية وتحديد مقوماتها وخصائصها . فبينما يرى علماء الاجتماع انها في أبسط معانيها ، نوع من الولاء للجماعة تطور تدريجيا ليشمل الدولة والأمة فهي عند رجال السياسة حركة سياسية تهدف الى جمع أفراد الأمة الواحدة في نضال مشترك من أجل تحقيق أهداف وغايات سامية مشتركة وعند بعض علماء الاسلام دعوة جاهلية إلحادية .

وبينما يقيم الألمان نظريتهم القومية التي ازدهرت في النصف الأخير من القرن الثامن عشر على أن اللغة هي الأساس الأول للقومية ، يرى الفرنسيون أن العنصر الجوهري في القومية هو الارادة والمشيئة . وقد عرف فيلسوفهم المشهور ارنست رينان الأمة بأنها « جماعة من الناس اتفقت مشيئتهم على المعيشة المشتركة » .

وهناك عدة نظريات قومية أخرى منها ما يرى أن الوحدة الدينية هي أهم الدعائم التي تقوم عليها الأمم ومنها ما يرى أن المصالح الاقتصادية المشتركة تمثل أقوى العوامل المحركة في الحياة الاجتماعية ، ومنها ما اعتبر الجنس أو العنصر من أهم مقومات القومية ، وعرف الأمة بأنها وحدة جنسية تنحدر من جنس واحد وأصل مشترك .

فالفكرة القومية اذن قامت على أساس وحدة اللغة والموطن والعواطف والتاريخ والثقافة والمصلحة المشتركة . ورغم أن هذه الوحدة لم تكن متوفرة في معظم أجزاء أوروبا آنذاك ، ولم تكن قوية وعميقة ، الا أن النهضة الفكرية والثورة الصناعية والتطورات السياسية والاقتصادية والفكرية التي اجتاحت أوروبا منذ القرن الخامس عشر قد ساعدت على تبلور الشعور القومي في أوروبا الغربية بصورة نهائية .

وانتقلت فكرة القومية بصورتها تلك من أوروبا الغربية الى تركيا الحديثة ومنها الى المشرق العربي الاسلامي . وارتبطت الحركة القومية منذ البداية بالعرب المسيحيين الذين كانوا أكثر اتصالا وارتباطا بالثقافة الأوروبية الغربية المسيحية من العرب المسلمين . وقام العرب المسيحيون بحكم ثقافتهم الغربية وانفتاحهم على أوروبا وحضارتها العلمية المادية بدور طليعي في بلورة أفكار القومية العربية في كافة الوطن العربي . وقد لعبت مدارس الارساليات الأوروبية والأمريكية دوراً هاماً وخطيراً في دعم هذا الاتجاه القومي العلماني الذي تبناه

عدد من شباب العرب المسيحيين وسايرهم فيه بعض المفكرين والسياسيين العرب المسلمين الذين يئسوا من تحقيق الاصلاح الذي كانوا ينشدونه في ظل الحكم العثماني .

وبدأت القومية العربية الحديثة في صورة نهضة أدبية وفكرية انتظمت بلاد الشام لا سيما سوريا ، وكانت تهدف الى احياء اللغة العربية وبعث التراث العربي والوحدة العربية .

وقد قام نصيف اليازجي وبطرس البستاني اللذان جمعا بين الثقافة العربية والأوروبية بدور هام وبارز في احياء الدراسات العربية وابراز فكرة القومية في اطار عام أساسه أن للعرب عامة مسيحيين ومسلمين حضارة عريقة تمتد جذورها الى ما قبل الاسلام لا بد من التنقيب عنها والكشف عن جذورها التاريخية والعمل على تطويرها . كما قاما ببعث الوعي القومي واظهار أمجاد العرب واحياء التراث العربي في مختلف الآداب والعلوم والفنون ، واتجه الأدب العربي عامة وفي بلاد الشام خاصة لتحقيق تلك الغاية . وأخذ رواد القومية العربية من مسيحيين وغيرهم يؤلفون الجمعيات الأدبية وينظمون القصائد ويكتبون الخطب الوطنية ويوزعون المناشير السياسية الداعية الى الاصلاح وإذكاء الروح القومي .

وقد ألف خمسة من الشبان العرب المسيحيين من خريجي الكلية البروتستانتية السورية أول جمعية قومية في بيروت عام ١٨٧٥م وانضم الى عضويتها عدد من المثقفين العرب المسلمين . ودأب أعضاء هذه الجمعية على توزيع بعض المنشورات والملصقات التي تحض على مقاومة الحكم العثماني والخروج عليه . وتمكنت السلطات العثمانية التي كشفت مخططات تلك الجمعية من وقف نشاطها وملاحقة أعضائها وزعمائها الذين أجبروا على مغادرة الشام لمصر .

كما غادر سوريا أيضاً عدد قليل من دعاة القومية العربية الآخرون الذين لجأوا الى مصر وأسسوا فيها عدداً من الجرائد والمجلات التي تهدف لبث وتعميق الفكرة القومية . وتوجه البعض الآخر الى عدد من عواصم الدول الأوروبية وعلى رأسها باريس وأخذ يعمل على تحقيق تلك الغايات والأهداف القومية .

ولا يفوتنا ونحن نتحدث عن القومية العربية في هذه المرحلة الحرجة من تاريخ الأمة العربية الاسلامية ، أن نشير الى عبدالرحمن الكواكبي (١٨٤٩ ــ ١٩٠٣م) والمجهودات الفكرية التي قام بها لدعم الوحدة العربية الاسلامية . وقد نشر الكواكبي بمصر كتابين مشهورين هما « ام القرى » و « طبائع الاستبداد » ودعا الى نزع الخلافة الاسلامية من الأتراك العثمانيين واعادتها الى العرب ، والى أن يتولى العرب ادارة بلادهم بأنفسهم ويعملوا على اصلاحها وتطويرها .

وانفرد الكواكبي وتميز على غيره من الدعاة والمفكرين آنذاك بالدعوة الى الاصلاح الديني والاصلاح القومي في آن واحد . وكان يؤمن بأنه لا تناقض بين الدعوتين وانهما مكملان لبعضهما البعض كما يؤمن بأن المستقبل للعروبة والاسلام . وقد دافع الكواكبي عن الوحدة الاسلامية ولكنه نادى بضرورة الوحدة العربية واعتبرها الضمان الأكيد لتحقيق الوحدة الاسلامية تحت زعامة عربية وخليفة عربي قرشي .

وكان مما كتبه في « أم القرى » في هذا الصدد « العرب أنسب الأقوام » لأن يكونوا مرجعاً في الدين وقوة للمسلمين فان بقية الأقوام قد اتبعوا هديهم ابتداء فلا يأنفون من أتباعهم أخيراً .

مرت فكرة القومية العربية في عهد الدولة العثمانية بثلاث مراحل رئيسية هي :

١ ــ مرحلة ما بعد الدستور التي امتدت من ١٩٠٨ الى ١٩١١م .

٢ ــ مرحلة الجمعيات السرية والعلنية التي امتدت من ١٩١٢ ــ ١٩١٥م .

٣ ــ مرحلة الثورة المسلحة التي تمثلت في الثورة العربية الكبرى عام ١٩١٦م .

١ ــ مرحلة ما بعد الدستور :

في بداية هذه المرحلة أنشأ بعض السياسيين العرب في استنبول « جمعية الاخاء العربي العثماني » ، وجعلوا غايتها السعي لاعلاء شأن الأمة العربية وتحسين أحوالها وتقوية كيانها والتعاون مع جمعية الاتحاد والترقي في النهوض

بكيان الدولة العثمانية عامة وتوثيق عرى الصداقة العربية ـ التركية خاصة . وأصدرت الجمعية جريدة باللغة العربية تنطق بلسانها وتحمل اسمها . ومع أن هذه الجمعية لم تعمر طويلا إذ حلتها جماعة الاتحاد والترقي عند تسلمها لمقاليد الحكم وتنفيذها لسياسة التتريك ، الا أنها كانت تمثل بداية بروز فكرة القومية العربية بمعالمها الواضحة .

وأوحت كثرة الشبان العرب في الآستانة من الطلاب والموظفين والسياسيين وازدهار الحركة السياسية العامة واتساع دائرة فكرة القومية العربية ونشاطها بانشاء المنتدى الأدبي في استنبول في عام ١٩١٠م ، وكان في انشائه سد للفراغ الذي بدأ يظهر بتوارى جمعية الاخاء العربي عن المسرح السياسي . وأخذ المنتدى يمارس نشاطه بنجاح تام وتناقش فيه وتدرس مبادىء القومية ومراميها . وأصدر المنتدى مجلة باسمه ينشر فيها كل ما له صلة بالعربية ولغتها وتراثها وأمجادها وأمانيها وعلى صفحات تلك المجلة نشرت أولى القصائد والأناشيد القومية التي تشيد بحضارة وأمجاد العرب وتعرب عن تطلعاتهم وأمانيهم الوطنية . وكان شبان العرب في الآستانة كثيرا ما يرددون تلك الأناشيد ويتغنون بها في اجتماعاتهم العامة والخاصة . وكان كبار رجال العرب لا سيما نواب مجلس المبعوثان يعاضدون المنتدى ويلقون فيه الخطب . وأصبح المنتدى مكاناً لتجمع ونشر وتبادل الآراء ، وتمكن المنتدى من فتح عدة فروع له في عدد كبير من المدن السورية والعراقية وانضم الى عضويته آلاف من العرب .

وكان عبدالكريم الخليل من أبرز الذين اشتغلوا بأعباء المنتدى وحركته واختير رئيساً له وقد ساعده في ذلك بعض العرب المقيمين في الآستانة آنذاك وعلى رأسهم رفيق رزق سلوم وجميل الحسيني وعبد الحميد الزهراوي وشكري العسلي وآخرون . وحدد رئيسه عبدالكريم الخليل أركان القومية بوحدة اللسان والتاريخ ووحدة الوطن والمنفعة ، وأوضح أن كل تلك الأركان تتوافر في الأمة العربية .

وظل هذا المنتدى الأدبي يواصل أعماله حتى ١٩١٥م حين أغلقته السلطة الحكومية الاتحادية محاربة منها لفكرة القومية العربية .

وفي أخريات المرحلة الأولى من الحركة القومية تمكن عدد من النواب

العرب النشيطين في مجلس المبعوثان من تجمع سائر النواب العرب في كتلة عربية وألفوا منهم في عام ١٩١١م حزباً نيابياً عربياً للدفاع عن حقوق ومصالح العرب . ويعتبر هذا التجمع تطوراً هاماً في الحركة العربية القومية . وكان شكري العسلي وعبدالحميد الزهراوي وروحي الخالدي من أبرز القائمين بهذه الحركة الخطيرة .

٢ ـ مرحلة الجمعيات السرية والعلنية :

بدأت المرحلة الثانية من مراحل القومية العربية بتكوين الجمعيات السرية من جهة وبروز حركات سياسية علنية من ناحية أخرى . وقد لعبت الحركات السرية دوراً هاماً وخطيراً في تطور فكرة القومية العربية نظرياً وعملياً . وتعتبر الجمعية القحطانية وجمعية العربية الفتاة والعهد وحزب اللامركزية وجمعية الحركة الاصلاحية من أهم وأبرز تلك الجمعيات . ورفعت كل تلك الجمعيات والاحزاب السياسية شعار الدفاع عن جقوق العرب واصلاح البلاد العربية .

١ ـ الجمعية القحطانية :

تأسست الجمعية القحطانية في الآستانة في أواخر عام ١٩٠٩م وقام بتأسيسها نخبة من الشبان العرب وعلى رأسهم عزيز المصري وهو ضابط مصري في الجيش التركي . وكان تكوينها ونشاطها في غاية السرية كما كان أعضاؤها يختارون بدقة متناهية وكان من أعضائها البارزين خليل حمادة وعبدالحميد الزهراوي وسليم الجزائري وآخرون .

وكانت الجمعية القحطانية تهدف لايجاد كيان عربي مستقل ضمن اطار الدولة العثمانية يناوىء الفكرة المركزية التي يحرص الاتحاديون على تطبيقها . ولم تستمر تلك الجمعية اكثر من سنة حتى اكتشف أمرها وحلت وتفرق أعضاؤها .

٢ ـ جمعية العربية الفتاة :

تأسست هذه الجمعية في باريس في عام ١٩١١م وكان مؤسسها سبعة من الشبان العرب الذين جاؤوا لفرنسا لاتمام دراساتهم الجامعية وهم عوني عبدالهادي وجميل مردم وتوفيق السويدي ورستم حيدر ومحمد المحمصاني ورفيق رزق سلوم وعبدالغني العربي . وكانوا كلهم من أهل العراق والشام .

وكانت عضويتها مختصرة على المدنيين ولم يزد عدد أعضائها حتى نهاية

الحرب العالمية الاولى على الستين عضواً معظمهم من العرب المسلمين .

وكانت هذه الجمعية السرية من أخطر وانشط الجمعيات العربية . وكانت تهدف الى تحرير واستقلال البلاد العربية الواقعة تحت الحكم العثماني . وكان مبدأ، الجمعية « تحرير الامة العربية حسب الاحوال والظروف خطوة فخطوة بكل الوسائل الشرعية وغير الشرعية »(١) . وكانت الجمعية منظمة تنظيماً دقيقاً ويمر الشخص الذي يريد الانضمام لعضويتها بمراحل دقيقة من الاختبار . وكان لهذه الجمعية قسم يؤديه العضو بعد أن يجتاز مرحلة الاختبار وهو :

ـ أن يعمل على نشر أغراض الجمعية وتأدية رسالتها ولو بذل روحه في هذا السبيل . وظلت الجمعية تعمل في باريس من أجل القضية العربية حتى تخرج أعضاؤها وعادوا الى الوطن العربي فانتقل مركزها الى بيروت في عام ١٩١٣م ثم الى دمشق في عام ١٩١٤م . وبالاضافة لأعضائها المؤسسين فقد اشتهر من أعضائها شكري القوتلي وعبدالحميد الزهراوي وآخرون .

٣ ـ جمعية العهد :

أما جمعية العهد فقد أسسها عزيز علي المصري في الآستانة في عام ١٩١٣م بعد أن افتضح أمر القحطانية وتجمد نشاطها . وكانت تهدف الى الحصول على الاستقلال الداخلي للأقطار العربية ضمن الامبراطورية العثمانية . وكانت هذه الجمعية عسكرية بحتة لضمان السرية والدقة والنظام ، ولم يسمح بالانضمام لعضويتها الا للعسكريين الموثوق بهم . ولم يكن بها من المدنيين الا الأمير فيصل الذي انتسب اليها فيما بعد . وكانت تضم في عضويتها اعداداً كبيرة من الضباط العراقيين من بينهم الهاشمي ونوري السعيد . وكان بها فرعان في العراق احداهما في بغداد والآخر في الموصل . وقد لعبت هذه الجمعية بين العسكريين نفس الدور الذي لعبته العربية الفتاة بين المدنيين على الرغم من أن كلا منهما كانت تجهل وجود الأخرى حتى عام ١٩١٥م .

وتم الاتفاق بين الطرفين على العمل معاً وتنسيق خططهما في عام ١٩١٥م وصارت دمشق مقراً لها . وهناك اشترك اعضاء الجمعيتين في اطلاع الأمير فيصل على مرامي القومية العربية . وبعد اعلان الثورة العربية في الحجاز بادر كثيرون من أعضاء الجمعيتين الى الالتحاق بها .

---

(١) اوراق محب الدين الخطيب . رسالة بعث بها اليه عبدالغني العريس (سليمان سوسي ، الحركة العربية ، ص٣٢) .

٤ ـ حزب اللامركزية :

وبجانب النشاط السري للجمعيات العربية كان هناك نشاط آخر علني في شكل أحزاب سياسية كانت مطالبها معقولة ومقبولة من قبل الأتراك أول الأمر اذ انها كانت تطالب بالحكم الذاتي للولايات العربية في نطاق الدولة العثمانية . وكان حزب اللامركزية الادارية العثماني الذي أسس في القاهرة في عام ١٩١٢م من أهم تلك الاحزاب السياسية . ومن برنامج هذا الحزب المطالبة بالحكم اللامركزي للشعوب العثمانية ، لا سيما العرب ، والمطالبة بكل الوسائل الشرعية بتأسيس حكومة لا مركزية ادارية في جميع ولايات الدولة العثمانية لا سيما الولايات العربية . ورحبت الوزارة الاتحادية في بادىء الامر بمبدأ الاصلاح وتطبيق اللامركزية ولكن سرعان ما عدلت عن ذلك وقامت بمحاربة واغلاق الجمعيات والاحزاب التي تطالب بذلك وعلى رأسها حزب اللامركزية العثماني . وقد أثار هذا القرار موجة من السخط عند العرب وزادهم يقينا بأن حكام العهد الجديد لا يتمنون لهم ولا لأمتهم العربية خيراً .

٥ ـ جمعية بيروت الاصلاحية :

وهناك أيضا جمعية الحركة الاصلاحية التي تألفت في بيروت عام ١٩١٢م وكان من أهم أهدافها منح المناطق العربية حكماً ذاتياً في نطاق السيادة العثمانية والمطالبة بأن تكون اللغة العربية لغة رسمية في جميع المعاملات داخل الولايات العربية . ويعتبر تكوين هذه الجمعية صدى من أصداء دعوة اللامركزية وبادرة إستجابة لها كما يبدو من مطالبها ونهجها وتاريخ ظهورها .

وكانت هذه الجمعيات السرية والعلنية على اختلاف مشاربها تواصل مساعيها في بث الدعوة القومية والنهوض بالروح الوطنية في الولايات العربية .

وفي سنتي ١٩١٢ و ١٩١٣م أخذت الصحف التركية والعربية تناقش بعضها البعض مناقشات حادة ومثيرة في معظم الأحيان ، وأخذ متطرفو الحركة الطورانية يؤلفون الكتب في الطعون في العرب واتهموا زعماء الحركة القومية بالعمل لحساب الأجانب ، لا سيما الانجليز والفرنسيين وادعوا أن الأيدي الاجنبية هي التي كانت تحرك تلك الجمعيات وتديرها .

٦ ـ المؤتمر العربي الأول :

فكر عدد من الشباب العرب المقيمين في باريس في عقد مؤتمر عربي هناك ليلفتوا الرأي العام لمطالبهم . وبعد مراسلات متعددة بينهم وبين زعماء اللامركزية وجمعية الحركة الاصلاحية في القاهرة وبيروت تم الاتفاق على عقد المؤتمر في باريس في حزيران ١٩١٣م . واشترك فيه ممثلون عن حزب اللامركزية في مصر وعن جمعية بيروت الاصلاحية وعن المهاجرين السوريين المقيمين في الولايات المتحدة والمكسيك وعن العرب المقيمين في باريس . وقد كان نصف أعضائه تقريبا من المسيحيين ، ولقى المؤتمر نجاحاً كبيراً ولمع فيه اسم عبدالحميد الزهراوي الذي انتخب لرئاسته وسادت الصراحة والاعتدال مداولات المؤتمر وقراراته التي يمكن تلخيصها في الآتي :

١ ـ ضرورة اجراء اصلاحات حقيقية في الدولة العثمانية على وجه السرعة .

٢ ـ مشاركة العرب مشاركة فعلية في الادارة المركزية للدولة العثمانية .

٣ ـ اقامة ادارة لا مركزية في الولايات العربية كل بما يناسب حاجاتها وصلاحياتها .

٤ ـ اعتبار الخدمة العسكرية محلية في الولايات العربية الا في الحالات الاستثنائية .

٥ ـ اعتماد اللغة العربية كلغة رسمية في البرلمان العثماني والولايات العربية .

واشترط المؤتمر على أعضائه الامتناع عن قبول أي منصب في الحكومة التركية وأن تكون القرارات المتخذة ، برنامجا سياسيا للعرب العثمانيين وخلاصة الأمر أن المؤتمر طالب بالاصلاح والحكم اللامركزي ولم يطالب بالانفصال عن الدولة العثمانية ولقد كان لهذا المؤتمر أهمية خاصة اذ أنه أخرج ، ولأول مرة المسألة العربية من الصعيد المحلي الى الصعيد الدولي .

وقلق الاتحاديون لهذه التطورات إلا أنهم تظاهروا آنذاك بالتعاطف مع مطالب العرب وأخذوا يداورنهم ويخففون مؤقتا من سياسة التتريك . كما أصدرت الحكومة الاتحادية في آب ١٩١٣م قرارا يقضي بوجوب ترقية البلاد

واسعاد أهلها وزيادة رفاهيتها باعطائهم الحكم المحلي وأن يكون التدريس باللغة العربية في الجهات التي يتكلم أكثر سكانها اللغة العربية كما يختار الموظفون الملمون باللغة العربية علاوة على اللغة التركية . وقام الاتحاديون كذلك باشراك العرب في وظائف هامة كثيرة فعينوا زكي باشا الحلبي أحد القادة العرب على رأس الجيش العثماني المرابط في سوريا ، كما عينوا عبدالحميد الزهراوي ، رئيس مؤتمر باريس عضواً في مجلس الأعيان ، وعينوا بعض الشبان العرب في بعض الوظائف الهامة . واشتد غضب رواد القومية العربية على أولئك الذين قبلوا الوظائف ورموهم بالخيانة .

واتضح أن الاتحاديين لم يكونوا جادين وصادقين في التعاون مع العرب ، وان ظروف الحرب الطرابلسية هي التي أجبرتهم على انتهاج سياسة المهادنة معهم إذ أنه بمجرد الانتهاء من تلك الحرب عاد الاتحاديون الى سياسة التتريك وعزلوا زكي باشا الحلبي وعينوا جمال باشا التركي حاكماً على سورياً وقائداً للجيش العثماني في تلك المنطقة بدلا عنه ، وأدخلوا فلسطين والحجاز تحت سلطته .

وكان جل هم جمال باشا الذي أطلق عليه العرب اسم السفاح هو وقف نشاط الجمعيات العربية السرية والتخلص من قادتها حتى لا يتحول نشاطهم الى ثورة . ونجح جمال باشا في تحقيق ذلك في بلاد الشام . الا أن القوميين العرب لما اشتد عليهم الضغط واستحال عليهم القيام بأي عمل مسلح في بلاد الشام حولوا مركز نشاطهم الى الحجاز حيث قاموا بالتعاون مع الشريف حسين بن علي بالثورة العربية الكبرى التي تمثل مرحلة حاسمة من مراحل القومية العربية الحديثة .

الثورة العربية الكبرى :

ظلت العلاقات بين العرب والاتراك متوترة الى درجة الانقطاع عندما أعلنت الحرب العالمية الاولى في عام ١٩١٤م . ورأى العرب بزعامة الشريف حسين بن علي أمير مكة والذي كان بينه وبين الدولة العثمانية جفاء وعدم ثقة متبادلة أن الفرصة مواتية لهم للثورة على الاتراك والتخلص من حكمهم والعمل على نيل استقلالهم . فأرسل الشريف حسين ابنه الامير عبدالله الى كتشنر المعتمد البريطاني في القاهرة يستفسره عن مدى استعداد بريطانيا لتقديم المساعدات المالية والعسكرية للعرب اذا قام الشريف بالثورة ضد الاتراك .

ولما لم تكن تركيا قد دخلت الحرب آنذاك كحليف لالمانيا ، لم يلتزم كتشنر بتقديم أي مساعدات للحسين وترك الامر معلقا دون ابداء رأي قاطع فيه . ولكن الأحداث تطورت بصورة مذهلة عندما انحازت تركيا في نهاية عام ١٩١٤م الى جانب المانيا ضد الحلفاء وأعلنت الجهاد المقدس وطالبت كافة المسلمين بالاستجابة اليه . وكانت بريطانيا تدرك تماما أبعاد هذه الخطوة وتتوجس خيفة من أخطار اعلان الجهاد فأخذت تعمل بكل امكانياتها لتخفيف خطر الجهاد في المنطقة . وقام البريطانيون بالاتصال بزعماء العرب الموجودين في مصر ، كما أوعز كتشنر الذي صار وزيراً للحربية البريطانية آنذاك لخلفه السير هنري ماكمهون مندوب بريطانيا السامي في القاهرة بمعاودة الاتصال بالشريف حسين وتشجيعه على الثورة . وأرسل كتشنر شخصياً خطاباً الى الشريف حسين في أواخر أكتوبر ١٩١٤م وعده فيه بالدفاع عن البلاد العربية ضد أي هجوم أجنبي وباعتراف بريطانيا بقيام دولة عربية مستقلة .

وكثفت السلطات البريطانية في الهند والشرق الأوسط نشاطها لكسب الزعماء العرب المسلمين ، لا سيما الشريف حسين وعبدالعزيز آل سعود ، واقناعهم بعدم الاستجابة لحركة الجهاد التي دعت اليها السلطات العثمانية . ونجحت السلطات البريطانية في مساعيها وقللت بذلك من خطر اعلان الجهاد الذي كانت الحكومة البريطانية ترهبه وتخشاه .

مراسلات حسين ــ ماكمهون :

وفي تلك الاثناء تبادل الشريف حسين والسير هنري ماكمهون رسائلهما المشهورة والتي عرفت بمراسلات حسين ــ ماكمهون . وتعتبر الرسالة الاولى التي بعث بها الشريف حسين الى المندوب السامي البريطاني في القاهرة في تموز ١٩١٥م من اهم تلك الرسائل . وتنبع اهميتها من طبيعة مرونتها الدبلوماسية من جهة ومن حيث أنها تشكل الاساس الذي قامت عليه المفاوضات بين الجانبين العربي والبريطاني من جهة أخرى . وقد بنيت تلك المذكرة على ميثاق القوميين والذي عرف ببروتوكول دمشق . وكتب الشريف حسين تلك المذكرة باسم العرب والامة العربية ، وبعث بها الى الحكومة البريطانية متخذاً صفة الناطق الرسمي باسم العرب والمعبر عن تطلعاتهم وأمانيهم . وذكر الشريف حسين في تلك المذكرة أن العرب جميعا مصممون على الفوز بحريتهم المطلقة واستقلالهم التام ومستعدون للتعاون مع بريطانيا التي يفضلون مساعدتها على سواها ويشعرون أن من مصلحتها مساعدتهم .

ويمكن تلخيص الشروط التي عرضها الشريف حسين للتفاوض مع بريطانيا في الآتي :

١ ـ اعتراف بريطانيا باستقلال البلاد العربية التي تمتد من الخليج العربي شرقاً حتى البحر الاحمر والبحر المتوسط غربا ، ومن طوروس شمالا حتى المحيط الهندي جنوبا باستثناء عدن ، والموافقة على اعلان خلافة عربية .

٢ ـ اعتراف حكومة الشريف العربية بأفضلية بريطانيا في جميع المشاريع الاقتصادية في البلاد العربية .

٣ ـ عقد حلف دفاعي بين بريطانيا والدولة العربية المستقلة .

٤ ـ الغاء جميع الامتيازات الأجنبية في البلاد العربية .

وطالب الشريف حسين بالرد على هذه الاقتراحات خلال ثلاثين يوما وذكر أن الشعب العربي سيحتفظ لنفسه بحرية العمل اذا لم يتلق جوابا خلال هذه المدة .

ولكن المسؤولين لم يحملوا مذكرة الشريف حسين محمل الجد وكانت لهم تحفظاتهم تجاهها . واعتقد بعضهم أن الشريف حسين وضع شروطه من عندياته دون أن يتلقى تفويضا من أصحاب الحل والعقد الآخرين في بلاد العرب وذكروا أن الشريف يعرف انه يطالب بأكثر مما يحق له أن يطالب به أو يؤمل في تحقيقه أو يملك القوة على توقعه .

وبهذا المفهوم بعث ماكمهون برسالته الجوابية على الشريف حسين بتاريخ ٣٠ آب ١٩١٥م . واستهل ماكمهون رسالته التعميمية بمجموعة من الألقاب الطنانة وعبارات التمجيد والتبجيل للشريف ورحب بما قاله عن توافق المصالح بين بريطانيا والعرب وشكره على عواطفه نحو بريطانيا وأوضح أن البحث في مسألة الحدود سابق لأوانه لأن الحرب لا تزال قائمة وان معظم المناطق المعنية ما تزال تحت سيطرة الدولة العثمانية ، وان بعض العرب ما يزالون يتعاونون تعاونا وثيقا مع الاتراك والالمان . وأبدى ماكمهون بضع تحفظات على حدود الدولة العربية المنتظرة فذكر ان لبريطانيا في جنوب العراق مصالح لا ينبغي تجاهلها ، وان ولاية اظنة ومرسين واسكندرونة في سوريا الشمالية ليست عربية خالصة كذلك أقسام الشام الواقعة في الجهة الغربية لولايات دمشق وبيروت

وحمص وحماه وحلب . كما نوه ماكمهون بمصالح فرنسا حليفة بريطانيا في تلك المناطق السورية ، وذكر انه مع مراعاة التعديلات المذكورة فان بريطانيا مستعدة لأن تعترف باستقلال العرب وان تؤيد ذلك الاستقلال في جميع الاقاليم الداخلية في الحدود التي طالب بها شريف مكة .

وأبدى الشريف حسين في رسالته الثانية التي بعث بها الى ماكمهون بتاريخ ٩ ايلول ١٩١٥م اسفه واستغرابه للغموض والتردد الذي لمسه في جواب ماكمهون وأكد له ان مسألة الحدود هي مسألة جوهرية وأوضح له ان الحدود التي طالب بها في مذكرته الاولى لا تتعلق بشخص واحد بعينه يمكن البحث معه في شأنها وترضيته بعد انتهاء الحرب بل هي مطالب قومه الذين يعتقدون انها من الضروريات الحياتية والاقتصادية .

وقبل أن تحسم المكاتبات بين الجانبين بصورة قاطعة تعجل الشريف حسين الامور وأعلن الثورة على الاتراك في ابريل ١٩١٦م ووصفها بأنها واجب ديني قومي ، وفرصة هيأتها الحرب للعرب لتحقيق الاستقلال ، واتهم حكام تركيا بالخروج عن الاسلام وقد أدى ذلك الى حدوث ثغرات عدة نفذت منها الاطماع الانجليزية والفرنسية الى المنطقة بعد الحرب .

ولم تكن سياسة بريطانيا الموالية للعرب آنذاك مجرد نتاج لمتطلبات « تكتيكية » حربية ضد القوات التركية والالمانية ، بل كان الهدف الاساسي منها هو السيطرة على المدينتين المقدستين ، مكة والمدينة ، وفصلهما عن الخلافة العثمانية بقصد اضعافها واسقاطها[١] .

ونجحت بريطانيا في ذلك بفضل سذاجة الشريف حسين واندفاعه وقصر نظره وثقته المفرطة بالانجليز وبالسياسة البريطانية . ودفع العرب الثمن غاليا لتواطئهم مع الانجليز « الكفرة » ضد الاتراك المسلمين[٢] .

ولم تكتف بريطانيا باقتطاع البلاد العربية الاسلامية من صلب الامبراطورية العثمانية ، بل فرضت عليها تجزئة مصطنعة وقسمتها الى كيانات قومية اقليمية ممزقة متصارعة لا تتفرغ أبداً لمحاربة الاستعمار والتخلص منه بل تظل دائماً وأبداً هزيلة مفككة تتجاذبها النزاعات الاقليمية والدينية والأيديولوجية مما يضمن للمستعمرين استمرار التبعية والتخلف[٣] .

(١) بريطانيا والخلافة الاسلامية ، وثيقة تاريخية سياسية عبدالوهاب احمد ص١٠ .

(٢) نفس المصدر .

(٣) نفس المصدر ، ص ـ ١١ .

وركزت بريطانيا جهودها بعد ذلك لتوجيه الضربة القاضية للخلافة الاسلامية في عقر دارها . وكان مصطفى كمال أتاتورك هو الأداة الفعالة التي استغلت لتنفيذ تلك المخططات الاستعمارية . ولسعادة بريطانيا فان أتاتورك لم يكتف بالغاء الخلافة وهدم جميع المؤسسات والهيئات الاسلامية في تركيا ، بل ودفع تركيا في مسار قومي علماني وعمل على نقض معالمها الاسلامية عن طريق نقل وتقليد الافكار والعادات الاوروبية المسيحية بحذافيرها . وأدت خطوات أتاتورك هذه والتي تمت تحت شعار تأسيس دولة علمانية عصرية الى عداء ومحاربة الاسلام والمسلمين في تركيا ، والى تحويل الولاء عن الاسلام الى القومية والوطن . كما اكتسحت البلاد التركية والعربية أيضا موجة قومية عنيفة واعراض عن الاسلام والوحدة الاسلامية .

ولم تكتف بريطانيا بذلك بل انتهزت فرصة ضعف وتخلف دول المنطقة وتدهور أحوالها الاقتصادية واضطراب أوضاعها السياسية واعتمادها على المعونات البريطانية الفنية والمادية والعسكرية المشروطة فشددت من قبضتها وفرض سيطرتها التي تأرجحت بين الحكم المباشر وغير المباشر . كما أخذت تعمل على ترسيخ الكيانات القومية والاقليمية ومواصلة هدم الوحدة الاسلامية .

ولكن ذلك لم يوقف نمو الوعي الاسلامي والقومي الذي أخذ يتزايد في المنطقة لا سيما في مصر والعراق ويعمل على مناهضة السيطرة الاستعمارية بكافة صورها ويطالب بالحاح لا يخلو من العنف أحيانا بالحرية والاستقلال . وأخذ الشعور القومي والوطني المعادي لبريطانيا يتنامى ويكبر مع مرور الاحداث ، ورافقه تحرك داخلي وخارجي لتنظيم العمل السياسي على نمط الاحزاب السياسية السرية والعلنية ولعب الشباب لا سيما الطلاب ، دوراً هاماً وبارزاً في إذكاء الروح الوطنية واثراء العمل السياسي . وكانت المطالبة بالحرية والاستقلال وجلاء القوات الاجنبية تأتي في مقدمة أولويات النشاطات السياسية .

• وتمخض ذلك عن ظهور معارضة عنيفة للوجود البريطاني في كافة البلاد العربية وتأرجحت تلك المقاومة بين القوة والضعف والسلام والعنف واختلفت من قطر لآخر فاخذت تعقد الندوات وتنظم المؤتمرات وتسير المظاهرات التي تندد بالاستعمار البريطاني وخطره على الامة العربية الاسلامية وتطالبه بالحرية

والاستقلال . وتطورت تلك المعارضة في بعض الأحيان الى المقاومة المسلحة للوجود البريطاني في المنطقة .

وتفادياً لآثاره ومجابهة شعوب المنطقة التي توحدت كلمتها ومشاعرها في المطالبة بالحرية والاستقلال الوطني أخذت بريطانيا تعمل على تعديل سياستها التقليدية في المنطقة والتي اعتمدت على القوة والقسوة ، ولجأت الى « المساومة » وابداء نوع من التفهم لمتطلبات تلك المرحلة القلقة من تاريخ الشرق الاوسط ... فاستجابت لبعض مطالب ورغبات شعوب المنطقة التي لا تتعارض ومصالحها الحيوية كما أخذت بريطانيا تعمل على تقوية وتوثيق علاقاتها برؤساء الحكومات العربية ووزرائها البارزين المهيئين للقيام بدور أكثر فاعلية في مستقبل المنطقة ومنحتهم بعض التنازلات الضرورية لدعم مواقفهم السياسية المعتدلة المعادية لمواقف الفئات المتطرفة والتي عرفت بمعاداتها الدائمة والعنيفة لأي وجود أجنبي في المنطقة وعملت على مناهضته ومقاومته بكافة الوسائل والطرق ، وآثرت أن تلتقي بالحركات الوطنية في منتصف الطريق بتقديم التنازلات الممكنة دون المساس بمصالحها الاقتصادية والاستراتيجية في المنطقة . ورغم مماطلة بريطانيا في منح شعوب المنطقة العربية الاسلامية الحرية والاستقلال ، فقد حظيت سياستها التقليدية المبنية على مهادنة ومساومة الحكومات الوطنية واستجابة لمطالبها المحلية التي لا تتعارض ومصالحها الحيوية في المنطقة بنوع من الرضا من قبل رؤساء وحكام الدول العربية الذين آثروا استمرار علاقاتهم السياسية مع بريطانيا ، على توترها بدلا من الدخول في مجابهة خاسرة معها .

ولكن سياسة بريطانيا في فلسطين ظلت تمثل نقطة الخلاف الأساسية بين بريطانيا والعرب وتقف حائلا دون أي تقدم ملموس في العلاقات البريطانية . ورغم ادعاءات بريطانيا المتكررة التي تؤكد فيها ان الالتزامات المفروضة عليها كدولة منتدبة بشأن العرب واليهود متساوية ، وانه لا تناقض فيها ويمكن تنفيذها ، الا أن الاحداث والتطورات السياسية قد كشفت لنا جلياً تناقض تلك الالتزامات واستحالة تنفيذها وفضحت مخططات الحكومة البريطانية الاستعمارية التي عملت بالتعاون التام مع الحركة الصهيونية على انشاء الوطن القومي لليهود في فلسطين وتطويره تدريجياً الى دولة صهيونية عنصرية في قلب الأمة العربية .

محاولات الوحدة العربية :

أخذت فكرة الوحدة العربية التي ظلت حتى مطلع الحرب العالمية الأولى أملا ضعيفاً يداعب النفوس تتبلور شيئاً فشيئاً بعد أن تحررت معظم الدول العربية الآسيوية من قبضة الاستعمار الغربي المسيحي ، ونالت استقلالها وضاعفت الدول العربية الافريقية من نضالها وكفاحها من أجل الحرية والاستقلال .

وكان ادراك العرب للخطر الصهيوني الذي أخذ يهدد المنطقة العربية الآسيوية لا سيما فلسطين من أهم دوافع التكتل العربي . كما ساعدت ظروف الحرب العالمية الثانية على تحقيق هذا الهدف . وقد أدرك العرب نتيجة لتطور الوعي السياسي العام أن الحركات الوطنية المحلية لا يمكن أن تحل محل الوحدة العربية الشاملة التي هي أساس العمل الوطني . كما أدركوا أن مركزهم سيقوى كثيراً في مجابهة الدول الغربية اذا استطاعوا أن يواجهوها وهم جبهة متحدة قوية متماسكة . وانعقدت المؤتمرات الشعبية والرسمية لدراسة وسائل التعاون الثقافي والاقتصادي والسياسي وتوحيد التعليم في البلاد العربية مما ساعد كثيراً على انتشار فكرة الوحدة العربية .

وأخذت الحكومات العربية تشعر شعوراً متزايداً بضرورة توثيق التعاون فيما بينها للحفاظ على استقلالها وصيانة المصالح العربية المشتركة والاستجابة للشعور الشعبي العام الذي كان يدفعها الى تنسيق الشؤون العربية على وجه ينجم عنه اتحاد عربي أو على الاقل تضامن وتقارب وتحالف . ولكن تلك المساعي والمشاورات لم تتجاوز نطاق المداولات غير الرسمية التي لم تتخذ صيغة رسمية وعملية الا في عام ١٩٤٥م عند قيام الجامعة العربية .

مشروع الهلال الخصيب :

يعتبر مشروع وحدة بلدان الهلال الخصيب الذي تقدم به نوري باشا السعيد وزير خارجية العراق في عام ١٩٤١م من أهم الدعوات التي بدت في الجو العربي آنذاك من أجل تحقيق الوحدة العربية . وأصدر نوري باشا في عام ١٩٤٣م عندما أصبح رئيساً للوزراء الكتاب الأزرق الذي وضع فيه الخطوط العريضة لمشروع وحدة بلدان الهلال الخصيب .

ويتلخص هذا المشروع في الآتي :

١ ــ الدعوة لتكوين دولة واحدة في سوريا ولبنان وفلسطين والاردن .

٢ ــ الدعوة لتكوين وحدة عربية في سوريا الكبرى والعراق .

مشروع سوريا الكبرى :

وفي تلك الفترة الحرجة من تاريخ الأمة العربية تقدم الأمير عبدالله للحكومة البريطانية في مطلع عام ١٩٤٣م بمذكرة سياسية بخصوص حل المسألة العربية بوجه عام .

وتتلخص المذكرة التي بعث بها الأمير عبدالله في مطالبة بريطانيا بناء على وعدها للعرب سابقاً ولاحقاً ونظراً لعجز الحكومة الفرنسية عن الوفاء بالتزاماتها نحو سوريا ولبنان وأملا في اعادة وتوثيق الصداقة العربية البريطانية التقليدية وضماناً للاستقرار في البلدان العربية أن تنفذ أحد المشروعين الآتيين :

أ ــ **مشروع الوحدة السورية والاتحاد العربي** : ويتضمن الاعتراف باستقلال سوريا الكبرى (سوريا الشمالية وشرقي الاردن ولبنان وفلسطين) مع انشاء ادارة خاصة لكل من لبنان وفلسطين ، لحفظ حقوق الاقليات المسيحية واليهودية والغاء تصريح بلفور أو تفسيره تفسيراً يزيل مخاوف العالمين العربي والاسلامي ، وأن يكون الأمير عبدالله حاكم شرقي الاردن رئيساً لتلك الدولة الموحدة ومن ثم يتم اعلان تأسيس اتحاد عربي تعاهدي يضم سوريا والعراق ويترك الباب مفتوحاً لانضمام الدول العربية الأخرى اليه .

ب ــ **مشروع الدولة السورية الاتحادية** : وفي حالة عدم تأسيس الدولة السورية الموحدة المتحدة مع العراق اقترح الأمير عبدالله قيام دولة سورية اتحادية مركزية تضم حكومات شرق الأردن وسوريا الشمالية ولبنان وفلسطين وتكون عاصمتها دمشق ويرأسها الأمير عبدالله .

ومن الواضح أن الأمير عبدالله كان يهدف بمساعدة حاكم العراق الذي تربطه به أوثق وأمتن العلاقات الى إعادة مجد الاسرة الهاشمية الذي انهار بتنكر بريطانيا لوعودها للشريف حسين بن علي .

ردود الفعل لمشاريع الوحدة العربية :

رحبت بريطانيا ظاهرياً بمشاريع الوحدة العربية المطروحة آنذاك ، الا انها لم تتحمس لها كثيراً عندما تأكدت بأنها لا تلاقي التأييد من بعض الجهات العربية الهامة وعلى رأسها المملكة العربية السعودية ومصر . وكانت الأولى ترى أن في قيام مشروع وحدة بلدان الهلال الخصيب أو سوريا الكبرى خطراً يهدد كيانها بينما ترى فيه الثانية دعماً للنفوذ البريطاني في المنطقة وخطراً يهدد كافة البلدان العربية . وكذلك عارضه الوطنيون السوريون كما عارضته الحكومة الفرنسية التي رأت فيه مكيدة جديدة من مكائد السياسة البريطانية تهدف الى اقتطاع سوريا ولبنان من النفوذ الفرنسي وجذبهما الى صف الدول العربية وحكوماتها الواقعة تحت النفوذ البريطاني لتهيمن بريطانيا على الشرق العربي بأكمله .

ولهذا فقد عارضت فرنسا مشاريع الوحدة العربية بمختلف أشكالها معارضة قوية واستعملت كافة الوسائل والحيل الدبلوماسية والسياسية لمنع قيام الوحدة العربية .

بريطانيا والجامعة العربية :

ولما كانت بريطانيا ذات مصالح متعددة ومتنوعة في المنطقة العربية لم تشأ أن تقف بمعزل عن الأحداث وآثرت أن تشارك فيها بل أن تضع الخطوط الرئيسية لها . واستفادت بريطانيا من مركزها الممتاز الذي تبوأته في البلاد العربية أثناء الحرب فأخذت تعمل على وضع الخطوط الرئيسية لوحدة عربية كانت تأمل أن تكون المحركة والموجهة لها والمستفيدة منها في آن واحد . وأعلن انطوني ايدن وزير الخارجية البريطانية في مايو ١٩٤١م تأييده للوحدة العربية وقال :

« ان العالم العربي قد خطا خطوات عظيمة منذ التسوية التي تمت عقب الحرب الماضية ويبدو لي أنه من الطبيعي ومن الحق وجوب تقوية الروابط الثقافية والاقتصادية بين البلدان العربية وكذلك الروابط السياسية أيضاً وان حكومة صاحبة الجلالة من ناحيتها سوف تقدم تأييدها التام لأي مشروع ينال الموافقة العامة » . وأكد إيدن موقفه هذا بعد ذلك بعامين إذ ذكر في مجلس العموم البريطاني في ٢٤ فبراير ١٩٤٣م ان الحكومة البريطانية تنظر بعين العطف الى كل حركة بين العرب لتعزيز الوحدة الاقتصادية والثقافية والسياسية .

بروتوكول الاسكندرية :

وفي صيف ١٩٤٣م بدأت سلسلة من المشاورات الرسمية بين النحاس باشا رئيس الوزارة المصرية الذي أولى القضية العربية اهتماماً خاصاً بعد عقد معاهدة ١٩٣٦م الانجلو مصرية ووفود متعاقبة من الاقطار العربية المستقلة . وتمخضت تلك المشاورات عن عقد مؤتمر تمهيدي في الاسكندرية في ٢٥ سبتمبر ١٩٤٤م . وتعرض مؤتمر الاسكندرية لمناقشة أهم ثلاثة أشكال للوحدة العربية المطروحة آنذاك .

واستبعد الاقتراح الرامي لانشاء حكومة مركزية لكافة الدول العربية بسبب الصعوبات العملية السائدة آنذاك وعلى رأسها ظروف البلاد العربية ومالها من مشاكل وما بينها من تفاوت من النواحي الاقتصادية والثقافية لم تكن تساعد على تحقيق الوحدة الشاملة . كما أن عوامل الفرقة والخلافات التي كانت قائمة بين رؤساء وملوك العرب آنذاك قد لعبت دوراً هاماً وخطيراً في استبعاد ذلك النوع من الوحدة الشاملة . كما اعتبر لنفس الاسباب قيام دولة اتحادية ذات سلطة ملزمة للدول الاعضاء غير عملي واستبعد أيضاً .

ووافق المؤتمر أخيراً على تأسيس رابطة عامة للدول العربية تكون سلطتها ملزمة فقط للدول الاعضاء التي تقبل قراراتها باعتبار ذلك خطوة أولى نحو الوحدة الشاملة في المستقبل ووضع المؤتمر التمهيدي وثيقة عرفت باسم « بروتوكول الاسكندرية » نصت على تأسيس جامعة للدول العربية المستقلة لتقوية الصلات والروابط بينها ولتنسيق مجهوداتها وتشجيع التعاون الأوثق في المجالات السياسية والاقتصادية والثقافية وتضمن بذلك لها الرفاهية وتحافظ على استقلالها .

واعترف البروتوكول باستقلال الدول العربية المشتركة وقرر أن تسير سياسة تلك الدول على أساس خطة موحدة في علاقاتها مع العالم الخارجي ولن يسمح بحال من الأحوال بانتهاج سياسة خارجية ضارة بسياسة الجامعة أو عضو من أعضائها وذلك لازالة الخطر من أن تسير بعض الدول في أفلاك الدول الكبرى فتضطر الى انتهاج سياسات متناقضة .

ونص البروتوكول كذلك على منع الحرب والالتجاء الى القوة لانهاء أي خلاف بين الدول الأعضاء في الجامعة العربية .

جامعة الدول العربية :

وفي مارس ١٩٤٥م عقد مؤتمر عام للدول العربية في القاهرة انتهى الى وضع الميثاق الذي تأسست بموجبه جامعة الدول العربية وصارت القاهرة مقراً لها . وبالرغم من أن الميثاق قد اتبع المبادىء العامة التي وضعت في بروتوكول الاسكندرية الا أنه كان أضعف من ذلك البروتوكول كثيراً . فبينما أكد الميثاق من جديد استقلال الدول الاعضاء وسياستها الا أنه تخلى عن الفقرة التي تمنع اتباع سياسة خارجية ضارة بالجامعة وتخلى كذلك عن الفقرة التي تشير الى التطلع لتوثيق الروابط بقصد الوصول الى اتحاد أوثق .

وأصبح بروتوكول الاسكندرية المعدل ميثاقا للجامعة العربية وأقرته في ٢٧ مارس ١٩٤٥م سبع دول عربية هي : مصر ـ المملكة العربية السعودية ـ سوريا ـ لبنان ـ شرق الاردن ـ العراق ـ اليمن .

وبالرغم من شعور الكثير من العرب بأن ميثاق الجامعة العربية لم يكن ملزماً لكافة الدول العربية بصورة حاسمة وانه كان قاصراً عن تحقيق أماني الشعوب العربية في الوحدة الا أن الرأي العام العربي اعتبر تأسيس الجامعة العربية في حد ذاته خطوة طيبة نحو تحقيق الوحدة الشاملة . وساد الشعور بين العرب بأن الجامعة ستنمو بفضل ارادة الشعوب العربية وستصبح أداة أكثر فعالية لتحقيق تماسك وترابط أمتن وأقوى للدول العربية متى تهيأت الظروف المناسبة لذلك .

الفصـــل الخامس

السكان في الوطــن العربي

للدكتور نوري خليل البرازي

المبحث الاول : السكان في الوطن العربي

المبحث الثاني : انماط السكان في الوطن العربي

المبحث الاول ...

السكان في الوطن العربي

مقدمـــة :

اذا حاولنا رد سكان الوطن العربي الى أصولهم السلالية أمكن القول انها تنتمي الى جنس اسمه « جنس البحر المتوسط » وهو أحد الفروع الرئيسية للمجموعة القوقازية الذي من أهم مميزاته الانثربولوجية البشرة السمراء ، والقامة المتوسطة ، والرأس المستطيل أو المتوسط .

وتتكون هذه المجموعة الأساسية الكبرى من فرعين هما المجموعة السامية التي تسود في الجناح العربي الآسيوي ، والمجموعة الحامية التي يغلب وجودها في الجناح العربي الافريقي . ويجدر بنا هنا أن نلفت النظر الى أن الساميين والحاميين هما مجموعتان لغويتان بالرغم من وجود بعض المميزات الجسمانية ، وعلى أي حال فان أصولهم الجنسية ترتبط بعناصر البحر المتوسط .

وان منطقة الوطن العربي بحكم موقعها الجغرافي كمنطقة اتصال وجبهة التقاء مؤثرات سلالية اخرى كالمؤثرات الارمينية والنوردية في الشمال والزنجية في الجنوب نتيجة للهجرات القديمة التي دخلت الى الوطن العربي كان لا بد ان تترك بعضا من خصائصها بين سكانه الاصليين . وكذلك تظهر الصفات المغولية في الجهات الساحلية الجنوبية للبلاد العربية وبالذات في سكان وادي حضرموت نتيجة اتصالهم باقليم الملايو وجزائر الهند الشرقية حيث كان للعرب جاليات في كثير من المدن التي انتشرت عن طريقها الثقافة الاسلامية بين سكان هذه الجهات ، وبحكم اختلاطهم فقد تزوج كثير من العرب بنساء اهل الملايو واصطحبوهن واولادهن الى بلاد العرب .

هذه لمحة سريعة لاهم العناصر التي تدخل في البنيان الجنسي للشعب العربي . فيتضح من هذه الصورة انتشار عناصر جنس البحر المتوسط في جميع ربوع الوطن العربي مع ظهور المؤثرات الاخرى التي لا تشكل الا نسبة ضئيلة تقدر بنحو ١٢٪ من مجموع السكان الكلي ، كما ان هذه الاقليات السلالية كثيرا

ما تتركز في توزيعها الجغرافي في الاطراف من منطقة الوطن العربي بحيث تظل الرقعة العربية العظيمة الاتساع متجانسة في تكوينها السلالي الامر الذي يجعل المنطقة مطبوعة بطابع الوحدة الجنسية وهذا ما يحقق للامة العربية التجانس شبه التام في الاساس الجنسي بدرجة قلما تتوفر عند كثير من الامم الاخرى .

الموجات العربية السامية :

ولأجل ان تستكمل الصورة التي تم عليها التكوين السلالي للمنطقة العربية في الوقت الحاضر يجدر بنا ان نتابع موجات الهجرات المتلاحقة التي دخلت في التكوين الجنسي الاساسي القديم والتي كان مصدرها الهجرة السامية في اغلب الاحيان من صحراء الجزيرة العربية . اتجهت هذه الهجرة الى الشام والعراق ومصر وشمال افريقيا ، حتى اعطت هذه الهجرات الى السكان مزيدا من التقارب في الملامح والمميزات الجنسية هذا بالاضافة الى ما ادى اليه هذا التقارب في الهجرات من آثار ثقافية واجتماعية كان لها الصدى البعيد في تحقيق وحدة الامة العربية .

لقد حدث تسرب هذه الهجرات على هيئة موجات متتابعة من سكان الصحراء الى المناطق الزراعية باعداد كبيرة وفي فترات تاريخية معينة ... وكان في معظم الاحيان الدافع الاساسي لهذه الهجرات سوء الاحوال الاقتصادية من وقت لآخر في صحراء العرب ، وكانت تلك الهجرات تصاحب معها كل ما تملك من متاع وحيوان ..

وقد سلكت هذه الهجرات ثلاث اتجاهات نحو العراق والشام في اتجاه شمالي وشمالي شرقي ، ومنها في وادي النيل في مصر والسودان والى شمال افريقيا ، ومن هذه الهجرات الكنعانيون والفينيقيون الذين وصلوا الى سواحل الشام في الالف الثالث قبل الميلاد . ولحقتها جماعات العموريين والآراميين وموجات اخرى ... اما الجماعات التي هاجرت من الجزيرة قبل ظهور الاسلام فهي قبائل قضاعة وكلاب وتغلب وبكر وغسان وغيرهم ، ثم جاءت موجة الفتح الاسلامي الكبرى ، وبذلك قويت عملية الانصهار والاختلاط بين هذه الموجات المتتابعة مما ادى الى انصهارها في بوتقة العروبة وانطبعت بطابع واحد هو الطابع العربي في داخل الوطن العربي .

ومن الواضح ان الفتوحات العربية لها الفضل الاول في عملية المزج القوية بين الامة العربية الفاتحة والامم المفتوحة ، لأن هذه الفتوحات ادت الى

مزج في الدم ، ومزج في النظم الاجتماعية وفي الآراء العقلية ، وقد سار هذا المزج على نطاق واسع في العهد العباسي عندما اخرج العرب من ديوان الجند في زمن الخليفة المعتصم فامتزجوا بسائر السكان واندمجوا في حياة اهل البلاد المفتوحة واشتركوا في الحركة الاجتماعية والاقتصادية ومختلف مظاهر الحياة اليومية .

وخلاصة القول ، ان شخصية سكان الوطن العربي اصبحت واضحة جلية ، تلك الشخصية المميزة اولا وقبل كل شيء لغويا ، وثقافيا ، فاللسان العربي الفصيح يتكلم به كل من يسكن في ارجاء هذا الوطن ، اكان في العراق أم في المغرب أو في السودان ، ولعل هذا الغطاء اللغوي الذي افترش الاقاليم من اول عوامل وحدته ، وتميزه عما جاوره من الاقاليم المحيطة به ، كايران او تركيا ، والى جانب اللغة فهناك الجبال التي تعتبر حدا طبيعيا يحيط بهذا الوطن ، ويفصله عن غيره من الاقطار المجاورة ، بينما لا نجد هذا الفاصل بين اي قطرين من الاقطار العربية . والى جانب اللسان المشترك والاستراتيجية الواحدة هناك عوامل المناخ الجاف الذي يتميز بذبذباته الحادة بسقوط المطر الذي يجعل مشكلة الماء واعمال الري من الاوليات التي طبعت البلاد بطابع متشابه في حياته الاقتصادية وخاصة الزراعية ، وفي حياته الاجتماعية وبالاخص الرعوية منها ، وليست البداوة وهي الظاهرة الاجتماعية المألوفة في جميع انحاء الوطن العربي الا ظاهرة من مظاهر الجفاف الذي يسود معظم اراضي الوطن العربي .

نمو السكان وتوزيعهم الجغرافي :

ان الاحصاءات المتعاقبة تبين نموا واضحا لاقطار سكان الوطن العربي رغم تفاوت نسبة هذا النمو في كل قطر من اقطاره . فلو تأملنا الجدول الاحصائي في صفحة (٧) لوجدنا ان الارقام التي وردت فيه تشير الى صحة ذلك. فنظرة سريعة الى احصاءات ١٩٦٥ و ١٩٧٤ تبين لنا نمو السكان خلال التسع سنوات التي تقع ما بين هذين الاحصائين ، ففي عام ١٩٦٥ كان مجموع سكان الوطن العربي حوالي (١١١,٥٦٤,٠٠٠) نسمة بينما ارتفع هذا الرقم في ١٩٧٤ الى (١٥١,٤٧٢,٠٠٠) نسمة ، وفي ١٩٨٠ ارتفع الى نحو (١٦٠) مليون نسمة . لقد بلغت الزيادة خلال هذه السنوات (٤٨) مليون نسمة ، وهذه زيادة كبيرة بالنسبة للفترة الزمنية ما بين التعدادات الثلاث وتعليل ذلك

يعود الى ان التعدادات التي تمت في ١٩٦٥ ، وسابقتها كانت غير دقيقة اذا ما قورنت بتعداد ١٩٨٠ الذي تم وفق قواعد سليمة واكثر دقة .

أما عدم الدقة في التعدادات فسببه يرجع الى جهل السكان وقلة ادراكهم للفائدة من عمليات التعداد الامر الذي يؤدي الى احجام بعض السكان عن التسجيل ، وينطوي على هذا الجهل كذلك عدم معرفة الكثير من أهل الريف تاريخ ولادته .

أما اختلاف انماط السكان في الوطن العربي فانه هو الآخر عقبة في عدم دقة الاحصاء ، فالاقطار التي يغلب عليها طابع البداوة فارقامها بعيدة عن الدقة ، فارقام السعودية مثلا انما هي نتيجة لتقديرات تجريها السلطة المسؤولة عن التعداد ، ومن المعروف ان التقديرات لا تعطي نتائج عددية مضبوطة للسكان . وفي السودان مثلا جرى التعداد لعام ١٩٥٥ ، ولكنه لم يغط جميع انحاء القطر حيث اقتصر على ٦٨ مركزا حضاريا ، بينما كان التعداد في بقية السودان بطريقة التخمين . وفي المغرب يعاب على التعداد انه اقل من الواقع بسبب عدم انتظام تسجيل السكان ولا سيما الاناث . وفي سوريا والعراق والاردن كما هو الحال في جميع اقطار الوطن العربي باستثناء مصر ولبنان ، ولم تقم التعدادات الدقيقة الا مؤخرا ، ففي العراق قام اول تعداد في عام ١٩٤٧ وقبل هذا التاريخ كان نظام التخمين هو المتبع ، وفي سوريا لا يزال عدد كبير من المواطنين غير مسجل وخاصة البدو الرحل .

وهناك ملاحظات أخرى حول نمو السكان هي :

١ ـ يتراوح معدل المواليد في غالبية اقطار الوطن العربي ما بين (٣٠ و ٥٠)[١] في الالف باستثناء مصر ولبنان ولذلك يعتبر الوطن العربي ضمن المناطق العالية المواليد قياسا للمستوى العالمي ، وفي مقدمة هذه الاقطار ليبيا ودول المغرب العربي واليمن بينما تأتي لبنان اقل الدول العربية مواليد (٢٦,٥) بالالف .

ويمكن ان يعلل ارتفاع هذه المواليد الى عدة عوامل : منها ان بعض هذه الاقطار تعتبر الاطفال من الناحية العلمية ضمن القوى العاملة مثل مصر والسودان وخاصة في ميدان العمليات الزراعية ، وترجع ظاهرة

---

(١) الوطن العربي (الدكتور محمد عبد الغني السعودي » ص٦٩ عام ١٩٧٤ .

المواليد المرتفعة ايضا الى الرغبة في زيادة عدد افراد الاسرة في بعض المناطق الريفية ، هذا بالاضافة الى عامل الزواج المبكر عند الاناث والذكور (ما بين ١٥ ــ ١٦ سنة) ويمكن ان يكون لتعدد الزوجات اثر في هذه الزيادة كذلك .

٢ ــ يقابل ارتفاع نسبة المواليد ارتفاع نسبة الوفيات ايضا حيث وصل في كثير من الاقطار العربية الى حوالي (٢٥) بالالف وخاصة بين اطفال سكان اهل الريف ، اما المدن فقد انخفضت فيها نسبة الوفيات وذلك لتحسن الخدمات العامة وعلى رأسها الخدمات الصحية ومساهمة وسائل الاعلام والمؤسسات التعليمية وارتفاع المستوى المعاشي للافراد .

التركيب الجنسي :

أما من حيث التركيب الجنسي فان التعدادات تظهر تفوق عدد الذكور على عدد الاناث في الارقام وليس من سبب لتقليل ذلك سوى اهمال تسجيل مواليد الاناث ، ويمكن تفسير هذه الظاهرة على اساس ان المرأة في هذه المجتمعات لا تقوم بدور ايجابي في الحياة اي (خارج اعمال المنزل) حتى يصبح لشهادة الميلاد اهمية اكبر لدى الذكور عن الاناث .

التركيب العمري :

أما عن التركيب العمري فيلاحظ وجود ظاهرة مميزة للسكان حيث ترتفع نسبة الاطفال دون سن الخامسة فهي تتراوح بين ١٢٪ و ٢٠٪ بينما نجدها في الولايات المتحدة الامريكية وبريطانيا لا تتعدى ١١٪ و ٨٪ على التوالي[١] . أما نسبة السكان الذين هم دون العشرين عاما ، فتبلغ نسبتهم نحو نصف عدد السكان ، ومعنى هذا ان الشعب العربي شعب فتي مقبل على زيادة سكانية ولكنها زيادة ليس فيها خطر يتهدد الوطن العربي لأنها لا تفوق موارده الطبيعية وثرواته الاقتصادية المتاحة .

نستنتج مما اشرنا اليه في هذا الشأن ان دقة الاحصاء السكاني في الوطن العربي تتفاوت بين قطر وآخر ، ويرجع هذا الى عدم الوعي الاحصائي في كثير من الاقطار العربية وخاصة في الفترة التي سبقت الحرب العالمية الثانية ، ولكن بعدها اخذ الوعي يتحسن واخذت السلطات الحاكمة والشعب معا يحسان

(١) الوطن العربي ــ الدكتور محمد عبدالغني السعودي ، جامعة القاهرة ، ١٩٧٤ ، ص(٧٠) .

بضرورة التعدادات الاحصائية خاصة وانها اخذت باسباب التطور بصورة عامة وبالتنمية الاقتصادية والاجتماعية بصورة خاصة . كذلك ضعفت في المرحلة التي تلت الحرب العالمية الثانية التي كانت تساور قسما كبيرا من السكان في الغرض من الاحصاء وضعفت بعض التقاليد التي كانت حجر عثرة في سبيل التعدادات .

جدول يبين عدد سكان الوطن العربي والكثافة السكانية لعامي ١٩٦٥ ــ ١٩٨٠

القطــر	عدد السكان بالألف			المساحة بالكيلو متر المربع	الكثافة العامة لعام ١٩٨٠
	١٩٦٥	١٩٧٤	١٩٨٠		
مصــر	٣٠,٠٠٠	٣٨,٢٢٨	٤٣,٠٠٠	١,٠٠١,٤٤٩	٣٨
السودان	١٣,٥٢٠	١٨,٠٠٠	٢٠,٠٠٠	٢,٥٠٥,٨٣٠	٧
ليبـيا	١,٣٤٠	٢,٢٥٠	٢,٥٠٠	١,٧٥٩,٥٤٠	١
تونس	٤.٤٧٠	٥,٨٠٠	٦,٢٥٠	١٦٣,٦١٠	٣٣
الجزائر	١٢,٠١٠	١٦,٠٠٠	١٧,٠٠٠	٣٨١,٧٤١	٦
المغرب	١٣,٤٨٠	١٨,٢٣	١٨,٥٠٠	٤٤٦,٥٥٠	٣٥
موريتانيا	٠٠,٩٠٠	١,٢٥٠	١,٥٠٠	١,٠٣٠,٧٠٠	١
العراق	٧,٠٦٠	١٢,٥٠٠	١٣,٥٠٠	٤٣٤,٩٢٤	٣١
سوريا	٥,٤٠٠	٧,٠٠٠	٧,٥٠٠	١٨٥,٤٠٨	٣٦
لبــنان	١.٩١٨	٣,٠٠٠	٣,٠٠٠	١٠.٤٠٠	٢٨٧
فلسطين	٣.٨٨٠	٥,٠٠٠	٥,٠٠٠	٢٠,٩٠٢	؟
الاردن	١.٨٥٣	٢.٥٠٠	٣,٠٠٠	٩٧,٧٤٠	٢٥
السعودية	٧.٥٠٠	٩,٠٠٠	٩,٥٠٠	٢,٤٩٠,٦٨٠	٤
الكويت	٠.٥٠٠	٠٠,٩٥٠	١,٢٥٠	١٧,٨١٨	٧٠
اليمن / ش	٥.٥٠٠	٦.٢٥٠	٦,٢٥٠	١٩٥,٠٠٠	٣٢
اليمن / ج	١,٣٠٠	١.٠٠٠	٢,٠٠٠	٢٨,٦٠٣	٧
سلطنة عمان	٠.٥٧٥	٠.٧٥٠	١,٥٠٠	٢١٢,٤٥٧	٧
الامارات	٠.١٢٠	٠.٦٠٠	١,٠٤٢	٧٧,٧٠٠	١٣.٥
قطــر	٧٠	١٢٠	٣٠٠	٢٢,٠١٤	١٤
البحرين	١٦٨	٢٥٠	٤٠٠	٦٢٢	٣٢٥
الصومال	ــــ	٣,٠٠٠	٣,٥٠٠	٦٢٧,٦٥٧	٥.٥
المجموع	١١١,٥٦٤	١٥١,٤٧٣	١٦٠,٠٠٠	١٣,٠٤٠,٣٢٥	١١,٦

ومن الجدول المشار اليه فيما سبق يمكن ان نلاحظ ان هناك زيادة ظاهرة في عدد السكان ما بين ١٩٦٥ ــ ١٩٨٠ غير ان هذه الزيادة غير متناسبة ومتكافئة بين هذه الاقطار حيث انها تتفاوت من قطر لآخر بحسب عدد السكان وبحسب مساحة القطر بالاضافة الى زيادة النمو الطبيعي لسكان كل قطر . ففي مصر مثلا بلغت الزيادة نحو (١٣) مليون نسمة ، بينما وصلت في السودان الى (٧,٥) وفي ليبيا حوالي المليون نسمة ، وفي العراق (٦,٥) مليون نسمة . اما من حيث الكثافة فان التفاوت يكون هو الآخر كبيرا . ففي مصر بلغت الكثافة (٣٨) نسمة في الكيلومتر المربع الواحد ، بينما في السودان كانت سبع نسمات في الكيلومتر المربع الواحد ، وفي لبنان ٢٨٧ نسمة ، وفي العراق (٣١) نسمة ، فعامل المساحة في هذه الظاهرة لعب دورا كبيرا اذ يعطي ارقاما متباينة بدرجة كبيرة ولذلك تصعب المقارنة وفق هذه المقاييس التي تعتمد عليها زيادة السكان وكثافته في اقطار الوطن العربي .

وعلى أي حال فان هناك زيادة طبيعية في عدد سكان الوطن العربي فاذا ما دققنا في أسباب الزيادة من تعداد الى آخر كان معناه زيادة الولادات على الوفيات .

ومن أهم العوامل المباشرة لهذه الزيادة : اولا : تحسن الوضع الاقتصادي في معظم الاقطار العربية وخاصة الزراعية منها . ثانيا : تطور الوضع الصناعي والتجاري وما ترتب عليه من تقدم في المستوى المعاشي وخاصة في الفترة ما بعد الخمسينات .

ففي حالة العامل الاول نجد تحسنا ملموسا قد طرأ على تغير الاساليب الزراعية في خمسة عشر قطرا عربيا وهي الاقطار الرئيسية في الزراعة حتى انعكست آثار ذلك في اتساع الرقعة الزراعية التي تبلغ نحو مليوني كيلومتر مربع او ما يعادل ١٦٪ من مجموع مساحة الوطن العربي .

هذا بالاضافة الى تحسين الوضع المالي بعد استغلال البترول في عدد من دول الوطن العربي وخاصة الاقطار الخليجية الامر الذي ساعد على التطور التدريجي للزراعة وخاصة في العراق . وكما هو معلوم انه بعد اكتشاف البترول ارتفعت العائدات من النفط وارتفعت نسبة ما خصص لمشاريع التنمية الزراعية منها والصناعية وكذلك التجارة كل هذه النشاطات ساعدت على رفع مستوى الخدمات الاجتماعية التي من ابرزها الخدمات الصحية كانشاء المستشفيات

والمستوصفات بما فيها مشاريع مياه الشرب والاضاءة في كثير من المدن الصغيرة وكثير من القرى .

ويضاف الى ذلك انتشار التعليم الذي عم ارجاء الاقليم وذلك باقامة المدارس والمعاهد والجامعات . وكذلك انتشار شبكات المواصلات البرية لربط الريف بالمدن ومناطق الانتاج باسواق الاستهلاك .

توزيع السكان وكثافتهم :

ان عدد سكان الوطن العربي الذي سبقت الاشارة اليه يعتبر قليلا بالنسبة الى وفرة موارد الاقليم الطبيعية الزراعية والصناعية والمعدنية . ومن الجدول السابق وجد ان كثافة السكان العامة تصل الى حوالي ١١،٦ نسمة في الكيلومتر المربع الواحد غير انها تختلف من قطر لآخر كما لاحظنا ذلك في الجدول السابق . ان هذا التباين في الكثافة يرجع الى عوامل البيئة الطبيعية والبشرية والى الموارد الاقتصادية المتاحة وتتجلى هذه العوامل بما يأتي :

١ ــ الموقع الجغرافي .

٢ ــ جغرافية الاقليم ونوع المناخ السائد فيه .

٣ ــ الموارد المائية ودرجة توفرها .

٤ ــ التربة ودرجة صلاحيتها للزراعة .

٥ ــ المواصلات ودرجة انتشارها .

٦ ــ عوامل ثقافية وادارية واجتماعية واقتصادية متعددة .

في ضوء العوامل التي اشرنا اليها يمكن ان نميز ثلاث نطاقات متفاوتة الكثافة في اقليم الوطن العربي هي السهول والجبال والصحارى .

السهول :

هناك نوعان من السهول في الوطن العربي هي السهول الساحلية والسهول النهرية ، وتمتاز بموقع جغرافي مرموق وخاصة السهول الساحلية حيث اقيمت فيها الثغور التجارية كما هي الحال في السهول الواقعة على ساحل البحر المتوسط في بلاد الشام وخاصة سهول فلسطين وسهل دلتا النيل وسهول المغرب العربي على المحيط الاطلسي وكذلك السهول النهرية مثل سهول وادي

الرافدين والنيل وسهول الانهار في سوريا وشمال افريقيا الغربية ـ تمثل هذه السهول مناطق جذب للسكان وذلك لموقعها ومناخها الملائم وتربتها الخصبة وتوافر الموارد المائية وطوبغرافية منبسطة ، كما وجدت فيها شبكات من طرق المواصلات الجيدة ، وتقوم فيها المراكز الادارية والثقافية وفيها تتواجد مراكز التجميع والتوزيع كل هذه العوامل مجتمعة ادت الى ان تخلق فيها مناطق جذب للسكان ، الامر الذي ادى الى جعلها افضل المناطق لتركز السكان وخاصة المدن الكبيرة وهذا مما زاد في ارتفاع كثافتها . وعلى سبيل المثال نجد مدينتي ابوظبي ودبي في دولة الامارات تصل الكثافة فيها الى (٣٦٢٠) نسمة للكيلومتر المربع بينما الكثافة العامة لدولة الامارات العربية المتحدة لا تتجاوز (١٣,٥) نسمة للكم٢ .

أما في المناطق الصحراوية فان كثافة السكان تقل بالمقارنة مع اراضي السهول ، واحيانا تتخلخل وأحيانا يندر او ينعدم تواجد السكان في هذه الصحارى ، وذلك لندرة الموارد المائية ولشدة الجفاف ولفقر التربة ولهذا باتت فقيرة بمواردها البشرية باستثناء الجماعات البدوية التي تتجمع في مواسم معينة حول الواحات التي تشكل جيوبا من السكان داخل هذه الارض المقفرة . لقد لعب المورد المائي دورا اساسيا في توزيع سكان الوطن العربي . وتأكيدا لما اشرنا اليه سابقا ان تفسير تجمع السكان في المناطق العربية يتركز ما بين خطي عرض ٣٠ و٣٧ شمالا .

واذا اخذنا الجناح الافريقي من الجهة الغربية للوطن العربي سنجد قوس السهول الذي اشرنا اليه يمتد من اقطار المغرب العربي حيث ترتفع الكثافة فيه نسبيا بحيث تصل الى ٨٠ نسمة في الكيلو متر المربع الواحد ويمتد هذا القوس حتى صفاقس في تونس ، ثم تتدرج كثافة السكان من المغرب الى الشرق ، كما تتدرج من الساحل الى الداخل ، ففي منطقة التل الساحلي تصل الكثافة الى ٥٤ نسمة بالكم٢ بينما تتدرج في القلة نحو السهوب في الداخل الى ٣,٥ نسمة حتى داخل الصحراء الى حوالي نسمة واحدة لكل ٢٤ كم٢ . وفي ليبيا تمتد الصحراء الكبرى حتى ساحل البحر المتوسط باستثناء منطقتي برقة وطرابلس حيث يتجمع في هاتين المنطقتين نحو ٩٠٪ من السكان .

---

(١) الدكتور صبري الهيتي ، « الخليج العربي ، دراسة في الجغرافية السياسية » ص١٤٦ .

وفي مصر يتجمع ٩٦٪ من السكان في الدلتا والوادي اللتين تشكلان أقل من ٤٪ من مساحة البلاد ، ولذلك تصل الكثافة فيهما الى الف نسمة للكم٢ الواحد ، اما باقي السكان فيتبعثرون في الصحارى حسب توفر موارد الماء او الثروة المعدنية .

وفي السودان تنخفض الكثافة بوجه عام باستثناء بعض المواقع المجاورة للنيل اذ تصل الكثافة الى ٢٠٠ نسمة في الكيلومتر المربع بينما في معظم انحاء السودان تشكل الكثافة (٢٠) نسمة للكم٢ . ومن اهم المحاور التي يتجمع فيها السكان المحور النيلي الممتد من الجنوب الى الشمال في وسط السودان وشماله وهذا المحور يشكل منطقة زراعية . والمحور الثاني يشمل القسم الشرقي الغربي في وسط السودان وهو اقليم السافانا (بين خطي عرض (١٠ ، ١٥) شمالا .

أما موريتانيا فتصل الكثافة العامة فيها الى نسمة واحدة للكيلومتر المربع الواحد غير ان التركيز السكاني يقع في المناطق الساحلية وفي الجيوب الصحراوية حيث الواحات التي تتوفر فيها المصادر المائية الجوفية . وبصفة عامة تزداد الكثافة بزيادة تدريجية كلما اتجهنا نحو النطاقات الساحلية للمحيط الاطلسي . وتقل كلما توغلنا داخل الصحراء ، وبناء على هذا التوزيع الجغرافي نجد ان الكثافة تأخذ شكلا تدريجيا ، من الشرق حيث الصحراء نحو الزيادة باتجاه الغرب الى الساحل وبذلك تكون ما بين (٢ ــ ٢٠) نسمة للكم٢ .

أما العراق الذي يشكل الطرف الشرقي من الوطن العربي فان الكثافة العامة فيه تصل الى (٣١) نسمة في الكيلو متر المربع حسب احصاء ١٩٧٧ . وان هذه الكثافة قليلة اذا ما قورنت بكثافة السكان في الاقطار المجاورة ، وهذا ناتج عن سعة مساحة ارضه الصحراوية بالنسبة الى المناطق الزراعية . اما الكثافة بالنسبة للاراضي القابلة للزراعة فانها تصل الى (٥٤,٥) نسمة في الكيلو متر المربع . وتختلف كثافة السكان في العراق من منطقة لأخرى تبعا لاختلاف عوامل البيئة الطبيعية وموقعها الجغرافي وتوفر الموارد الاقتصادية ففي السهل الرسوبي الذي يمتاز بموقعه الجغرافي المتوسط في العراق ولكونه حلقة وصل بين الشرق والغرب وبين الجنوب والشمال ، ولوجود نهري دجلة والفرات ولتربته الخصبة وسهولة ارضه الصالحة للزراعة ، لكل هذه العوامل اصبح منطقة جذب للسكان حيث تركزت فيه معظم المدن الكبيرة التي تمثل

مراكز الاستيطان والعمران الرئيسية وبكلمة اخرى اصبحت هذه المراكز محطات للحركة التجارية والادارية والثقافية والصحية وكافة الخدمات الاجتماعية .

وتأتي على رأس هذه المراكز مدينة بغداد الواقعة في طرفه الشمالي والبصرة في الطرف الجنوبي . ومن الملاحظ ان محافظة بغداد تضم ٢٧٪ من مجموع السكان حسب احصاء ١٩٧٧ .

ومن احصاء ١٩٧٧ نجد ان عدد سكان السهل الرسوبي قد وصل الى ثمانية ملايين نسمة او ما يساوي ٦٧٪ من مجموع سكان العراق ، ومعنى هذا ان كثافته تصل الى (٨٦) نسمة في الكيلومتر المربع الواحد .

اما المنطقة الشمالية الجبلية وشبه الجبلية فان الكثافة تقل وتتبعثر مراكز الاستيطان في جهاتها ، حيث يتجمع السكان في مواقع معينة تتحكم فيها عناصر المناخ وخاصة المطر .

ففي معظم جهات المنطقة يمكن الاعتماد على الامطار في ارواء الزراعة الشتوية وهو النشاط الاقتصادي الملحوظ لمعظم سكان الريف ولذلك فان نظام زراعة الديم (الزراعة المطرية) هي الاساس ، وتأتي المياه الجوفية ، مثل العيون والينابيع في الدرجة الثانية ولذلك قامت التجمعات القروية وخاصة في المنطقة الجبلية العالية بالقرب من هذه الينابيع . ولذلك قلت الكثافة فيها حتى انها وصلت حسب احصاء ١٩٧٧ الى (٥٨) نسمة في الكيلو متر المربع الواحد .

والى الجنوب الغربي من المنطقة الجبلية العالية تمتد المنطقة شبه الجبلية المشكلة من اراضي سهلية تتخللها الهضاب والتلال والاودية ، وهي تغطي ١٥٪ من مجموع مساحة العراق ويسكنها نحو ٢,٥ مليون نسمة وبذلك تصل كثافة السكان فيها الى حوالي (٤١٫٠) نسمة في الكيلومتر المربع ، وتختلف الكثافة في هذه المنطقة تبعا للموقع الجغرافي وتوزيع المصادر المائية والوضع الطوبغرافي ونوع التربة ودرجة التنمية الاقتصادية فيها وعلى اساس هذه العوامل فقد تركز السكان حول النطاق الممتد على ضفتي نهر دجلة اعتبارا من مدينة الموصل شمالا حتى اواسط نهر ديالي من الجنوب الشرقي ، بينما تقل الكثافة في النطاق الواقع غربي نهر دجلة في منطقة الجزيرة ، ويرجع سبب الكثافة في النطاق الاول

الى الموقع باعتبارها منطقة زراعية لذلك قامت فيها المدن الكبرى مثل الموصل وكركوك واربيل وغيرها من المراكز الاخرى ، واضافة الى انها منطقة زراعية هناك حقول النفط في منطقة عين زالة وكركوك وحقل الكبريت بينما تقل الكثافة في النطاق الثاني شبه الصحراوي .

والمنطقة الثالثة هي اقليم البادية الصحراوي الذي يغطي اكثر من نصف مساحة العراق حيث يتكون من البادية الشمالية والبادية الجنوبية وبادية الجزيرة ، هذه المنطقة تعتبر منطقة طرد السكان ولذلك يقطنها عدد محدود معظمهم من القبائل البدوية وفيها بعض الواحات التي تقوم حول مواردها المائية قرى صغيرة تعتبر محطات وأسواقا لتموين تلك القبائل وبيع وشراء منتوجاتهم الحيوانية .

كانت هذه الصحراء قبل فتح قناة السويس منطقة جذب يوم ان كان البدو حماة القوافل التجارية ما بين اقطار البحر المتوسط والخليج العربي غير انها فقدت اهميتها التجارية بعد فتح القناة واكتشاف منابع البترول وتغير وسائل النقل التي حلت محل القوافل ، هذه العوامل مجتمعة ادت الى هجرتهم الى القرى الزراعية في حوض دجلة والفرات حيث تحولوا الى زراع مما ادى الى انكماشهم التدريجي ، فبعد ان كان عددهم يزيد على (٦) ستة آلاف نسمة او ما يعادل ٣٥٪ من مجموع السكان عام ١٨٦٧ في العهد العثماني اخذ في التناقص حتى اصبحت في عام ١٩٧٧ اقل من ١٪ اي ما يعادل (٩٤,٨٥٢) نسمة[١] . وعلى اساس هذا الرقم الاخير الوارد في التعداد . نجد ان الكثافة المطلقة لسكان هذه البوادي تقل الى حوالي نسمة واحدة في كل ثلاثة كيلومترات مربعة .

أما كثافة السكان في لبنان فتقدر بنحو ٢٨٥ نسمة في الكيلومتر المربع الواحد وتتركز الكثافة في النطاقات الساحلية وفوق السفوح والمنحدرات الجبلية المجاورة للساحل اذ تتراوح الكثافة بين ٢٠٠ ــ ٣٠٠ نسمة للكيلومتر مربع في المنطقة الممتدة الى شرقي مدينة بيروت ، بينما تنخفض الكثافة في منطقة البقاع والسفوح الجبلية الشرقية حيث تصل الى ما دون الخمسين نسمة ويرجع تبعثر السكان في هذا النطاق الى عامل مناخي وهو قلة الامطار باعتبارها تقع في ظل المطر وعليه اصبحت الحياة الزراعية فيها محدودة. اما المنطقة الاولى التي

(١) جغرافية الطرق « الدكتور خطاب العاني ، والدكتور نوري البرازي ، جامعة بغداد ١٩٧٩ ، ص٩٤ .

تتضمن محافظة جبل لبنان ذات الكثافة من السكان ربما كان ارتفاع الكثافة فيها يرجع الى وفرة المطر وكثرة العيون والينابيع هذا بالاضافة الى هجرة بعض الفئات الى الجبل في فترات تاريخية متعاقبة مثل الموارنة والدروز والارمن ، ان هذه العوامل مجتمعة ادت الى ارتفاع كثافة السكان في هذا النطاق من لبنان .

أما توزيع السكان في سوريا فان كثافة السكان تتركز في المناطق الساحلية ففي منطقة اللاذقية تصل الكثافة الى (٩٠) نسمة في الكيلومتر المربع وهناك تركز آخر في اقصى الشمال الشرقي من سوريا وهذه المنطقة ذات تربة خصبة وسهول واسعة وامطارها تكفي للزراعة وخاصة القمح بحيث تساهم بحوالي ٤٠٪ من مجموع انتاج القمح في القطر السوري . وهناك توزيع ثالث للسكان في المدن التي تقع على الانهار وموارد المياه الاخرى . فمثلا غوطة دمشق تبلغ كثافتها (٢٠٠) نسمة للكيلومتر المربع . اما تخلخل السكان فيتمثل في بادية الشام حيث تسكن القبائل البدوية فيها ، ولذلك فان نصيبها من الكثافة لا يزيد عما ذكرناه عن صحراء العراق .

ويظهر الارتباط بين الموارد المائية والسكان في الاردن ، فالمنطقة التي تستلم كمية من الامطار كافية للزراعة في المنطقة الشمالية ، الى الشرق من خط السكة الحديدية ، فان الكثافة تصل الى (٢٦) نسمة للكم٢ ، حيث تضم نحو ٨٥٪ من سكان الضفة الشرقية ، اما الضفة الغربية للاردن (محافظة نابلس والقدس والخليل) فانها تحتوي وحدها على اكثر من نصف السكان مع انها لا تشغل سوى ثلث المساحة ، وفيها ترتفع الكثافة حتى تصل الى (٦٨) نسمة للكم٢ .

أما فلسطين المحتلة فيتجمع السكان في سهول ساروتة والكرمل والجليل الاعلى ومرج بن عامر ، بينما تنخفض هذه الكثافة في الجنوب في سهل شفالة ، وكذلك هي الاخرى تقل في صحراء النقب .

شبه الجزيرة العربية :

نظرة سريعة الى توزيع السكان جغرافيا في شبه الجزيرة العربية واقطار الخليج العربي يمكن ان تظهر للباحث تباينا واضحا في توزيع الكثافة ضمن ثلاثة نطاقات ، الاولى تظهر في داخل الجزيرة متمثلة في الصحارى الحارة الجافة ذات المجاري المائية المحدودة التي تسكنها القبائل البدوية الرحالة

وبعض القرى الصغيرة المتناثرة في الواحات حول العيون والآبار وتصل كثافة هذا الاقليم الداخلي الى اقل من نسمتين في الكيلومتر المربع الواحد . ويمكن ان نستثني نطاقا تنتشر فيه مجموعة من الواحات هو اقليم الرياض حيث تتراوح كثافته ما بين (٢ ــ ٢٠) نسمة في الكم٢ .

وفي النطاق الثاني الذي يتكون من الشريط الساحلي المعروف بسهل تهامة والمنحدرات الجبلية واوديتها التي تنحدر الى ساحل البحر الاحمر اعتبارا من شمال مرتفعات الحجاز والعسير ومرتفعات اليمن حتى مدينة عدن وامتداد هذا الشريط الساحلي حتى حضرموت نجد في هذا النطاق ان الكثافة تتراوح بين (٢ ــ ٢٠) نسمة ايضا ، وهذا يعلل وجود الموارد المائية وخاصة الامطار في هذه المنطقة وبالاضافة الى الزراعة فان فيها مجموعة من الموانىء التي تزاول النشاط التجاري والصيد البحري الامر الذي خلق فيها محطات تركز السكان .

تمتد الكثافة كذلك على السواحل المجاورة للبحر العربي في عمان وخاصة في منطقة مسقط والجبل الاخضر حيث الامطار الكافية لقيام الحياة الزراعية ولوجود بعض الموانىء التجارية .

أما اقليم الاحساء الواقع في الطرف الشرقي من المملكة فان كثافته تزيد عما هي عليه في المناطق الاخرى من السعودية وذلك بسبب جاذبيته للسكان حيث تتوفر الموارد المائية الجوفية والامطار بنسبة اعلى مما هي في المناطق الاخرى هذا بالاضافة الى وجود الثروة البترولية والنشاطات الاقتصادية الاخرى التي يتمتع بها اقليم الاحساء ولذلك تراوحت كثافة السكان فيه ما بين (٢ ــ ٢٠) نسمة .

أما ما بقي من المساحات الاخرى في المملكة فانها أراض صحراوية كما هي الحال في النطاق الجنوبي المتمثل بالربع الخالي وفي الصحارى الشمالية كالنفوذ والدهناء وغيرها من الاراضي الصحراوية القفراء التي تمثل النطاقات الداخلية . فالكثافة تتخلخل وتندر احيانا وهي بوجه عام تقل عن (٢) نسمتين في الكم٢ ، وهذا شأن المناطق التي تندر فيها الموارد المائية الجوفية والامطار الا ما كان منها متمثلا في بعض الواحات المحدودة .

أما أقطار الخليج العربي (الكويت ، البحرين ، قطر ، والامارات العربية المتحدة) فتعتبر قليلة السكان اذ تتراوح كثافتها المطلقة حوالي

(٢٠)[١] نسمة للكم٢ . وتبلغ مساحة هذه الاقطـار الاربعـة بنحـو (١١٨,١٥٤) الف كيلومتر مربع وعدد سكانها ثلاثة ملايين نسمة هذا بالنسبة لمعدل الكثافة العامة ، بينما نجد ان الكثافة تتفاوت من وحدة الى أخرى ، ففي الكويت تصل الكثافة الى (٧٠,٢) نسمة ، وفي البحرين (٣١٥) نسمة وذلك لصغر مساحتها وفي قطر نحو (١٤) نسمة ، وفي دولة الامارات (١٣,٥) نسمة ايضا . ان ارتفاع الكثافة في الكويت والبحرين يرجع الى صغر المساحة بالنسبة لعدد السكان بينما في قطر والامارات الصورة معكوسة اذ تنخفض الكثافة ويرجع السبب الى سعة المساحة بالمقارنة مع قلة عدد السكان .

يتضح من ذلك ان منطقة الخليج العربي تعد قليلة السكان قياسا الى ثرواتها الاقتصادية الكبيرة ، وامكاناتها العالية الممكن استثمارها في تطويرها الاقتصاد القومي فيها ، بل اننا لا نجد توازنا بين عدد سكان هذه المنطقة وعظم اهميتها الاقتصادية والجغرافية .

واذا ما اخذنا بعين الاعتبار الكثافة السكانية العامة التي يوضحها الرقم المشار اليه اعلاه يظهر لنا صدق ذلك . اذ انها تتميز بانخفاضها الشديد في كل من دولة الامارات وقطر ، اذ انها لا تتعدى (١٤) نسمة في الكيلو متر المربع الواحد . ان الكثافة العامة لسكان هذه الاقطار الاربعة تعتبر ذات مدلول معين وذلك لكونها تستطيع ان تبرر لنا سمة المنطقة الرئيسية وهي صفة التخلخل السكاني . وعلى الاخص لأن معظم اجزاء المنطقة متشابهة في المعالم الطبيعية (التضاريس والمناخ والموارد المائية والتربة) مما يجعل السكن في اي منطقة من المناطق مشابهة للمنطقة الاخرى .

الى جانب الكثافة العامة هناك كثافة سكانية اخرى لهذه المنطقة هي الكثافة الزراعية التي يمكن ان تزودنا بحقائق جديدة ومدلول اعمق . فالاحصاءات[٣] تشير الى وجود زيادة في الكثافة في جميع اجزاء منطقة الخليج العربي بحيث تصل الى (٩٢) نسمة في الكيلومتر المربع الواحد ما عدا الاحساء ، الا انها تتباين من قطر لآخر ، ففي الكويت ترتفع الى (٢٩٠)

---

(١) انظر الجدول في ص : (٧) .

(٢) وزارة التخطيط : الادارة المركزية للاحصاء . التعداد العام للسكان ١٩٨٠م .

(٣) الخليج العربي ـ دراسة في الجغرافية السياسية ـ د. صبري الهيتي ١٩٧٨ ص : ١٣٧ ـ ١٣٨

نسمة ، وفي دولة الامارات وقطر والبحرين فتتراوح ما بين ٥٤٦ ــ ٧٦٠ نسمة في الكيلومتر المربع الواحد بينما في الاحساء فانها تنخفض الى ٤,٧ ويعود سبب هذا التباين الى الاختلاف في مساحة الاراضي الصالحة للزراعة في هذه الاقطار .

توجد ظاهرة سكانية تشترك فيها جميع اجزاء الخليج العربي وهي تركز معظم السكان في المراكز الحضرية ، اي ان النسبة العظمى من السكان هم سكان حضر والاقلية هم من سكان الارياف والبادية .

ويظهر من الارقام الآتية ان نسبة السكان الحضر في كل من الكويت والبحرين تبلغ (٩٦٪[١] و ٨٦٪) على التوالي ، ثم تليها قطر حيث تبلغ النسبة فيها (٧١٪) اما في دولة الامارات فتبلغ النسبة فيها (٥٨) من مجموع السكان .

يضاف الى ذلك ان هذه النسبة الكبيرة من المجموع العام للسكان والتي تمثل مجموعة الحضر ، لا يتوزعون في سكناهم على مراكز عديدة بل انهم يتركزون في المدن الرئيسية . فمثلا في مدينة الكويت يتركز السكان بنسبة ٧٠٪ من مجموع سكان الامارة ، اما في قطر فنسبتهم في المدن تزيد على (٨٠٪) من مجموع السكان . واذا اخذنا مدينتي ابوظبي ودبي كلا على حدة لظهر لنا ان اكثر من (٨٠ ٪) من سكان امارة ابوظبي يتركزون في المدينة الاولى وحوالي (٩٨٪) من سكان امارة دبي يتركزون في المدينة الثانية . علما بان هاتين الامارتين تضمان لوحدهما (٥٧ ٪) من مجموع سكان دولة الامارات العربية المتحدة ، و(٩٧٪) من السكان الحضر فيها .

واذا استثنينا المدن ، فسوف نجد ان الاستقرار مبعثر ، استقرار واحي يقتصر على مناطق العيون وبطون الاودية ، او استقرار معدني في مناطق البترول الشرقية ، سواء في الكويت او في المملكة العربية السعودية او قطر او الامارات العربية ، او استقرار يعتمد على النشاط التجاري لميناء من الموانىء كميناء عدن أو لأهمية دينية بحيث يعيش سكانها على موسم الحج كمكة المكرمة والمدينة المنورة .

---

(١) الخليج العربي ــ دراسة في الجغرافية السياسية ــ د. صبري الهيتي ١٩٧٨ . ص (١٤٦ ــ ١٤٧)
دولة الامارات العربية المتحدة دراسة مسحية شاملة معهد البحوث الدراسية العربية ــ ص : ٢٥٨ .

المبحث الثاني

انماط السكان في الوطن العربي

ان نظرة فاحصة الى تنوع البيئات الجغرافية الطبيعية والاوضاع الاجتماعية السائدة في اقطار الوطن العربي تبين اختلاف طبيعة سكانه من قطر لآخر ومن مكان لآخر ، ولم يقتصر هذا التباين على الاقطار انما في داخل القطر الواحد . ان لاختلاف طبيعة السكان علاقة بتفاعلهم مع البيئة التي يعيشون فيها . وقد تكون هذه الخصائص السكانية نابعة من الظروف البيئية التي يعيشون في ظلها ، ففي المناطق الجافة التي تسودها طبيعة او خصائص سكانية معينة انما هي وليدة الظروف المناخية التي املتها تلك البيئة وتكيف الانسان لها وتأقلمه بها حتى اصبح بدويا .

اما في المناطق السهلية الخصبة فقد هيأت الطبيعة للانسان مجالا يستثمر فيه جهوده فكيف نفسه ، وتأقلم في بيئته هذه حتى اصبح مزارعا ، استثمر امكانات هذه البيئة التي يعيش فيها واستغل ظروفها المواتية للزراعة وبذلك اصبح مزارعا .

وفي المناطق التي تصبح فيها غالبية الارض الزراعية ، لا تقبل اعدادا كبيرة من السكان اخذ الانسان يتكيف لبيئته وذلك بالاعتماد على مساحة محدودة من الارض ولما كانت هذه الحالة لا تساعد على امتلاكه الارض الواسعة ، فقد وجه اهتمامه الى استثمار ما هو في حوزته وهو الاعتماد على مساحة محدودة من الارض وبذلك حول المزارع الى المدن وقلب مهنة الزراعة الى صناعة باعتبارها لا تحتاج الى القدر الذي تحتاجه الزراعة من الارض ، وبهذا الاسلوب استطاع تكييف نفسه واقلمة بيئته بحيث تحكم في استثمارها بقدر ما يملك من قابلية وخبرة .

وبالنسبة لسكان الوطن العربي الذين اختلفت بيئتهم الطبيعية ، فقد اختلفت تبعا لذلك طبيعتهم ، اي نمط الحياة الاقتصادية التي يزاولها السكان ،

وطبيعة الوضع الاجتماعي من بيئة جغرافية الى اخرى . وفي ضوء ذلك يمكن تصنيفهم الى ثلاث مجموعات على الوجه الآتي :

١ ـ البدو (المجتمع الرعوي) .

٢ ـ سكان القرى والارياف (المجتمع الريفي) .

٣ ـ سكان المدن (المجتمع الحضري) .

*** البدو (المجتمع الرعوي) :**

البداوة ظاهرة تطلق على صفة الحركة التي تمتاز بها القبائل الرحل ، التي تتحرك عادة على هيئة رحلات دائرية متكررة في قلب الصحراء . اما الرعاة الذين يعيشون في المناطق الجبلية كما هي الحال في بعض الاقطار العربية فان حركتهم حركة رأسية ، وهذه الحركات والتنقلات هدفها طلب العيش . والحياة الرعوية ليست مطلق التنقل غير المحدود او غير المقصود ، ولكنها على اي حال تستهدف التحرك حول مراكز مؤقتة يتوقف مدى الاستقرار فيها ، على الامن الاجتماعي والطبيعي الذي يتوفر فيها .

وظاهرة البداوة لا تقتصر على قطر عربي دون الآخر ، فهي تمثل قاسما مشتركا اعظم بين البلدان العربية . كما انها كظاهرة سكانية ، جعلت البدوي يختص بحياة تميزه عن حياة المجموعات السكانية في كل من الريف الزراعي ومجتمع المدن ، وهذه الخواص هي :

١ ـ الحياة الاجتماعية :

ان العمود الفقري للحياة الاجتماعية البدوية هي القبيلة ، فالقبيلة تتكون نظريا من افرادها الذين ينتمون الى جد واحد ، ولكن في الغالب لا ينتمي اعضاؤها الى جد واحد ، بل انها تتألف من عدة حمايل[1] قد تحالفت مع بعضها حتى كونت مجموعة اطلق عليها اسم القبيلة .

والمعروف ان البدوي مخلص لقبيلته ويدافع عنها بمحض اختياره ودون ضغط خارجي ، وهو يحترم شيخ العشيرة دون ان يتحمل الاستبدادية .

---

(١) الحمايل جمع حمولة وهي لفظ يطلق على الاهل والاسرة .

ومن المظاهر الاجتماعية الاخرى هو ان تعيش الاسرة بعدد كبير في بيت واحد ، يتعاونون في عملهم ويأكلون سوية ويتحملون المغارم ويستفيدون من المغانم اي انهم شركاء في المسؤولية التي تقع على الاسرة وعلى هذا الاساس اصبح البدوي بحكم بيئته شديد التعلق بعادات وتقاليد الاسرة والقبيلة .

ومن صفات البدوي الحرية في ابداء رأيه في المجالس التي يدور فيها الحديث في الامور التي يجري حولها النقاش في مضيف الشيخ . والبدوي يمتاز بالبساطة والصراحة ، فاذا ما تخاصم قاوم بكل قوة ، غير انه عند الانتصار يعفو ويصفح . وهو لا يعرف الكذب او الشغب او الدس ، كما هو مألوف في المجتمعات الحضرية ، فصفاته مقابل واجباته الاجتماعية هي حرية الكلام وحرية الانتقام وعدم الانصياع للقوة والاهانة . ومن اقدس قوانين الصحراء ، هو الثأر باعتباره من وسائل المحافظة على القبيلة وكيانها ، اما مضيف الشيخ فهو اشبه بالمجلس او البرلمان لافراد القبيلة . ففيه يتناقل الناس الاخبار الوافدة الى ديارهم ، واليه تنزل الوفود القادمة من الجهات المختلفة ، كما يتحدث فيه المتحدثون الكشافون عن الاراضي المعشبة وفيه تروى روايات الغزو والحرب والسلم والترحال . والى جانب ذلك ، تحسم هذه المجالس ما يحدث من المنازعات التي تثار بين افراد القبيلة . ففيه تعرض القضايا المتنازع عليها ويوكل امر النظر فيها الى شخص حكيم مجرب ذي خبرة ودراية ، ويدعى « العارفة » الذي يقوم بدوره بفض النزاعات بعد استماعه الى اقوال الشهود ، ومن ثم يصدر الحكم بشكل لا يعرف المحايدة ولا الزيفان .

أما ظاهرة الحركات الفصلية ، فانها تحدث افقيا في صحارى الوطن العربي ، ففي الشتاء يتحرك البدو والرعاة تجوالا وراء المراعي حيث تسقط الامطار ، وعند جفاف الحشائش في الصيف يتركون جوف الصحراء قاصدين منازلهم الصيفية بالقرب من الانهار او العيون والآبار .

اما الرعاة الجبليون ، فانهم يجوبون المناطق الجبلية في الاقطار التي تمتد فيها جبال ، كما هي الحال عند القبائل الكردية في شمال العراق ، والقبائل البربرية في مرتفعات الاطلس في المغرب العربي ، ويزاول هؤلاء الرعاة الحركات الفصلية الرأسية ، ففي الشتاء يهبطون الاودية والسهول ومناطق الاحواض عند انخفاض درجات الحرارة وسقوط الثلوج فوق المرتفعات ، بينما في الفصول الاخرى يتركون هذه المنازل ويعدون الى المرتفعات المكسوة بالحشائش والاعشاب لرعي قطعانهم .

نجد ان هذه الخصائص الاجتماعية التي دار البحث حولها والتي كان هذا المجتمع شديد التمسك بها قد ضعفت بعد ما حدث في الوطن العربي من تطور فكري وسياسي وظهور القوميات الحديثة والتقدم العلمي والتقني وتطور وسائل المواصلات الميكانيكية .

ومن هذا الاتجاه ، نجد ان وحدتهم القبلية وحركتهم فوق مسارحهم الجغرافية لم تعد هي الاطار الاجتماعي والسياسي المميز ، وانما اصبحوا جزءا من سكان هذا الوطن . ومما يعلل هذا التحول ، ان النمط الحضاري البدوي قد تأثر تأثرا كبيرا في المدنية المعاصرة بخصائصها الصناعية وتطورها الفكري والتقني ، حتى سلبت البدوي القسم الاكبر من مقومات حياته القبلية ، واوجدت له حاجات جديدة لا تتمكن موارده الضيقة من تغطيتها واقتحمت عليه كذلك عزلته وازالت ستارها عنه . واخيرا جردته من اسلحته واغتصبت استقلاله ، ووحدته وحددت مجاله ، وفرضت عليه التبعية ، وحل الضعف به بعد ان كان صاحب السيادة والقوة .

٢ ـ الحياة الاقتصادية :

تسيطر البيئة الطبيعية سيطرة تامة في البوادي الصحراوية الحارة على الحياة البدوية فان ما يحيط اهلها من تخلف انما مرده الى شدة خضوع اقتصادهم الى عوامل البيئة حتى اصبح ذلك الاقتصاد تابعا تبعية مطلقة . ومن ابرز العوامل التي تحكم سيطرتها هي الامطار والمياه الجوفية ودرجة الحرارة ونسبة الرطوبة التي لا مناص للحياة النباتية في غيابها ، وكذلك التربة الفقيرة التي تغطي ارضها ، ان هذا العامل وذاك ينعكس اثرهما على وجود غطاء نباتي فقير وفي فصل محدود من السنة الذي لا يعيل قطعان ماشيتهم الاعالة الكافية .

تتحكم كمية الامطار وتوزيعها في وضعهم الاقتصادي ، من حيث الغنى والفقر ، فاذا كانت الامطار كافية ينتج عنها مراعي غنية ، وبالتالي انتاج حيواني وغير ذلك لما تصيبه حيواناتهم مما تخرجه الارض من نبات ، ولما يتوفر لديهم من موارد مائية ، وعلى هذا يزداد انتاج المواشي من منتوجات الالبان ، ومن الوبر والصوف والحيوانات الحية ، فيتاجرون بها ويكتالون بثمنها ما يحتاجونه من المأكل والملبس ويدخرون بعض النقود التي يستعينون بها عند الحاجة . وليست ظاهرة السابلة عند القبلية الا دليلا على حياة المتاجرة مع

المدن المجاورة لهم للتبادل بما يملكونه من انتاجهم الحيواني بالبضائع التي تتوفر في المراكز التي يكتالون منها .

اما اذا انحبس المطر وساد الصحراء الجفاف وافتقرت المراعي فان انتاجهم يسوء وبذلك ينهار اقتصادهم وتتردى حالتهم المعاشية وتتعرض مواشيهم التي هي عصب حياتهم الاقتصادية الى الموت والهلاك وينجم عن ذلك خسارة لموردهم الوحيد وبالتالي يتعرضون للمجاعة .

ولما كانت موارد البدو بسيطة ومحدودة ، فقد اصبح طعامهم وملبسهم وخيمهم بسيطة ايضا ، ويتكون طعامهم في العادة من اللبن والتمر ، اما القمح والرز فهو مكمل لغذائهم ، ويبتاعون في العادة من الارياف والمدن الصغيرة القريبة منهم . وفي الآونة الاخيرة دخل في غذائهم التقليدي استعمال شرب الشاي على نطاق واسع ، اما لباسهم فانه يقتصر على الاقمشة المصنوعة من القطن او الصوف ، وينتعل حذاء خشنا معمولا من الجلد ، كما يرتدي العباءة من الصوف الغليظ .

اما ما يتعلق بالحياة الاقتصادية للرعاة الجبليين ، فهناك فروق واضحة بينهم وبين بدو العرب ، فبينما تعتمد حياة البدو الاقتصادية على الحيوانات ومنتوجاتها اعتمادا كليا ، نجد ان الرعاة الجبليين يزاولون نوعا من الزراعة البسيطة بالاضافة الى تربية الحيوانات .

واهم الحيوانات التي يقومون بتربيتها هي الاغنام والماعز والابقار ، اما البغال والحمير فهي واسطة النقل ، وهي تقابل الجمل عند البدوي في الصحراء . وتتم في العادة العمليات التجارية لبيع حيواناتهم وانتاجها عن طريق رؤساء العشائر وذلك بعقد صفقات مع تجار المدن .

وفي ختام هذا الموضوع . يمكن القول بان تطورات هامة قد طرأت على النظام الاقتصادي والاجتماعي لرعاة الصحراء ورعاة الجبال منذ بداية القرن العشرين . وهذه التطورات ادت الى ضعف النظام القبلي وتغير مفاهيمه واسسه الاقتصادية تدريجيا بسبب ازالة العزلة التي احاطت بهم ، وذلك نتيجة لتطور وسائل المواصلات مثل مد الشبكات للطرق والسكك ووسائل النقل الحديثة التي قضت على عزلتهم ، وكان من نتيجة هذا التطور انحلال رابطة القبيلة الامر الذي ادى الى الاستقرار الذي حل محل الترحال ما عدا مجموعات محدودة لا

زالت تحيا حياة التنقل ولم تعد الفروع المستقرة التي تزاول الزراعة تدين لعشائرها الا بولاء اسمي . هذه الحالة تنطبق على القبائل الجبلية ، اما بدو العرب في الصحراء ، فما يزال النظام القبلي يحتفظ بقوته نسبيا .

ان ملامح الاهتمام في توطين القبائل الرحالة بدأت تظهر في الاربعين سنة الاخيرة . واول البوادر التي تدل على ذلك ، هو توزيع الاراضي وتعديل نظام الملكية الزراعية في معظم اقطار الوطن العربي وتحسين وسائل المواصلات والاهتمام بتوفير الموارد المائية ونشر التعليم ووسائل الثقافة الاخرى ، ومن نتائج هذه السياسة ربط البدوي بأرض تكون مصدر رزقه وبمرور الايام تصبح بالنسبة للبدوي الرحالة ارض غرس وزرع واقامة وبذلك يميلون الى التوطين ويأخذون تدريجيا باسباب الحضارة ، وفي ذلك صالح لانفسهم وللمجتمع كله .

بعد عرض المقدمات العامة المرتبطة بالتوطين ... يجدر بنا الآن ان نطوف بالوطن العربي لدراسة بعض مشروعات التوطين في المناطق العربية بوجه عام وفي البوادي بوجه خاص حتى يمكن في ضوء ذلك وضع خطة عربية مشتركة لتوطين البدو وتحضيرهم .

توطين القبائل البدوية في العراق :

ان القبائل البدوية التي تسكن بوادي العراق وكانت تدخل الى العراق على هيئة موجات متلاحقة منذ الفتح الاسلامي الاول ، حتى دخلت اليه آخر هذه الموجات قبل حوالي ٣٠٠ سنة خلت ، وكانت هذه الموجات المتأخرة تتألف من مجموعتين كبيرتين هي مجموعة قبائل شمر وقبائل عنزة ، ونقتصر بعرض صورة لحياة الاولى منهما :

قبائل شمر :

اتخذت هذه المجموعة ديارها في بادية الجزيرة وهي تعود في نسبها الى مجموعة قبائل موطنها الاصلي في نجد في منطقة حائل ، وعندما وصلت الى العراق اتخذت منطقة الجزيرة الواقعة ما بين دجلة والفرات ديارا لها تتجول في مراعيها . لقد لعب شيخ هذه القبيلة والمدعو (عجيل الياور) دورا كبيرا في توطين هذه القبائل وانتشالها من حالة الترحال لأنه كان حلقة الوصل بين المسؤولين في الدولة ومطالبتها بمساعدتهم على الاستقرار ، وقد نجح المشروع واثرت جهود الشيخ . ومن العوامل الاخرى التي ساهمت في خطة التوطين ،

انشاء الخط الحديدي ما بين سامراء ــ بغداد ــ الموصل وهو الخط الذي اخترق ديارهم فربط ما بينها وبين مراكز العمران وبذلك سهل عليهم الاتصال وازال عنهم كابوس العزلة .

يضاف الى ذلك اكتشاف البترول عام ١٩٢٧ في القرب من مناطقهم الامر الذي ادى الى اجتذاب اعداد كبيرة من البدو والذين اخذوا يعملون في شركة البترول .

لما شعرت الدولة ان البدو في منطقة الجزيرة يرغبون الاستقرار بدأت للمرة الاولى في عام ١٩٢١ بمنحهم الاراضي الاميرية في سهول سنجار الشمالية والجنوبية وهي أراض تسقط فيها امطار تكفي لقيام الحياة الزراعية . وفي عام ١٩٤٨ كانت هذه المناطق الاولى التي امتدت اليها عملية الاستقرار للبدو ، بعمليات الزراعة فيها .

ونتيجة للمطالبات المستمرة من المشايخ البدوية اقتنعت الدولة بضرورة توطين هؤلاء القبائل الامر الذي جعلها تفكر جديا باخراج هذا المشروع الى حيز الوجود ، ففي قانون ملكية الاراضي الزراعية لعام ١٩٥١ كان الاهتمام في تمليك الاراضي للعشائر واضحا .

اذن في هذا التاريخ نشأت فكرة الاستيطان هذه على اساس تخطيطي شبه منظم حيث خصصت الحكومة لجنة تدعى لجنة توطين القبائل الرحالة كانت مهمتها في الدرجة الاولى توزيع الاراضي الاميرية ــ الحكومية لتقام عليها المستوطنات القروية الجديدة ، وراعت بذلك رغبة المستوطنين في اسكان كل قبيلة منهم ضمن حدود منطقة استثمارها وتجوالها التقليدية كما امرتهم بحفر ما يحتاجون اليه من آبار جديدة لمياه الشرب ، وذلك في مناطق الاودية شبه الجافة وفي المنخفضات التي تتجمع فيها مياه الامطار ، وقد خصصت اللجنة ايضا لكل عائلة مستوطنة ارضا زراعية مساحتها ٣٧,٥ هكتار .(*)

لقد تمت هذه المستوطنات حتى شكلت مجموعة من القرى المتناثرة في ارض الجزيرة في القسم الواقع جنوب جبل سنجار وقد بلغ عدد القرى في ١٩٦٥ نحو (٥٥٠) قرية التزموا جميعا برابطة الدم واستوطنوا على هيئة تجمعات قبلية مستقرة . وان مركزهم الاداري مدينة الحضر ، بينما الجزء الشمالي من

(*) الهكتار يساوي اربع دونمات .

الجزيرة الواقعة شمال جبل سنجار فقد قامت مستوطنات اخرى بلغ عددها ٣٢٤(١) قرية كان مركزها مدينة تلعفر .

لقد روعي في توزيع هذه المستوطنات صلاحية الظروف الجغرافية والعادات القبلية . اذ ان التزام البدو بتقاليدهم يظهر في استعمالهم بيوت الشعر (الخيام المعمولة من الشعر) وهي تقام حتى اليوم امام كل قرية او تجمع استيطاني اعتقادا منهم بافضليتها اذا ما قورنت بمساكن الطين .

اخذت خطط الاستيطان تتحسن وبدأت الدولة تبذل جهودا اكبر في منطقة الجزيرة وقد ظهر ذلك في انشاء قرية تدعى « ربيعة » في عام ١٩٦٠ ، وقد تم بناء سائر وحداتها السكنية ومرافقها على اسس حديثة . وبعد الانتهاء منها استطاعت ان تمارس وظيفتها كقرية نموذجية اصبحت فيما بعد مركزا اداريا يشرف على ادارة ٦٧ قرية استيطانية محيطة بها .

وبهذا الاجراء استطاعت الحياة الاجتماعية لساكنيها ان تقطع شوطا كبيرا في مجال التطور ونمت العلاقة بين المستوطنين وسائر مؤسسات الخدمة الحكومية العامة شيئا فشيئا . كما ازداد العاملون في الاراضي الزراعية الواسعة بعد توزيعها عليهم من قبل الدولة . لقد خلقت الحياة الجديدة بل هؤلاء المستوطنون شعورا جماعيا ساعد على نمو روح المواطنة الحقيقية التي اصبحت تشدهم بحياتهم القروية الجديدة الامر الذي انتزع منهم حب العزلة وابعدهم عن حياة البادية القاسية . وهكذا شعر المستوطنون لاول مرة بالارتباط بالارض وودعوا عاداتهم البدوية السيئة ولم يبقوا منها الا ما يحمل على الفخر والاعتزاز من شهامة وكرم .

توطين البدو في الامارات العربية المتحدة :

تعتبر مشاريع توطين البدو في الامارات العربية المتحدة حديثة العهد اذا ما قورنت بالاقطار العربية الاخرى التي سبقتها في اعمار مشاريع الاستيطان . ان البداوة في هذا القطر هي ظاهرة طبيعية بالنسبة لوجود البادية المترامية الاطراف التي تحتل معظم اراضي هذا القطر . فالبادية في الامارات ليست الا امتدادا للطرف الشرقي من صحراء الربع الخالي التي تنتهي عند ساحل الخليج العربي . هذه البادية القاحلة هي موطن البداوة التي عاشت على ارضها منذ

(١) الدكتور نافع قصاب « استيطان القبائل البدوية » مستل من مجلة الجمعية الجغرافية العراقية العدد الخامس ، ١٩٦٩ ، ص٢٣ .

ازمنة موغلة في القدم ولا يزال الخلف يعيش على نفس النمط الذي كان يعيش عليه السلف .

ظلت البداوة في هذا القطر كظاهرة اجتماعية حضارية حتى السنوات الاخيرة التي ظهرت خلالها فكرة الاستيطان المبرمج في تخطيط المشاريع في الوطن العربي ، الامر الذي دفع بدولة الامارات ان تساير هذا التطور الحضاري وتحذو حذو شقيقاتها في انشاء مشروعات التوطين لتحويل البدو الى مجتمع يعيش فيه حياة الاستقرار حتى يتسنى له الدخول في حظيرة المجتمع الكبيرة ، وبذلك يساهم في الجوانب المختلفة في معالم الحياة . وعلى هذا الاساس سندرس في بحثنا هذا مشروع غياثي الاستيطاني كمشروع حديث رائد في الامارات العربية المتحدة .

مشروع غياثي :

تقع منطقة غياثي التي انشئت فيها قرية عصرية باسم غياثي ، واتخذت مركزا للمشروع المسمى باسمها في قلب الصحراء في المنطقة الغربية عام ١٩٧٤ . ويبعد هذا المشروع من مدينة ابوظبي بحوالي ٣٢٠ كيلومترا .

لقد اولت دولة الامارات العربية المتحدة اهتماما خاصا في بناء المشروع حتى وقف على قدميه وبدأ العمل فيه ، وذلك بتجميع شتات البدو الذين يتجولون في تلك البراري ولمئات السنين في ربوع الصحراء جريا وراء الحشائش لرعي جمالهم واغنامهم وبئر من المياه تروي ظمأهم . قام هذا المشروع تحت اشراف الدوائر المختصة في الدولة بعد وضع الخطوط العريضة والدراسات المستفيضة المتعلقة بالموقع والتضاريس والتربة وطبيعة المناخ والموارد المائية ، وبعد ثبوت صلاحية هذه العوامل اخذ المشروع طريقه نحو التنفيذ . ومن هنا اخذ المشروع يزود بكافة المرافق الضرورية لانجاحه ابتداء من حفر الآبار الارتوازية المعتمدة على المياه الجوفية ونصب المضخات عليها وتخطيط الشوارع في هذه القرية العصرية ، واقيمت فيها البيوت الشعبية ، حيث تم انشاء اول دفعة منها عام ١٩٧٤ ، وكان عددها (٧٠)[1] وزعت على العوائل البدوية الى جانب انشاء (١٩) فيلا للموظفين والمدرسين ومدرستين احداهما للبنين واخرى للبنات وبناء مستوصف .

---

(١) جريدة الاتحاد / ملحق خاص بمناسبة العيد الوطني التاسع لاتحاد دولة الامارات العربية المتحدة ١/١٢/١٩٨٠م .

اخذ هذا المشروع يتسع حيث تم بناء وحدة اخرى من البيوت ضمنت (٤٠) بيتا شعبيا تم توزيعها على جماعات جدد نزحت من البادية الاكثر قربا من مركز المشروع ، وبعدها انشيء (٥٠) بيتا آخر ، وبدورها وزعت وحتى (١٩٧٩) اضيفت مجموعة من البيوت تربو على (٦٠) بيتا الا انها لم توزع حتى يتم انشاؤها ومن ثم توزع كوجبة جديدة على البدو الذين سيتم توطينهم في هذا المشروع .

ومن الخدمات الاخرى التي تحتل الصدارة في هذا المشروع ، انشاء خط مياه جديد يزود بالماء من آبار بدع زايد التي تبعد عن مشروع غياثي بنحو (٧٥) كيلومترا والذي تغذيه بالماء (١٥) بئرا . كما تم بناء خزان للمياه يتسع لمليون وستمائه الف متر مكعب من المياه العذبة . وهناك آبار اخرى خصصت مياهها لري المزارع والغابات التي تم انشاؤها بعد توفر المياه اللازمة لها .

بعد ان وصل المشروع الى هذه المرحلة بدأ البدو بالاستقرار واخذوا يمارسون الحياة الزراعية للمحاصيل الزراعية بما فيها عمليات التشجير التي تسير جنبا الى جنب مع تطور مظاهر الحياة الاخرى التي تتطلبها مرحلة الاستقرار . فهناك (٨٦) مزرعة وزعت على المواطنين الجدد ، وقد تولت دائرة البلدية التي انشئت حديثا رعايتها ، كما ان هناك (٣٠) مزرعة اخرى يجري العمل فيها ، وعندما تكون جاهزة للانتاج فانها ستوزع هي الاخرى على العوائل الاحدث استيطانا في المشروع .

اما الاهتمام بالغابات والتشجير فهو لا يقل عن زراعة المحاصيل ، ولذلك انشئت حديثا غابة كبيرة تقع على بعد (٤٥) كيلومترا من قرية غياثي الاستيطانية ، وهي تشغل ارضا مساحتها نحو (٣٤٠٠) كيلومتر مربع ، وتزرع فيها اشجار مختلفة ، وقد خصصت لتربية ورعي الماشية . رغم هذه العناية وتلك الخدمات التي يوفرها هذا المشروع لهذه الجماعات البدوية الا انهم بطبيعة ما جبلوا عليه من تقاليد بدوية ، فلا يستطيع هؤلاء البدو من ترك مراعي الصحراء وهجرها حاليا الا اذا توفرت لحيواناتهم المراعي الجديدة بدلا من مراعي البادية . ولذلك فان معظم هؤلاء البدو الذين ينتسبون لهذا المشروع تراهم ينطلقون بين آن وآخر الى اعماق الصحراء طلبا للمرعى وخاصة في الفصول التي تسقط فيها الامطار وتصبح الصحراء مرتعا خصبا بالحشائش والاعشاب .

٢ ـ الريف : (المجتمع الريفي) :

من المعروف تاريخيا ، ان سكان الريف في الوطن العربي ، ينحدرون في الاصل من عشائر ينتمي بعضها او اكثرها الى القبائل البدوية العربية النازحة من شبه الجزيرة العربية في حقب تاريخية متعاقبة .

استوطنت هذه القبائل الارض واخذت تترك التقاليد والعادات البدوية تدريجيا حسب ما تمليه عليها حياة الاستقرار بالارض والالتصاق بها ، بدلا من الترحال . ومن هنا بدأت الروابط البدوية تضعف وتتفكك فيما بينهم ، وحل مكانها اتباع نظام السلطة الحاكمة والخضوع لها وما تمليه العلاقات الزراعية على الفلاح من تبعات تتطلبها الحياة الجديدة ، مثل اشتراك الفلاح مع افراد عشيرته بالحقوق التصرفية في الارض ، وتملك الفلاح لقطعة ارض يزرعها ، ويمكن تصنيف سكان الريف في الوطن العربي الى :

اولا : جماعة المستقرين الذين يملكون الارض ويمارسون العمليات الزراعية .

٢ ـ جماعة الزراع انصاف المستقرين ، ومعنى هذا انهم يعيشون عيشة البدو الرحل في موسم الربيع والشتاء حيث يرحلون مع حيواناتهم للرعي بمواشيهم في البوادي ، وفي فصل الصيف ، عندما تجف الاعشاب ، يضربون منازلهم في قراهم .

الحياة الاقتصادية والاجتماعية :

هناك علاقة بين النظام الاجتماعي والنظام الاقتصادي ، حيث يعتبر النشاط الاقتصادي جزءا من النظام الاجتماعي . كما ان لكل منهما تأثيرا على الآخر ؛ بطبيعة المجتمع تحدد نوع النشاط الاقتصادي الذي يزاوله افراد المجتمع ، ولذلك نجد ان مدى استثمار الانسان للموارد الاقتصادية يتوقف على تقدمه الاجتماعي . كما ان طبيعة الحياة الاقتصادية تنعكس على نوع الحياة الاجتماعية لذلك نرى الحياة الاقتصادية في المجتمع الريفي العربي مرتبطة بحياته الاجتماعية ، فكلما تقدمت الحياة الاجتماعية وزادت معرفة الانسان لاستثمار الثروات الطبيعية زاد تفاعله الاقتصادي مع بيئته ، وتمكن من تسخير البيئة لصالح الانسان وبالنسبة الى سكان الريف العربي نلاحظ ان استغلالهم

الاقتصادي لا يزال محدودا لأنه يتناسب مع درجة ثقافتهم وخاصة الخبرات العملية في الفنون الزراعية لأنها مهنتهم الاساسية .

ان طابع سكان الوطن العربي الريفي طابع زراعي غير ان درجة ومستوى هذا الطابع يختلف من قطر لآخر ولكن لا يخرج عن الاطار العام الذي تتكون منه الحياة الاقتصادية في الريف العربي الذي اساسه الزراعة في الدرجة الاولى ، ولذلك اعتمد هذا المجتمع على الزراعة مع وجود بعض الصناعات اليدوية ، وارتباط الزراعة بالاحوال الطبيعية . فمثلا معرفة الفلاح المصري تختلف عن الفلاح السوداني .

وفيما يتعلق بالمشاكل التي تواجه الحياة الاقتصادية في الريف العربي : ١ ــ مشكلة الارض ونظام الملكية ، ٢ ــ نقص المياه اللازمة ، ٣ ــ تدني مستوى الفلاح الثقافي ، ٤ ــ الامية المنتشرة في الريف العربي ، ٥ ــ ندرة الوسائل والخدمات المختلفة ، الصحية والثقافية ، والامنية ، ٦ ــ المواصلات وغيرها تلك الوسائل التي يشكو منها هذا الريف والتي ادى انعدامها او نقصها الى الهرب من الريف الى المدن وترك الريف خاليا من اليد العاملة التي هي قوام نهضته وتطوره .

ويمكن القول بان اكثر من نصف سكان الوطن العربي هم سكان القرى والارياف غير ان نسبتهم تتباين من قطر لآخر ، الا انها تنخفض عن الحد الادنى وهو ٣٥٪ كما في لبنان والاردن والعراق ولا تزيد عن ٧٠٪ كما هي الحال بالنسبة لسوريا ومصر والمغرب ولذلك يمكن ان تقدر سكان القرى والارياف في الوطن العربي بنسبة ٦٠٪ من مجموع السكان .

البناء الاجتماعي في الريف العربي :

تعتبر القرية اساس الحياة في الريف العربي ، وتتميز بتخلف الحياة الاجتماعية ، فمن الناحية الثقافية لا زالت الامية تسيطر على معظم سكان القرى والارياف ، وكذلك الحال بالنسبة للحياة الصحية اكان ما يتعلق منها بالناحية العلاجية ام الوقائية .

ومن خصائص حياتهم الاجتماعية العامة اكرام الضيف ، واحترام بعضهم البعض وخاصة الكبار منهم ، وتسود بينهم روح القبلية ، وتكون حياتهم حياة مشتركة ، ويتوقف مركزهم الاجتماعي على نسبهم ونشاطهم في

الدفاع عن العشيرة ، ولذلك ما تزال العصبية القبلية التي تتمثل في الزواج والقتال والدخلة والحشم تتحكم بتصرفاتهم الى درجة ما .

واما الاسرة فهي ابوية ويمثل الرجل فيها المكانة الأولى ، والزواج فيها في الغالب داخلي (من داخل العشيرة) ومن الملاحظ ان الوضع الاقتصادي لا ينفك عن البناء الاجتماعي في الريف العربي . فالعلاقة وشدة التفاعل والترابط بينهما رهينة . ان ظاهرة الهجرة في الريف العربي من القرى الى المدن في العصر الحديث هي نتيجة للنظام الاقتصادي والاجتماعي الذي مصدره ملكية الارض التي تتحكم فيها حفنة من الناس في حياة الكثرة الغالبة من سكانه الامر الذي خلق منهم طبقتين : الفقيرة التي تحصل على الدخل المحدود من نتاج الارض الذي لا يعيل حياتهم المعاشية ، بينما الطبقة الاخرى المتحكمة في الارض هي التي تحصل على معظم الانتاج ، ومن هنا يحصل الصدام والتنافس ، فعلى هذا الاساس انعكست آثار هذه الظاهرة في الحياة الاجتماعية في عدد كبير من سكان الريف العربي . فقد احدثت ارتباكا بارزا في توزيع السكان في الريف من حيث قلة عددهم وذلك لتركهم ارضهم والنزوح الى المدن ، وكذلك كان لها اثر في توزيعهم ، من حيث الجنس والسن بسبب هجرة الشبان والرجال القادرين على العمل ، فلم يبق في الريف الا الكهول والشيوخ والنساء فيه اكثر من الرجال . وينجم عن ذلك تفاوت بين اعمار الزواج نظرا لوجود الفتيات وقلة عدد الشبان مع وفرة الكهول والشيوخ .

كما ان هؤلاء الشيوخ يكونون اقل من الشبان في تفهم معاني التطور والتحسن ، هذا بالاضافة الى ان طاقتهم في عمليات التنمية والحاجة الى تحسين الاوضاع اقل ، ولذلك وبسبب افتقارهم الى الحيوية العقلية والجسمانية فانهم يفضلون في الغالب اتباع السبل السهلة تحاشيا للصعوبات التي يمكن ان تجابههم في الحياة الجديدة غير المألوفة لديهم . وليس من شك في ان هذا السبات والاستسلام العقلي لم يكن الا نتيجة لعوامل اجتماعية اخرى يخضع لها هؤلاء الريفيون ولذلك يسود الريف العربي نوع من الجمود وضعف في الحيوية والحركة نحو التطور .

سكان المدن (المجتمع الحضري) :

قبل البدء بالكلام عن سكان المدن في الوطن العربي ، لا بد من تحديد بين القرية والمدينة ، فالقرية تطلق عادة على كل تجمع سكاني يقل عدده عن

(٢٥٠٠) نسمة ، بالاضافة الى ارتباط حياة القرية بمهنة الزراعة وحياة الحقل ، علاوة على طبيعة الخدمات ، فالمدينة تتمتع بكامل الخدمات بينما القرية قد تتمتع بالبعض منها وقد تنعدم فيها ، وجانب الخدمات هذا يعتبر من الجوانب المهمة وربما اعتبره البعض موازيا الى الجانب العددي .

ومن الخصائص التي تتميز بها المدينة هي اولا وقبل كل شيء الا يقل عددها عن (٢٥٠٠) نسمة بالاضافة الى امتلاكها بعض المرافق والخدمات العامة التي لا يمكن اقامتها في القرية . كما انها تقوم بوظائف اوسع نطاقا من القرية .

اما ما يتعلق ببنية المدن ونشوئها وتطورها في الوطن العربي فهناك عوامل متعددة ساهمت في قيامها وتشكيل البناء التقليدي للمراكز الحضرية فيها ومن ابرزها ما يلي :

١ ـ عامل الموقع
٢ ـ العوامل الاقتصادية
٣ ـ العوامل الاجتماعية
٤ ـ العوامل التاريخية
٥ ـ العوامل التكنولوجية التقليدية
٦ ـ العوامل العسكرية
٧ ـ العامل الديني

وسنستعرض اثر هذه العوامل بشيء من الاختصار . والموقع الجغرافي ، كما هو معلوم ، يشمل الارتباطات السكانية بين المدينة والمناطق الاخرى ، وعلى هذا الاساس تحتل مدن الوطن العربي مواقع متباينة نتيجة لتأثرها بضوابط طبيعية واجتماعية واقتصادية وتاريخية متداخلة ومن هنا يمكن تصنيفها الى المدن ذات المواقع التاريخية ، ومدن الحدود والتخوم ، ومدن السهول الجبلية ، ومدن الفتحات الجبلية ، والمدن النهرية ، وعلى هذا الاساس نجد ان كثيرا من المدن نشأت وتطورت من اقدم العصور اذ كانت التجارة العامل الاول والزراعة العامل الثاني في نشوئها نتيجة لطبيعة الموقع الجغرافي .

كان لظاهرة التجارة وطرقها المتعددة صدى ظاهرا واثرا في قيام المحطات التجارية التي اعتبرت النواة الاولى في خلق المجتمع الحضري الذي كانت نواته

الاولى القرى التي تطورت بدورها الى مراكز اوسع حتى وصلت الى مستوى المدينة التي تمتاز بمظاهر اجتماعية واقتصادية وادارية وثقافية مختلفة ، كما تمتاز المدينة بمستوى معاشي افضل مما يتمتع به الريف العربي وذلك لاتساع علاقتها التجارية وحركتها الاقتصادية من صناعة وخدمات وما تدره هذه النشاطات والاعمال من ارباح .

ومن المدن ذات الموقع التاريخي ، في امكاننا الاشارة الى وجود كثير من الامثلة على مدن ومراكز حضرية اندثرت واعيد قيام اخرى على انقاضها او بالقرب منها . وقيام مثل هذه المدن قد تعلله مبررات وعوامل مختلفة كالاستفادة من انقاض المدينة المندثرة ومادتها الاولية عند بناء المدينة الجديدة مثل استعمال انقاض بابل المندرسة في بناء جزء من مدينة الحلة وبناء مدينة سامراء العباسية ، وهناك امثلة كثيرة في مدن الوطن العربي لتبيان هذه الظاهرة .

وهناك دليل على تأسيس معسكرات البصرة والكوفة والقيروان وغيرها التي اصبحت فيما بعد مدنا ، وانها في الواقع قامت بجانب مستوطنات قديمة تعود الى عصر ما قبل الاسلام .

وخير مثال على ذلك نشوء مدينة بغداد التي بنيت من قبل ابي جعفر المنصور ، ومدينة القاهرة التي بنيت في عهد الفاطميين . وكان لصلاحية الموقع للسكن والعمران البشري من النواحي الطبيعية والاقتصادية والاستراتيجية الاثر البارز في اختيارها في مثل هذه المكانات .

اما المدن التي تقع عند الحدود والتخوم ، فان موقعها على اطراف المناطق النائية من الوطن العربي وبالقرب من حدوده السياسية مع الاقطار المجاورة ، قد اعطى مثل هذه المدن صفة استراتيجية وادارية ، الى جانب وظائفها التجارية والزراعية ، ومن هذه المدن في الوقت الحاضر مندلي وخانقين والسليمانية على الحدود العراقية ـ الايرانية ، وراوندوز والموصل على الحدود العراقية ـ التركية ، والحسكة والقامشلي على الحدود السورية ـ التركية وتقع هذه المدن اما على دالات لمجاري مائية منحدرة من المرتفعات المجاورة التي يمر منها خط الحدود او على الانهار المنحدرة ايضا من الاقطار المجاورة مثل نهر الفرات وفروعه بالنسبة للمدن السورية ، اما في الصحراء فقد نشأت مدن تخومية تظافرت عدة عوامل عسكرية وسياسية ودينية على ظهورها وازدهار

البعض منها مثل كربلاء والنجف في العراق وتدمر في سوريا .

اما المدن النهرية ، فهي من الظاهرات الحضارية المألوفة في الوطن العربي لان عامل القرب من الموارد المائية التي يستخدمها السكان للزراعة والنقل والارواء تعتبر من اهم الضوابط التي حددت مواقع المدن وتحكمت في تطورها او اندثارها وفي هذا الاقليم الذي يسوده المناخ الجاف وشبه الجاف . فكانت انهار الوطن العربي اهم الطرق العامة للنقل والمواصلات مثل دجلة والفرات ونهر النيل ، ولذلك نشأ عدد من المدن الجديدة على ضفاف دجلة عند نقاط التحميل والشحن وتفريغ السفن والبواخر النهرية وتزويدها بالوقود . ومن الامثلة على ذلك مدينة الكوت على دجلة ومدينة حمص وحماه على نهر العاصي في سوريا ، ومثل مدينة دير الزور على الفرات في سوريا ، ومدينة الخرطوم على النيل في السودان ومجموعة المدن المصرية في الوجه القبلى على النيل . لقد ضعف دور الانهار في عملية النقل والمواصلات بسبب تطور المواصلات الميكانيكية البرية الحديثة وبناء المشاريع الاروائية على الانهار على هيئة سدود مما ادى الى هبوط مناسيب النهر والى وجود السدود في مجارى الانهار .

وهناك مدن قامت حول مركز اداري مثل مدينتي الرمادي والناصرية اللتين أنشأهما الولاة العثمانيون لتكون مركزا لادارة قبائل الفرات والبادية الشمالية ، فكانت الأولى مركزاً للسيطرة على عشائر البادية ، بينما كانت الثانية مركزا لعشائر الفرات الأوسط . وهناك عشرات المدن التي وجدت لمثل هذا العامل بالاشتراك مع العوامل الأخرى في الوطن العربي .

اما العامل الآخر الذي ساهم في نشأة المدينة ، فهو العامل الديني الذي دفع الناس الى التجمع حول المراكز الدينية ، وبنتيجة هذا التجمع قامت المدينة ، كما هي الحال في نشوء مدن النجف وكربلاء في العراق ومكة في الحجاز والقدس في فلسطين .

ويظهر اثر العوامل العسكرية واضحا في نشوء المدن كذلك والتي كانت نشأتها في اول الامر كمعسكرات اوجدتها الجيوش الاسلامية مثل معسكر البصرة والكوفة والقيروان واصبحت فيما بعد مستوطنات ثم مدنا تقع على هامش البادية قرب المناطق الزراعية والمراعي والموارد المائية اما المدن التي نشأت حديثا وكانت في الاصل عبارة عن قرى طيلة تاريخ حياتها ، قد تطورت وتحولت من الوضع الحالي الريفي الى طابع المدينة نتيجة وجود موارد اقتصادية

جديدة . ثم تم استغلالها واستثمارها في بعض اجزاء الوطن العربي . وقد نشأ معظمها ان لم يكن كلها في النصف الاخير من القرن العشرين وخاصة في اقطار الخليج العربي بالقرب من مناطق حقول البترول كما هي الحال في مدينة الكويت والظهران والدمام والدوحة ومدن الامارات العربية المتحدة مثل مدينة ابوظبي ودبي . ويضاف الى هذا العامل كونها تقع على الطريق التجاري البحري الذي يربط الشرق بالغرب الامر الذي زاد من حركة النشاط الاقتصادي فيها .

ومن الظاهرات البارزة للمدينة العربية الحديثة هو استقطابها في جذب سكان الريف لقد بدأت حركة الهجرة بين الريف والمدينة منذ الثلاثينات ثم اخذت تتصاعد بعد الاربعينات مصاحبة التنمية الاقتصادية التي تركزت مشاريعها في المدن وخاصة التنمية الصناعية من ناحية واستثمار موارد البترول وما يتعلق به من صناعات بتروكيماوية من ناحية اخرى وما يتطلبه هذا النشاط الجديد من خدمات .

ومهما يكن من امر فان حركة الهجرة الى المدينة ستستمر الى ان يحين الوقت الذي يصبح فيه الريف مناطق جذب نتيجة تنميته الاقتصادية بوجه عام والتطور الزراعي وتحسنه بوجه خاص ويرتفع فيه مستوى الخدمات الاجتماعية والصحية والثقافية .

ومن اسباب الهجرة تردى الوضع الاقتصادي في الريف الذي ينعكس في قلة الدخل السنوي للفرد ، مما ادى الى انخفاض المستوى المعاشي بحيث اصبح لا يسد الحاجات الضرورية من مأكل وملبس وغيرها . اما سوء الحالة الصحية وانتشار الامراض فهو عامل آخر .

اما حاجة الصناعة الى اليد العاملة في المدن الكبرى وما يتعلق بها من خدمات فقد وفرت فرص العمل الى ابناء الريف الامر الذي دفعهم نحو المدينة التي تقدم لهم عيشا افضل وخدمات احسن . وهناك تخلف عامل التوعية بين الفلاحين .

ويمتاز سكان المدن العربية عن بقية سكان الريف والبادية بارتفاع المستوى الثقافي واعتمادهم على الصناعة والتجارة . اذ تعتبر المدن العربية بمثابة مصنع وسوق تمد الريف والبوادي بما تحتاجه .

اما نسبة سكان المدن بالنسبة للوطن العربي ، فتختلف من قطر لآخر فمثلا في مصر وتونس ولبنان والعراق تتراوح نسبة الحضر ما بين ٤٤ ـ ٦٥٪ من مجموع سكانها اما في السودان فتنخفض هذه النسبة الى ١٢٪ ، وفي اليمن الشمالي تصل الى ٦٪ وفي موريتانيا ٧٪ ولكن بصورة عامة فان نسبة سكان المدن لا تقل عن ٣٥٪ من مجموع سكان الوطن العربي .

وهناك عدد كبير من المدن العربية وتتصدرها مدينة القاهرة والاسكندرية ، فالاولى يصل سكانها الى حوالي تسعة ملايين بينما الاسكندرية يزيد عدد سكانها على مليوني نسمة وتأتي بغداد بالمرتبة الثانية وبعدها الدار البيضاء . وهناك مجموعة اخرى لا يقل عددها عن تسع مدن يتراوح عدد سكان كل منها بين نصف الى مليون نسمة وهي مدينة الجزائر وبيروت والرباط وتونس وعمان ودمشق وحلب وصفاقس وبالاضافة الى هذه هناك احدى وعشرون مدينة يتراوح عدد سكان الواحدة ما بين ربع مليون ونصف المليون نسمة .

ومما يلفت النظر ان معظم المدن العربية تتوزع في القطاع الشمالي من الوطن العربي الذي يطل على البحر المتوسط او بالقرب منه ، اما القطاع الجنوبي من الوطن العربي والذي يتمثل في معظمه في شبه الجزيرة العربية والسودان والصومال فانه يضم عددا محدودا من المدن العربية الكبيرة .

الفصـــل السادس

العائلة العربية

الدكتور عاطف وصفــي

المبحث الأول : خصائص العائلة العربية
المبحث الثاني : العــلاقات العائليــة
المبحث الثالث : وظائف العائلــة العربيــة

العائلـــة العربيـــة

المبحـــث الأول

خصائص العائلة العربية

العائلة هي الوحدة الأساسية في بناء المجتمع ، فالمجتمع هو مجموعة من العائلات التي تضم أفراد المجتمع ، ويستمد المجتمع استقراره وتقدمه من استقرار وتقدم العائلة التي تمثل العمود الفقري في جسم المجتمع ، ولذلك عنيت الديانات السماوية والدساتير والقوانين الوضعية بتنظيم شؤون العائلة وبضمان الترابط والتماسك بين أعضاء تلك الجماعة الأساسية في المجتمع .

واذا ألقينا نظرة سريعة على أحوال وخصائص العائلة العربية في التاريخ الحديث ، نلاحظ أنها تمر في مرحلة تغير شاملة سواء في حجمها أو وظائفها أو نظم الزواج المتعلقة بها . وفيما يتعلق بخصائص العائلة العربية يمكن عرض أهم تلك الخصائص على النحو التالي :

١ ــ العائلة العربية عائلة إسلامية :

يرجع التشريع الاجتماعي للعائلة العربية الى أحكام الشرائع الدينية السائدة في المجتمع العربي ولما كانت الديانة الاسلامية هي دين الغالبية العظمى من العائلات العربية ، فانه يمكن التعميم بأن العائلة العربية عائلة إسلامية ، وترتب على ذلك وحدة العائلة العربية في جميع مناطق المجتمع العربي فيما يتعلق بالركائز الاساسية . وتزخر المكتبة العربية بالمؤلفات القيمة لعلماء المسلمين المتخصصين حول العلاقات الأسرية في الاسلام(١) .

---

(١) انظر على سبيل المثال :

أ ــ زكي الدين شعبان : « الزواج والطلاق في الاسلام » ، الدار القومية للطباعة والنشر ، القاهرة ١٩٦٤م .

ب ــ محمد عبدالسلام محمد : « العلاقات الاسرية في الاسلام » مكتبة الفلاح ــ الكويت ــ ١٩٨١ م .

جـ ــ احمد الغندور : « الأحوال الشخصية في التشريع الإسلامي » ــ جامعة الكويت ١٩٧٥م .

د ــ احمد الكبيسي : « فلسفة نظام الأسرة في الاسلام » مكتبة المكتبة ــ العين ١٩٧٩م .

نظم الاسلام شؤون العائلة الاسلامية في صورة فاضلة راقية ، فقد وضعها في مكان الصدارة بالنسبة للجماعات المكونة للمجتمع ، فالعائلة أساس المجتمع ، وتنشأ العائلة عن طريق علاقة الزواج ، والزواج في الاسلام عقد رضائي لا إكراه فيه ويجب أن يستوفي شرائط صحته من إيجاب وقبول وشهود . وقد شجع الاسلام على الزواج واعتبره واجبا اجتماعيا وراحة وسكنـا للمسلمين ، وسبيل مودة ورحمة بين الرجال والنساء ، ويتضح ذلك في الآية الكريمة التالية ، قال الله تعالى في كتابه الكريم : « ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجا لتسكنوا اليها وجعل بينكم مودة ورحمة ، إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون »(١) .

وأوصى الاسلام بأن يختار كل من الزوجين شريك حياته على أساسين ثابتين وهما الدين والخلق ، وحدد الاسلام نظام المحارم في الزواج بهدف المحافظة على حرمة النسب وحرمة المصاهرة وحرمة الرضاع .

وقد حرص الاسلام على أن يكون رضا الزوجين من أهم مقومات العائلة الاسلامية وذلك من خلال توافر الارادة الكاملة لكل منهما . كما سن الاسلام الاشهاد والاشهار كشرطين من شروط صحة عقد الزواج ، وذلك حماية للعائلة الاسلامية في بداية تكوينها ، وحفظ الحقوق والواجبات المترتبة عليها .

ويعد المهر ، وهو مال يقدمه الزوج لزوجته على أنه هدية لازمة وعطاء واجب ، من المبادىء الشرعية لصحة عقد الزواج في العائلة الاسلامية ، والمهر حق خالص للمرأة أوجبه الله تعالى لها تطييبا لخاطرها . ولم يحدد التشريع الاسلامي قيمة معينة للمهر فلم يبين أقل المهر أو أكثره وانما ترك ذلك وفق مقدرة الرجل ، وحث الاسلام على عدم المغالاة في المهور ، بل لقد حدد بعض الفقهاء المهر بدرهمين أو درهم(٢) .

وتستمر الشريعة الاسلامية السمحاء في تنظيم شؤون العائلة الاسلامية فجعل للأم مكان القداسة الأولى فيها ، وللأب مركز القيادة والتوجيه والانفاق والحماية ، وجعل للاخوة حق الولاء والطاعة والنصرة ، وجعل للعمومـة والخؤولة وذي القربى جميعا حقوقا وواجبات محددة في حالات التوارث في الموت والتحارم في بعض صور الزواج والتعاون والرعاية .

(١) القرآن الكريم : سورة الروم الآية (٢١)

(٢) محمد عبدالسلام محمد : العلاقات الاسرية في الاسلام ص١٢٠

وتسمح الشريعة الاسلامية بتعدد الزوجات ، بحد أقصى وهو أربع زوجات ، بشرط العدل بين الزوجات ، وتمثل العائلات متعددة الزوجات شريحة ضئيلة من العائلات العربية ، فان الغالبية العظمى منها هي أسر صغيرة ذات الزوجة الواحدة .

وتسمح الشريعة الاسلامية بالطلاق ، وهو حل العصمة المنعقدة بين الزوجين وانهاء العلاقة الزوجية ، على أن الطلاق لا يقع من أي من الزوجين متى شاء . وليس هو أول علاج ولا يتم دفعة واحدة ، بل هناك ضوابط وخطوات ومراحل وفرصة للرجوع والمعاودة ، فمن رحمة الله وحكمته أن جعل الله الطلاق بيد الرجل صاحب القوامة وليس بيد المرأة سريعة الغضب ، كما وضعت الشريعة الكثير من القيود والتبعات التي تجعل الرجل يفكر ألف مرة قبل أن يوقع الطلاق(١) .

تشترك العائلة العربية مع العائلات الاسلامية في جميع المجتمعات الاسلامية في هذه الحدود والمبادىء الشرعية ، مما جعل للعائلة الاسلامية طابعا خاصا مميزا في جميع الأقطار الاسلامية في العالم ، وأكد هذا الطابع الخصائص المشتركة بين العائلات العربية في جميع أقطار الوطن العربي الكبير ، فان العائلة العربية عائلة اسلامية ، سواء أكانت تعيش في المدن أو في القرى الزراعية أو في البوادي والصحارى العربية ، والعائلة العربية عائلة اسلامية ، سواء أكانت تنتمي الى فئة الاغنياء أو فئة المثقفين أو الفئات الشعبية الفقيرة . وهكذا يتضح أن الطابع الاسلامي من أهم خصائص العائلة العربية وذلك لأنها خاصية جوهرية من ناحية ولأنها خاصية شمولية من ناحية أخرى .

٢ ـ العائلة العربية كعائلة أبوية ممتدة :

كانت العائلة الأبوية الممتدة هي الشكل الأسري السائد في المجتمع العربي الى عهد قريب ، وتتكون من الزوج وزوجته أو زوجاته وأولاده الذكور وعائلاتهم وأبنائه وبناته غير المتزوجين ، وقد يحدث أن تجمع كذلك أشقاء الزوج وعائلاتهم وشقيقاته ما دمن لم يتزوجن أو في حالة ترمل أو طلاق .

تتميز العائلة الممتدة العربية بكبر حجمها ، ويعيش جميع أفرادها في بيت واحد ، وتجمع في نطاقها عادة ثلاثة أجيال ، وفي أحيان نادرة تجمع كذلك

---

(١) انظر التفاصيل : المرجع السابق : ص٢١٨ ــ ٢٩٢ . .

الجيل الرابع . وتستمر العائلة الممتدة في الوجود طالما أن الرجال يتناسلون ويعيشون مع آبائهم في بيت واحد ، ولذلك قد تستمر مئات السنين . وتحتفظ العائلة الممتدة باسم الجد الأول من خلال عادة تسمية أكبر الأبناء باسم الجد عن طريق الأب ، ويميل العرب الى مناداة الأب باسم أكبر أبنائه ، فيقولون : أبو أحمد أو أبو حسين ، مما يترتب عليه استمرار اسم الجد الأول عبر الأجيال المتعاقبة . ومن أهم العوامل التي ساعدت على استمرار العائلة الأبوية الممتدة عند العرب لقرون طويلة من الزمان نظام الملكية والوراثة ، ويركز هذا النظام على استمرار ملكية الجد وهو رب العائلة الممتدة لثروة العائلة من أرض وماشية وعقار طوال فترة حياته ولذلك كان الأبناء بعد الزواج والانجاب لا يمتلكون شيئا طوال بقاء الجد وهو رب العائلة على قيد الحياة ، مما يشجع الأبناء وعائلاتهم على البقاء في بيت العائلة الممتدة لتوافر أسباب العيش في كنفها ، حيث كان الجد يتولى الانفاق على جميع أفراد عائلته الكبيرة . ويمكن إضافة عامل قاعدة السكن التي يطبقها العرب في ترسيخ نظام العائلة الأبوية الممتدة ، وتتمثل تلك القاعدة في أن يسكن الشاب بعد زواجه في بيت والده ويستمر فيه بعد انجاب الأطفال . وكان أفراد العائلة الممتدة يتعاونون في العمل بصورة جماعية في توفير ما تحتاجه العائلة من ضرورات الحياة ، وكان الجد ، وهو صاحب الثروة ، يقود عملية تنظيم وتوزيع العمل على أعضاء الأسرة سواء أكان مصدر الرزق يتمثل في قطعة أرض زراعية أو في رعي قطعان الماشية والابل .

عاش العرب في نظام العائلة الأبوية الممتدة لقرون طويلة من الزمان ، وكانت القرية العربية تتكون من عائلة ممتدة واحدة أو من عدد قليل من تلك العائلات ، وفي المدن العربية ، كانت الأحياء القديمة ، يتكون الواحد منها من عائلات ممتدة تعيش متجاورة في مجموعات وكانت القرابة تجمع كل مجموعة من تلك العائلات الكبيرة . استمر هذا النظام العائلي هو السائد عند العرب حتى بداية القرن الحالي ، وقد صاحب هذا القرن تغيرات إجتماعية كبرى أدت الى ظهور وانتشار نظام عائلي جديد وهو العائلة الصغيرة أو العائلة النواة ، ومع انتشار النظام العائلي الجديد ، وخاصة في المدن ، أخذ يتقلص تدريجيا نظام العائلة الأبوية الممتدة .

ولكن لا يزال نظام العائلة الممتدة موجوداً ، بدرجات متفاوتة ، في القرى والبوادي العربية .

٣ ـ العائلة العربية كعائلة صغيرة :

أخذ نظام العائلة الصغيرة ينتشر بمعدلات سريعة في جميع أقطار المجتمع العربي في فترة الخمسين سنة الماضية ، بحيث يمكن القول بأن غالبية العائلات العربية تعيش اليوم في عائلات صغيرة بينما أصبحت العائلات الممتدة الكبيرة تمثل الأقلية في العائلات العربية . وتتكون العائلة الصغيرة من الزوج والزوجة وأطفالهما ، وهم يعيشون في بيت مستقل . ويرجع هذا التغير الهام في نظام العائلة العربية إلى تغيرات إجتماعية كبرى شملت جميع ربوع المجتمع العربي ، نذكر منها على سبيل المثال ما يأتي :

أ ـ الضغط السكاني في الريف العربي وانخفاض المستوى الاقتصادي والاجتماعي في القرى الزراعية والبوادي العربية ، يترتب على الزيادة السكانية الطبيعية في هذه المناطق ، كثرة عدد السكان ، ولم تصاحب هذه الكثرة زيادة مماثلة في فرص العمل التي تسمح باستيعاب هذه الزيادة السكانية ، وفيما يتعلق بالملكية الزراعية استمر تقسيم الأراضي الزراعية على الأبناء والبنات من جيل الى جيل بحيث صغر حجم الملكيات الزراعية تدريجيا ، واختفت عند الكثير من العائلات الممتدة ، مما دفع بشباب هذه العائلات الى البحث عن موارد رزق جديدة خارج القرية وخارج نطاق العائلة الممتدة ، وكان الشاب العربي عندما يجد عملا في المدينة المجاورة يستقر فيها ويحضر زوجته وأولاده ويعيشون في عائلة صغيرة ، وبالتالي ينفصلون عن العائلة الممتدة وهكذا أخذت العائلة الممتدة الواحدة تنقسم الى عائلات صغيرة تعيش في المدن أو القرى المجاورة حيث يتوفر لها مورد الرزق .

ب ـ النمو الحضري السريع وانتشار المدن ، في عام ١٩٥٠ كان سكان الحضر العرب يبلغون ١٨ مليون عربي يمثلون ٢٥٪ من السكان العرب ، وارتفع عددهم في عام ١٩٧٥ الى ٦٠ مليون حضري عربي يمثلون ٤٢٪ من السكان العرب[١] . وهكذا يسير التوسع الحضري في المجتمع العربي بمعدلات سريعة للغاية ، ويرجع هذا التوسع الحضري السريع الى ارتفاع معدلات الهجرة الداخلية في الدول العربية ، فقد ترتب على توافر فرص العمل في المدن ومميزات الحياة الحضرية أن هاجرت أعداد ضخمة من سكان القرى الزراعية والبوادي العربية الى المدن القريبة ، ولا يسمح نظام المساكن الحديثة في المدن بنظام

---

(١) عاطف وصفي وآخرون : « المجتمع العربي » صوت الخليج ـ الشارقة ١٩٨١م ص٢٤٩ ـ ٢٥٠ .

العائلة الممتدة ، ولذلك اضطر المهاجرون الى المعيشة في نظام العائلة الصغيرة ، وقد ازدحمت المدن العربية اليوم لدرجة أننا نجد الكثير من العائلات الصغيرة الفقيرة تعيش في غرفة واحدة في الأحياء الشعبية المتخلفة . وانتشر نظام المباني متعددة الطوابق والشقق في غالبية المدن العربية ، وأصبح من الصعب أن تعيش عائلة ممتدة في شقة واحدة ، وانتشر كذلك نظام الفيلات في المدن العربية ، وتعيش فيها العائلات الصغيرة والممتدة ذات المستوى الاقتصادي المرتفع . وهكذا فان التوسع الحضري السريع الذي نشاهده اليوم في جميع المدن العربية ونظم البناء الحديث المطبقة في هذه المدن تعد من أهم العوامل التي أدت الى انتشار نظام العائلة الصغيرة وتقلص نظام العائلة الممتدة .

٤ ــ زواج الأقارب وخاصة أبناء العمومة :

يميل العرب منذ القدم إلى الزواج من الأقارب ، وينتشر بينهم نظام زواج أبناء العمومة ، وكان هذا النظام هو نظام الزواج السائد في العائلة العربية إلى عهد قريب وخاصة في القرى الزراعية والبوادي العربية ، ويطبق العرب هذا النظام بدرجات متفاوتة ، يشير الحد الأقصى الى ضرورة زواج البنت من ابن عمها ، بينما يشير الحد الأدنى الى زواج البنت داخل العشيرة ، وقديما كان يعتبر زواج البنت بابن عمها واجب في بعض العشائر البدوية العربية ويمكن لابن العم الحجز على بنت عمه كما يحق له قتل بنت عمه اذا رفضت الزواج منه(١) .

ولا يستند هذا النظام في الزواج على الشريعة الاسلامية ولكنه يمثل نظاما اجتماعيا صاحب نظام العائلة العربية الممتدة . فان الشريعة الاسلامية ترفض أي نوع من الاجبار في الزواج ، ولا شك أن نظام زواج أبناء العمومة يتضمن الكثير من الاجبار في الزواج ومن الثابت شرعا أن من حق المرأة المسلمة أن تستشار قبل تزويجها ، وفي ذلك يقول سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم « لا تنكح الأيم حتى تستأمر ، ولا تنكح البكر حتى تستأذن قالوا يا رسول الله كيف إذنها ؟ قال : أن تسكت(٢) » وهكذا منحت الشريعة الاسلامية المرأة حرية اختيار شريك حياتها وجعلت إذنها شرطا في صحة زواجها ، وعليه فان جبر الفتاة على الزواج ليس من أحكام الشريعة واذا كان الشرع قد أعطى للمرأة حق

---

(١) عباس احمد : « المجتمعات البدوية » مكتبة المكتبة ــ العين ــ ١٩٨١م ص٧٤ .

(٢) رواه البخاري ومسلم .

الاختيار ، فأولى أن يكون للرجل مثل ذلك الحق . ولا يشجع الشرع نظام الزواج من القريبين وفي ذلك يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم « لا تنكحوا القرابة القريبة فان الولد يولد ضاويا»[١] .

ولا تشير أحكام الشريعة المتعلقة بشروط حسن اختيار الزوجين الى زواج الأقارب مطلقا ، فان أهم ما تنبغي مراعاته في اختيار الزوجة : أن تكون ذات دين وخلق ، وأن تكون ولودا لأن الهدف الأساسي للزواج هو الانجاب وأن تكون حسنة المنظر[٢] .

حاول العلماء تفسير إنتشار نظام الزواج من أبناء العمومة عند العرب منذ القدم وظهرت تفسيرات عديدة في هذا الموضوع ، منها حفظ الارث وممتلكات العشيرة داخلها والمحافظة على نقاء وصفاء دم العشيرة[٣] ويضيف الباحث بعض آرائه حول أسباب وجود وإنتشار نظام الزواج من الأقارب عند العرب وهي باختصار شديد :

١ ــ تأصل قيمة عدم الاختلاط وقيمة العرض عند العرب ، فقد ترتب على ذلك عدم إتاحة فرص رؤية الفتيات وسماع أخبارهن للشاب إلا في أضيق الحدود وتتمثل هذه الفرصة الضيقة في رؤية قريباته من بنات العم أو الخال فكان يتزوج واحدة منهن .

٢ ــ نظام العائلة العربية الممتدة ، كان الشاب ينشأ وينمو في تلك العائلة مع بنات عمه في بيت واحد ، مما يساعد على ظهور وتولد ميول عاطفية منذ الصغر بين الشاب وبنت عمه .

٣ ــ السلطة المطلقة للأب وقوة العصبية في المجتمع العربي ، وصلت السلطة المطلقة للأب وقوة العصبية أي العلاقة القرابية إلى أعلى صورها في العائلة العربية الممتدة القديمة ، ومن الممارسات التي تعبر عن قوة تلك القيم واستمرارها أن يزوج الشقيقان أولادهما الذكور لبناتهما مما يترتب عليه ترسيخ تلك القيم واستمرارها وكان الزواج يتم في سن مبكرة ، فقد يحدث الزواج والفتاة في سنة الثانية عشرة أي في مرحلة اللعب بين الصبية ،

---

(١) رواه البخاري ومسلم .

(٢) محمد عبدالسلام محمد : « العلاقات الاسرية في الاسلام » ص٥٤ .

(٣) انظر عباس احمد : « الانثروبولوجيا الاجتماعية » مكتبة المكتبة ــ العين ١٩٨١م ، ص٩١ ، ٩٢ .

وكان يتزوج هؤلاء الصبية وكأنهم يمارسون احدى ألعابهم الشعبية ، وترتب على ذلك انتشار نظام الزواج من الأقارب ، لعدم نضج الفتى والفتاة عاطفيا لدرجة تسمح لهما بوضوح رغبتهما الشخصية في اختيار شريك الحياة .

وهكذا ساعدت النظم الاجتماعية العائلية المترابطة وظيفيا على ترسيخ نظام الزواج من الأقارب في المجتمع واستمراره حتى الآن بدرجات متفاوتة في المدن والقرى والبوادي العربية .

٥ ـ تغير بعض عادات الزواج :

إن العائلة العربية عائلة إسلامية ، تخضع لأحكام الشريعة الاسلامية فيما يتعلق بالمقومات الأساسية ، وتتميز بعض تلك المقومات الشرعية بالثبات مثل الاشهاد والاشهار والمهر وحق الطلاق ، وتتميز أحكام شرعية أخرى بالمرونة والتنوع في النظم العائلية مثل وحدانية الزوجة أو تعدد الزوجات . وتوجد الى جانب تلك المقومات الشرعية الثابتة والمرنة في العائلة العربية مجموعة من العادات الاجتماعية التي لا ترتبط بالأحكام الشرعية ، وإنما ترتبط بظروف الحياة الاجتماعية الخاصة بكل مجتمع . ولقد حدثت تغيرات واضحة في تلك العادات الخاصة بالزواج في العائلة العربية أهمها ما يأتي :

أ ـ إرتفاع سن الزواج سواء بالنسبة للفتيان أو الفتيات العربيات ، فقد ترتب على انتشار التعليم في المدن والقرى واهتمام الشباب بايجاد العمل الثابت قبل البحث عن زوجة أن ارتفع سن الزواج .

ب ـ إنخفاض عدد حالات تعدد الزوجات في المدن العربية خاصة ، فقد ترتب على ضيق المساكن في المدن وزيادة الأعباء الاقتصادية الملقاة على رب الأسرة أن ضعف الاتجاه نحو تعدد الزوجات وأصبح أمراً نادراً في غالبية المدن العربية .

جـ ـ ضعف عادة الزواج من إبن العم ، ضعفت تلك العادة في المدن العربية ، ولكنها لا تزال موجودة في القرى والواحات العربية حيث يكون لابن عم الفتاة الحق في الزواج منها ، ولا تتفق تلك العادات مع الحياة العصرية حيث يكثر فيها الحركة والتنقل ويصعب تواجد الأسر التي تربطها أوشاج القرابة في مكان واحد ، هذا بالاضافة إلى تدخل عنصر الاختيار الفردي في الزواج ولكن لا يزال ينتشر بين العرب نظام الزواج من الأقارب بصورة عامة .

د ــ ظهور مبدأ الاختيار الفردي في الزواج ، ويتضح ذلك بقوة في المدن العربية حيث لم يعد الزواج علاقة بين عائلتين وإنما علاقة بين شخصين . وهكذا بدأ الفتى يختار عروسه وبدأت الفتاة تظهر إرادتها في قبول أو رفض الشاب المتقدم اليها ولكن لا تزال تنتشر في الريف عادة قيام الأب والأم أو الجد باختيار عروس المستقبل للابن .

هـــ ــ إنخفاض معدل الزواج ، يقصد بمعدل الزواج ، عدد حالات الزواج في كل ألف من السكان في سنة معينة ، ترتب على ارتفاع سن الزواج واهتمام الشباب بالتعليم والبحث عن عمل ثابت قبل الزواج وزيادة المسؤوليات الاقتصادية المترتبة على تكوين أسرة أن إنخفض معدل الزواج .

و ــ انتشار قيم اجتماعية جديدة فيما يتعلق بالزوج المثالي والزوجة المثالية ، أهم تلك القيم هي التعليم وخاصة التعليم الجامعي ونوع الوظيفة التي يشغلها الشاب أو الشابة ، ولا تزال قيم الأخلاق والعفة والاخلاص في قوتها ، وهذه فضائل يجب الحفاظ عليها . وقد ضعفت قليلا ــ وخاصة في المدن العربية ــ أهمية إسم العائلة والنسب والعصبيات العائلية .

هذه بعض التغيرات التي تعيشها العائلة العربية في أيامنا هذه ، ولا شك أننا في أشد الحاجة إلى التخطيط وإلى جهود علماء الدين والاصلاح الاجتماعي في توجيهها الوجهة الصحيحة النابعة من الشريعة الاسلامية دون السماح للعادات الغربية السيئة أن تتسرب إلى شبابنا .

المبحث الثاني

العلاقات العائلية

تشهد العلاقات العائلية في المجتمع العربي تغيرات هامة ، سواء في العلاقات الداخلية وهي علاقة الزوج بزوجته وعلاقة الآباء بأبنائهم أو في العلاقات الخارجية التي تربط العائلة بالأقارب والجيران وزملاء العمل . وترجع تلك التغيرات إلى عدة عوامل ، منها التوسع الحضري السريع في المجتمع العربي ونشاط الهجرة الداخلية من الريف إلى المدن ، فان ظاهرة الهجرة من الريف إلى المدينة تشجع الريفي على التكيف مع نظم إجتماعية جديدة ، وتعمل على زيادة معدل التغير الاجتماعي في نطاق عائلته من خلال ممارسته لأنماط معيشية جديدة ، وتعامله مع عدد كبير من الأشخاص ، وتأثره من خلال المعايشة اليومية مع وسائل الاعلام بقيم واتجاهات إجتماعية جديدة . ولا يمكن إغفال تأثير عامل التعليم في إحداث تغيرات أساسية في العلاقات العائلية ، فان الانتشار السريع للتعليم بين المواطنين العرب في المدن ، عمل على تغير الكثير من المفاهيم عن المركز الاجتماعي للزوجة وسلطة الزوج وحقوق الأبناء ، فقد بينت دراسة اجتماعية عن أثر التحضر في التغير الاجتماعي في العائلة في مدينة طرابلس بليبيا أن العائلة الحضرية أكثر ميلا إلى المساواة بين الزوج وزوجته وإلى إستقلالية أفرادها مما هو موجود في العائلة الريفية ، وأن العائلة الحضرية تهتم بصورة أساسية بتعليم الأطفال وبترسيخ علاقات أساسها التسامح مما يزيد من عملية التفاعل العائلي فيها . كما بينت هذه الدراسات زيادة التفاعل في جو ديموقراطي متسامح في العائلة الحضرية(١) .

وتتضح هذه التغيرات في المراكز الاجتماعية لأعضاء العائلة العربية ، فبعد أن كانت سلطة الأب مطلقة وكاملة لا يشاركه فيها أحد غيره، فهو وحده الذي كان يتخذ القرارات ويحسم الأمور ، فقد تغير الحال كثيرا ، وخاصة في المدن العربية ، فأصبحت الزوجة والأبناء يشاركون في اتخاذ القـرارات الحاسمة . وفي حالات نادرة قد تفوق سلطة الأم سلطة الأب في العائلة اذا كانت أعلى منه ثقافة أو أكثر منه جاها أو أرفع منه نسبا .

---

(١) ياسين علي الكبير : التحضر والتغير الاجتماعي في الاسرة في مدينة طرابلس الحلقة الدراسية عن الأسرة والقرابة ، منظمة تطوير العلوم الاجتماعية في الشرق الاوسط ــ الكويت ١٩٧٦م ص٣ .

ولا يعني ذلك أن العائلة العربية قد تغيرت وأصبحت مثل العائلة الأوروبية في ناحية ضعف سلطان الأب على زوجته وأبنائه ، فان رئاسة العائلة العربية للأب كما تنص على ذلك أحكام الشريعة الاسلامية ، وكما يؤيده الواقع سواء في الحاضر أو في الماضي ، والتغير الذي حدث يتعلق بطبيعة سلطته ، فبعد أن كانت مطلقة في الماضي أصبحت اليوم محدودة ، وأصبح للأم رأي يحترم ، وكذلك أصبح للأبناء الحق في التعبير عن رأيهم والحق في مناقشة ما يقرره الآباء فيما يتعلق بمصيرهم أو مصير العائلة كلها . والأب في العائلة العربية هو رئيس العائلة واحترامه واجب على جميع أفراد العائلة ، ويتضح ذلك في طريقة مخاطبة الأم والأبناء للأب ، وفي سلوك الأبناء أمام الآباء .

وإذا انتقلنا الى مركز الأم في العائلة العربية الحديثة نجد أنه تغير كثيراً وبخاصة في المدن ، ويتمثل ذلك التغيير في إرتفاع مكانة الأم واحترام مكانتها ويتجه ذلك التغيير إلى تأكيد الحقوق التي منحها الاسلام للمرأة ، فقد كرم الاسلام المرأة وقرر أن تحتفظ باسم عائلتها بعد الزواج مما يؤكد كرامتها كشخصية مستقلة عن زوجها ، وقرر حقها في الاحتفاظ بأملاكها وحرية التصرف فيها دون الرجوع إلى الزوج ، وللنساء الحق في ولاية الأطفال القصر ، وكذلك من حقهن العمل في التجارة والمهن الشريفة المحافظة . وهكذا تتجه المرأة العربية اليوم إلى استعادة المركز الاجتماعي المرموق الذي شغلته في صدر الاسلام ، وقد اتخذت من التعليم سبيلا لاستعادة ما فقدته ، ويتضح ذلك في الزيادة المستمرة في عدد الاناث المسجلات بالمدارس الابتدائية والثانوية وبالجامعات في المجتمع العربي ، وترتب على تعليم المرأة أن أتيحت لها فرصة العمل خارج المنزل ، واحتلت المرأة العربية الكثير من الوظائف المهنية الهامة وخاصة التدريس والطب ، ووصلت في بعض الدول العربية الى مرتبة الوزيرة : وبالرغم من إنخفاض النسب المئوية للنساء العاملات بالمقارنة لربات البيوت في المجتمع العربي ، إلا أنه يشير الى حقيقة هامة وهي إرتفاع المكانة الاجتماعية للمرأة العربية مما أهلها إلى أن تشارك زوجها في إتخاذ القرارات الحاسمة في العائلة العربية .

وفيما يتعلق بالمراكز الاجتماعية للأبناء والبنات داخل العائلة العربية ، فقد حدثت تغييرات هامة أيضاً ، منها ضعف المركز المرموق الذي كان يتمتع به الابن وتحرم منه الابنة لتفضيل الذكور على الاناث ، ويرجع ذلك إلى إتاحة

فرصة التعليم للفتاة إلى جانب الفتى وإتاحة فرص العمل والنجاح للأكثر كفاءة دون أخذ عامل النوع في الاعتبار . ومن هذه التغيرات كذلك تمتع الأبناء بكثير من الحرية في بعض جوانب الحياة ، وأصبحوا يعبرون عن رغباتهم بدون رهبة أو خوف ، وأصبحوا يناقشون الآباء في المسائل التي تخصهم وتخص العائلة ، وأصبح الاقناع هو الأسلوب الذي يتبعه الآباء في معاملة الأبناء بدلا من فرض الأوامر وتوقع الطاعة المطلقة من الأبناء دون إعطائهم حق المناقشة(١) . تتطلب دراسة العلاقات العائلية الحديثة في المجتمع العربي الاستعانة بالأبحاث الميدانية التي تدرس نماذج من العائلات العربية في بعض الدول العربية ، وبالرغم من عدم إمكانية تعميم نتائج هذه الدراسات على جميع أقطار المجتمع العربي ، إلا أنها تقدم مؤشرات أكثر دقة وواقعية من التصورات والتعميمات غير العلمية ، ولا شك أن مجال العائلة العربية في أشد الحاجة إلى المزيد من الأبحاث الميدانية وذلك لندرة تلك الأبحاث في الوقت الحاضر .

ويمكن تقسيم العلاقات العائلية إلى قطاعين ، وهما العلاقات الداخلية للعائلة الصغيرة العربية ، والعلاقات الخارجية للعائلة الصغيرة العربية . ويجب ملاحظة أن العلاقات العائلية العربية تختلف بصورة واضحة على أساس تقسيم المجتمعات العربية إلى مجتمعات حضرية ومجتمعات زراعية ومجتمعات بدوية صحراوية ، وتختلف كذلك على أساس إختلاف المستويات الاقتصادية والاجتماعية بين الطبقات الشعبية والطبقات الوسطى والطبقات العليا في المجتمع العربي ، وأيضا تختلف على أساس إختلاف المستوى التعليمي بين الفئات المتعلمة والفئات الأمية من المواطنين العرب .

وفيما يلي عرض بعض نتائج الأبحاث الميدانية الحديثة في مجال العلاقات العائلية في بعض الأقطار العربية :

أولا : العلاقات الداخلية في بعض العائلات العربية :

تبين دراسة ميدانية عن بعض العائلات المصرية التي تمثل الصفوة المتعلمة تعليماً جامعياً وجود إختلافات واضحة بين العائلات المحافظة والعائلات المتحررة ، ولا يفهم من كلمة التحرر هنا الانحلال الخلقي وإنما يقصد به تمتع العائلة بدرجة من الحرية والاستقلال أكثر مما هو موجود في

---

(١) عاطف وصفي وآخرون : « المجتمع العربي » صوت الخليج ــ الشارقة ــ ١٩٨١م ص ٢٤٤ ــ ٢٤٦ .

العائلة المحافظة . وتتضح بعض الفروق في العلاقات الداخلية بين العائلات المحافظة والمتحررة فيما يلي(١) .

إتخاذ القرارات :

تبين الدراسات أن مركز المرأة في العائلة عامل فعال في التمييز بين العائلة المحافظة والعائلة المتحررة ، ويتحدد مركز المرأة بمدى مساهمتها في إتخاذ القرارات العائلية ، ففي العائلات المتحررة يكون للزوجة فيها نفس وزن الرجل عند إتخاذ القرارات ، بينما يعتبر الزوج في العائلات المحافظة هو رب العائلة وله الكلمة الأخيرة عند إتخاذ القرارات .

النشاطات الترويحية :

تخرج الزوجات في العائلات المتحررة مع أزواجهن لزيارة الأقارب والأصدقاء ولمشاهدة الأفلام السينمائية ، وترتبط هذه العائلات بعلاقات الصداقة مع عائلات متشابهة في المستوى التعليمي والاقتصادي وسن الزوجين . وبينت الدراسة أن الوضع يختلف في العائلات المحافظة ، فمن النادر أن يخرج الأزواج مع زوجاتهم إلا في الحالات الاضطرارية مثل زيارة الطبيب أو الأقرباء القريبين .

مشاركة الزوج في الأعمال المنزلية :

يقدم الأزواج في العائلات المتحررة العون لزوجاتهم في أداء الأعمال المنزلية مثل غسل الأطباق والطبخ وتنظيف المنزل ، وكذلك يشترون إحتياجات المنزل من المحال المختلفة . أما في العائلات المحافظة فان الأزواج يرفضون تقديم العون لزوجاتهم في أعمال المنزل ، حتى في حالة عمل الزوجة خارج المنزل فالرجل يشعر بأن قيامه بالأعمال المنزلية يعد إهانة لكرامة الرجل .

حسم الخلافات الشخصية :

في حالة النزاع بين الزوجين ، يستدعي الزوج أو الزوجة في العائلات المحافظة أحد الأقارب للتوسط في النزاع ، وعندما يشتد النزاع تذهب الزوجة إلى بيت أهلها ويشترك الأهل في حل النزاع بحضور الزوج . أما في العائلات

---

(١) سهى عبدالقادر : الأنماط المحافظة والمتحررة للأسرة المصرية ـ منظمة تطوير العلوم الاجتماعية في الشرق الاوسط ـ الحلقة الدراسية عن الأسرة والقرابة ، الكويت ١٩٧٦ ، ص٦ ـ ١١ .

المتحررة فان الزوجين يكتمان مشاكلهما الخاصة ويحاولان حل الخلاف بأنفسهما ، وغالبا يفضلان ألا يعرف أي شخص انهما متنازعان .

علاقة الآباء بالأبناء :

يشترك الزوجان في العائلات المتحررة في تربية الأطفال وتهذيبهم واللعب معهم ، بينما تكون الزوجة في العائلات المحافظة هي المسؤولة مسؤولية كاملة عن تربية الأطفال ، ويقوم الزوج بدور المؤدب ، ولذلك يخاف الأطفال من الأب أكثر من الأم ، حيث أن الأم لا تعاقبهم في حالة سوء السلوك بل تهددهم فقط بابلاغ الأب ، ومن النادر في هذه العائلات أن يلعب الأب مع الأطفال .

وتبين دراسة ميدانية ثانية أجريت على بعض العائلات العربية في ليبيا وجود فروق واضحة بين العلاقات الداخلية العائلية في العائلات الحضرية في مدينة طرابلس والعائلات الريفية المهاجرة حديثا الى طرابلس ، ويتضح ذلك فيما يلي[1] .

المساواة والاستقلالية :

تبين الدراسة أن العائلة الحضرية تميل بصورة أقوى من العائلة الريفية للمساواة بين أفرادها ولاعطاء استقلالية لأعضائها في بعض مجالات الحياة . ويلاحظ أن الأولاد والبنات يكونون أكثر استقلالا في إتخاذ القرارات التي تخصهم وخاصة عند الزواج ، وأن الزوجة تشارك بأكثر فاعلية في الحياة اليومية وفي القرارات الهامة في العائلة .

التحصيل المدرسي وتوقعات الوالدين :

تبين الدراسة أن العائلات الحضرية أكثر إهتماما من العائلات الريفية بتعليم أولادها ، وفيما يتعلق بتعليم الفتاة فان حوالي نصف العينة من العائلات الريفية اعتبرته مهما ، بينما وافقت جميع العائلات الحضرية تقريبا على أهمية التعليم للفتاة . ويلاحظ كذلك أن الأب الحضري يشجع إبنه على التحصيل وعلى الاعتماد على النفس وعلى السفر إلى الخارج سواء للدراسة أو للتدريب بصورة أقوى كثيراً مما سجله الأب الريفي . وفيما يتعلق بمستقبل الأبناء نجد أن غالبية العائلات الحضرية توقعت أن الأبناء سيشغلون المراكز العالية في المجتمع ، بينما توقعت ذلك أقلية قليلة من العائلات الريفية .

---

(١) ياسين علي الكبير : التحضر والتغير الاجتماعي في الاسرة في مدينة طرابلس بليبيا ص٥ ــ ٩ .

مدى التفاعل :

يقضي الأب الحضري وقتاً أطول مع عائلته سواء في البيت أو خارجه من الوقت الذي يقضيه الريفي ، كما نجد أن الأب الحضري أكثر قرباً وإهتماما بأطفاله من الأب الريفي ، ويلاحظ انه بينما توقع الغالبية العظمى من العائلات الريفية عقاباً بدنياً على أطفالها في حالة مخالفتهم الأوامر أو إساءة السلوك نجد أن أقلية من العائلات الحضرية تستخدم هذا الأسلوب في العقاب .

وفي دراسة ثالثة لبعض العائلات الفلسطينية في الكويت نجد بعض المؤشرات عن العلاقات العائلية الحديثة في العائلة العربية ، ويتضح ذلك فيما يلي(١) :

مركز الزوجة :

إكتسبت الزوجة الفلسطينية الكثير من القوة داخل الأسرة مقارنة بوضعها في العائلة التقليدية ، فهي تلعب الآن دور الشريكة في إدارة شؤون الأسرة ولها كلمة هامة في تقرير كيفية إنفاق مصروف الأسرة الشهري وفي متابعة دراسة الأولاد ، كما أن زوجها يستشيرها كثيراً في المسائل الهامة ويحدثها عن مشاكله ، ويتوقع أن تصغى له وتخفف عنه ، وبالتالي يمكن القول أن دور الزوجة التابعة والمهملة قد اختفى تماماً في معظم الأسر الفلسطينية في الكويت .

العلاقة بين الآباء والأبناء :

تقوم هذه العلاقة أساساً على الاحترام والتفاهم ، كما أن الأهل يتوصلون إلى تنفيذ قراراتهم بالعاطفة والتفاهم أكثر منها بالسلطة الأبوية والقوة ، وقد فقد الأب أو تنازل عن سلطته شبه المطلقة على شؤون أسرته ، وهكذا تتميز العلاقات داخل معظم الأسر بقدر من الديموقراطية أكثر بكثير من التسلط والقهر ، وترتب على ذلك أن اكتسب الأبناء قوة داخل العائلة وأصبحوا يتمتعون بقدر غير قليل من الحرية في تقرير شؤونهم الذاتية كالدراسة والزواج والعمل ، وينطبق هذا الوضع على الأبناء الذكور أكثر مما ينطبق على الاناث ، فالفتاة تتمتع بحرية محدودة وتخضع لرقابة وسلطة الأسرة وتلتزم في تصرفاتها بالمحافظة على سمعتها وشرف الأسرة .

تؤيد نتائج الدراسات الميدانية السابقة أن العلاقات العائلية الحديثة في العائلة العربية أصبحت تتميز بنوع من المساواة بين الزوج والزوجة ، وبارتفاع

---

(١) باسم سرحان : العائلة والقرابة عند الفلسطينيين في الكويت ــ الحلقة الدراسية عن الأسرة والقرابة ــ منظمة تطوير العلوم الاجتماعية في الشرق الاوسط ــ الكويت ــ ١٩٧٦م ــ ص ــ ٣٠ ، ٣٢

المكانة الاجتماعية للزوجة ، ويضعف السلطة المطلقة للأب ، ويتمتع الأبناء الذكور بقدر غير قليل من الحرية وتسود العاطفة والاقناع في معاملة الآباء لأبنائهم .

ثانياً : العلاقات الخارجية لبعض العائلات العربية :

يتميز المجتمع العربي بقوة العلاقات القرابية ، ويتضح ذلك من كثرة الانماط القرابية التي تؤكد قوة العلاقات القرابية بين المواطنين العرب سواء في العائلة الأبوية الممتدة أو في العشيرة والبطن ، فالمواطن العربي شديد الالتصاق بالأقارب ، فان الزيارات بين الأقارب لا تهدأ وتتم بدون موعد وفي أي وقت ، وتنتشر ظاهرة تبادل المساعدات والمعاملات المالية بين الأقارب وخاصة إذا تعرضت إحدى العائلات لمحنة أو لظروف قاسية ، ويعيش الآباء عند الكبر مع أبنائهم ويتلقون منهم الرعاية والاحترام ، ويتولى كبار السن حل المشاكل والخلافات التي تنشأ في العائلات ويشعر المواطن العربي بالاطمئنان والعزوة عندما يسكن بالقرب من أهله .

وتبين دراسة ميدانية لعلاقات القرابة الأسرية في مجتمع الكويت بعض المؤشرات التي توضح العلاقات الخارجية للعائلة العربية المعاصرة ، ويتضح ذلك فيما يلي[١] :

التزاور بين الأسرة والأقارب :

تبين الدراسة أن الاتصال بين الأسرة والأقارب واسع النطاق في العائلة الكويتية فبلغت نسبة المشتركين في الدراسة الذين يزورون أقاربهم يومياً ٣٥٪ ، و ٤٥٪ يزورون أقاربهم أسبوعياً ، ويساعد على ذلك الجوار في السكن ، وأغلب هذه الزيارات تتم بين الأشقاء والشقيقات وبين الآباء والأبناء ثم يليهم أبناء العم أو العمة أو الخال أو الخالة ، ولوحظ أن نسبة تكرار الزيارات اليومية التي تقوم بها الاناث تكون محدودة في مقابل إرتفاع عدد المكالمات التليفونية ، ويرجع ذلك لانشغال الزوجات بشؤون المنزل .

أقارب الأسرة كشركاء في العمل :

تقوى علاقات القرابة الأسرية في مجال العمل ، إذ يشارك ٢٤٪ من المشتركين في البحث أقاربهم في أعمالهم الحرة والأغلبية من الأشقاء ، وبلغت

---

(١) فهد الثاقب : علاقات القرابة الاسرية في مجتمع الكويت المعاصر ــ الحلقة الدراسية عن الاسرة والقرابة ــ منظمة تطوير العلوم الاجتماعية في الشرق الاوسط ، الكويت ــ ١٩٧٦ ، ص٤٤ ــ ٤٧ .

نسبة من يشاركون أقاربهم في مكان العمل ١٢٪ وأغلبهم من الأشقاء والشقيقات ، ومن بين من يعملون في الحكومة يشارك ٢٧٪ أقاربهم مكان العمل وأغلبهم من الأشقاء ، ويفضل غالبية المشتركين في البحث أن يكون شريكهم في الأعمال التجارية والصناعية من الأقارب .

المساعدة المتبادلة بين أفراد الأسرة والأقارب :

تنتشر أنواع المساعدة بين الأقارب بوجه عام ، والغالبية العظمى من المبحوثين يقدمون المساعدة لأقاربهم في وقت المرض وفي رعاية الأطفال وفي الحصول على عمل ، وتنتشر عادة تبادل الهدايا بين معظم العائلات قيد الدراسة . ويمثل الأشقاء والشقيقات والآباء والأبناء المصدر الرئيسي لتقديم المساعدة في أوقات الأزمات المالية والمرض ورعاية الأطفال وفي الحصول على عمل والتشاور حول المشاكل الشخصية .

الزواج بين الأقارب :

ينتشر زواج الأقارب في المجتمع الكويتي ، وقد بينت الدراسة أن ٤٨٪ من المبحوثين متزوجون من أقاربهم ، ومن هذه النسبة ٧٩٪ متزوجون من أبناء العم وبنات العم أو العمة أو الخال أو الخالة ، وتبين الدراسة كذلك أن اقلية من المبحوثين المتعلمين أو الذين ينتمون إلى الطبقة الاجتماعية فوق المتوسطة متزوجة من الأقارب .

وتتفق النتائج السابقة مع نتائج دراسة أخرى لبعض العائلات الفلسطينية التي تعيش في الكويت ، فقد بينت الدراسة قوة صلة القرابة عند الفلسطينيين وتبرز قوة هذه الصلة من خلال الزيارات الكثيفة بين الأقارب ، ومن خلال تبادلهم المساعدة فيما بينهم وإرتفاع قيمة واجب مساعدة القريب ، ومن خلال الطريقة التي يحلون بها خلافاتهم العائلية ، ومن خلال الشعور بالاطمئنان الذي تعطيه العائلة الممتدة والأقارب للفلسطينيين ومن خلال درجة التشاور في الأمور العائلية(١) .

وهكذا فان الطابع العام للعلاقات الخارجية للعائلة العربية تتمثل في قوة صلة القرابة ، وذلك لأن أغلب هذه العلاقات تتم مع الأقارب سواء في الحياة اليومية العادية للعائلة أو في حالة تعرضها للأزمات والمحن .

---

(١) باسم سرحان : العائلة والقرابة عند الفلسطينيين في الكويت ــ ص٤٦ .

المبحث الثالث :
وظائف العائلة العربية

يتفق علماء الاجتماع على أن العائلة تؤدي العديد من الوظائف الاجتماعية والنفسية الأساسية التي تعمل على إستقرار المجتمع البشري وإستمراره عن طريق ترسيخ نظم المجتمع وقيمه الأساسية في شخصيات النشأ مما يحقق انتقال التراث الاجتماعي والثقافي من جيل الآباء إلى جيل الأبناء .

ويمكن تحديد أهم وظائف العائلة على أنها الوظيفة الجنسية والوظيفة الانجابية والوظيفة الاقتصادية ووظيفة التنشئة الاجتماعية والنفسية ووظيفة تعليم الأطفال الحرف والمهن ووظيفة الحماية ووظيفة التضامن القرابي ووظيفة الضمان الاجتماعي في حالة المرض والوفاة والعجز . وقد انتشرت تلك الوظائف بصورة عالمية في المجتمعات البشرية ، ولكن بدرجات مختلفة من القوة والضعف ، ففي المجتمعات القديمة الريفية تؤدي العائلة تلك الوظائف بفاعلية كبيرة ، بينما حدثت تغيرات أساسية في تلك الوظائف في المجتمعات الحديثة والحضرية ، وتتلخص تلك التغيرات الأساسية في تقلص غالبية تلك الوظائف وانتقالها من العائلة الى مؤسسات اجتماعية متخصصة ، بحيث أصبحت العائلة الحديثة في المجتمعات الحضرية تقوم بثلاث وظائف رئيسية هي الوظيفة الجنسية والوظيفة الانجابية ووظيفة التنشئة الاجتماعية والنفسية ، واحتلت الوظيفة الثالثة مكانا مرموقا في أبحاث علماء الاجتماع وعلماء النفس نظراً لأهميتها في تحويل الطفل من كائن بيولوجي بدون شخصية إلى عضو عامل في المجتمع يتمتع بشخصية مميزة ، ولا توجد جماعة أخرى غير العائلة تستطيع تأدية وظيفة بناء الشخصية الاجتماعية والثقافية للفرد ، سواء في المجتمعات القديمة أو الحديثة .

وفيما يتعلق بدراسة وظائف العائلة العربية يرى الباحث أهمية التفرقة في هذا المجال بين العائلة العربية الممتدة والعائلة العربية الصغيرة . وذلك للاختلافات الواضحة بين الوظائف الأساسية التي يؤديها كل نظام عائلي على حدة ولما كانت العائلة العربية الممتدة تمثل النظام العائلي الذي كان سائداً في المجتمع العربي في الماضي ، فان وظائف العائلة العربية الممتدة تمثل وظائف

العائلة العربية في الماضي ، بينما تمثل الوظائف العائلة العربية الصغيرة وظائف العائلة العربية في الحاضر ، مع ضرورة التأكيد على وجود الكثير من التداخل بين تلك الوظائف من ناحية ، والتأكيد على أن العائلة العربية الممتدة لا تزال موجودة في القرى والبوادي العربية من ناحية أخرى .

ـ وظائف العائلة العربية الممتدة :

أ ـ الوظيفة الجنسية :

تعد قيم التدين والشرف والعرض والسمعة الطيبة من أهم القيم الاسلامية والعربية التي يتمسك بها الانسان العربي ، ولذلك يعد الزواج هو الطريقة الوحيدة الذي يعترف العرب بشرعيته كوسيلة لاشباع الغريزة الجنسية عند الانسان .

وهكذا فالغاية من الزواج إشباع الغريزة الجنسية وحفظ الأعراض وحرمتها وصيانتها من الابتذال ، وحماية الانسان من القلق والاضطراب والمعصية ، ففي الزواج هدوء النفس وسكون العاطفة والبعد عن الجرائم(١) .

وتتكون العائلة العربية في جميع صورها من عقد زواج شرعي بين رجل وامرأة ، وعندما يكبر الأبناء في العائلة الممتدة يتزوج الذكور ويعيشون مع أبيهم ، بينما تنتقل الاناث بعد الزواج للمعيشة في بيوت آباء أزواجهن ، ومن خلال عقود الزواج تتكون العائلة العربية الممتدة وتنمو تدريجيا .

ب ـ الوظيفة الانجابية :

يعد الانجاب أهم مميزات الزواج ، والأولاد زينة الحياة الدنيا ، لذلك تعد الوظيفة الانجابية من أهم وظائف العائلة بصفة عامة ، وتولي العائلة العربية الممتدة أهمية كبرى لتلك الوظيفة ، فعن طريقها يتحقق وجودها ، وهو امتداد العائلة عبر الأجيال ، وتميل العائلة العربية الى كثرة الانجاب وتفضيل انجاب الذكور على الاناث ، ويرجع ذلك الى عوامل اجتماعية واقتصادية ونفسية ، فان كثرة الانجاب تزيد العائلة قوة وارتفاعا في المكانة الاجتماعية فى المجتمع المحلى ، ويمد الأبناء العائلة بالقوى العاملة التى تزيد من ثروة ودخل العائلة ، هذا بالاضافة إلى أنها تمد العائلة بجماعة من الشباب القوى الذى

---

(١) محمد عبدالسلام محمد : العلاقات الأسرية في الاسلام ، ص٣٩ ـ ٤٣ .

يدافع عن العائلة ويحميها فى حالات الاعتداء عليها من الآخرين ، ويشعر الرجل العربى بفخر وعزوة عندما يلتف حوله أولاده الذكور فى المجالس والاحتفالات وعندما يذهب للصلاة فى المسجد . وتستمد العائلة العربية الكثير من النظم الخاصة بوظيفة الانجاب من الشريعة الاسلامية التى اهتمت بالمحافظة على الأبناء وخاصة فيما يتعلق بثبوت النسب ورعايتهم . فقد حرم الشرع على الآباء أن ينكروا بنوة أبنائهم . أو يدعوا بنوة غيرهم ، ونهى الله عز وجل عن التبنى ، وأمر بأن ينسب كل واحد لأبيه ، وحرم على الأبناء أن ينتسبوا لغير آبائهم ، ولقد فطر الله نفوس الآباء والأمهات على التفانى فى حبهم ورعايتهم وتربيتهم ، ولقد أولت الشريعة الاسلامية أهمية كبرى لحقوق الأبناء على آباءهم ، بعضها قبل الحمل وبعضها أثناء الحمل وبعضها بعد الولادة ، كما أوجب الله عز وجل على الأبناء بر آبائهم ، وأمر سبحانه بمصاحبتهما بالمعروف ، حتى لو كانا كافرين ، وإن بر الوالدين والقيام على أمرهما يعدل الجهاد عند الله ، وأن عقوق الوالدين ، وعدم القيام بواجباتهما ، لهو قرين الشرك بالله(١) .

جـ - الوظيفة الاقتصادية :

تعد « العائلة الأبوية الممتدة » وهى الصورة التقليدية للعائلة العربية وحدة اقتصادية متكاملة ، ويكون الجد أو الأب هو رئيس العائلة الذى يدير وينظم كل أنشطتها الاقتصادية ، فيوزع العمل على شباب العائلة ، وينظم عمليات الزراعة والرى والحصاد والبيع والشراء ، ويقوم بالانفاق على جميع أفراد العائلة ، وإذا أراد أحد أبنائه الزواج فانه يختار له الزوجة المناسبة ويدفع نفقات الزواج ويعول عائلة إبنه فيما بعد ، وبالنسبة للعائلات التى لا تملك أرضا كافية أو لا تملك شيئا منها ، فان شبابها يعملون بالأجر ويأتون بما يكسبونه الى رئيس العائلة الذى يقوم بالانفاق منه على العائلة واستثمار ما تبقى فى صالح العائلة كلها . وطالما كان هذا الرئيس حيا فان الأبناء لا يستطيعون تكوين ثروات شخصية ، وتقوى الوظيفة الاقتصادية فى العائلة الممتدة ، بحيث تصبح الجماعة الأساسية للانتاج والاستهلاك فى المجتمع المحلى ، فأفراد العائلة جميعا يشاركون فى الانتاج والاستهلاك ، وتسود الحرف المنزلية وتسمح العادات والتقاليد باستيعاب القوى العاملة بصرف النظر عن مدى احتياج الانتاج اليها . ويشارك أفراد العائلة جميعا فى استهلاك الناتج الكلي بالتساوى

---

(١) انظر محمد عبد السلام محمد : العلاقات الاسرية في الاسلام . من ص ١٩٤ ـ ١٩٥ و ١٩٧ ـ ٢٠٩ .

بصرف النظر عن مدى مساهمة كل منهم فى الانتاج ، ولذا يعتبر الأجر فى المزارع العائلية من قبل النفقات الثابتة ، يأخذه العامل ، بصفته عضواً فى العائلة ، سواء عمل أو لم يعمل لسبب أو لآخر ، ويتميز نظام تقسيم العمل فى الأعمال الاقتصادية التى يقوم بها أعضاء العائلة الممتدة بالبساطة وعدم التخصص الدقيق ، وغياب المبادىء العلمية الفنية للانتاج الحديث ، فنلاحظ ان الرجال يقومون ببعض العمليات الزراعية والرعوية ويقوم النساء والاطفال بالبعض الآخر ، وكثيراً مايشترك الرجال والنساء والأطفال فى تلك العمليات الانتاجية البسيطة . وتتميز هذه الوظيفة الاقتصادية للعائلة العربية الممتدة بضآلة الفائض فى الانتاج ، ويتمثل ذلك الفائض فى كميات ضئيلة من الحبوب والدواجن والمواشى والمنتجات المنزلية مثل الجبن والسمن ، ويستخدم بعض ذلك الفائض فى تبادله بسلع أخرى ، تحتاج اليها العائلة الممتدة فى سوق القرية أو سوق المدينة القريبة ، ويقدم بقية الفائض كهبات وهدايا للأقارب والجيران فى القرية . وهكذا فان تلك الوظيفة الاقتصادية للعائلة الممتدة لا تتلاءم مع المجتمعات التى تدخل فى طريق التنمية الاقتصادية والنمو الصناعى ، فتمثل هذه الوظيفة الاقتصادية قيداً على الحوافز الانتاجية وعلى الادخار والاستثمار وعلى نظام تقسيم العمل القائم على أساس التخصص(١) . ويفسر لنا هذا التحليل انهيار هذه الوظيفة الاقتصادية للعائلة الممتدة عندما انقسمت تلك العائلة الممتدة الى عائلات صغيرة وهاجرت الى المدن حيث يسود فيها المؤسسات الاقتصادية الحديثة خارج نطاق العائلة .

د . وظيفة التنشئة الاجتماعية والثقافية للأطفال :

يولد الطفل وهو كائن غاية في الضعف ، فهو أضعف الكائنات جميعا وأحوجها للرعاية الخارجية التى تساعده على الحياة ، ويحتاج الطفل الى رعاية تستغرق سنين طويلة حتى يصل إلى حالة الاعتماد على النفس والاستقلال عن أسرته ، ومن الثابت ان طفولة الفرد الانسانى أطول من طفولة أى مخلوق آخر ، وترتب على ذلك أهمية الوظيفة التى تمارسها العائلة باختلاف أشكالها فى تشكيل الطفل إجتماعيا وتعديل سلوكه الفكرى بحيث يصبح عضوا عاملا فى المجتمع الذى ينتمى اليه .

تقوم العائلة العربية الممتدة بهذه الوظيفة الهامة من خلال عناية الأم

(١) عمرو محيى الدين : التنمية والتخطيط الاقتصادي ــ دار النهضة العربية ــ بيروت ١٩٧٧ ــ ص ٩٧ ــ ١٤٥

بالطفل منذ مولده فيما يتعلق برضاعته وتدريبه على النظافة والنظام ، ويشارك الأب وبعض أفراد العائلة مثل الجد أو العم أو الاخوة أو العمات فى تربية الطفل الجديد فى العائلة ، وتسير عملية التنشئة الاجتماعية النفسية من خلال عدد كبير من الأفراد فى العائلة الممتدة ، فيقومون بتلقين الطفل اللغة واللهجة المحلية وآداب السلوك ومبادىء الاسلام والعادات والتقاليد والقيم السائدة فى المجتمع المحلى ، وهكذا تنتقل الثقافة الفرعية والنظام الاجتماعى من الآباء الى الأبناء من خلال عملية التنشئة الاجتماعية والنفسية . ان الطابع المميز لتلك العملية فى العائلة الممتدة هو كثرة الأفراد الذين يقومون بها ، فقد يرتبط الطفل عاطفيا بجده أو بعمه بصورة أقوى من والد الطفل ، وكذلك الحال بالنسبة للأم ، فان الطفل فى العائلة الممتدة قد يرتبط عاطفيا بجدته أو عمته بصورة أقوى من ارتباطه بوالدته الحقيقية للسبب نفسه .

يعيش الطفل العربى في العائلة الممتدة مع عدد كبير من الأطفال من اخوته وأبناء عمومته ، بحيث يصعب تمتعه بالرعاية المكثفة من الأم والأب ــ وهى تلك الرعاية التى يتمتع بها الطفل العربى فى العائلة الصغيرة ــ ويصعب فى مثل هذا الأسلوب الجماعى فى التنشئة الاجتماعية تأصيل قيم المبادأة والاستقلال الفردى والمغامرة والتجديد ، اذ يساعد ذلك النمط فى التنشئة الاجتماعية على ترسيخ اتجاهات التبعية والسلبية والتواكل والخوف من التجديد .

هـ ـ تعليم الحرف والمهن :

كانت العائلة العربية الممتدة الى عهد قريب هى المكان الوحيد التى تعلم الأبناء حرف ومهن الآباء والأجداد ، ولذلك كان من النادر حدوث أي حراك مهنى بين الأجيال المتعاقبة ، فأبناء الفلاح يتعلمون عن أبيهم حرفة الفلاحة ، وكذلك الحال فى الرعى وصيد السمك والحدادة والنجارة ، ولاتزال العائلة العربية الممتدة ، تقوم بتلك الوظيفة الهامة فى القرى والبوادى العربية حيث لا توجد المدارس والمعاهد والجامعات التى تعلم الشباب الفنون الانتاجية الحديثة والمهن الفنية المتخصصة .

و ـ وظيفة الحماية والضمان الاجتماعي :

تلعب العائلة الممتدة دوراً هاماً في حماية أعضائها في المجتمعات الريفية التي تضعف فيها أجهزة الأمن ، ولا شك أن هذه الوظيفة كانت أكثر فاعلية في

الماضي عندما لم تكن أجهزة الأمن القوية متواجدة في القرى الزراعية والبوادي العربية ، لذلك كانت العائلة الممتدة تعتمد على شبابها في حمايتها في حالات الخطر ، وكان يتعاون شباب العائلات الممتدة في القرية الواحدة للذود عنها من هجمات اللصوص والقرى المجاورة في حالات المنازعات والصراع .

وتقدم العائلة الممتدة نوعاً من الضمان الاجتماعي لأفراد العائلة من كبار السن والمرضى والعاجزين عن العمل ، وذلك عن طريق المشاركة الجماعية في الاستهلاك ، ويمتد هذا الضمان الاجتماعي الى حالات البطالة التي قد يتعرض لها أحد أعضاء العائلة الممتدة ، فان الأهل يسارعون بتقديم العون له ولأسرته وتوفير أسباب الحياة لهم ، وتستمر العائلة الممتدة في تأدية وظيفة الضمان الاجتماعي ففي حالة وفاة أحد أعضائها المتزوجين فان جميع أفراد العائلة يتعاونون في رعاية زوجة وأطفال المتوفى ، وفي حالة المرض يسارع أعضاء العائلة الممتدة بتقديم العون ويتعاونون في رعاية المريض حتى يشفى ، هكذا كان التضامن القرابي يصل إلى أقوى صورة في العائلة الممتدة العربية ، بحيث يشعر الجميع بالأمان والسكينة ولا يخافون مخاطر الحياة من مرض أو وفاة أو اعتداء .

٢ ـ وظائف العائلة الصغيرة :

واكب إنتشار نظام العائلة الصغيرة العربية عملية التوسع الحضري السريع وإنتشار نظام الدولة العصرية ، وترتب على ذلك أن تقلصت وتغيرت كثيراً وظائف العائلة الممتدة ـ سابقة الذكر ـ في العائلة الصغيرة ، ويرجع ذلك أساسا الى ظهور مؤسسات جديدة متخصصة تقوم بتلك الوظائف خارج نطاق العائلة . فقد تقلصت الوظيفة الاقتصادية المتمثلة في الانتاج والاستهلاك في العائلة الممتدة الى الاستهلاك فقط في العائلة الصغيرة ، فقد ظهرت المصانع والشركات والمتاجر التي تتخصص في إنتاج كل ما تحتاج اليه العائلة الصغيرة من المنتجات الغذائية والملابس والأدوات والأثاث ، بحيث أصبحت الوظيفة الاقتصادية في العائلة الصغيرة تقتصر على طهي الطعام واستهلاك المنتجات والسلع التي تعرضها المؤسسات الاقتصادية المتخصصة . وأصبح الزوج يكسب عيشه ، ليس عن طريق العمل في ممتلكات العائلة ـ وإنما عن طريق العمل في المؤسسات الحكومية أو الأهلية التي تضم أعدادا هائلة من العاملين الذين لا يرتبطون بروابط القرابة أو النشأة في قرية واحدة . وفيما يتعلق بأعمال

ربة البيت في العائلة الصغيرة ، فانها اختلفت في مجالاتها عن أعمال ربة البيت في العائلة الممتدة ، ولكنها لا تزال تتطلب مجهودا كبيرا ووقتا طويلا ، فمثلا إذا قلنا ان الزوجة الحديثة لم تعد تقوم بالعجين والخبز وصناعة السمن والجبن ، فانها لا تزال تقوم بالطبخ وغسيل الصحون ومسح الأتربة وتنظيف الأرضية والخياطة والكي ورعاية الأطفال ، هذا بالاضافة الى توزيع ميزانية الأسرة على أبواب المسكن والملبس والطعام والترفيه والعلاج . ولا شك أن الأجهزة المنزلية الحديثة مثل الفرن والثلاجة الكهربائية قد ساعدت ربة العائلة الصغيرة المتيسرة الحال على توفير الجهد والوقت في القيام بواجباتها المنزلية .

ولا تزال تنتشر في المجتمع العربي ظاهرة عدم اشتغال المرأة خارج البيت إذ أن عملها الوحيد يقتصر على أن تكون ربة بيت ، ولكن بالرغم من ذلك ، فان ظاهرة عمل المرأة العربية خارج المنزل ، ومشاركتها في ميزانية العائلة قد أصبحت حقيقة واقعة في العصر الحاضر ، وفي العائلة الصغيرة على وجه الخصوص ، وأخذت ظاهرة عمل المرأة العربية في الانتشار بدرجات متفاوتة في المجتمع العربي ، وتعمل المرأة العربية في المجالات التي تتفق مع طبيعتها وطاقتها وهي التعليم والطب وأعمال السكرتارية ، ويجب ملاحظة ان ظاهرة عمل المرأة العربية تتعلق بنسبة ضئيلة جداً من النساء العربيات ، أما الغالبية العظمى فهن ربات بيوت . ويتضح ذلك من الجدول رقم (٢) الذي يبين النسب المئوية المرتفعة للمرأة العاملة في الدول الغربية بينما تنخفض تلك النسب المئوية في الدول العربية . وهنا يجب ملاحظة أن هذه الاحصاءات لا تأخذ في الاعتبار الأعمال الشاقة التي تقوم بها غالبية النساء العربيات في القرى والبوادي ، ومنها على سبيل المثال الزراعة والرعي وصناعة السلال والأبسطة .

ويمكن ملاحظة تقلص وظائف العائلة الممتدة بصورة أقوى فيما يتعلق بوظيفة تعليم الحرف والمهن ، فقد اختفت تقريبا في العائلة الصغيرة هذه الوظيفة ، وانتقلت من العائلة الى الدولة في المجتمع الحضري ، وتهتم الدولة الحديثة بالتعليم عن طريق انشاء الأعداد الهائلة من المدارس ذات المستويات المختلفة ، التي تمد المجتمع بالكوادر الفنية للحرف والمهن القائمة على أساس التخصص الدقيق . وأصبح الصبية يتعلمون الحرف في الورش والمتاجر التي يمتلكها أفراد لا تربطهم بهم أية علاقات قرابية ، وساعدت تلك التغيرات الاجتماعية الكبرى في المجتمعات الحضرية على تنشيط عملية الحراك المهني في

العائلة الصغيرة العربية ، بحيث نلاحظ أن الأبناء يعملون في مهن وحرف تختلف تماما عن حرف ومهن آبائهم ، وأصبح هناك تنوع واضح بين وظائف أبناء العائلة الواحدة .

وتستمر عملية تقلص وظائف العائلة الصغيرة في فاعليتها فيما يتعلق بوظيفة الحماية والضمان الاجتماعي ، فقد انتشرت أجهزة الأمن والشرطة في جميع المدن والقرى العربية ، وتقوم تلك الأجهزة بتوفير الحماية الكاملة لجميع أفراد العائلة الصغيرة ، وفي حالة حدوث جريمة ما ، مثل السرقة أو الاعتداء ، فان المواطن لا يستطيع معاقبة المجرم بنفسه ، أو بمعاونة أقاربه ، وإنما عليه أن يترك الأمر كلية إلى الأجهزة الأمنية والقضائية المتخصصة ولا يسمح له بمحاولة التدخل أو مشاركتها في تأدية وظائفها .

جدول رقم (٢)

النسب المئوية للمرأة العاملة في بعض الاقطار العربية والدول الغربية عام ١٩٧٧(١)

دول عربية	النسبة المئوية للمرأة العاملة	دول غربية	النسبة المئوية للمرأة العاملة
مصر	٤,٨٪	رومانيا	٤٨,١٪
تونس	١٢,٥٪	اليابان	٣٩٪
سوريا	١٠٪	فرنسا	٣٠,١٪
المغرب	٨٪	روسيا	٤٧,١٪
السودان	٧٪	سويسرا	٣٣,٤٪
الكويت	٢٪	بريطانيا	٣٢٪

(١) احمد طه محمد : المرأة المصرية بين الماضي والحاضر ـ مطبعة دار التأليف القاهرة ١٩٧٩ ـ ص١٦٩ .

وتهتم الدولة العصرية من خلال التأمينات الاجتماعية بتوفير الضمان الاجتماعي للعائلة الصغيرة في حالة العجز أو الشيخوخة أو المرض أو الوفاة ، وكذلك الحال فيما يتعلق باقامة المستشفيات والعيادات الطبية التي تتولى علاج ورعاية المواطنين في حالة المرض .

وهكذا تقلصت وظائف العائلة الصغيرة الى ثلاث وظائف أساسية وهي الوظيفة الجنسية والوظيفة الانجابية ووظيفة التنشئة الاجتماعية النفسية وبرزت أهمية وظيفة التنشئة الاجتماعية للعائلة الصغيرة في المجتمع الحديث ولا توجد مؤسسة اجتماعية أخرى تستطيع تأدية تلك الوظيفة الهامة بنفس الكفاءة ، فان دور الحضانة التي تستقبل الأطفال في سن مبكرة لا يمكن أن تحل مكان العائلة الصغيرة في وظيفة بناء الشخصية الاجتماعية النفسية للفرد ، وما تتضمن تلك الوظيفة من وظائف فرعية تتمثل في التربية العاطفية للفرد وتشكيل الشخصية السوية التي تساعده على التكيف مع المجتمع العصري وما يحتويه من علاقات اجتماعية معقدة ومن أزمات وتوترات نفسية متعاقبة .

تضفي العلوم الاجتماعية والنفسية والانثربولوجية الحديثة أهمية كبيرة لدور العائلة الصغيرة في تشكيل شخصية الفرد وخاصة المستويات العميقة التي تتكون في مرحلة الطفولة بالذات في الفترة من السنة الأولى إلى السنة الخامسة من عمر الطفل ، وهكذا فان العلاقات الاجتماعية المتفاعلة بين أعضاء العائلة الصغيرة ، أي بين الطفل ووالديه وإخوته ، تقدم أهم محددات شخصيته . ولا يعني ذلك ان المراحل التالية من حياة الفرد لا تضيف إلى شخصيته وإلى طباعه شيئا حاسما ، وذلك لأن عملية التنشئة الاجتماعية تستمر في فاعليتها في كل خطوة يخطوها الطفل خارج نطاق العائلة الصغيرة سواء مع جماعة اللعب أو في الجيرة أو في المدرسة ، وتستمر عملية التعليم واكتساب الخبرات الجديدة مع تقدم الفرد في العمر من مرحلة الصبا الى الشباب ثم الى الكهولة . ولكن يظل تأثير العائلة الصغيرة في تشكيل شخصية الفرد في مرحلة الطفولة المبكرة هو الأقوى تأثيراً في جميع المراحل السابقة .

وتبين دراسات علم النفس الاجتماعي والانثربولوجيا النفسيـة ان العلاقات الأساسية داخل العائلة الصغيرة ، تتم على المستوى العاطفي بصورة خاصة ، فالطفل يكتسب الاحساس بالأمان إزاء نفسه وإزاء العالم وإزاء الأطفال والكبار المحيطين به من خلال احساسه بالانتماء الى جماعة صغيرة

تخلع عليه الاحساس بالأمن ، وهذه الجماعة الصغيرة هي العائلة الصغيرة . وتهتم الدراسات العلمية كذلك بموضوع ارتباط الأطفال بالأب والأم اللذين يختلف دورهما عن بعضهما اختلافا كبيرا ، فالأب يقوم بالأدوار العملية ، بينما تركز الأم على الأدوار العاطفية ، وبالتالي يتدرب الطفل على الأدوار العملية والأدوار العاطفية من خلال علاقاته مع الأب والأم . وعالجت الدراسات الحديثة موضوع ترتيب الأطفال داخل العائلة الصغيرة ، وكيف يستحوز الطفل الأول على إهتمام الوالدين من الرعاية والتدليل بصورة لا تتكرر بنفس الدرجة لدى الطفل الثاني والطفل الثالث ومن يليهم(١) . وتولي العائلة العربية الصغيرة إهتماما كبيرا بالطفل الأول « البكري » وكذلك تولي اهتماما كبيرا بالأطفال الذكور بصورة أكبر مما توليه الاناث .

ان ميلاد طفل في العائلة العربية مناسبة للاحتفالات وخاصة اذا كان المولود ذكراً ، فان الذكور مفضلون في جميع أجزاء المجتمع العربي . وتربى الغالبية العظمى من العرب أطفالها تبعاً لتصورات تقليدية ، فمعظم العرب ينشئون أطفالهم على نمط التنشئة الاجتماعية الذي نشأوا هم عليه ، وبالرغم من أن الصفوة المتعلمة من العرب لا تطبق هذا النمط ، فان الغالبية العظمى من العرب تعتبر الاستعانة بالكتب لتنشئة الطفل أمراً غريباً ، فهم يريدون أن يسلكوا طريق آبائهم ، ويتمثل هذا الطريق في أن يعيش الأطفال في رعاية نساء البيت ، أما الرجال والأبناء الكبار فلا يعيرون الأطفال عناية تذكر . ويرضع الأطفال كلما بكوا ، أكثر مما يخضعون لمواعيد منتظمة في الرضاعة ، ويفطم معظم الأطفال بعد عام ، إلا أن كثيرا منهم لا يفطمون قبل مرور سنتين ، وبعضهم يفطمون بعد فترة أطول ، أما أمور التبول وما اليه فهي مسموح بها ، إذ لا يحاول الآباء تعليم أطفالهم كيفية التحكم الا عندما يصبح الطفل قادراً على التحكم في عضلاته . ولا يعطي الآباء عناية كبيرة الى الأطفال والصبية حين يكونون قادرين على القيام وحدهم ببعض الشؤون إذ يتعلم الأطفال من أشقائهم وشقيقاتهم ويبدأون في التجمع في جماعات لعب داخل وخارج المنزل ، وفي المرحلة المتأخرة على ذلك يبدأ الأبوان في تعليم الأطفال والفتيات أدوارهم في الحياة وتقوم بهذه الوظيفة في المدن المدارس الحديثة والمعاهد والجامعات ، أما في القرى والبوادي الصحراوية ، فما زالت الأم هي التي تعلم الابنة الشؤون

---

(١) علياء شكري : الاتجاهات المعاصرة في دراسة الاسرة ـ دار المعارف ١٩٧٩ ص٢٤٧ ـ ٢٥٥ .

المنزلية والأب هو الذي يصحب ابنه معه في عمله ويعلمه الرعي أو الزراعة أو التجارة ، وفي القرى يذهب الطفل الى المدارس الابتدائية التي أصبحت تنتشر اليوم في غالبية قرى وواحات المجتمع العربي ، وهناك يتعلم الأطفال مبادىء الاسلام ومبادىء القراءة والكتابة . وما أن يصل الفتى والفتاة الى سن الرشد حتى يبدآن في حمل أعباء الكبار ، فيما عدا أبناء الطبقتين الوسطى والعليا في المدن العربية ، فهم يستكملون دراستهم في المدارس الثانوية وفي الجامعات ، وأخذ هذا الاتجاه نحو التعليم العالي ينتشر بصور متفاوتة في القرى والطبقات الشعبية في المدن . ويعني النضج بالنسبة للفتاة العربية مزيدا من القيود على الطريقة التي ترتدي بها ملابسها والطريقة التي تتصرف بها في الأماكن العامة ، ويهتم الآباء بمتابعة الأبناء في المواظبة على تأدية الصلاة في مواعيدها .

وقد لوحظ أنه بينما يكون الطفل العربي معتداً بنفسه في فترة الطفولة ؛ فان الشباب العربي يتصف بالتهيب والتخوف والتشكك . وفي سن النضج يصبح الفتية أقل خضوعا للقيود ويتمتعون بحرية واسعة متى بلغوا سن الرجولة ، الا أن الفتيات يخضعن لهذه القيود اذا ما بلغن سن النضج ، ولا يتمتعن ببعض الحرية إلى أن يتزوجن ويصبحن أمهات وربات بيوت . ويلاحظ أن الآباء العرب يدفعون بأبنائهم الى أن يصبحوا قريبين من الصفات المثالية وهي التدين وحسن الخلق واحترام كبار السن والتواضع والطاعة ، وتتلخص تلك الصفات في صفة عامة واحدة وهي أن يكون الطفل مؤدباً ، ومن خصائص عملية التنشئة الاجتماعية العربية انها تجعل الاطفال يصلون الى مرحلة الرجولة مبكرا(١) .

واليوم بدأت المدارس تأخذ دورها في معاونة العائلة العربية في ترشيد أساليب التنشئة الاجتماعية للأطفال العرب ، ولكن لا يزال هذا المجال الحيوي يفتقر الى الدراسات العلمية المتخصصة التي تساعد على تطوير هذه الأساليب وتخليصها من العادات والخرافات الضارة التي تنتشر في القرى والبوادي العربية بصورة خاصة ، ومن أمثلة ذلك تخويف الأطفال بالحكايات المرعبة والمتعلقة بكائنات شريرة مثل العفاريت والغول وما الى ذلك .

---

(١) مورو بيرجر : العالم العربي اليوم (ترجمة محيى الدين محمد) ، دار مجلة شعر ـ بيروت ١٩٦٣ ـ ص١٢٦ ـ ١٣١ .

بدأت الأجهزة العلمية والاعلامية الحديثة في المجتمع العربي بمعاونة العائلة الصغيرة في تأدية وظيفتها الهامة في التنشئة الاجتماعية والثقافية للطفل العربي بأسلوب أفضل يتفق مع ما أحرزته العلوم المتخصصة من تقدم في هذا المجال ، ومن أمثلة ذلك الاهتمام بالطفل في الاذاعة والتلفزيون ، والاهتمام بنشر كتب الأطفال ، واستيراد وصناعة ألعاب الأطفال بكميات ضخمة ، وبناء مسارح الأطفال واقامة الحدائق والنوادي في جميع المدن العربية .

وإذا أضفنا الى تلك الانجازات ، إرتفاع المستوى التعليمي والثقافي للشباب العربي ، فانه يمكن توقع زيادة كفاءة العائلة العربية الصغيرة في تأدية وظيفة التنشئة الاجتماعية النفسية للطفل العربي ، بحيث تنجح في تأصيل قيم جديدة هامة في شخصية المواطن العربي مثل قيم الابداع والتجديد والاستقلال واحترام الرأي الآخر .

الفصـــل السابع

المقومات الاقتصادية للمجتمع العربي

أ.د. سيد نميري
رئيس قسم الاقتصاد

المحتـويات

المطلب الاول : التخلف والتنمية في المجتمع العربي
اولا : خصائص التخلف في المجتمع العربي
ثانيا : عقبات التنمية الاقتصادية العربية .

المطلب الثاني : نحو استراتيجية عربية للتنمية الشاملة .
اولا : ضرورة وحتمية التكامل الاقتصادي العربي .
ثانيا : الواقع العربي للتكامل الاقتصادي .

المطلب الاول :
التخلف والتنمية في المجتمع العربي

اولا : خصائص التخلف في المجتمع العربي :

درج الاقتصاديون على تعريف البلاد المتخلفة اقتصاديا بانها تلك البلاد التي ينخفض فيها مستوى المعيشة بالقياس الى مستويات المعيشة السائدة في امريكا الشمالية واوروبا الغربية والتي تتميز ايضا بتخلف اساليب الانتاج السائدة فيها . واما المؤشرات الاقتصادية التي استقر الرأي على استخدامها لقياس مستوى التخلف (او النمو الاقتصادي) فتشمل بجانب معيار مستوى دخل الفرد (وهو اكثر المقاييس قبولا بالرغم من عيوبه الكثيرة) نسبة الافراد العاملين بالزراعة (او الصناعة) ونصيب الفرد من استهلاك الحديد والصلب والقوى المحركة ، ومدى تطبيق الاساليب الحديثة في الزراعة والتعدين والتصنيع ، ثم درجة التحرر الاقتصادي (او التبعية الاقتصادية للخارج) .

وعند النظر بامعان الى خصائص الاقتصاد العربي يتضح لنا بان العالم العربي في مجموعه يعتبر من الاقاليم التي تنطبق عليها عبارة « التخلف الاقتصادي » ولكن صفة التخلف هذه ليست مطلقة وشاملة وذلك لأن بعض اجزاء هذا الوطن قد تمكنت الى حد ما من التغلب عليها وهي في سبيل الانطلاق نحو الرخاء والتقدم الاقتصادي .

ثم ان التخلف ليس وليد قوى كامنة في الوطن العربي ولكنه من تراث الماضي[١] اذ يرجع التخلف الى الركود الذي اصاب المنطقة العربية ابان الحكم العثماني الطويل ثم الاستعمار الغربي الذي حول المنطقة الى مكان لانتاج المواد الاولية الزراعية والمعدنية اللازمة لتطوره الصناعي .

يتميز العالم العربي بالخصائص الاقتصادية التالية :

اولا : انخفاض مستوى الدخل الكلي ونصيب مستوى دخل الفرد منه : فبينما نجد ان مساحة العالم العربي تساوي عشر مساحة العالم وسكانه يبلغون ٣,٤٪ من سكان العالم ، لا يتجاوز الدخل الكلي ١,١٪ فقط من الدخل

(١) دكتور راشد البراوي : اقتصاديات العالم العربي . مكتبة النهضة المصرية ـ القاهرة ، ١٩٧٣ ، ص : ٩ ـ ١١ .

العالمي . وفي عام ١٩٧٦ قدر عدد السكان في العالم العربي بنحو ١٤٥ مليون نسمة والناتج القومي الاجمالي للبلدان العربية في تلك السنة بنحو ١٦١ بليون دولار وهو يقل عن الناتج القومي لايطاليا مثلا والذي بلغ في نفس العام نحو ١٧٠ بليون دولار . واما دخل الفرد العربي فيبلغ نحو ٦٪ فقط من دخل الفرد الامريكي ونحو نصف دخل الفرد في امريكا اللاتينية .

ثانيا : الظاهرة الثانية التي تلفت النظر هي ذلك التباين الكبير في توزيع الدخول بين دول المنطقة العربية ، فهناك من الدول العربية ما يزيد دخل الفرد فيه عن الدخل السائد في امريكا واوروبا (الكويت والامارات المتحدة يزيد عن ١٤ الف دولار) بينما نجد في المنطقة دولا من اكثر دول العالم فقرا (الصومال لا يزيد دخل الفرد فيها كثيرا عن مائة دولار) .

وبامعان النظر في الجدول رقم (١) الذي يوضح ترتيب البلدان العربية على اساس معدل دخل الفرد ، يتضح التباين الهائل في دخل الفرد على مستوى المنطقة . يلاحظ ان دخل الفرد في الثلاثة اقطار الموضحة في نهاية قائمة الجدول رقم (١) « قطر والامارات والكويت » يفوق مثيله في اي بلد صناعي في العالم ، في حين حققت ستة بلدان (الموضحة في اول القائمة) عربية دخلا فرديا يقل عن ٣٤٠ دولارا في العام الامر الذي من شأنه ان يضع هذه البلدان في آخر قائمة البلدان النامية .

والقضية لا تقف عند حدود الاختلاف الشاسع في مستويات المعيشة بين البلاد العربية الغنية والبلاد العربية الفقيرة ، بل نجد ان الفجوة الاقتصادية الفاصلة بينهما تتسع بمرور الزمن ، واذا كان الهدف من التنمية الاقتصادية في الوطن العربي ، هو رفع مستوى المعيشة للفرد العربي اينما كان موقعه فان من الواجب تفهم هذه الظاهرة ونحن نبحث عن اسلوب التنمية الاقتصادية العربية الذي يحقق قدرا متكافئا من الرخاء للمواطن العربي في كل مكان[١] .

ثالثا : ومن الخصائص الاقتصادية للوطن العربي اعتماد الاقتصاد العربي على انتاج وتصدير المواد الاولية وطبقا لنظرية كولين كلارك فان سيادة القطاع

(١) الدكتور محمد محمود الامام : « النمو الاقتصادي ومؤشراته في العالم العربي » محاضرات الموسم الثقافي الاول يوليو ـ اكتوبر ١٩٧٧ ، الامانة العامة ، جامعة الدول العربية .

او النشاط الاولى (الزراعة والانشطة الاستخراجية) مظهر من مظاهر التخلف الاقتصادي اذ تزداد الاهمية النسبية للقطاع الثاني (الصناعة) والقطاع الثالث (الخدمات) مع تقدم المجتمع . وبامعان النظر في اقتصاديات الوطن العربي نجد انه ينقسم الى ثلاث مجموعات رئيسية :

دول نفطية يمثل النفط فيها اكثر من ٩٠٪ من قيمة صادراتها كالكويت والسعودية والامارات المتحدة وليبيا وقطر والبحرين وعمان .

ودول زراعية يعتمد اقتصادها على تصدير المنتجات الزراعية كمصر والسودان واليمن بشطريه ، وموريتانيا والمغرب والاردن وسوريا وتونس .

ودول يعتمد نشاطها على تصدير النفط والمواد الاولية الزراعية معا كالعراق والجزائر « انظر الجدول رقم (٢) » .

رابعا : ومن خصائص الاقتصاد العربي ضآلة دور الصناعة في الاقتصاد القومي . من المؤشرات التي تعكس انخفاض اهمية الصناعة استهلاك الفرد العربي من الطاقة والحديد والصلب حيث لا يتجاوز نصيبه من الطاقة ٣٪ من المستوى الامريكي ولا يتجاوز نصيبه من الحديد والصلب ٥٪ من نصيب الفرد الامريكي . وبالرغم من التطور الصناعي الكبير الذي حدث في مصر والاردن وسوريا وتونس لم يبلغ اي قطر عربي حتى الآن مرحلة التصنيع الذي يصبح فيها القطاع الصناعي القوة المحركة لنمو اقتصادي سريع . والصناعة العربية لم تصل بعد الى درجة كافية من الكفاءة ولم تثبت وجودها في الاسواق العالمية كما تتميز الصناعة العربية بسيادة الصناعات الاستهلاكية الخفيفة كصناعات الغزل والنسيج والصناعات الغذائية وصناعات مواد البناء . كما تتميز بسيادة المؤسسات الصغيرة وبدائية اساليب الانتاج ، وقلة رأس المال المستخدم ونقص الايدي العاملة المدربة الفنية ، ومحدودية نطاق السوق المحلي وعدم قدرته على استيعاب فائض الانتاج ، وارتفاع تكاليف الانتاج التي تجعلها لم تحقق نجاحا بارزا في التصدي للمنافسة الاجنبية في اسواق التصدير . وبما انها لا تقوى على المنافسة الاجنبية محليا فانها تستخدم الحماية الجمركية على اوسع نطاق .

خامسا : ومن خصائص الاقتصاد العربي الاعتماد على محصول او ناتج رئيسي واحد وتتمثل الصادرات اساسا في الخامات الزراعية والاستخراجية اذ تعتمد الدول النفطية في صادراتها بصفة اساسية على تصدير النفط الخام واما الدول الزراعية فتعتمد على تصدير محصول (او محصولين) رئيسي واحد كالقطن او القمح .

جدول رقم (١)
عدد السكان واجمالي الناتج القومي ونصيب الفرد منه في الوطن العربي ـ ١٩٧٦

القطـر	عدد السكان (مليون نسمة)	معدل الدخل القومي للفرد الواحد (دولار)	اجمالي الناتج القومي (مليون دولار)
الصومال	٣,٣	١١٠	٣٦٣
الجمهورية العربية اليمنية	٦,٠	٢٥٠	١٥٠٠
مصـر	٣٨,١	٢٨٠	١٠٦٦٨
اليمن الديموقراطية	١,٧	٢٨٠	٤٧٦
السودان	١٥,٩	٢٩٠	٤٦١١
موريتانيا	١,٤	٣٤٠	٤٧٦
المغرب	١٧,٢	٥٤٠	٩٢٨٨
الاردن	٢,٨	٦١٠	١٧٠٨
سوريا	٧,٧	٧٨٠	٦٠٠٦
تونس	٥,٧	٨٤٠	٤٧٨٨
الجزائر	١٦,٢	٩٩٠	١٦٠٣٨
لبـنان	٣,٢	١٠٨٠	٣٤٥٦
العراق	١١,٥	١٣٩٠	١٥٩٨٥
البحرين	٠,٣	٢١٤٠	٦٤٣
عمـان	٠,٨	٢٦٨٠	٢١٤٤
السعودية	٨,٦	٤٤٨٠	٣٨٥٣٨
ليبيا	٢,٥	٦٣١٠	١٥٧٧٥
قطر	٠,٢	١١٤٠٠	٢٢٨٠
الامارات العربية المتحدة	٠,٧	١٣٩٩٠	٩٧٩٣
الكويت	١,١	١٥٤٨٠	١٧٠٣٨

المصدر : تقرير عن التنمية في العالم ، البنك الدولي ، ١٩٧٨م .

جدول رقم (٢)
الاهمية النسبية للقطاعات الاقتصادية في الناتج المحلي الاجمالي في البلدان العربية ١٩٧٨م (٪)

الدولة	الزراعة	الصناعة الاستخراجية والتحويلية	الصناعة التحويلية فقط	الخدمات	الناتج المحلي الاجمالي
الصومال	٦٠	١١	(٧)	٢٩	١٠٠
موريتانيا	٢٦	٣٧	(١١)	٣٧	١٠٠
السودان	٤٣	١٢	(٦)	٤٥	١٠٠
مصر	٢٩	٣٠	(٢٥)	٤١	١٠٠
اليمن الجنوبية	٢٤	٧	..	٦٩	١٠٠
اليمن الشمالية	٣٥	١٤	(٦)	٥١	١٠٠
المغرب	١٨	٣٢	(١٧)	٥٠	١٠٠
سوريا	٢٠	٢٨	(٢١)	٥٢	١٠٠
تونس	١٨	٣٠	(١٢)	٥٢	١٠٠
الاردن	١١	٢٩	(١٦)	٦٠	١٠٠
لبنان	..	..	..	..	
الجزائر	٨	٥٦	(١٢)	٣٦	١٠٠
العراق	٨	٥٩	(٧)	٢٣	١٠٠
ليبيا	٢	٧١	(٣)	٢٧	١٠٠
السعودية	١	٧٦	(٥)	٢٣	١٠٠
الكويت	(٠)	٧٢	(٧)	٢٨	١٠٠
الدول الصناعية	٤	٣٧	(٢٧)	٥٩	١٠٠

المصدر : تقرير عن التنمية في العالم . البنك الدولي ، ١٩٧٩م .

وغني عن القول بأن تصدير المواد الاولية يجعل الدول المصدرة لها تحت رحمة الدول المصنعة لها ويحرمها من القيمة المضافة التي يوفرها لها التصنيع ، كما يتميز السوق الدولي للمنتجات الاولية بالتقلبات قصيرة المدى في الاسعار والكميات المصدرة والتي تؤدي بدورها الى تقلبات في حصيلة الصادرات وفي مستوى الناتج القومي . اما في المدى الطويل فيؤدي الاعتماد على انتاج وتصدير السلع الاولية إلى تحرك معدل التبادل التجاري (ويعرف بحاصل قسمة اسعار الصادرات على اسعار الواردات) ضد الدول المنتجة للمواد الاولية (ما عدا البترول) مما يؤدي الى انخفاض معدل الزيادة في الصادرات الذي يؤدي بدوره الى العجز المزمن في ميزان المدفوعات .

وهذا ما حدث فعلا للدول العربية المصدرة للمواد الاولية الزراعية ، حيث تعثرت برامج التنمية عندها جميعا وبلا استثناء وتفاقم العجز في موازين مدفوعاتها .

سادسا : ومن معالم الاقتصاد العربي البارزة تبعيته للدول الاجنبية والمقصود بالتبعية هنا السيطرة الكاملة او شبه الكاملة من جانب الدولة الام على اقتصاديات الدول التابعة . وقد فرضت التبعية الاقتصادية من قبل الدول المستعمرة للمنطقة حيث تركز الاستثمار الاجنبي حينذاك في قطاع انتاج المواد الاولية للتصدير لسد حاجات اوروبا من المواد اللازمة للصناعة .

ومن مظاهر هذه التبعية ان القدر الاكبر من الدخل القومي بالمنطقه العربية انما يتولد عن انتاج المواد الاولية كالبترول والقطن والفوسفات والحديد الخام للتصدير .

كما تلاحظ سيطرة الاجهزة الاجنبية على العمليات المتعلقة بالتجارة الخارجية مثل : بيوت التصدير والاستيراد ، وشركات التأمين ، واجهزة النقل . ويلاحظ سيطرة البنوك الاجنبية التي تقوم بتمويل الصادرات الاولية ، والتي لا تجد الرقابة التامة على عملياتها من قبل البنوك المركزية .

ومن مظاهر التبعية ايضا تداول النقد الاجنبي في البلد العربي واتجاه الاستثمارات الاجنبية نحو انتاج المواد الخام للصناعات القائمة في الدول الاجنبية مستغلة رخص الايدي العاملة العربية ومحققة بذلك ارباحا

طائلة كما هو الحال في قطاع البترول والاستثمارات فيه .

ومن المقاييس التي تستخدم من قبل الاقتصاديين لقياس درجة التبعية للخارج مؤشر درجة الانكشاف الاقتصادي (وهو نسبة اجمالي الصادرات والواردات الى اجمالي الناتج المحلي) ومؤشر التركيز الجغرافي للصادرات (وهو نسبة الصادرات الى اهم شريك او شريكين في التجارة الخارجية الى اجمالي الصادرات) ومؤشر التركيز السلعي للصادرات (وهو نسبة صادرات اهم سلعة الى اجمالي الصادرات) .

ويلاحظ ارتفاع هذه المؤشرات الثلاثة بالنسبة لمعظم الاقطار العربية مما يؤكد اختلال هياكل صادراتها وتأكيد تبعيتها الاقتصادية للخارج .

ونجد ان درجة الانكشاف الاقتصادي تبلغ اعلى مستوياتها ، لدى الدول العربية المصدرة للبترول ، حيث وصلت في المتوسط الى ٨٧٪ عام ١٩٧٨ وقد تجاوزت ١٠٠٪ في كل من قطر والامارات العربية المتحدة والكويت والبحرين . اما في الدول العربية غير النفطية فتبلغ درجة الانكشاف الاقتصادي نحو ٥٠٪ وهو رقم مرتفع بالمقارنة للدول الصناعية حيث لا يتجاوز هذا المؤشر ١٥ الى ٢٠٪ في البلاد المتقدمة صناعيا .

اما مؤشر التركيز السلعي للصادرات فيبرز الاعتماد الكامل بالنسبة للدول العربية النفطية على تصدير سلعة واحدة الا وهي النفط الخام . اذ يبلغ هذا المؤشر اكثر من ٩٥٪ بالنسبة لجميع الدول العربية النفطية في عام ١٩٧٨ . اما بالنسبة للدول العربية الاخرى فان معظم صادراتها تركزت في المواد الخام الزراعية والمعدنية الامر الذي يعني ارتفاع درجة التركيز السلعي في صادراتها . ويؤكد بالتالي تعرض اقتصاديات الدول العربية لمخاطر التبعية بما فيها تقلبات الاسواق العالمية .

اما بالنسبة للتركيز الجغرافي لصادرات الدول العربية فيدل هذا المؤشر على ان معظم الدول العربية توجه جزءا مهما من صادراتها الى السوق الاوروبية المشتركة يتراوح بين الثلث او الثلثين من اجمالي صادراتها . كما ان جزءا مهما من صادرات الدول العربية النفطية يتوجه اساسا الى دولتين هما اليابان والولايات المتحدة الامريكية .

سابعا : ومن خصائص الاقتصاد العربي ايضا ضعف نسبة التبادل التجاري فيما بين الدول العربية اذ لا تتجاوز هذه النسبة ٧٪ من مجموع التبادل

التجاري للمنطقة العربية . وقد جاء في دراســات مجلس الوحـدة الاقتصادية العربية ان الدول العربية تستورد ما قيمته ٧٠٪ من احتياجاتها من السلع من الدول الصناعية الغربية و ٦ من الدول النامية و ٦,٦٪ من الدول الاوروبية الاشتراكية واما ما تستورده من بعضها البعض فيساوي ٦,٦٪ .

ولا شك ان تماثل المنتجات العربية بصفة عامة سواء كان نفطيا او زراعيا بالاضافة الى العقبات الموضوعة في طريق تسهيل مهمة التبادل التجاري بين دول المنطقة كالحواجز الجمركية ، وعدم كفاية وسائل النقل وطرق المواصلات والاتصال وضعف العلاقات التجارية بين الدول العربية وعدم الثبات في العلاقات الاقتصادية والسياسية بينها ، قد كان من نتاجه التبادل المحدود بين دول المنطقة . كما ان تفضيل البلدان العربية الغنية للمنتجات الاوروبية نسبة لجودتها قد دفع بمعدلات نمو الواردات للدول العربية النفطية ان تتصاعد بطريقة مذهلة كما يبين الجدول التالي (جدول رقم ٣) . ولكن العامل الاساسي لضعف التبادل التجاري فيما بين الدول العربية يرجع الى وضع التبعية الذي تعاني منه الدول العربية والذي تمت الاشارة اليه آنفا .

جدول رقم (٣)

التوسع في حجم الواردات والصادرات للاقتصاد العربي
(١٩٧٣ ـ ١٩٨٠) (بلايين الدولارات الامريكية)

تصنيف البلدان العربية	الصادرات السلعية					الواردات السلعية				
	٧٣	٧٤	٧٥	٧٦	١٩٨٠	٧٣	٧٤	٧٥	٧٦	١٩٨٠
أ) البلدان النفطية	٣١,٩	٧٠,٣	٦٦,٦	٨١,٨	٢٢٠,٨	٩,٦	١٨,٥	٢٧,٨	٣٣,٨	٨٤,٢
ب) البلدان غير النفطية	٤,٢	٥,٩	٥,٨	٥,٥	٢٦,٥	٥,٩	٨,٦	١٢,٠	١٢,٩	٣٣,١
جملة البلدان العربية	٣٦,١	٧٦,٢	٧٢,٤	٨٧,٣	٢٤٧,٣	١٥,٥	٢٧,١	٣٩,٨	٤٦,٧	١١٧,٣

المصدر:

(١) International Financial statistics

(٢) بالنسبة لبيانات عام ١٩٨٠ انظر التقرير الاقتصادي العربي الموحد لعام ١٩٨١ ، الامانة العامة لجامعة الدول العربية وصندوق النقد العربي والصندوق العربي للانماء ، صفحة ١٩٦ .

ويتضح من الجدول السابق انه في الوقت الذي ظلت فيه صادرات الدول العربية غير النفطية ، « ثابتة تقريبا او نمت بصورة طفيفة خلال الفترة ٧٣ ـ ١٩٨٠ ، تضاعف حجم الواردات خلال نفس الفترة مما ادى الى تعميق العجز في الميزان التجاري لهذة البلدان . واما بالنسبة للدول العربية النفطية فيلاحظ ان حجم الواردات قد ارتفع في نهاية الفترة الى حوالي ثلاثة اضعاف مستواه في عام ١٩٧٣ وهذا يعني ان الطفرة في حجم الواردات كانت بنفس معدل الطفرة في حجم العائدات النفطية . وقد بلغت حصة الواردات من الدخل النفطي لمجموعة الدول العربية النفطية خلال الفترة ٧٤ ـ ١٩٧٩ المستويات التالية ١٩٧٤ ٤٧٪ ، ١٩٧٥ ٧٢٪ ، ١٩٧٦ ٧١٪ ، ١٩٧٧ ٨٢٪ ، ١٩٧٨ ٩٩٪ ، ١٩٧٩ ٧٩٪[١] وهذا يعني ان الدول العربية النفطية تقوم في الواقع بتحويل جزء هام من ثروتها النفطية القابلة للنضوب الى النقد الاجنبي السائل لتمويل وارداتها من سلع وخدمات .

ثانيا : عقبات التنمية الاقتصادية العربية

لقد تبين من دراسة خصائص الاقتصاد العربي ان الوطن العربي في مجموعه متخلف اقتصاديا وقد تبين ان مشكلة التخلف الاقتصادي في الوطن العربي تنعكس بشكل اساسي في انخفاض نصيب الفرد في الانتاج ، وانخفاض دخله بالتالي مما يترتب عليه تدني مستوى المعيشة ، وارتفاع معدلات البطالة الظاهرة ، والمستترة ، وضعف التغذية ، والارتفاع النسبي في معدل الوفيات ، وانخفاض متوسط العمر ، وما يعني ذلك كله من اهدار لقدر كبير من الطاقة البشرية . بامعان النظر في خصائص التخلف في الوطن العربي نستطيع أن نتبين العقبات الرئيسية امام التنمية الاقتصادية في المنطقة العربية . ويمكن تقسيم تلك العقبات الى عقبات داخلية مردها القصور في العوامل الاقتصادية الاساسية التي تحد من المقدرة الانتاجية للاقتصاد القومي وعقبات خارجية مردها الاطار الراهن للعلاقات الاقتصادية الدولية .

ويمكن تلخيص القيود الداخلية على التنمية الاقتصادية في الوطن العربي

---

(١) التقرير الاقتصادي العربي الموحد ١٩٨١ ، اعداد الامانة العامة لجامعة الدول العربية وصندوق النقد العربي والصندوق العربي للانماء الاقتصادي والاجتماعي ، صفحة ٢٣٧ .

في ثلاث عقبات داخلية : ندرة رأس المال المستثمر ، ضيق نطاق السوق المحلي ، انخفاض مستوى المهارة الفنية وتخلف طرائق الانتاج .

لا شك ان اكبر عقبة تعاني منها الدول العربية غير المنتجة للنفط هي انخفاض مستوى التراكم الرأسمالي اذ انه بدون قدر كاف من الاستثمار لن تكون هناك تنمية يعتد بها . اما العامل الرئيسي لهذه الظاهرة فهو انخفاض مستوى دخل الفرد العربي في الدول العربية غير النفطية . ومن الطبيعي ان يقوم الجزء الاكبر من ذلك الدخل المنخفض بمقابلة الحاجات الضرورية للفرد بحيث يصبح الجزء المتبقي للادخار وبالتالي للاستثمار جزءا ضئيلا . وهذا ما يشار اليه أحيانا في اقتصاديات التنمية بالحلقة المفرغة للفقر(١) . ومضمون الفكرة ان هناك عوامل تتأثر وتؤثر في بعضها البعض بطريقة دائرية على نحو من شأنه ابقاء البلاد المتخلفة في تخلف مستمر ، بمعنى ان انخفاض متوسط دخل الفرد يؤدي الى انخفاض مستوى الادخار وبالتالي الاستثمار مما يؤدي الى انخفاض مستوى الانتاج ، الذي يؤدي بدوره الى المستوى المنخفض من الدخل الذي بدأنا به . ويزيد من حدة قيد ندرة رأس المال المستثمر ما تعانيه تلك الدول العربية من عجز في موازين مدفوعاتها الامر الذي يحد من قدرتها على تحقيق مستوى مرتفع من الاستثمار نظرا لاعتمادها على العالم الخارجي في استيراد المعدات والآلات . وحتى في الدول العربية عالية الدخل يلاحظ انخفاض حجم الادخار والاستثمار كنسبة من الدخل القومي بالمقارنة مع الدول الصناعية اذ ان كثيرا من فئات المجتمع في المنطقة العربية تتميز بانخفاض ميلها الحدي للادخار وارتفاع ميلها الحدي للاستهلاك المظهري ، فضلا عن تقليدها لانماط الاستهلاك السائدة في الغرب ، وتوجيه انفاقها نحو المباني السكنية الفاخرة وبعيدا عن الاستثمار المنتج في المعدات والمصانع .

ويمثل ضيق نطاق السوق المحلي قيدا كبيرا على التنمية الصناعية في الدول العربية خاصة بالنسبة للصناعات الانتاجية التي يشترط عادة ان يكون الحجم الامثل للوحدة الانتاجية فيها اكبر من الحجم الأمثل للوحدة الانتاجية في الصناعات الاستهلاكية . ومن الواضح ، ان قيد نطاق السوق كان عاملا مؤثرا في قيام المؤسسات الصناعية الصغيرة التي تسود الصناعة العربية اليوم ،

والتي تتميز بانخفاض الكفاءة الانتاجية وارتفاع تكاليف الانتاج ، وبدائية الاساليب الانتاجية المستخدمة ، مما يجعلها غير قادرة على الصمود في وجه المنافسة الاجنبية الا بأسوار عالية من الحماية الجمركية .

ومن العقبات الرئيسية للتنمية الاقتصادية في الوطن العربي انخفاض مستوى المهارة الفنية وسيادة اساليب الانتاج المتخلفة . وتظهر تلك القيود بوضوح في القطاع الزراعي الذي يتميز ببدائية الاساليب الانتاجية وانخفاض استخدام المخصبات مما يؤدي الى انخفاض الانتاجية . فيلاحظ ان انتاجية الهكتار مقومة بالدولار لا تتجاوز ٢٤ دولارا في المنطقة العربية وهو ما يعادل ٣٠٪ من المستوى السائد في امريكا الشمالية . كما ان استخدام المخصبات في المنطقة العربية لا يتجاوز ١٦ كيلوجرام للهكتار الواحد من الرقعة الزراعية في حين يبلغ استخدام المخصبات ١٧ كيلوجراما في آسيا و ٢٥ كيلوجراما في امريكا اللاتينية و ٩٠ كيلوجراما في امريكا الشمالية و ١٥٠ كيلوجراما في اوروبا . وبذلك تصبح المنطقة العربية اقل المناطق استخداما للمخصبات في العالم .

كما تظهر تلك القيود بوضوح عند اجراء المقارنة على اساس انتاجية العمل بين الدول العربية والولايات المتحدة اذ لا تتجاوز انتاجية العامل العربي ١٠٪ من انتاجية العامل الامريكي . اما اذا تمت المقارنة على اساس التعليم العالي والتدريب المهني ، والذي ينعكس على اعداد العلماء والمهندسين العاملين في حقول البحث العلمي والتنمية لوجدنا ان نسبة الشباب العربي في الجامعات والمعاهد العليا لا يجاريها في الانخفاض الا الوضع في آسيا وافريقيا . اما فئات الفنيين من العمال فلا يتجاوز نصيبهم ٣٪ من جملة القوى العاملة في الوطن العربي في حين تزيد نسبتهم عن ١٥٪ في الدول المتقدمة ، وكل هذا بالطبع يؤكد مدى انخفاض المهارة الفنية لليد العاملة في المنطقة العربية .

اما القيود الخارجية للتنمية الاقتصادية في الوطن العربي فتتمثل في اثر العلاقات الاقتصادية الدولية على الاقتصاد العربي . وقد كان من جراء السياسات التجارية الاستعمارية والنمط الاستعماري للاستثمار الاجنبي في الماضي ما نراه اليوم من مظاهر التخلف والتبعية والتجزئة في الوطن العربي .

وقد كان الوطن العربي ، منذ العقد الثاني من القرن العشرين ، خاضعا بجملته للاستعمار الاوروبي . فالمغرب والجزائر وتونس وسوريا ولبنان وقعت

تحت السيطرة الفرنسية اما فلسطين والاردن والعراق ومنطقة الخليج العربي ومصر والسودان جميعها خضعت للسيطرة البريطانية في حين خضعت ليبيا للسيطرة الايطالية .

وبعد انتهاء الحرب العالمية الثانية بدأت البلدان المستعمرة تتخلص الواحدة تلو الاخرى من سيطرة الدولة المستعمرة وتحرز استقلالها السياسي . ولكن المستعمر قبل رحيله وضع البلدان المستقلة سياسيا وفق نسيج متشابك معه من العلاقات الاقتصادية وخلق فيها كيانات اقتصادية متخلفة حتمت عليها ان تظل في حالة تبعية للبلدان المتقدمة .

وقد تمت الاشارة في هذا الفصل الى الدرجة العالية من التبعية الاقتصادية للاقطار العربية والتي تمثلت في ارتفاع مؤشرات الانكشاف الاقتصادي والتركيز السلعي والجغرافي للصادرات .

وغني عن البيان انه ليس امام العرب الطامحين للتنمية الاقتصادية الشاملة سوى التنمية من خلال الجهد العربي المشترك والتكامل الاقتصادي العربي اذ ان التنمية من خلال التكامل الدولي لا تعني سوى استمرارية الارتباط الحالي بالاقتصاد العالمي وتفتيت السوق العربية وتأكيد بقاء التبعية والتخلف .

المطلب الثاني :
نحو استراتيجية عربية للتنمية الشاملة

اولا : ضرورة وحتمية التكامل الاقتصادي العربي :

ان نظرة سريعة الى العالم العربي من المحيط الى الخليج لكافية للدلالة على الاهمية البالغة لهذه المنطقة من العالم لما تتمتع به من موارد طبيعية هائلة وامكانيات مادية عظيمة وطاقات بشرية كبيرة . ليس هناك من يجهل هذه الامكانيات لكن الذي يعوزنا هو حسن استغلالها وترشيد توزيع ثمراتها . ولن يتأتى هذا بصورة فعالة الا عن طريق السياسة الاقتصادية الموحدة والتنظيم الاداري الموحد . ان العمل على نمو العالم العربي كمنظمة واحدة هو الضمان الوحيد لنهضته وامنه واستقراره خاصة ونحن نعيش في عصر الوحدات الكبيرة والتكتلات الاقتصادية الضخمة .

ان تعبير الاستراتيجية في مجال التنمية العربية قد ظهر الى حيز الوجود حديثا واصبح اليوم ملازما لخطط التنمية الاقتصادية والاجتماعية في جميع البلاد العربية[١] .

وبطبيعة الحال لا بد للاستراتيجيات الفرعية مثل استراتيجية التنمية الصناعية او الزراعية او استراتيجية التعليم ان تنسجم مع الاستراتيجية العامة للتنمية حتى لا يحدث التضارب بين الاستراتيجية العامة والاستراتيجيات الفرعية . كما انه يشترط ان لا تتعارض الاستراتيجيات القطرية مع الاستراتيجية العربية العامة . هذا على الرغم من ان وجود الاستراتيجية العربية للتنمية لا ينفي حرية كل قطر عربي في حركته داخل اطاره وممارسة التنمية التي يراها ضرورية لواقعه .

ان الظروف السائدة في الوطن العربي ، وخصائص التخلف ، وعقبات التنمية التي تمت الاشارة اليها تشير الى ضرورة وضع خطة عامة للتنمية العربية الشاملة للقضاء على التخلف ، والتبعية ، ولضمان وجود قدر اكبر من الاستقرار الاقتصادي ، والارتفاع بمستويات المعيشة .

---

(١) دكتور سيد نميري ، دكتور محمد كامل ريحان ، دكتور خزعل الجاسم اقتصاديات الوطن العربي ، جامعة الامارات ، العين ـ ابوظبي ـ مكتبة المكتبة ١٩٨٠ م ، صفحة ٢٨٠ .

ان التصدي لوضع استراتيجية عربية للتنمية في نطـاق التكامـل الاقتصادي العربي امر جوهري وواجب وملح . وهناك الكثير من الاسباب التي تؤكد على اهمية الجهد العربي المشترك في مجال التنمية ومنها ما يلي :

اولا : انه يستحيل على اي قطر عربي بمفرده ان يكسر حاجز التخلف وينطلق الى رحاب التنمية الاقتصادية والاجتماعية . وذلك لأنه لا يجتمع لأي قطر عربي بمفرده كل المقومات اللازمة في مجال قوى الانتاج او السوق او رأس المال او التكنولوجيا .

ثانيا : ان فوائد الثروات تتضاءل طالما هي مبعثرة داخل اقطار الوطن العربي وطالما لا يوجد الاستيعاب لها داخل المنطقة العربية .

ثالثا : ان بعض الثروات مهددة بالانقراض مما يستدعي المحافظة عليها وترشيد استغلالها واهم ثروة مهددة بالنضوب في بداية القرن المقبل هي الثروة النفطية .

ولهذا فليس امام الدول العربية البترولية سوى ربع قرن من الزمان من اجل تحويل بترولها الى ثروة اقتصادية دائمة ومصادر للدخل متجددة ذاتيا . وليس خافيا على احد بان كافة المحاولات سوف تبذل في هذه الفتره القصيرة من الزمن من قبل القوى الدولية المعادية للعرب لصرفهم عن التنمية الجادة وتصعيد التهديدات والاضطرابات في المنطقة العربية لاستنزاف عوائد البترول في التسليح المفرط او استخدامها في مشروعات صناعية مرتبطة بالخارج او اهدارها في استيرادات السلع الاستهلاكية المترفة .

لكل ما تقدم فيجب ان يؤكد الهدف العام للاستراتيجيات العربية للتنمية على ضرورة تحصين المنطقة العربية بمقومات الامن القومي والاقتصادي والغذائي وجعلها صالحة في المستقبل لمعيشة شعوبها بمستوى الرفاهية الذي تؤهله ثرواتها ، وذلك من منظور قومي يغلف الاهداف القطرية في الهدف القومي ولا يتعارض مع حرية حركتها .

وخلاصة القول فان استراتيجية التنمية العربية القائمة على التعاون الاقتصادي العربي يجب ان تركز على ما يلي :

(١) التنمية من اجل التوجه الداخلي والاعتماد على النفس مما يفرض العمل على الاستخدام الكامل الرشيد لكافة الموارد الطبيعية والبشرية المتاحة للمجتمع ، وخلق تكنولوجيا محلية .

(٢) التعاون الاقتصادي العربي او الاعتماد على النفس . وبما ان الاعتماد على الموارد الداخلية لكل قطر على حدة لا يكفي فلا بد من اعتماد جماعي على الذات ترجمته تعاون اقتصادي عربي يشمل توفير الظروف الملائمة لانشاء المشروعات الانتاجية العربية بجانب تدعيم دور السوق العربية افقيا ورأسيا .

(٣) عدم استنزاف الموارد الطبيعية القابلة للنضوب وخاصة النفط واطالة استخدامها لصالح الاجيال القادمة .

(٤) ضرورة تحقيق التنمية الصناعية العربية وذلك بالتركيز على الصناعات الاساسية مثل صناعات الحديد والصلب لدورها في الترابط القطاعي وصناعات البتروكيماويات نسبة لكبر حجم الاحتياطي من النفط بالمنطقة العربية .

(٥) الاهتمام بالقطاع الزراعي في الوطن العربي ، وتحقيق التننمية الزراعية التي تستطيع ان تحقق قدرا مناسبا من الامن الغذائي العربي .

مثل هذه الاستراتيجية المقترحة والتي تعتمد على الجهد الانمائي العربي المشترك تستطيع ان تكسر كافة القيود المعوقة للتنمية الاقتصادية في الوطن العربي بما فيها قيد ضيق نطاق السوق المحلي وندرة رؤوس الاموال المستخدمة وندرة الكوادر الفنية من الموارد البشرية كما يتبين من التحليل التالي :

لقد تبين بان انخفاض مستوى الادخار والاستثمار يمثل قيدا قويا على عملية التنمية الاقتصادية في معظم اجزاء المنطقة العربية وذلك لمعاناة الدول العربية غير النفطية من شح الموارد التمويلية ، وهذا يدفعها الى الاعتماد على القروض الاجنبية القاسية لتمويل مشروعات التنمية في اقطارها في الوقت الذي تزيد فيه القدرات التمويلية لدى الوطن العربي في مجموعه عن حاجته ، فضلا عن سوء استخدام الطاقة التمويلية المتوافرة لدى بعض الدول العربية حيث ينفق جزء كبير منها للاغراض الاستهلاكية غير الضرورية ويوظف الجزء الآخر في الدول الصناعية خارج المنطقة العربية على الرغم من المخاطر الاقتصادية والسياسية المعروفة . وحتى رؤوس الاموال التي وظفت في مجال الصناعة انفقت في مشروعات صناعية متشابهة . ومن البديهي ان انسياب رؤوس الاموال العربية من الدول ذات الفائض في الميزان التجاري الى الدول ذات

العجز سيؤدي الى منفعة المجموعتين اذ أن قدرة دول العجز على تحقيق مستوى مرتفع من الاستثمار والنمو الاقتصادي يتمثل في توفر رؤوس الاموال العربية لها كما ان دول الفائض ستضمن استخداما افضل لفوائضها النفطية من الاستخدامات البديلة في العالم الخارجي .

ويقترح في هذا الشأن ان تمنح قوانين الاستثمار في كافة الدول العربية معاملة تفضيلية لرأس المال العربي وان تسمح قوانين الاستثمار بمشاركة رأس المال العربي في ملكية وادارة المشروعات الصناعية العامة في مجال استغلال الثروات الطبيعية والتوسع في اقامة مشروعات عربية برأس مال مشترك مع توظيف جزء منها في الدول العربية الاقل نموا .

اما فيما يختص بندرة الكوادر المؤهلة فنيا من الموارد البشرية فهي ايضا تمثل قيدا على عملية التنمية في العديد من الدول العربية وذلك لأن تجزئة الوطن العربي الى اقطار متعددة ادى الى صعوبة انتقال الطاقات البشرية عبر الحواجز استجابة لفرص العمل وزيادة الانتاجية . وبامعان النظر يتبين مدى المنفعة المشتركة لانتقال عنصر العمل من دول الفائض ذات الضغط السكاني الى دول العجز التي تضطر الى استيراد العمالة الاجنبية على الرغم من مخاطرها الاقتصادية والسياسية والاجتماعية المعروفة . ويمكن ان يقترح في هذا الشأن ان تمنح قوانين العمل في كافة الدول العربية معاملة تفضيلية للعمالة العربية على العمالة الاجنبية من حيث تسهيل انتقالها ومنحها الحوافز المادية لتشجيع انتقالها .

اما قوة الارتباط بين التكامل الاقتصادي وتوسيع نطاق السوق العربية امام الصناعات العربية فلا يحتاج الى دليل اذ ان اتساع السوق سيكون من نتاجه استفادة الصناعات العربية القائمة من مزايا الانتاج الكبير فضلا عن ان السوق العربية الواسعة سيفتح الطريق امام صناعات جديدة قد حال دون قيامها السوق المحلي المحدود لكل دولة عربية على انفراد كما لا يمكن التقليل من اثر السوق العربية الواسعة على زيادة امكانية الاحلال محل الواردات وبالتالي تحسين موازين المدفوعات لدول العجز وذلك تبعا لاتساع نطاق السوق امامها .

كما يؤدي توسيع السوق العربية الى ارتفاع الكفاءة الانتاجية للصناعة العربية وبالتالي الى ازدياد امكانية التصدير للعالم الخارجي .

وغني عن البيان بان العالم العربي كوحدة جغرافية واحدة يملك كل المقومات الاساسية لنشوء الصناعة الحديثة ذات الانتاج الكبير . فالوطن العربي في مجموعه غني بالمواد الاولية . زراعية كانت ام معدنية . وغني بالطاقة المحركة والطاقات البشرية . كما يملك السوق المضمونة التي تمكن كافة الدول العربية من تصريف منتجاتها الصناعية والزراعية . كما ان العالم المعاصر يتعامل مع الدول العربية ككيان واحد مهما تزايدت الصلات بين بعض القوى العالمية وبعض القوى العربية بحيث لم يبق الا العرب انفسهم ليروا هذا المنطق عند النظر الى منطقتهم(١) .

ثانيا : الواقع العربي للتكامل الاقتصادي :

في هذا الفصل سنقوم باستعراض وتقييم مسيرة الوحدة الاقتصادية ومنجزاتها . قامت في الوطن العربي او في اجزاء منه حضارات قديمة وكانت تستند الى نوع من الاساس الاقتصادي يتمثل في الاستفادة من موارد المنطقة. وعلى الرغم من اندثار هذه الحضارات فان آثارها ظلت باقية لتعيد الى الاذهان حقيقة التعاون الاقتصادي في الوطن العربي بكل ما يملــكه من الموارد الاقتصادية الضخمة .

وقد كان من السمات البارزة للحكم العثماني ، على الرغم من مساوئه الكثيرة ، تكتل البلاد العربية في وحدة اقتصادية شاملة ، ولكن ظروف الاحتلال البريطاني والفرنسي ابان الحرب العالمية الاولى قد فرضت على الوطن العربي التجزئة والتبعية التي يعاني منها حتى اليوم ، بجانب زرعه لاسرائيل وسط الامة العربية ليحول دون وحدتها وتقدمها .

وترتيبا على ذلك، فقد بدأت المنطقة العربية تصحو من غفوتها وتفكر من جديد في تحقيق وحدتها وفي سبيل تحقيق هذا الهدف بدأت مسيرة الوحدة الاقتصادية عن طريق التكتلات الاقتصادية الثنائية كتلك التي انشئت بين سوريا ولبنان (١٩٤٤ ــ ١٩٥٠) وبين سوريا والاردن في عام ١٩٥٦ .

ولكن التعاون الاقتصادي الشامل لم تبدأ مسيرته الا عندما انشئت جامعة الدول العربية وما تضمنته من اجهزة ومنظمات ومجالس ــ وخلال

---

(١) تصور مبدئي حول استراتيجية التنمية العربية ــ اللجنة الفرعية للتخطيط ــ مجلس الوحدة الاقتصادية العربية ، ١٩٧٦ .

الثلاثين عاما الماضية بذلت الدول العربية مجهودات كبيرة في طريق التعاون الاقتصادي العربي على الرغم من ان النتائج التي تحققت لا تتناسب مع المجهودات التي بذلت .

ويمكن النظر الى خطوات التعاون الاقتصادي من نواح عديدة : فمن الناحية الشكلية نجد ان بعض المحاولات تمت في نطاق جامعة الدول العربية في صورة اتفاقيات جماعية مفتوحة لكل البلاد العربية بينما تمت المحاولات الاخرى في صورة الاتفاقات الثنائية خارج اطار الجامعة العربية .

ومن الناحية الموضوعية شملت درجات التعاون معظم النماذج المطروحة للتكامل الاقتصادي حيث جاء بعضها مجرد مجاملات سياسية لا تهدف الى اكثر من تشجيع التبادل التجاري بينما جاء بعضها مسرفا في التفاؤل حيث نصت الاتفاقيات على ضرورة توحيد كل جوانب النشاط الاقتصادي العربي .

ومن الناحية العملية كتب لبعض المحاولات ان تدخل مرحلة التنفيذ ، وان تؤثر ولو بقدر يسير في حجم التبادل التجاري ، بينما ظلت معظم المحاولات مجرد اتفاقات مكتوبة على الورق ، ولم تصل الى مرحلة التطبيق العملي .

وفي هذا الفصل سنقوم باستعراض وتقييم خطوات وصيغ التعاون الاقتصادي العربي على النحو التالي :

- التعاون الثنائي خارج اطار جامعة الدول العربية .
- التعاون الجماعي خارج اطار جامعة الدول العربية .
- التعاون الجماعي داخل اطار جامعة الدول العربية ويشمل المشروعات المشتركة واتفاقية الوحدة الاقتصادية العربية والسوق العربية المشتركة واخيرا اتفاقية تيسير وتنمية التبادل التجاري بين الدول العربية لسنة ١٩٨١ .

خطوات التعاون الاقتصادي العربي :

اولا : التعاون الاقتصادي عن طريق الاتفاق الثنائي :

بدأ التعاون الاقتصادي بين البلدان العربية مبكرا بشكل ثنائي ، حيث شهدت الفترة منذ اوائل الخمسينات عددا من اتفاقيات التجارة والدفع بين البلاد العربية . ويلاحظ ان الاتفاقيات الثنائية بين الاقطار العربية تختلف من

الناحيتين الموضوعية والواقعية ، ولا تتفق الا في انها قد عقدت جميعا خارج اطار الجامعة العربية . وهناك ثلاثة أنواع من الاتفاقيات الثنائية ، النوع الأول : هو اتفاقيات تيسير انتقال السلع . والثاني اتفاقيات تيسير انتقال رؤوس الاموال . والثالث اتفاقيات لاحداث التوحيد الاقتصادي[1] .

وفيما يتعلق بالنوع الاول من الاتفاقيات نجد انها تطورت من اتفاقيات تهدف الى تسهيل التبادل التجاري بين الطرفين المعنيين في ضوء النظم القائمة الى اتفاقيات للتفضيل الجزئي . ومن اهم اهداف هذه الاتفاقيات ازالة بعض القيود التي تعترض تبادل السلع فيما بين البلدين طرفي الاتفاقية كتخفيض او الغاء الحواجز الجمركية . ومن امثلة الاتفاقيات الثنائية للتفضيل الجزئي اتفاقية الاردن ومصر عام ١٩٥١ ، واتفاقية الاردن والعراق عام ١٩٥٣ واتفاقية الاردن وسوريا عام ١٩٥٣ واتفاقية العراق وسوريا عام ١٩٦١ . والجدير بالذكر ان كل هذه الاتفاقيات قد نصت على تسهيل التبادل التجاري بين الاطراف المعنية لكن دون استحداث اي تغيير في السياسات التجارية المتبعة في الدول الاعضاء ، الامر الذي قلل من فاعليتها .

اما اتفاقيات تيسير انتقال رؤوس الاموال بين الاقطار العربية فلم تجد نفس الاهتمام كاتفاقيات انتقال السلع . كما ان اتفاقيات انتقال رؤوس الاموال جاءت كلها وليدة لعوامل سياسية قبل ان تكون مستندة على الاساس الاقتصادي فيما عدا قروض الصندوق الكويتي للتنمية الاقتصادية للاقطار العربية ، ومن امثلة هذه الاتفاقيات القرض السعودي لسورية (١٩٥٠) واتفاق القرض السعودي لمصر (١٩٥٦) .

وفيما يختص باتفاقيات التوحيد الاقتصادي يمكن التمييز بين عدة محاولات في هذا الخصوص . وقد مثلت تجربة الوحدة الاقتصادية بين سوريا ولبنان المفروضة من قبل سلطة الانتداب الفرنسي المحاولة الاولى للتوحيد الاقتصادي بين بلدين عربيين . وقد تم في هذه الوحدة انشاء نظام موحد من الرسوم الجمركية في البلدين تقوم بتطبيقه ادارة جمركية واحدة . اما المحاولة الثانية فتتمثل في اتفاقية الوحدة الاقتصادية لسورية والاردن (١٩٥٦) والتي كانت وليدة عوامل سياسية بعيدة عن المنطق الاقتصادي الامر الذي ادى الى

---

(١) دكتور احمد ابو الشامات « الوحدة الاقتصادية العربية ، السوق العربية المشتركة ، الاتفاقات الثنائية . وقائع وابحاث مؤتمر الاقتصاديين العرب الثالث ديسمبر ١٩٧١ صفحة ٧١٤ .

فشل تحقيقها عمليا . اما المحاولة الثالثة فتتمثل في التجربة المصرية ـ السورية (١٩٥٧) التي سبقت الوحدة السياسية بين البلدين ، عندما اتفق على شكل من اشكال الوحدة الاقتصادية ، عن طريق خلق سوق مشتركة وانشاء شركات مشتركة ، وتنسيق السياسات المالية والنقدية وتعديل اتفاقيات التجارة والدفع لتسهيل التبادل التجاري .

وعند تقييم هذه المحاولات المتعلقة بالاتفاقيات الثنائية للتفضيل الجزئي يتبين بأن الآثار الايجابية لهذه الاتفاقيات كانت محدودة للغاية ، وذلك لأن هذه الاتفاقيات لم تتعرض للاسباب الحقيقية التي تعوق تنشيط التبادل التجاري بين البلاد العربية ، (عدم التنسيق وضعف اسس التكامل بين اقتصادياتها) بالاضافة الى ان التجربة اثبتت بان تلك المحاولات الثنائية للتوحيد الاقتصادي كانت وليدة اعتبارات سياسية في المقام الاول . عندما تزول السلطة السياسية الموحدة ينتهي التقارب الاقتصادي الذي حققته .

ثانيا : الاتفاقيات الجماعية للتعاون الجزئي :

لم تكن الاتفاقيات الثنائية للتفضيل الجزئي وحدها هي وسيلة التعاون الاقتصادي بين الدول العربية . منذ عقد ميثاق جامعة الدول العربية الذي نص على التعاون الجماعي كغرض اساسي من اغراض الجامعة بدأت المحاولات الجماعية للتعاون الاقتصادي .

وفي عام ١٩٥٣ اقر المجلس الاقتصادي المكون من الوزراء العرب المختصين بالشؤون الاقتصادية اتفاقيتين احداهما (أ) لتسهيل التبادل التجاري وتنظيم تجارة العبور (الترانزيت) والثانية (ب) لتسديد مدفوعات المعاملات الجارية وانتقال رؤوس الاموال .

(أ) اتفاقية لتسهيل التبادل التجاري وتنظيم تجارة العبور (الترانزيت) :
تتلخص اهم محتويات هذه الاتفاقية فيما يلي :

١ ـ اعفاء المنتجات الزراعية والحيوانية والثروات الطبيعية المدرجة في الجدول رقم (أ) الملحق بالاتفاقية من الرسوم الجمركية على ان يكون منشؤها احد بلدان الاطراف المتعاقدة .

٢ ـ تخفيض الرسوم الجمركية بنسبة ٢٥٪ على المنتجات الصناعية في الجدول رقم (ب) الملحق بالاتفاقية .

٣ ــ تخفيض الرسوم الجمركية بنسبة ٥٠٪ على عدد من المنتجات الوسيطة المدرجة في الجدول رقم (ج) الملحق بالاتفاقية .

٤ ــ تتعامل البلاد العربية فيما بينها معاملة تفضيلية من حيث منح رخص الاستيراد والتصدير .

٥ ــ عدم اخضاع المنتجات المستوردة من بلد لآخر لرسوم داخلية تفوق الرسوم المفروضة على المنتجات المحلية في البلد المستورد .

٦ ــ قيام الدول الاعضاء بتسهيل حركة الترانزيت عبر بلادها بجميع وسائل النقل .

٧ ــ عدم الاخلال بما تتضمنه الاتفاقيات الثنائية القائمة او المستقبلة .

وعند تقييم هذه الاتفاقية يلاحظ ما يلي :

أ ــ وقع على هذه الاتفاقية كل من الاردن وسوريا ولبنان ومصر والسعودية والعراق واليمن والكويت ولم تنضم بقية الدول العربية الى هذه الاتفاقية الامر الذي قلل كثيرا من فاعليتها .

ب ــ ان الاعفاءات الجمركية التي قررتها بعض الاتفاقيات الثنائية كانت اكثر واوسع نطاقا من تلك التي تقررها هذه الاتفاقية .

جـ ــ ان هذه الاتفاقية ، باغفالها لمسائل التنسيق والتكامل بين اقتصاديات الدول الاعضاء لم تؤد الى تنشيط التبادل التجاري المنشود .

د ــ لم تتضمن هذه الاتفاقية التدرج في التفضيل الجمركي بغية الوصول الى حد الاعفاء وهو هدف اساسي للتعاون الاقتصادي .

هـ ــ لم تؤد التخفيضات الجمركية المتبادلة الى دعم حجم التبادل التجاري العربي المستهدف وذلك لأن الاتفاقية لم تنص على ازالة القيود الادارية الاخرى التي ربما تشكل عقبة اكبر من الحواجز الجمركية .

و ــ لم تنص الاتفاقية على تنسيق التعريفات الجمركية للبلاد العربية كمجموعة ازاء العالم الخارجي .

وعلى الرغم من هذه السلبيات فان الاتفاقية تعتبر الخطوة الاولى للمحاولات الجماعية الفعالة لايجاد تنظيم اقليمي للمنطقة العربية كلها ،

بالاضافة الى اثرها في توسيع مجالات التعاون الاقتصادي العربي ، ونظام الافضلية في التعامل التجاري .

(ب) اتفاقية تسديد مدفوعات المعاملات الجارية وانتقال رؤوس الاموال العربية :

تم التوقيع على هذه الاتفاقية في عام ١٩٥٣ ، اي في نفس الوقت مع الاتفاقية السابقة ، كما وقعت عليها نفس الدول .

ونصت الاتفاقية على ان تعمل حكومات الدول المتعاقدة في حدود انظمة العملة الاجنبية والاستيراد لديها على تسهيل تحويل مدفوعات المعاملات التجارية ومنح هذه المدفوعات افضل معاملة ممكنة .

وفيما يختص بانتقال رؤوس الاموال فقد نصت الاتفاقية على تسهيل انتقال اموال رعايا البلاد العربية فيما بين هذه البلاد في نطاق القواعد التي تضعها كل دولة لحماية رؤوس اموالها او رؤوس الاموال المنتقلة اليها من التسرب خارج اراضيها . كما اعفت الاتفاقية رؤوس الاموال المنقولة وفقا لذلك من بلد عربي الى آخر من الرسوم والضرائب الاستثنائية التي تفرض لمنع ذلك الانتقال . كما تنص الاتفاقية على سماح البلدان العربية الاعضاء بعودة رؤوس الاموال العربية التي ترد اليها بعد توقيع الاتفاقية الى موطنها الاصلي .

وعند النظر بامعان في بنود الاتفاقية من اجل تقييمها يلاحظ ما يلي :

١ ـ لم تلزم الاتفاقية اية دولة باحكامها اذ تركت الحرية لكل بلد ليطبقها في حدود امكانياته وقوانينه وانظمته الخاصة الامر الذي ادى الى عدم الالتزام باحكام الاتفاقية من قبل الدول الاعضاء .

٢ ـ لم تنص الاتفاقية على قيام جهاز للتحويلات النقدية كما اغفلت الاتفاقية انشاء جهاز للتسوية متعددة الاطراف بين البلاد العربية .

ثالثا : المشروعات المشتركة في نطاق جامعة الدول العربية[1] :

اتسع نطاق التعاون داخل اطار الجامعة ليشمل اقامة المشروعات المشتركة واهم هذه المشروعات هي شركة البوتاس العربية ، مؤسسة الخطوط الجوية العربية ، الشركة العربية لناقلات البترول ، الشركة العربية للملاحة البحرية ، الصندوق العربي للتنمية الاقتصادية والاجتماعية ، وصندوق النقد العربي ، وفيما يلي نبذة قصيرة عن انشاء تلك المشروعات وتقييم موجز لها .

١ ــ شركة البوتاس العربية المساهمة المحدودة :

وافق المجلس الاقتصادي العربي على هذا المشروع في ١٩٥٦/١/٢٥ بهدف استغلال ثروات البوتاس من البحر الميت في الاردن لانتاج هذا النوع من السماد برأسمال قدره ٤,٥ دينار اردني موزعة الى اسهم تأسيسية واسهم تطرح في الاسواق العالمية .

وقعت على اتفاقية هذه الشركة كل من الاردن ، سوريا ، العراق ، السعودية ، لبنان ومصر .

وعند تقييم هذا المشروع يتبين عدم الجدية في تنفيذ الاتفاق حيث لم تطرح باقي الاسهم في الاسواق العربية حسب نص الاتفاق على ذلك خلال ستة اشهر من تسجيل الشركة[2] . ويعاب على المشروع ضآلة رأس المال المستثمر بالمقارنة لحجم العمل المطلوب وقلة خبرة اعضاء مجلس ادارته بالاضافة الى ذلك فان دور البلاد العربية قد اقتصر على الاشتراك في التمويل فقط بدليل خضوع المشروع للنظام القانوني الاردني .

٢ ــ مؤسسة الخطوط الجوية العربية العالمية :

وافق المجلس الاقتصادي العربي على هذا المشروع في ١٩٦١/٤/١٧ بهدف استثمار الطيران التجاري في البلاد العربية وايجاد صناعة قوية للطيران المدني لربط العالم العربي بالعالم الخارجي بشبكة جوية من الخطوط المنتظمة

---

(١) المقصود بالمشروع المشترك . المشروع الذي تشترك فيه دولتان او اكثر ويكون نشاطه الاقتصادي في مجال الزراعة او الصناعة او الخدمات . وتسهم فيه كل الدول بجزء من عناصر الانتاج اللازمة كرأس المال او العمل او الادارة . انظر البحث الذي اعده الدكتور علي لطفي « تقييم العمل الاقتصادي العربي المشترك ومستقبله » المؤتمر القومي لاستراتيجية العمل الاقتصادي العربي ، بغداد ١٩٧٨ .

٢) د. علي لطفي ، مصدر نمشار اليه سابقا ، ص١٤ .

وبرأسمال قدره ١٧ مليون جنيه استرليني . وقد وقعت كل من الاردن ، العراق ، السعودية ، الكويت ، مصر ، سوريا على هذه الاتفاقية بينما صدق عليها فيما بعد كل من الكويت والاردن وسوريا والعراق ، وجدير بالذكر ان هذه المؤسسة لا تحل محل شركات الطيران لكل بلد عربي وانما تتعاون معها .

وعند تقييم هذه المؤسسة يلاحظ بان مصر والسعودية لم تصدقا على الاتفاقية على الرغم من توقيعهما لها الامر الذي يشكل عقبة في تنفيذ المشروع ، كما ان الدول العربية المصدقة على الاتفاقية لم تساهم بمقدار ٦٠٪ من رأس المال المشترطة في تنفيذ الاتفاقية .

وتتضح عدم جدية الدراسة المسبقة لهذا المشروع في اغفال الاتفاقية لموضوع دعم الحكومات الاعضاء لهذه المؤسسة في حالة الخسائر كما ان الدراسة لم تول الاهتمام الكافي لموضوع المنافسة بين هذه المؤسسة وشركات الطيران الوطنية ، وترتيبا على هذا فربما كان من الافضل اقامة اتحاد دولي للطيران يضم شركات الطيران العربية الوطنية[١] .

٣ ــ الشركة العربية لناقلات البترول :

وافق المجلس الاقتصادي على هذه الشركة في عام ١٩٦٤ بغرض القيام بجميع عمليات النقل البحري للبترول الخام ومنتجاته ومشتقاته وكذلك تصريفه وتسويقه وبرأسمال قدره ٣٥ مليون جنيه استرليني مقسمة الى ٣٥٠ الف سهم . وقد وقعت كل من العراق وسوريا والكويت ومصر على هذه الاتفاقية كما صدقت عليها الدول الاربعة ما عدا الكويت .

وفيما يتعلق بتقييم هذه التجربة يثبت بان اقامة هذا المشروع من الاهمية بمكان لزيادة المكاسب التي تحصل عليها البلاد العربية من ثروتها النفطية بالاضافة الى تحقيق التكامل بين قطاعي انتاج ونقل البترول . لكن عدم صدق النوايا كان حائلا دون خروج هذا المشروع الحيوي الى الحياة على الرغم من سهولة شروط التنفيذ[٢].

---

(١) المصدر السابق ، ص١٥ .

(٢) المصدر السابق ، ص١٦ .

٤ ـ الشركة العربية للملاحة البحرية :

وافق المجلس الاقتصادي العربي على هذا المشروع في عام ١٩٦٣ بهدف القيام بجميع عمليات الملاحة والنقل للاشخاص والبضائع والبترول برأسمال قدره ٥,٣ مليون جنيه مصري موزعة على ٥٣٠ الف سهم . وقد تم التوقيع عليها من قبل كل من الاردن والعراق وسوريا والكويت ومصر.

ويلاحظ عند تقييم هذا المشروع ان عدم تصديق الكويت على الاتفاقية كان حائلا دون تنفيذ المشروع كما تبين ضآلة رأس مال المشروع بالمقارنة مع ما يتطلبه حجم العمل ، ان عدم خروج هذا المشروع الى حيز الوجود يدل مرة اخرى على عدم صدق النوايا .

٥ ـ الصندوق العربي للتنمية الاقتصادية والاجتماعية .

وافق المجلس الاقتصادي العربي على انشاء هذا الصندوق في مايو ١٩٦٨ بغرض تمويل المشروعات الاقتصادية ذات الطابع الاستثماري وتشجيع توظيف الاموال العامة والخاصة لتنمية الاقتصاد العربي وتوفير الخبرات الفنية في مجالات التنمية الاقتصادية وقد وقعت على الاتفاقية كل من الاردن والجزائر ، السودان ، سوريا ، مصر ، اليمن ، الكويت ، لبنان ، ليبيا ، اليمن الجنوبية ، وامارة ابوظبي ، ثم انضمت بقية الدول العربية جميعها الى هذه الاتفاقية فيما بعد . وقد نص على ان يكون رأس مال الصندوق ١٠٠ مليون دينار كويتي مقسمة الى عشرة آلاف سهم .

وفيما يتعلق بتجربة الصندوق خلال سنوات عمله يتضح بان قدرته المالية تعتمد على تعبئة الموارد المالية الاضافية من المؤسسات المالية العربية الاخرى . ولهذا فان نجاح الصندوق مرتبط بنجاحه في اجراء التنسيق بينه وبين هذه المؤسسات .

وعلى الرغم من هذه الملاحظات فان الصندوق يعتبر خطوة ايجابية في طريق التعاون الاقتصادي العربي .

٦ ـ صندوق النقد العربي :

في مجال التنسيق والتعاون النقدي بين البلاد العربية اتفقت عشرون دولة عربية في اجتماع محافظي البنوك المركزية المنعقد في نوفمبر ١٩٧٥ على انشاء

هذا الصندوق برأسمال قدره ٢٥٠ مليون دينار عربي حسابي او ما يعادل ٧٥٠ مليون وحدة من وحدات حقوق السحب الخاصة وقد وقع وزراء المال والاقتصاد العرب على اتفاقية الصندوق في اجتماعهم المنعقد في الرباط في ٢٦ ابريل ١٩٧٦ .

يهدف الصندوق الى تصحيح الاختلال في موازين مدفوعات الدول الاعضاء وارساء السياسات واساليب التعاون النقدي العربي بما يزيد خطى التكامل الاقتصادي العربي ، وتعجيل التنمية الاقتصادية في الدول الاعضاء .

كما يهدف الصندوق الى استقرار اسعار صرف العملات العربية ، وجعلها قابلة للتحويل فيما بينها وازالة القيود على المدفوعات التجارية ، وتقديم المشورة الى الدول الاعضاء فيما يتعلق باستثمار مواردها النقدية بطريق يؤدي الى تنميتها والمحافظة على قيمتها الحقيقية . كما ان من اهداف الصندوق تطوير الاسواق المالية للدول العربية .

ومن بين الوسائل المقترحة لتحقيق اهداف الصندوق تقديم التسهيلات قصيرة ومتوسطة الاجل للدول الاعضاء للمساهمة في تمويل العجز الكلي في موازين مدفوعاتها الناجم عن تبادل السلع والخدمات ، ومبالغ التحويلات ، وانتقال رؤوس الاموال ، واصدار الكفالات لصالح الاعضاء وتعزيزا لاقتراضها من المصادر المالية الاخرى لتمويل العجز في موازين مدفوعاتها والتوسط في اصدار القروض في الاسواق المالية العربية والدولية للدول الاعضاء .

ولا شك ان قيمة هذا الجهاز النقدي العربي يعتبر اضافة كبيرة لجهود التكامل الاقتصادي العربي على الرغم من ضآلة رأس مال الصندوق وبالمقارنة مع الاحتياجات الكبيرة للمنطقة العربية وخاصة في الدول العربية غير النفطية الامر الذي يحد من فاعليته .

ان استعراض المشروعات العربية المشتركة السابق يدل اولا على محدودية عدد المشروعات التي اتفق عليها علما بان الفترة التي مضت منذ انشاء جامعة الدول العربية كانت فترة طويلة . ويلاحظ ثانيا بان كثيرا من الدول العربية تمتنع عن التوقيع على اتفاقيات اقامة هذه المشروعات بينما تمتنع عن التصديق دول اخرى موقعة على الاتفاق ، كما ان بعض الاتفاقيات لم تبدأ مرحلة التنفيذ الفعلي بالرغم من اتمام التوقيع والتصديق عليها . ويمكن ان

يعزى فشل بعض المشروعات الى عدم وجود الجهاز المسؤول عن اختيار المشروعات ودراسة الجدوى لها ، وتهيئة التمويل اللازم لانجاحها .

رابعا : اتفاقية الوحدة الاقتصادية العربية :

تنفيذا لقرار اللجنة السياسية لجامعة الدول العربية وافق المجلس الاقتصادي العربي على مشروع الاتفاقية في ١٩٦٧/٦/٣ ، وخلال عام ١٩٦٢ ، ١٩٦٣ وقعت على الاتفاقية سبع دول عربية هي الاردن ، المغرب ، الكويت ، مصر ، سوريا ، العراق ، اليمن ، وبعد ان صدقت خمس دول على الاتفاقية (الكويت ، مصر ، العراق ، سوريا ، الاردن) اصبحت نافذة المفعول في ١٩٦٤/٤/٣٠ بعد ذلك انضم الى هذه الاتفاقية ست بلاد عربية وصدقت عليها وهي اليمن الشمالي واليمن الجنوبي ، والسودان ، دولة الامارات العربية المتحدة ، الصومال ، ليبيا ، وبهذا يصبح عدد الدول العربية الاعضاء في الاتفاقية احدى عشرة دولة .

تتكون اتفاقية الوحدة الاقتصادية العربية من ديباجة واربعة فصول وملحقين ، ولقد جاء في الديباجة ان الدول العربية الموقعة على الاتفاقية :

« رغبة منها في تنظيم العلاقات الاقتصادية بين دول الجامعة العربية وتوطيدها على اساس تلاحم الصلات الطبيعية والتاريخية القائمة بينها وتحقيق افضل الشروط لازدهار اقتصادها وتنمية ثرواتها ولتأمين رفاهية بلادها . قد اتفقت على قيام وحدة اقتصادية كاملة بينها وعلى تحقيقها بصورة تدريجية وبما يمكن من السرعة التي تضمن انتقال بلادها من الوضع الراهن الى الوضع المقبل دون المساس بمصالحها الأساسية » .

تستهدف الاتفاقية تحقيق وحدة اقتصادية كاملة تضمن لهذه الدول ورعاياها على قدم المساواة مجموعة من الحريات هي :

١ ــ حرية انتقال الاشخاص ورؤوس الاموال .

٢ ــ حرية الاقامة والعمل والاستخدام وممارسة النشاط الاقتصادي .

٣ ــ حرية تبادل البضائع والمنتجات الوطنية والاجنبية .

٤ ــ حرية النقل والترانزيت واستعمال وسائل النقل والمرافىء والمطارات المدنية .

٥ ــ حقوق التملك والايصاء والارث .

واما الوسائل المقترحة لتحقيق تلك الاهداف فقد نص عليها كما يلي :

١ ــ جعل بلادها منطقة جمركية واحدة تخضع لادارة موحدة وتوحيد التعريفة الجمركية المطبقة في كل منها .

٢ ــ توحيد انظمة النقل والترانزيت .

٣ ــ توحيد سياسات الاستيراد والتصدير والانظمة المتعلقة بها .

٤ ــ تنسيق السياسات المتعلقة بالزراعة والصناعة والتجارة الداخلية .

٥ ــ تنسيق السياسات النقدية والمالية تمهيدا للتوحيد النقدي .

٦ ــ تنسيق التشريعات والضرائب من الرسوم الجمركية وغيرها المتعلقة بالزراعة والصناعة والتجارة والعقارات وتوظيف رؤوس الاموال .

٧ ــ توحيد اساليب التصنيف والتبويب الاحصائية !

اما فيما يختص بشؤون التنفيذ فقد عهدت الاتفاقية بالادارة الى هيئة اسمتها مجلس الوحدة الاقتصادية العربية ، كهيئة دائمة مسؤولة عن تنفيذ احكام الاتفاقية ، كما نصت على كل ما يتعلق باعمال هذه الهيئة .

كما تضمنت الاتفاقية بالاضافة الى المواد الخاصة بالاهداف والوسائل والتنفيذ ، مواد اخرى تتعلق بالمدة اللازمة للوصول للوحدة الاقتصادية في الاتفاقية ، والتي حددت بفترة خمس سنوات يمكن تمديدها الى خمس سنوات اخرى اذا دعت الضرورة الى ذلك . كما نصت الاتفاقية على استثنائين هامين : الاستثناء الاول يتعلق بامكان التجاوز عن مبدأ التوحيد في حالات واقطار خاصة بموافقة مجلس الوحدة الاقتصادية ، والاستثناء الثاني ينص على جواز عقد اتفاقية اقتصادية بين البلدان المتعاقدة تستهدف وحدة اوسع مدى من هذه الاتفاقية .

عند تقييمنا لهذه الاتفاقية تجدر الاشارة الى الملاحظات التالية :

١ ــ ان الاتفاقية تخطط للتكامل الاقتصادي الشامل وعلى مراحل كي تتجنب مخاطر الطفرة وما يصحبها من قرارات سريعة في مثل هذه الامور .

٢ ـ لم تنضم تسع دول عربية الى الاتفاقية مما يجعل الاتفاقية اقل عمومية من اتفاقية تسهيل التبادل التجاري وتنظيم تجارة الترانزيت التي تشمل غالبية الدول العربية .

٣ ـ لقد مضت سبع سنوات بين الموافقة على مشروع الاتفاقية (١٩٥٧) وبين بداية تنفيذها (١٩٦٤) وهي فترة طويلة بلا شك مما يؤكد ان المشاكل السياسية بين البلاد العربية كثيرا ما تعرقل مسيرة التعاون الاقتصادي .

٤ ـ لا يتمتع مجلس الوحدة الاقتصادية العربية بصلاحيات ملزمة لجميع الاعضاء عند تنفيذ احكام الاتفاقية لان قراراته خاضعة لاقرارها وفق الاصول الدستورية المرعية في كل بلد عضو في الاتفاقية وقد ادى هذا الامر الى عدم التزام الاعضاء بتنفيذ قرارات المجلس المتعلقة بازالة القيود الادارية في وجه التبادل التجاري العربي .

٥ ـ مقارنة مع الاتفاقيات المماثلة ، مثل اتفاقية السوق الاوروبية المشتركة ، لا تهتم الاتفاقية بالتفصيلات الامر الذي ادى الى الغموض في كثير من احكامها ، ومن ثم ظهور المشاكل المتعلقة بالتطبيق .

٦ ـ لم تهتم الاتفاقية بانشاء صناديق دعم للصناعة والزراعة والاستثمارات في الدول الاعضاء لتجنب انحراف التجارة والاستثمار في الدول الاعضاء الاقل تطورا لصالح البلدان الاكثر تطورا عند زوال الرسوم الجمركية والقيود المفروضة على انتقال السلع وعناصر الانتاج في هذه الدول .

خامسا : السوق العربية المشتركة :

نشأت السوق العربية المشتركة بقرار صادر عن مجلس الوحدة الاقتصادية العربية في ١٣/٨/١٩٦٤ اي بعد ثلاثة اشهر من بداية العمل باحكام اتفاقية الوحدة الاقتصادية العربية .

ويتبين في مقدمة قرار انشاء السوق انها تهدف الى نفس الاهداف التي نصت عليها اتفاقية الوحدة الاقتصادية العربية (باستثناء الفقرة الاخيرة فيها او المتعلقة بحقوق التملك والايصاء والارث) وهي الحريات الاربعة : حرية انتقال الاشخاص ورؤوس الاموال ، وحرية انتقال البضائع ، وحرية الاقامة والعمل والاستخدام وممارسة النشاط الاقتصادي ، حرية النقل والترانزيت .

واما فيما يتعلق بعضوية السوق ، فقد نصت المادة الاولى من قرار انشاء السوق بأن تكون الاطراف المتعاقدة هي الدول الاعضاء في مجلس الوحدة الاقتصادية العربية ، وهذا يعني ان الانضمام الى اتفاقية الوحدة الاقتصادية العربية هو شرط اساسي لعضوية السوق العربية المشتركة الامر الذي يدل على ان السوق ليست خطوة مستقلة عن الوحدة الاقتصادية في طريق التعاون الاقتصادي العربي . واما الدول التي صدقت على قرار السوق العربية المشتركة فهي الاردن وسوريا والعراق ومصر .

وفيما يتعلق بالادارة فان قرار انشاء السوق لم يتضمن اية تفصيلات حول الاجهزة الادارية للسوق مما يدل على ان مجلس الوحدة الاقتصادية العربية هو السلطة العليا والهيئة المخططة والتشريعية للسوق .

ويتبين فيما يختص بشؤون التنفيذ ان مجلس الوحدة الاقتصادية يرغب في ان تتم اقامة السوق على مراحل بحيث تعطي الفرصة لكل دولة لتهيئة ظروفها الاقتصادية تدريجيا بما يتلاءم مع الوضع الجديد .

وبالاضافة الى ما سبق ذكره ، فقد تضمن قرار انشاء السوق الاسس المتعلقة باطلاق حرية تبادل المنتجات ومراعاة الظروف الاقتصادية لبعض الدول الاعضاء وتطبيق مبدأ الدولة الاكثر رعاية وعدم منح ميزات افضل في الاتفاقيات التي تعقدها الدول الاعضاء مع دول غير اعضاء في اتفاقية الوحدة ، ومنح دعم الصادرات ومنع اعادة التصدير ، وثم تنظيم تسوية قيم المعاملات التجارية .

اما فيما يتعلق بمسيرة السوق فقد دخلت السوق مرحلتها الاخيرة في اول عام ١٩٧١ وصولا الى ما يسمى بمنطقة التجارة الحرة بين الدول الاطراف(١) وفي مجال تسهيل التبادل التجاري اصدرت الدول الاعضاء القرارات المتضمنة تطبيق التخفيضات التي نص عليها قرار السوق في مجال الرسوم الجمركية والقيود الادارية ، كما انجزت دراسة لمشروع القانون الجمركي الموحد كمظهر من مظاهر استكمال تنسيق التشريعات التي تحكم اطار التجارة ، وفي مجال تسوية المدفوعات اقر مجلس الوحدة اتفاقية اتحاد المدفوعات العربي كما نصت

---

(١) الدكتور عبدالعال الصكبان « السوق العربية المشتركة ... تطور فكرتها ، مسيرتها ، آفاقها » بحث منشور في وقائع وابحاث مؤتمر اتحاد الاقتصاديين العرب الثالث ، دمشق ، ديسمبر ١٩٧١ ، ص١١١ .

دراسات متعلقة بتنسيق التشريعات والانظمة المالية والضريبية والنقدية والزراعية والتجارية .

وفي مجال تسهيل انتقال الايدي العاملة تمت الموافقة على اربع اتفاقيات لتحقيق هدف حرية الانتقال والاقامة والعمل والاستخدام . وفي مجال انتقال رؤوس الاموال تم اقرار اتفاقية تشجيع انتقال رؤوس الاموال وآخر باتفاقية المؤسسة العربية لضمان الاستثمار .

هذه هي اهم الخطوات التي تمت في نطاق العمل لتحقيق اهداف السوق . وتجدر الاشارة الى ان انجازها من قبل مجلس الوحدة الاقتصادية العربية لا يعني بالضرورة وضعها موضع التنفيذ .

اما فيما يتعلق بتطور التبادل التجاري لدول الوحدة والسوق فعلى الرغم من استكمال جميع مراحل تحرير التجارة بين دول السوق من كافة الرسوم والقيود الادارية منذ بداية عام ١٩٧١ والذي يعتبر انجازا هاما في حد ذاته من الناحية الشكلية ، فان حجم التبادل التجاري ما زال ضعيفا بين دول السوق .

عند تقييم تجربة السوق العربية المشتركة يلاحظ ما يلي :

١ ــ مع ان كافة مراحل السوق العربية المشتركة قد اكتملت رسميا الا انه يتبين انها في الواقع لم تتقدم اكثر من اية منطقة للتجارة الحرة ، بل ان حتى هذا الهدف المتواضع لم يمكن تحقيقه ، اذ يلاحظ بان تبادل السلع في هذه المنطقة لا يتم بحرية تامة نسبة لوجود العديد من القيود الادارية والنقدية والاستيرادية والتي تعاني منها المنطقة .

٢ ــ لم تتعد دول السوق الأربع دول ، وما زال حجم التبادل التجاري بها ضعيفا ، ومعظم اهداف السوق لم تتحقق وهذا يعني ان صفة الاجماع العربي غير متوافرة في هذا السوق كما هو الامر بالنسبة لاتفاقية الوحدة الاقتصادية[١] . وترتيبا على ذلك فان السوق لا تعدو كونها تطويرا لاتفاقية التبادل التجاري ولتنظيم تجارة الترانزيت ، كما ان عدم انضمام غالبية الدول العربية الى السوق يرجع الى اشتراط الانضمام لاتفاقية الوحدة الاقتصادية ، وربما يكون من المناسب اسقاط هذا الشرط وجعل السوق جهازا مستقلا .

---

(١) د. الصكبان ، مصدر مشار اليه سابقا ، ص١١٠ .

٣ ـ ان قرار انشاء السوق لم يتضمن تفصيلات حول الاجهزة الادارية للسوق باعتبار ان السوق ليس جهازا مستقلا عن مجلس الوحدة الاقتصادية ولهذا السبب يلاحظ عدم ايجاد محكمة عليا للسوق للنظر في الخلافات التي قد تنشأ بين الدول الاعضاء واصدار احكام بشأنها[١] .

٤ ـ ان حق الدول الاعضاء في ان تطلب استثناء من تحرير بعض السلع من الرسوم الجمركية يعتبر من نقاط الضعف في اتفاقية السوق .

٥ ـ على الرغم من اختصار مراحل السوق ، فان التشريعات النقدية والمالية والتجارية لا زالت غير موحدة مما يحد من امكانيات قيام منظمة التجارة الحرة التي هي اضعف انواع التكتل الاقتصادي . كما تجدر الاشارة الى ان اتفاقية اتحاد المدفوعات لم توضع موضع التنفيذ ، ومشروع القانون الجمركي لم تتخذ الخطوات الجادة على تشريعه .

٦ ـ ومن العوامل الرئيسية في فشل السوق عدم تحقيق التناسق الجاد بين الخطط الاقتصادية لدول السوق . وقد تنبه المجلس الى هذا القصور وعقد اجتماعين على مستوى وزراء التخطيط عام ١٩٧٠ وعام ١٩٧١ واصدر القرارات التي تهدف الى تحقيق التنسيق والتكامل الاقتصادي بين الدول الاعضاء ، ولكن هذه القرارات تحولت الى توصيات ولم تطبق حتى اليوم .

٧ ـ عدم الجدية في تطبيق احكام السوق ، والدليل على ذلك ان كافة دول السوق تقوم بانجاز خططها الاقتصادية ، الواحدة بعد الاخرى ، دون اي اعتبار لاعمال التنسيق المصدق عليها من قبل المجلس .

٨ ـ ان قرار انشاء السوق قد اغفل قيام صناديق دعم للصناعات القائمة الاقل كفاءة في الدول الاعضاء لفترة مؤقتة حتى يتم التنسيق الجمركي والصناعي والزراعي ومن ثم توزيع المنافع والاعباء على الدول الاعضاء بصورة متكافئة .

---

(١) د. علي لطفي ، مصدر مشار اليه سابقا ، ص٢٠ .

سادسا : اتفاقية تيسير وتنمية التبادل التجاري بين الدول العربية سنة ١٩٨١ :

منذ بداية السبعينات ظهرت الحاجة الى وضع اتفاقية جديدة لتشجيع وتنمية التجارة بين الدول العربية وذلك لعدة عوامل اهمها[١] :

١ ـ عدم كفاية الاحكام التي تضمنتها اتفاقية سنة ١٩٥٣ وقرار السوق العربية المشتركة لتحقيق اهدافهما في تزايد التجارة بين البلاد العربية بصورة مستمرة .

٢ ـ التطور الذي حدث في الفكر الاقتصادي العربي الذي يرى بأن مجرد ازالة القيود الجمركية وغير الجمركية لا تؤدي وحدها الى تعزيز وتنمية التجارة بل يجب ان يقترن ذلك بتنمية الطاقات الانتاجية العربية بما يجعلها قادرة على الاستجابة لمتطلبات التوسع المستمر في التجارة فيما بينها .

٣ ـ الاتجاه القوي الذي ساد منذ بداية السبعينات لمراجعة وتقييم العمل الاقتصادي العربي المشترك بهدف تطويره على اسس علمية .

وفي اطار هذا الاتجاه العام وبناء على قرار المجلس الاقتصـادي والاجتماعي لجامعة الدول العربية ، قامت الامانة العامة للجامعة بمعاونة مجموعة من الخبراء بوضع مشروع اتفاقية تيسير وتنمية التبادل التجاري بين الدول العربية التي تم التوقيع عليها من الدول العربية في ١٩٨١/٢/٢٧ .

وبصفة عامة تمثل هذه الاتفاقية تقدما هاما من عدة نواحي :

اولا : فهي تربط بوضوح بين تحرير التجارة بين البلاد العربية وبين التكامل الاقتصادي العربي الذي تنظر اليه باعتباره « وسيلة اساسية لتعزيز التنمية العربية الشاملة[٢] ومن هنا فانها تقرر بأن يقترن تحرير التجارة بهدف « الربط المنسق بين انتاج السلع العربية وتبادلها وذلك بمختلف السبل وعلى الاخص تقديم التسهيلات التمويلية اللازمة لانتاجها » . وقد تأثرت الاتفاقية بالمبادىء الاساسية التي تضمنها كل من « ميثاق العمل الاقتصادي القومي » و « استراتيجية العمل الاقتصادي العربي

---

(١) جامعة الدول العربية : « اتفاقيات تشجيع وتنمية التجارة بين البلاد العربية « دراسة تحليلية من اعداد الدكتور لبيب شقير) بحث قدم لندوة الصادرات العربية ابوظبي ١٩٨٢/٥/٢ صفحة ١٧ .

(٢) ديباجة الاتفاقية .

المشترك » اللتين وافق عليهما مؤتمر القمة العربي الحادي عشر المنعقد في الاردن في نوفمبر ١٩٨٠ .

ثانيا : تقرر الاتفاقية في مادتها الخامسة تحييد التبادل التجاري بين البلاد العربية وعزله عن التقلبات السياسية بين حكومات هذه البلاد .

ثالثا : ان الاتفاقية وضعت اساسا لتيسير وتنمية التبادل التجاري بين الدول العربية الا انها اكدت على ضرورة تعاون الدول العربية في تنسيق علاقاتها الاقتصادية والتجارية في مواجهة الدول الاخرى .

رابعا : حددت الاتفاقية جهة للاشراف على تنفيذها وهو المجلس الاقتصادي والاجتماعي للجامعة العربية واعطته الصلاحيات اللازمة لذلك .

خامسا : وضعت الاتفاقية نظاما لتسوية المنازعات التي تنشأ عن تطبيقها .

هذه النقاط تعتبر من المزايا الاساسية التي عالجت فيها الاتفاقية الجديدة القصور في الاتفاقيات السابقة .

اما عن المبادىء التي تضمنتها الاتفاقية لتنظيم التبادل التجاري بين الدول العربية هي :

(١) تحرير التبادل التجاري بين الدول العربية وتقرير درجة من الحماية الجماعية للسلع .

(٢) بعض المبادىء والاسس العامة .

(أ) وفي مجال تحرير التبادل التجاري بين الدول العربية وتقرير الحماية الجماعية للسلع العربية تستهدف هذه الاتفاقية ما يلي(١) :

١ ــ تحرير التبادل التجاري بين الدول العربية من الرسوم والقيود المختلفة التي تفرض عليها وفقا للاسس الآتية :

(أ) تحرير كامل لبعض السلع والمنتجات العربية المتبادلة بين الدول الاعضاء من الرسوم والقيود المتنوعة المفروضة على المنتجات غير القطرية .

(ب) التخفيض التدريجي للرسوم والقيود المختلفة المفروضة على بعض السلع والمنتجات العربية المتبادلة الاخرى .

---

(١) الفصل الأول ، المادة الثانية من الاتفاقية .

(جـ) توفير حماية متدرجة للسلع والمنتجات العربية لمواجهة منافسة السلع غير العربية المثيلة او البديلة .

(د) تحديد السلع والمنتجات المشار اليها بالفقرات ـ (أ ، ب ، جـ) في ضوء المعايير الاسترشادية الواردة في المادة الرابعة او تلك التي يقررها المجلس .

٢ ـ الربط المنسق بين انتاج السلع العربية وتبادلها ، وذلك بمختلف السبل ، وعلى الاخص تقديم التسهيلات التمويلية اللازمة لانتاجها .

٣ ـ تيسير تمويل التبادل التجاري بين الدول العربية وتسوية المدفوعات الناشئة عن هذا التبادل .

٤ ـ منح تيسيرات خاصة للخدمات المرتبطة بالتجارة المتبادلة بين الدول الاطراف .

٥ ـ الاخذ بمبدأ التبادل المباشر في التجارة بين الدول الاطراف .

٦ ـ مراعاة الظروف الانمائية لكل دولة من الدول الاطراف في الاتفاقية وعلى الاخص اوضاع الدول الاقل نموا منها .

٧ ـ التوزيع العادل للمنافع والاعباء المترتبة على تطبيق الاتفاقية .

وتقرر المادة السادسة من الاتفاقية السلع التي ينطبق عليها الاعفاء الكامل من الرسوم الجمركية والضرائب ذات الاثر المماثل ومن القيود غير الجمركية المفروضة على الاستيراد وهي كما يلي :

١ ـ السلع الزراعية والحيوانية سواء في شكلها الاولى او بعد احداث تغييرات عليها لجعلها صالحة للاستهلاك .

٢ ـ المواد الخام المعدنية وغير المعدنية سواء في شكلها الاولى او في الشكل المناسب لها في عملية التصنيع .

٣ ـ السلع نصف المصنعة الواردة في القوائم التي يعتمدها المجلس اذا كانت تدخل في انتاج سلع صناعية .

٤ ـ السلع التي تنتجها المشروعات العربية المشتركة المنشأة في اطار جامعة الدول العربية او المنظمات العربية العاملة في نطاقها .

٥ ـ السلع المصنعة التي يتفق عليها وفقا للقوائم المعتمدة من المجلس .

ب ـ بعض الاسس العامة للاتفاقية(١) :

١ ـ يشترط لاعتبار السلعة عربية لاغراض الاتفاقية ان لا تقل القيمة المضافة الناشئة عن انتاجها في الدولة العربية المنتجة عن ٤٠٪ من القيمة النهائية للسلعة .

٢ ـ تشجع الدول الاطراف من خلال سياستها النقدية والمصرفية التبادل التجاري بينها وتسهل توفير التمويل اللازم له وتوسيع قاعدته بشروط تفضيلية وميسرة .

٣ ـ يضع صندوق النقد العربي وفقا لاتفاقية انشائه النظام المناسب لتيسير تسوية المدفوعات الناجمة عن التبادل التجاري بين الدول الاطراف كما يكلف بتقديم المقترحات الخاصة بالسياسات المصرفية التي تخدم الغرض نفسه الى البنوك المركزية ومؤسسات النقد العربية وفقا لتوجيهات المجلس .

٤ ـ تحث المؤسسات العربية المشتركة وفق نظمها الخاصة على تشجيع عمليات التبادل التجاري بين الدول الاطراف وتيسير وتقديم التمويل اللازم لها وتوسيع قاعدتها طبقا لشروط تفضيلية ميسرة .

٥ ـ حث المؤسسة العربية لضمان الاستثمار والمؤسسات العربية المختصة على توفير الضمان اللازم للتبادل التجاري بين الدول الاطراف وفق شروط تفضيلية وحسب نظمها الخاصة .

وعند تقييم هذه الاتفاقية يلاحظ بدون شك ، بانها تمثل تقدما كبيرا بالنسبة للاتفاقيات السابقة حيث انها تربط بين تنمية التبادل التجاري وبين التقدم على طريق التكامل الاقتصادي العربي . كذلك تنظر لهذا التكامل على « انه عملية دفع للاقتصاديات العربية في عملية تنمية قائمة على الترابط العضوي والتشابك الانتاجي بين هذه الاقتصادات بعضها البعض وبين قطاعاتها المتعددة ، مع كل ما يتطلبه ذلك من تخطيط ومن توفير وتيسير للموارد التمويلية(٢) . »

---

(١) المادة العاشرة من الاتفاقية .

(٢) نفس المصدر السابق ، صفحة ٢٥

خاتمــة :

شهدت السنوات الثلاثون الاخيرة محاولات عديدة وتجارب مختلفة في مجال التعاون الاقتصادي العربي على نحو ما تم استعراضه في هذا الفصل . وعلى الرغم من ضخامة هذه المجهودات في ظاهرها على الاقل ما زال الوطن العربي يعاني من التفتت والتبعية والتجزئة ، وكنتيجة حتمية لذلك فما زالت جميع البلاد العربية رغم ضخامة ما تتضمنه مجتمعة من موارد طبيعية وبشرية ، تعاني من التخلف . واذا كانت معظم هذه المحاولات للسعي في تحقيق التعاون الاقتصادي العربي قد باءت بالفشل فان ذلك يدل بلا شك على وجود الكثير من الصعاب والعقبات التي تقف حجر عثرة في مسيرة التعاون الاقتصادي العربي . ومن اهم العقبات التي واجهت التعاون الاقتصادي العربي وجعلت كل محاولات التكتل الاقتصادي العربي تبوء بالفشل ما يلي :

اختلاف النظم الاقتصادية ، ومراحل النمو ، واساليب التخطيط ، وتبعية معظم البلاد العربية اقتصاديا للدول الاجنبية ، والرغبة في الاستئثار بالثروات المحلية ، واختلاف نظام الحكم والاعتبارات السياسية .

الفصـــل الثامن

الأوضاع السياسية في المجتمع العربي

أ.د. علي أحمد عبد القادر
رئيس قسم العلوم السياسية

المحتويات

المطلب الأول : مفاهيم نظرية
مفهوم « الدولة » و « القومية »
مفهوم الامة في الاسلام
المطلب الثاني : حول واقعنا العربي واثر الاسلام فيه
المطلب الثالث : الشعوبية الحديثة
الفرعونية في مصر
الفينيقية في لبــنان
المطلب الرابع : جامعة الدول العربية
كمنظمة اقليمية ـ نظرا وتطبيقا
المطلب الخامس : مؤتمرات القمة العربية
المطلب السادس : مجلس التعاون الخليجي العربي
(نموذج لوحدة فرعية في النظام الاقليمي العربي)

المطلب الأول :
مفاهيم نظرية

تمهيـــد :

ارتفع علم الاسلام في شبه الجزيرة العربية ، ونادى الدعاة بأن لا الله الا الله ، وان محمدا رسول الله ، فآمن كثير من العرب في البادية والحضر وتركوا خلافاتهم ونبذوا خصوماتهم ، وكانوا على شفا حفرة من النار فأنقذهم الله جلت قدرته منها ، ووحد كلمتهم وارادتهم على قلب رجل واحد يؤمن بدعوته ويجاهد في سبيل نشرها وعزتها ـ شمالا وجنوبا ، شرقا وغربا ، مناديا بلسان مبين بان اتحدوا يا بني البشر على طريق الواحد الخالق .

وسارت مواكب النور تدعو الى وحدانية الله ونشر دينه ، وكانــت العربية ـ لغة القرآن ـ هي وسيلة ايصال الدعوة ، وتبادل الفكر بين الشعوب التي سعى اليها المسلمون الاوائل . وعلى مسيرة فترات زمنية مختلفة صارت هذه اللغة العربية الشريفة اللغة الرئيسية لنيف ومائة مليون من البشر المسلمين ، يقطنون نحوا من احد عشر مليون كيلومتر مربع من ارض متصلة .

وكان مما يدعو الى التأمل واعمال الفكر ان دعوة الاسلام الحنيف قد سرت شمالا وشرقا ، ثم غربا الى مناطق آمنت بها في قوة واعتزاز ـ امتدت لتربو على تلك المناطق التي تحدثت العربية بعد ذلك ، واصبحت منها وسيلة التفاهم والتعايش وتبادل الآراء : فكانت وما زالت ، امم منها الباكستان وايران شرقا ، وتركيا وافغانستان شمالا ، ثم اندونيسيا والملايو جنوبا ـ بلادا تعتز باسلامها ولكنها لا تتحدث العربية مثلا ، مما يقترح علينا ان نعي تمييزا ضروريا بين دعوة الاسلام العالمية واللغة العربية كوسيلة تستخدمها لبيان دعوة الحق ونشرها بين الانام .

وعند طرح مفاهيم المتغيرات السياسية في المجتمع العربي تواجهنا اسئلة تتطلب قدرا واسعا من الادراك الواقعي لحقيقة احتكاك المجتمعات البشرية ببعضها البعض ، ان تنافسا وصراعا ، او تعاونا وتنسيقا ـ بدرجات مختلفة ، ومن ثم يكون على الباحث ان يعالج صراحة فكرة مفاهيم « القومية » التي تسود

المجتمعات « الغربية » والتي انتقلت الينا مع الزحف الاستعماري والاستيطاني الغربي ، فشكلت غزوا فكريا وحضاريا لا يقل خطورة عن واقع الاحتلال والسيطرة العسكرية والسياسية والاقتصادية ، بل هو اكثر وبالا على حاضر الشعوب والامم ومستقبلها . وقد حاول هذا الفكر « الغربي » ان يجيب على السؤال الآتي : هل تصنع الدولة قوميتها – ام ان العكس هو الصحيح ؟ فتكون القومية باعثة وخالقة للنظام السياسي والجهاز الاداري في مجتمعها ؟ وهل يمكن لقومية ما ان تظل في حياتها ونموها وتطورها دون ان يكون لها (نظام) سياسي ؟ ام العكس – بمعنى جواز قيام دولة كجهاز سياسي واداري واحد في نفس الوقت الذي يحتوي فيه مجتمعها اكثر من انتماء (قومي) واحد

مفهوم « الدولة » ومفهوم « القومية » :

لا شك ان ترابط المجتمع حسب معايير مشتركة ، وبناء على اسس وركائز اصلية اعم واشمل من وجود « الدولة » . واذا كانت القومية عبارة عن انصهار لعوامل موضوعية وذاتية عديدة متشاركة ومترابطة الى حد كبير – فان « الدولة » لا تزيد عن كونها جهازا صنعه الانسان وخلقه . وكما يستطيع الانسان ان يخلق شيئا فان في استطاعته فرضا ان يحطمه في يوم من الايام . فالمجتمع والانتماء اليه وراثي ، يصعب على الانسان ان يتخلص منه إن هو اراد ، ولكن « الدولة » كأداة من صنعه (هو) سيكون في امكانه ان يعدل فيها او يغير ويعيد بناءها ان هو رغب في ذلك . فبحكم الميلاد يصبح الفرد عضوا في مجتمع معين ، ولكنه لا يدين بالولاء والطاعة لنظام « الدولة » الا بحكم قانون وضعي .

ثم ان المفاهيم العامة للمجتمع والتي تشكل اتجاهات الرأي العام فيه ، وتنصهر فيها ببطء وخلال عملية تجارب طويلة متأنية – من مثاليات واهداف – تظل في حركة دائمة ساعية الى الافضل . هذه الاهداف وتلك المثاليات المتجددة الابعاد هي التي تصنع المعايير التي يجب على « الدولة » ان تجتهد للوصول اليها . ويستتبع هذا :

(١) حق كل جماعة بشرية متجانسة ومتميزة في ان تشكل جهازها السياسي الخاص بها ، الذي يرعى مصالحها منفصلة عمن سواها كقومية لها ذاتيتها الخاصة التي تنفرد بها .

(٢) ان يكون لكل « قومية » حق الاحتفاظ بتماسكها وتجانسها ، وحق الطاعة الكاملة والاخلاص التام من كل اعضائها ـ مع ما يستتبعه هذا من امكانية امتصاص الاقليات في كيان المجتمع العام ، او طردها خارج حدودها القانونية والسياسية .

وقد غير التطور التاريخي للمجتمعات البشرية معظم هذه المفاهيم ، وابتعد الى حد كبير عن التفرقة بين « القومية » و « الدولة » وارتضى اصطلاح « الدولة ـ القومية » جامعا بذلك بين المدركين تحت تأثير تفاعلات السياسة الدولية ومتغيرات علاقات السلم والحرب بين الشعوب .

وتكاد تكون الحرب اقوى العوامل الموحدة لمشاعر واتجاهات ابناء « الدولة القومية » فالخوف من الهزيمة التي قد تؤدي الى الشعور بالذلة والتحقير بين ابناء مجتمع في مواجهة اعدائهم تدفعهم الى الموافقة على كل ما تتخذه « الدولة » من اساليب لمكافحة « الخطر المشترك » داخليا وخارجيا ـ حتى ولو كان في ذلك مساس بحرياتهم ومصالحهم الخاصة .

مفهوم « الامة » ومفهوم « القومية » :

يربط القانونيون عادة مفهوم « السيادة » ومتغيرات « الأمة » حينا و « الشعب » حينا آخر . وهي محاولات يعتريها الكثير من الصعوبـات والحساسيات ، خاصة وأن مفهوم « الأمة » في حد ذاته تتجاذبه تيارات وتعريفات كثيرة نورد منها على سبيل المثال لا الحصر :

(١) مدرك الثورة الفرنسية الذي يعتبر « الامة » كيانا مستقلا عن مكوناتها من الافراد والجماعات[١] ويترتب على هذا انصهار الفرد في الكل ، وحيث تكون ارادة الامة هي (الارادة الحقيقية) لابنائها ، حتى وان اعمتهم مصلحتهم الخاصة والوقتية عن أدراك تلك (الحقيقة) .

---

(١) يعكس هذا احد منظوري مفهوم (الارادة العامة) عند جان جاك روسو ، الذي يرى في تلك الارادة العامة لمجتمع من المجتمعات مبررا كافيا لانصهار وتفاعل مكوناته من الارادات الخاصة لافراده ، وهو بكاد في هذا ان يشبه (المركب الكيميائي) الذي لا تتضح فيه بالضرورة الخصائص الذاتية للعناصر الداخلة في تكوينه ، في الوقت الذي يختلف فيه كل مركب عن المركب الآخر بحسب الخصائص النوعية للعناصر الداخلة فيه ، ونسبة اوزان تواجدها الى بعضها البعض .

ومن ثم يكون الاعتراف الضمني بشتى صور ودرجات الاجبار والقهر التي تمارسها السلطات الحاكمة في بعض المجتمعات الشمولية[1] والدكتاتورية[2] .

ويضيف الباحثون في الفقه الدستوري الى ذلك ان (نظرية سيادة الامة) تؤدي الى الاعتراف لها بالشخصية القانونية ، مما يؤدي في نظرهم الى قيام « شخصين معنويين على اقليم واحد وهما الدولة والامة ، يتنازعان السلطة معا »[3] .

فاذا افترضنا تطابق مدركي (الامة) و (الدولة) على اساس تطابق حدودهما الاقليمية ــ وهو افتراض صعب ، بمعنى ان تكون الدولة والامة شخص واحد ــ كانت الدولة هي صاحبة السيادة ــ وهي كيان معنوي ــ وكأننا بذلك نسكن الارادة الفعلية او السيادة الفعلية في المجتمع ــ (الامة) ــ في شخص معنوي هو الدولة ، ومن ثم نتيح للسلطة الحاكمة فعلا ــ في اي صورة كانت ــ سلطانا مطلقا يتعذر تحديده .

(٢) مدرك سيادة الشعب باعتبار ان كل فرد من افراده مركز ومحتوى للسيادة : وبحيث يكون في مجموع سيادات هؤلاء الافراد تعبيرا عن

---

(١) (الشمولية) مدرك سياسي حديث لظاهرة احتكار السيطرة على اجهزة الحكم في مجتمع سياسي ، بغية تطوير وتغيير اوضاعه الداخلية ، حسب مفاهيم القيادة الشمولية فيه ، بالقسر والاجبار تارة والاستمالة والترغيب تارة اخرى عن طريق الاستخدام المخطط لاجهزة الاعلام والدعاية واجهزة المخابرات والامن .

(٢) (الدكتاتورية) مدرك سياسي قديم يتفق مع (الشمولية) في ظاهرة احتكار السيطرة على اجهزة الحكم ، ولكن يختلف عنها في انه لا يتسم بديناميكية الحركة من اجل التغيير والتطوير ، بل يحرص على تجميد اوضاع مجتمعة ونشاطاته خشية ان تؤدي الحركة الى اثارة حساسية او فتنة قد تتحول الى ثورة تقلب اوضاع مجتمعه . والدكتاتورية اما فردية اوتوقراطية ، او جماعية تحتكر السلطة ووسائلها كما هو الحال في نظام الحزب الواحد في بعض البلاد كالاتحاد السوفياتي مثلا .

(٣) راجع في هذا المضمون كتاب د. ثروت بدوي : النظم السياسية (القاهرة . النهضة العربية ، ١٩٦٤) ص ٤٠ ــ ٤١ ، والذي يعتمد فيه على آراء :

Marcel David : la Souverainete et les limites juridiques du Povoir Monarchique du IX au XV e Siecle (Paris: Dalloz, 1954)

السيادة الفعلية في المجتمع[١] ، مما يتيح قدرا عظيما من حرية الرأي وما ينبثق عنها من ممارسة واقع المشاركة السياسية .

وتحاول الكثير من المجتمعات المعاصرة ادعاء ذلك لنفسها ــ غير ان تحليل النظم السياسية لواقع الممارسة الفعلية لحقوق مشاركة الأفراد تثير جدلا بين مدرك (الاطر الدستورية) و (حقيقة) الممارسة الوظيفية الفعلية لتلك السيادة . فمفهوم الشعب (كحقيقة اجتماعية) او (الناس الحقيقيين)[٢] تختلف من مجتمع الى آخر من حيث تقاليده وممارساته في معاملة انواع مواطنيه ــ ذكورا واناثا ، متعلمين او أميين ، واصحاب ديانات ومذاهب مختلفة ، اوذوي الوان بشرة متغايرة ... الى غير ذلك من تنوع ــ مع كل ما يترتب على هذا من حقوق المشاركة السياسية وحرية التعبير عن الرأي .

مفهوم « الأمة » في الاسلام :

يرتكز مفهوم الترابط بين المجتمعات التي تدين بالاسلام الحنيف على قاعدة الدين اصلا . فامة الاسلام امة واحدة وان اختلفت مجتمعاتهم من حيث الموقع الجغرافي ، او اللغة ، اولون البشرة مثلا . يقول الله عز وجل « ان هذه امتكم امة واحدة وانا ربكم فاعبدون »[٣] وكذلك « وان هذه امتكم امة واحدة وانا ربكم فاتقون »[٤] وفي حديث الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم « يا ايها الناس ان ربكم واحد وان اباكم واحد ، الا لا فضل لعربي على عجمي ولا لعجمي على عربي ولا لأحمر على اسود ولا لأسود على احمر الا بالتقوى ، ان اكرمكم عند الله اتقاكم » . كما يقول الحديث الشريف « ان الله عز وجل اذهب عنكم عيبة الجاهلية وفخرها بالآباء ، الناس بنو آدم وآدم من تراب ، مؤمن تقي وفاجر شقي ، لينتهين اقوام يفخرون برجال انما هم فحم من فحم جهنم او

(١) يتفق هذا مع المنظور الآخر لمفهوم « الارادة العامة » عند جان جاك روسو ــ والذي يعتبر تلك الارادة محصلة لارادات مكوناتها ، فيكون هذا (كالخليط الكيميائي) الذي يمكن التعرف فيه ــ رغم كيانه الواحد ــ على عناصر مكوناته ونسب تواجدها .

(٢) د. ثروت بدوي : المرجع سابق الذكر ، ص٤٥ ــ ٤٦ .

(٣) القرآن الكريم : سورة الانبياء ، الآية ٩٢ .

(٤) القرآن الكريم : سورة المؤمنون ، الآية ٥٢ .

ليكونن اهون على الله من الجعلان التي تدفع النتن بانفها » كما يقول صلى الله عليه وسلم « من قتل تحت راية عمية يغضب للعصبية ويقاتل للعصبية فليس من امتي[١] .

وتأسيسا على هذا فمفهوم المسلمين مفهوم جامع شامل لهم ، وديار المسلمين عامة شاملة لكل شبر تمتد اليه قوتهم وامكانياتهم ، ولما كان الاسلام هو منبع قوة المسلمين في وحدتهم وترابطهم كان مفهوم « الامة » الاسلامية هنا هو مفهوم لا يرتبط باقليم محدد او موقع جغرافي بعينه ، وانما هو مفهوم عالمي في طبيعته يشمل كافة المسلمين عبر العالم وان تفرقت بهم مواقع جغرافية او ظروف تاريخية او معيشية او سياسية ، يعتبرها الاسلام ظروفا مؤقتة . ومن ثم فرق الاسلام بين ديار الاسلام حيث يأمن المسلم فيها على نفسه وذويه وماله ، وديار حرب لا تراعى فيها احكام الشريعة الاسلامية ويخشى فيها المسلم على نفسه وذويه وماله .

وفي هذا يحدثنا الشهيد عبدالقادر عوده بقوله :

« اعتبرت البلاد الاسلامية على تعددها واتساعها دارا واحدة ، لأنها محكومة بقانون واحد هو الشريعة الاسلامية ، ولأنها تخضع لدولة واحدة هي الدولة الاسلامية فهي من هذه الوجهة وحدة سياسية ووحدة قانونية لا تتعدد فيها الحكومات ، ولا تختلف فيها الاحكام باختلاف الجهات[٢] .

ويعزز من هذا الرأي مفهوم وحدة التشريع الاسلامي التي تسود او يجب ان تسود بلاد المسلمين عامة ــ حتى ان الذميين المقيمين في دار الاسلام يستطيعون (ان ارادوا) ان يحتكموا للشريعة الاسلامية ، فقد :

لعبت الوحدة التشريعية دورا اساسيا كاحدى مقومات وحدة الثقافة العربية . فالمجتمع العربي قد انتظم سلوك افراده بما تعارفوا عليه من قيم وفضائل وما نظروا اليه من خير او شر ، وما تواضعوا على كونه حقا او عدلا .

---

(١) اورد هذه الاحاديث الشريفة الشهيد عبدالقادر عودة : الاسلام واوضاعنا السياسية (بيروت : الرسالة ، بدون تاريخ) ص٢٢٧ ــ ٢٧٨ . الحديث في صحيح البخاري ، راجع المعجم المفهرس لالفاظ الحديث النبوي جــ٦ ص٣ مادة « كرم » ...

(٢) المرجع السابق : ص٢٨٠ ــ ٢٨١ .
الحديث في سنن ابي داود باب « الأدب » ــ والعيبة بضم العين المهملة وكسر الباء وفتح الياء مع التشديد « الكبر والنخوة » انظر بذل المجهود في حل ابي داود « كتاب الادب باب التفاخر بالاحساب » طبعة دار العلوم للطباعة بالقاهرة جــ٢٠ ص٥٧ .

وحدة في التشريع مكتوبا كان او متداولا ... حتى عدت على العالم العربي والاسلامي من نظم الامتيازات الاجنبية ، وادخلت الاصطلاحات القضائية مقتبسة عن النظم القانونية والتشريعية الغربية[1] .

وعلى الرغم من هذا فبعض من مفكري العرب المسلمين ما فتئوا يخلطون بين مفهومي « القومية » و « الامة » باعتبارهما دعوتين مترادفتين هادفتين الى وحدة الانتماء والوجود والهدف ، فمثلا :

فلما جاء الاسلام تكون العرب امة ، على ان الروح القبلية ظلت آثارها باقية رغم ذلك في صدر الاسلام ، اي ان هاتين النزعتين (الروح القومية العربية والروح القبلية) سارتا جنبا الى جنب .

ثم ينقل عن الاستاذ احمد امين في كتاب ضحى الاسلام (ص٢٠ — ٢١) : « وصرنا نسمع العربي — يفخر بقبيلته في الاسلام كما كان في الجاهلية ، وزاد في الاسلام الافتخار بالجنس العربي ... وروى عن رجل منهم انه كان يطوف بالبيت وهو يدعو لابيه فقيل له الا تدعو لأمك ؟ فقال انها تميمية (اي من قبيلة تميم) وقد كانت معادية لقبيلة ابيه »[2] .

والفرق جوهري بين الدعوتين « الامة » و « القومية » : فالاولى عالمية لا ترتبط بمحددي الزمان او المكان بينما ترتكز القومية على عناصر لا تغفل التمايز العنصري بين بني البشر على اساس الاصول العرقية او اللغوية او ظروف تاريخية ومادية شتى ، وكأننا نقول ان الاسلام كنظام شامل يختزل في عالميته تناقض الروحية والمادية بتأكيده على ان روحية التقوى لا تتعارض بالضرورة مع متابعة المصالح الدنيوية المادية ، فعلى المسلم ان هو فرغ من صلاته ان ينتشر في الارض يبتغي رزقا من الله ، وهو يعمل لدنياه كأنه مخلد ويعمل لآخرته كأنه يموت في غده ، بل ان الدنيا لديه هي (مزرعة الآخرة) على حد تعبير الامام ابي حامد الغزالي في كتابه فاتحة العلوم .

---

(١) عزالدين فودة : محاضرات في المجتمع العربي (القاهرة : دار الفكر العربي ، ١٩٦٤) ص٢١٤ .
الحديث في سنن ابن ماجة كتاب الفتن باب العصبية جـ٢ ص ١٣٠٢ « سنن ابن ماجة تحقيق محمد فؤاد عبدالباقي نشر دار التراث ، وفي صحيح مسلم باب الامارة وسنن النسائي باب التحريم رواية عمية » في النهاية قيل هو فعيلة من العماء الضلالة كالقتال في العصبية والاهواء وهي الامر الذي لا يستبين وجهه ، وهو كناية عن جماعة مجتمعين على امر مجهول لا يعرف انه حق او باطل — راجع ابن ماجة الصفحة السابقة والجزء بالهامش .

(٢) عبدالحميد متولي : مبادىء نظام الحكم في الاسلام مع المقارنة بالمبادىء الدستورية الحديثة (الاسكندرية ، منشأة المعارف ، الطبعة الرابعة ، ١٩٧٨) ، ص١٢٨ .

المطلب الثاني :
حول واقعنا العربي

اذا انتقلنا الى تطبيق هذه المفاهيم على العالم العربي وجدنا انه منذ فجر التاريخ نشأت اقدم حضارات عرفها الانسان حسب ما تحدثنا به اكتشافات الآثار ودراسات الانثروبولوجيا ، وفوق هذه الرقعة الشاسعة من الارض والممتدة عبر قارتين من العالم القديم تفاعلت تلك المدنيات ، واتصلت الحضارات عن طريق التبادل التجاري والهجرات السلمية او الفتوحات الحربية .

حقيقة ان العالم العربي المعاصر ككل لم يكن في التاريخ القديم وحدة سياسية متماسكة ، ولكن ذلك الجزء الذي عرف درجات متقدمة من المدنية في ذلك الحين استطاع بصورة او بأخرى ان يشكل ترابطا سياسيا واداريا بصور متعددة ومتفرقة لفترات تختلف طولا وقصرا .

أثر الاسلام :

كان الاسلام صاحب الفضل الاكبر في بداية مرحلة من تاريخ متجانس الى حد كبير في هذه المنطقة من العالم ، حيث استطاع بدعوته للتماسك والترابط ان يجمع اشتات العرب في شبه الجزيرة ، فوحد بينهم على عزيمة تعرفت على ذاتها وقوتها في تكتلها امام المجتمعات المحيطة بها ، وسارت تنشر الدين الاسلامي شرقا وغربا(١) .

ومع الدين نشر العرب عهدا من الطمأنينة والسلام في ربوع العراق والشام ومصر وشمال افريقيا بعد تخليصها من نير الاستعباد ومن الاحتلال الفارسي والبيزنطي ، فبدأت بالحكم العربي فترة سلام طويلة واستقرار متصل ، وعاشت هذه الشعوب نحو خمسة قرون بعيدة عن ان تمتد اليها يد اجنبي وهذا هو المقصود من القول بان العرب حققوا ما يسمى بالسلم الاسلامي Pax Islamica الذي اظل هذه المنطقة من الخليج الى المحيط .

---

(١) لعل قدرة الاسلام على توحيد قبائل عرب شبه الجزيرة كانت من اهم انجازات السنوات العشر الاولى لحكم الرسول صلى الله عليه وسلم ، فقد كانوا على حد تعبير د. عبدالحميد متولي اعرق امم الارض في الشقاق والفرقة والعداء » المرجع السابق ص١٢٩ ، كما ينقل عن السيد محمد رشيد رضا في كتابه : الوحي المحمدي ص٢٠٤ ان العرب كانت اعصى خلق الله على الخضوع والطاعة والانقياد ، لعراقتهم في الحرية ، وشدة بأسهم ، وعدم ابتلائهم بالملوك المستبدين القاهرين والرؤساء الروحيين المسيطرين الذين يذلون الامم ويخضعونها لكل ذي سلطان قوي .

وكما قلنا سابقا حمل العرب الى هذه البلاد ذوات الحضارات والمدنيات المادية القديمة مبادىء روحية جديدة تدعو الى المحبة والاخاء والمساواة والحرية تتمثل في عقود الصلح التي عقدها العرب مع شعوب العراق والشام ومصر والمغرب ، حيث كفلت لهم هذه العقود حرية الاعتقاد وحرية النفس والمال . ومن التقاء الجانبين : المادي بالروحي نشأت حضارة متجانسة الى حد كبير من حيث التقاليد والعادات والمقومات الفكرية والروحية تعتمد اساسا على انتشار اللغة العربية والدين الاسلامي .

الهجرات العربية الاسلامية :

وصحب استقرار الاوضاع في هذه المنطقة بعد تطهيرها من المعتدين هجرات من شبه الجزيرة العربية الى البلاد التي دانت بالاسلام ، وعمل العرب على الاستقرار فيها ، تدفقت هذه الهجرات الى العراق ، ثم الى الشام ، ثم تدفقت الى وادي النيل شمالا وجنوبا حتى وصلت سهول السودان ، وكانت هناك قبائل اخرى قد استقرت في مصر مثل بني هلال وسليم ورياح ثم غادرتها الى شمال افريقيا في برقة وطرابلس وتونس والجزائر حتى بلغت بلاد المغرب ، بل وصلت الى مصب السنغال جنوبا والى بلاد الاندلس في شبه جزيرة ايبريا شمالا ، وادت هذه الهجرات الى تأكيد التأثير العربي في المنطقة اذ دخلت شعوب هذه البلاد في دين الله افواجا ، واذا بالوطن العربي الكبير قد امتد بفضل الاسلام من المحيط الى الخليج في تلك الصورة التي تناقلناها عبر القرون .

الآثار السياسية لانتشار الاسلام :

شكلت المناطق التي انتشر فيها الاسلام حتى القرن الثالث الهجري (التاسع الميلادي) مجتمعا مترابطا من الناحية السياسية الى حد كبير لاكثر من ستة قرون ، واصبح ذلك الترابط والتماسك مرحلة من تراث العرب وتفكيرهم وتقاليدهم .

وساعد على هذا التماسك عوامل عدة من اهمها ترحيب اهل تلك البلاد بالهجرات العربية اليها حاملة اليها الدين الاسلامي الذي رأت فيه خلاصا من طغيان مستعمريهم ، خاصة بعد ان اتضحت لهم خصائصه القيمة في الحكم ، فنجد مثلا ان تحديد مكانة السلطة الغليا في المجتمع الجديد ــ على اتساعه ــ

كان في شخصية الخليفة الذي دان له الجميع بالولاء العميق لارتباطه بمعان دينية وتقاليد متوارثة منذ عهد النبي محمد عليه الصلاة والسلام . وكان ترابط المسلمين امرا تحض عليه الآيات القرآنية مثل قوله تعالى : « ان هذه امتكم امة واحدة وانا ربكم فاعبدون » وعلى هذا فقد دان جميع سكان المنطقة بالولاء والطاعة لخليفة المسلمين .

اضف الى هذا ما عرف وتأكد من تسامح المسلمين ومرونة معاملاتهم طالما لم يكن في ذلك اعتداء على حدود الدين البينة ، وقد استفاد العرب الى مدى بعيد بما كان سائدا في الكثير من البلاد المفتوحة من نظم سياسية وادارية لا تتعارض مع احكام دينهم، واقاموا حكوماتهم في تلك البلاد متفقة غالبا مع نظمها النابعة من بيئتها وثقافتها لفترة طويلة من الزمن .

والعرب بالاضافة الى ذلك في حكمهم لتلك البلاد لم يشعروا اهليها بوطأة حكم الغزاة الفاتحين كما فعل الفرس والاغريق والرومان ، ولم ينكروا عليهم مواطنتهم على قدم المساواة مع اخوانهم العرب والمسلمين كما كان يفعل الاغريق والرومان عندما حددوا حقوق المواطنة وحصروها في فئة معينة من الناس اغلبهم من الرومان انفسهم مثلا ، بل ان النظام العربي الاسلامي اشرك اهالي تلك البلاد في ضروب الحكم المختلفة فتولوا الاعمال الكتابية والادارية والحسابية دون تفريق على اساس اختلاف لون او عقيدة ، حتى ان بعض المؤرخين مثلا يرى ان « الحكومة في مصر بقيت قبطية في حقيقتها عربية في ظاهرها اكثر من اربعين سنة ، ولم يحتفظ العرب الا ببعض المناصب العليا التي كان لا بد لهم من الاشراف عليها »(١) . وتؤكد آيات القرآن الكريم والحديث الشريف هذه المعاملة فتنادي مثلا بانه لا فضل لعربي على عجمي الا بالتقوى ، كما ان التطبيق كان لا يخرج عن النصوص الى حد كبير ، وفي قصة عمرو بن العاص والي مصر وابن عمر بن الخطاب مثال صادق لهذا .

وكما يؤدي الترابط القائم على اساس من وحدة النظام السياسي وتجاوب النظم الادارية مع حاجات وتقاليد الشعوب الداخلة في الاسلام الى وحدة في الشعور والعمل في تلك البلاد ، فان وحدة التشريع الاسلامي التي انضوى تحتها المسلمون في كافة انحاء العالم الاسلامي آنذاك ــ بل والذميون الراغبون في تلك المعاملة ــ قد ادت الى توافق وانسجام الى حد كبير بين تلك الشعوب .

---

(١) عبدالملك عودة وآخرون : المجتمع العربي (القاهرة : دار النهضة العربية ، ١٩٦٤) .

وهكذا نرى ان الشريعة الاسلامية كان لها دور فعال ورئيسي في توحيد الثقافة العربية والترابط القوي بين شعوب وجماعات اصبحت تخضع لسلطة قانون واحد ، بالاضافة الى العوامل الاخرى ، ولكن التأثير الاوروبي بعد ذلك استطاع ان يهدد ذلك الكيان المترابط ـ ولو الى حين ـ وكانت اوروبا قد ازدهرت ونمت فيها المدنية بدرجات كبيرة اذا هي قورنت بالبلاد الاسلامية في عصر الانشقاق والفرقة والانعزالية التي اصابت هذه الشعوب بعد الازدهار الضخم للعرب وحضارتهم في القرون الستة تقريبا التي تلت نشر الدعوة للدين الاسلامي(٢) .

---

(٢) يتناول الاطار التاريخي من هذه الدراسة تفصيلات عن هذه المرحلة عبر عرض تطور اوضاع المنطقة العربية في العصور الاموية والعباسية والعثمانية وما بينها ـ انظر الصفحات من   الى

المطلب الثالث :
الشعوبية الحديثة

بنهاية الحرب العالمية الاولى انتهت الخلافة الاسلامية العثمانية ، ووزعت القوى العظمى آنذاك ــ انجلترا وفرنسا ــ بلاد العرب نهبا فيما بينها ، فاصبحت مصر والسودان وشرق الاردن والعراق والخليج العربي وجنوب الجزيرة العربية في قبضة النفوذ البريطاني ، وسيطرت فرنسا على سوريا ولبنان وبلدان المغرب العربي ، وقنعت ايطاليا بليبيا .

وكان من اول ما حرص عليه المستعمر الاوروبي في المنطقة هو قطع الصلة بين بلدان العرب واذكاء روح التنافس والصراع فيما بينهم حيال القضايا المعاصرة ، كما حرص على تعميق جذور الفرقة في البحث عبر فترات التاريخ الضارب في القدم بحثا عن مبررات للفرقة والعزلة ــ خاصة الفترات السابقة على اعتناق اهل المنطقة للدين الاسلامي الحنيف . ونضرب لذلك امثلة من : فرعونية مصر ، وفينيقية لبنان .

أولا : الفرعونية في مصر :

حرص المستعمر الاوروبي منذ بداية تحركه لضرب وحدة العرب الى الفصل بين ما اسماه « العرب شرق السويس والعرب في غربها » ومصر على وجه التحديد ، حيث العمق السكاني والحضاري ــ واتبع المستعمرون وسائل شتى كان من اهمها برامج التربية والتعليم لتنشئة اجيال متشككة في انتمائها العربي ، كما حرص على انتهاز كل فرصة ممكنة لنشر حملات دعائية في هذا المجال ، نذكر منها على سبيل المثال فترة اكتشاف مقبرة توت عنخ آمون في العشرينات من هذا القرن حيث عمل الانجليز على تضخيم هذا الكشف وعلى دعوة المصريين الى تذكر امجاد اجدادهم ونسيان الحقبة الاسلامية والحديثة من اتصالهم بالعرب ، وقد حقق الاستعمار قدرا ولو ضئيلا في هذا المجال اذ كتبت قصص ومسرحيات تمجد التاريخ القديم وتنادي بعودة الروح الفرعونية الى مصر وحضارتها .

ومن الملابسات التي ساعدت على تغذية هذه النزعة الفرعونية وجود فئة من الصحفيين السوريين واللبنانيين المسيحيين الفارين الى مصر هربا من

معاملة العثمانيين ، ولم تمانع هذه الفئة في التعاون مع اتجاهات الدعاية الاستعمارية ، حتى ان مصطفى كامل باشا الزعيم الرائد للحـزب الوطني ــ الذي كان يعمل على طرد الانجليز من مصر ــ نعى على صحيفة (المقطم) مساندتها صراحة لآراء المستعمرين ، ورأى في تلك الفئة من الموارنة آنذاك اعوانا يخدمون سلطات الاحتلال في مصر والسودان وتتعاون معهم الى حدود بعيدة . كما حرص عبدالله النديم ، ــ وكان من دعاة النهضة الاسلامية والتحرر من الاستعمار الاوروبي ــ على ان يذكر هذه الفئة من الموارنة اكثر من مرة باصولهم العربية وبأخوتهم لابناء مصر . ودفاعا عن مصر المسلمة رأى مصطفى كامل ان :

« المسلمون هم بدون نزاع مصريون ومعظمهم من اصل فرعوني ، ولم يكن اهم المدافعين عن العروبة اكثر من دخلاء مخادعين ومنافقين ، واشد خطرا من الاعداء الظاهرين للاسلام ، ودعا الى اسكاتهم ومحاربة فكرة الخليفة العربي لأنه سيكون العوبة في يد قوة اجنبية ، ويسلمون مصر بالتأكيد لمحتليها »(١) .

وهنا نلاحظ ان مصطفى كامل كان يفرق بين الانتماء الى وحدة المسلمين الشاملة تحت القيادة العثمانية ويفضلها على دعوة الصحافيين المسيحيين التي كانت تحاول دفع الشعوب العربية الى التنكر للاسلام تحت شعار العروبة ، وفي هذا يحدثنا امين فارس مهاجما حركة الخداع التي كان يتعرض لها المثقفون في مصر تحت دعوى المناداة :

« بعظمة مصر الفرعونية وفراعنتها العظام وآلهتها الخالدين ، والى الانفصال عن العرب وحضارتهم . واصروا على ان لمصر كيانها الانساني والحضاري والتربوي الخاص ، ولم يربطها بالدول العربية غير روابط ضعيفة كان من اهمها الدين »(٢) .

ترجمت هذه المقولة عن

1- Colombe, M.: L'evolution dė L'Egypte: 1924 - 1950 (Paris: Maisom Neuve, 1951), P. 165.

2- Faris, N.A. and Hussayn: The Crescent in Crisis: an Interpretive Study of the Modern Arab World (Lawrence, USA: University of Kansas Press, 1955), P. 137.

ولكن هذه الدعوة الفرعونية التي استطاعت ان تعيش حتى قرب نهاية الاربعينات من هذا القرن قد اخذت في الاندثار تدريجيا لضعف مقوماتها الحقيقية ، ولاثر الاسلام الكبير في نفوس المصريين ، ثم ان الوعي القومي في مصر – خاصة بعد تخلصها من الاستعمار البريطاني – قد فتح اعين مصر قادة وشعبا على مصالحهم الحقيقية وارتباطهم الطبيعي باخوانهم العرب في كل مكان ، كما كان لمشكلة فلسطين ووجود عدو مشترك يهدد البلاد العربية من النيل الى الفرات اثر بالغ في ترابط العرب ووحدة مصالحهم .

وظهر ذلك الوعي بوضوح منذ الايام الاولى لثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢ ، حيث لم يعد المصريون يرون غضاضة في استلهام تاريخهم القديم وما فيه من عظمة وفخار ، جنبا الى جنب مع ارتباطهم بواقعهم العربي المعاصر ، فيقول على ماهر – رئيس وزراء مصر بعد ثورة ٢٣ يوليو عام ١٩٥٢ في حديث الى جريدة الاهرام في ١٥ نوفمبر من نفس السنة – ان اهدافا متشعبة ساعدت على سلسلة متتابعة من الانتفاضات .. كانت في مجموعها صيحات عالية في وجه الطغيان والخيانة من اي منبع او اصل اتت – وكانت بمثابة برهان لا ينكر على ان ميراثنا من الحضارات التليدة ما زال يجري في دمنا . وان ملايين المصريين هم ورثة تلك العظمة التي ظهرت راسخة على شاطىء النيل : ما صنعه الفراعنة الجبابرة ، وما قدمه العرب العظام[١] .

ثم جاء ميثاق العمل الوطني في الجمهورية العربية المتحدة مؤيدا لهذا الاتجاه العربي فيقول :

« ان الذين يحاولون طعن فكرة الوحدة العربية من اساسها مستدلين بقيام خلافات بين الحكومات العربية ينظرون الى الامور نظرة سطحية . ان مجرد وجود هذه الخلافات هو في حد ذاته دليل على قيام الوحدة .

ان هذه الخلافات تنبع من الصراع الاجتماعي في الواقع العربي ... واللقاء بين القوى التقدمية الشعبية في كل مكان من العالم العربي ، والتجمع الذي تقوم به العناصر الرجعية والانتهازية في العالم العربي هو الدليل على وحدة التيارات الاجتماعية التي تهب على الامة العربية وتحرك خطواتها وتنسقها عبر الحدود المصطنعة .

---

(١) الاهرام (١٥ نوفمبر سنة ١٩٥٢) .

ان التقاء القوى التقدمية الشعبية على الامل الواحد في كل مكان من الارض العربية وتجمع القوى الرجعية على المصالح المتحدة في كل مكان من الارض هو في حد ذاته دليل على الوحدة اكثر مما هو دليل على الفرقة .

ثم نص الاعلان الدستوري الصادر في مارس سنة ١٩٦٤ في مادته الاولى على ان الجمهورية العربية المتحدة جزء من الامة العربية » .

ثانيا : الفينيقية في لبنان :

وكما استطاع الاستعمار البريطاني ان يستفيد من توجيه الفكر في مصر ولو الى حين – نحو النزعة الشعوبية الفرعونية ، فقد حاول الاستعمار الفرنسي ان ينهج نفس الطريق فيثير نفس النزعة في نفوس اللبنانيين ، مذكرا اياهم بامجاد الفينيقيين القدامى ، ومحاولا الفصل بينهم وبين الاتجاه العربي العام . واعتمدت الدعوة الانفصالية اصلا على انتماء الفينيقيين الى اجناس وحضارة البحر الابيض المتوسط مع كل ما كان لهذه الحضارة من روائع ومفاخر .

ودعم هذا الاتجاه ما كان سائدا من مشاعر عند بعض المسيحيين – خاصة طائفة الموارنة – بضرورة الابتعاد قدر الطاقة عن الركب العربي العام الذي يشكل المسلمون فيه الاغلبية ، فعندما وقف فيصل بن الشريف حسين امام مؤتمر الصلح في باريس مطالبا باستقلال ووحدة البلاد العربية الآسيوية بما فيها لبنان اسرع وفد ماروني لبناني الى هناك بايعاز من الفرنسيين – ليعارض في مطالب فيصل ويطلب اشراف الفرنسيين على لبنان ، ومنتقدا وضع لبنان المتحضر تحت الادارة البدوية للحجاز . وينقل لويد جورج Lloyd George من خطاب الاب الماروني ... وحتى ولو اختلف رأيي ورأي زملائي مع رأي دولة الانتداب (فرنسا) فاننا كنا سنعتبره واجبا علينا ان نظل في مهمتنا للسلام وهي دعوة فخامتكم – في ضوء الوثائق المقدمة – الى اسناد اعادة بناء سوريا المتحدة المستقلة الى فرنسا(١) .

1- Lioyd George: The Truth abuot the Peace Treaties (London: Victor Gollanz, 1938) Vol. 11, PP. 1050 - 1056.

هذا ويحاول بعض الكتاب ان يحلل وضع لبنان مرجعا تلك الاتجاهات الى خوف اللبنانيين من ان يصبحوا بمثابة جزيرة صغيرة من المسيحيين وسط بحر واسع من المسلمين لارتباط العروبة في اذهانهم بالاسلام الى حد كبير ، فيقول :

« ربما نظر غالبية المبشرين والموظفين الفرنسيين في الجيل الاخير الى العروبة على اساس انها حركة اسلامية قبل كل شيء ، حيث لن يستطيع المسيحيون ان يجدوا من لبنان مكانا آمنا للمسيحيين ، وربما استطاعوا ان تكون لهم حياة قومية خاصة بهم . ونزعتهم هذه تقررها عقيدتهم المسيحية من ناحية ، وشعورهم بواجبهم التاريخي نحو فرنسا من ناحية ثانية ، ومفهومهم للمصالح الفرنسية من جهة ثالثة[١] .

ولكن هذه النزعة بالرغم من اعتمادها على عوامل دينية غذاها الاستعمار الفرنسي بالذات ، الا انها اخذت في الافول تدريجيا وان ظل يوجد حتى اليوم من يعتنقها ، ونلاحظ ذلك التطور في مفهوم احد اعلام لبنان ــ السيد بشارة الخوري ــ الذي كتب في جريدة « التبشير » اليومية اللبنانية في العاشر من يناير عام ١٩٢٠ يقول « اننا لا نستطيع تصور قوميتنا كاملة دون ان نعطي فيها مكانة الشرف لفرنسا ــ التي تستحقها » ولكن هذه النزعة تختفي عام ١٩٣٧ حيث يعود بشارة الخوري نفسه الى القول « وحدة العرب انشودة للبنان ، ولا يستطيع اللبنانيون ان يعيشوا في استقلال وحرية بدونها ، وان يحترس بعد ذلك فينادي بان تتخذ هذه الحركة الوحدوية طابع التحالف بين البلاد العربية بعضها ببعض ، وحيث يحتفظ كل بلد باستقلاله وادارة شؤونه الداخلية[٢] .

وبالرغم من الدور الفعال الذي لعبه المسيحيون في احياء التراث العربي القديم والاشادة به ، الا ان نزعات الكثيرين من مسيحيى لبنان بالذات من الناحية السياسية لما تزل على درجة عالية من الانفصالية الشعوبية ، فيحدثنا البرت حوراني مرة اخرى عن ذلك فيقول :

---

1 - Housani, A.: Syrai and Lebanon - A Political Essay (London: Oxford University Press, 1945), p. 135.

(٢) احمد طرابين ــ مرجع سابق ، ص٦٦ .

« ... وحتى لو اصبح اعضاء الاقليات قوميين عربا ــ كما يفعل عدد كبير منهم فانهم ينتهجون قوميتهم تلك مع الاختلاف : فليس عليهم فقط ان يؤكدوا نقاطا عما يؤكده المسلمون في البرنامج القومي ، بل يرون ان عليهم واجبا خاصا يجب تنفيذه في تلك الحركة فمثلا يعتقد بعض القوميين المسيحيين ان عليهم واجب نقل المدنية الغربية الى العرب ، وهذا الشعور بواجب خاص يظهر الاختلاف ، ان لم يكن التعارض »[١] .

وبعد ــ فهذه نبذة وجيزة عن حركتين من اهم الحركات الانفصالية التي اتضحت في العالم العربي للشعوبية الحديثة ، والتي ما زالت تظهر بين الحين والحين وان اتخذت صورا اخرى تعتمد على عوامل بعضها اقتصادي وبعضها اجتماعي وبعضها يرجع الى صراع على الزعامة في الكثير من الاحيان .

(1) Housani, op. cit., pp. 128 - 129.

المطلب الرابع :
جامعة الدول العربية

في التاسع والعشرين من مايو عام ١٩٤١ ـ وفي اثناء الحرب العالمية الثانية كانت بريطانيا تمر بمتاعب مع جيوش المحور فاسرعت الى تأييد دعوة عدد من المفكرين العرب في بحثهم عن صيغة للتعاون والترابط بين الدول العربية قائلة :

« خطا العالم العربي خطوات واسعة منذ الاتفاقية التي تم التوصل اليها في اعقاب الحرب العالمية الاولى . ويرغب عدد كبير من المفكرين العرب في درجة اكبر من وحدة الشعوب العربية عما يتمتعون به حاليا . وهم يأملون في مساعدتنا ليصلوا الى هذه الوحدة . ومثل هذا الرجاء من اصدقائنا لا يمكن ان يمر دون اجابة . ويبدو لي طبيعيا وحقا ان تقوى الروابط الحضارية والاقتصادية والسياسية ايضا . وستمنح حكومة جلالة الملك مساندتها الكاملة لأي خطة تستحوذ على الرضا العام »(١) .

وجاء رد الفعل المباشر لهذا التوجيه البريطاني من الامير عبدالله ملك شرق الاردن ، ففي الثاني من يوليو عام ١٩٤١ تقدم الى الحكومة البريطانية بمشروع يرجو فيه توحيد منطقة سوريا الكبرى تحت التاج الاردني ، ولكن هذا المشروع قوبل بالبرود والشك من كل من البريطانيين والعرب . وفي اوائل عام ١٩٤٣ تقدم نوري السعيد ـ وكان رئيس وزراء العراق في ذلك الوقت الى ريتشرد كيسي ـ وزير الدولة البريطاني المقيم بمنطقة الشرق الادنى ـ بمشروع وحدة « الهلال الخصيب » شاملا سوريا الكبرى والعراق تحت التاج العراقي (وهو كما نعلم هاشمي ايضا) ، ولكن حظ هذا المشروع لم يكن اسعد من سابقه الاردني ، وفي ٢٤ فبراير سنة ١٩٤٣ اجاب انتوني ايدن عن سؤال في مجلس العموم البريطاني عن الوحدة الفدرالية بين العرب وعن تعاونهم مع بريطانيا بقوله « من الواضح ان المبادأة يجب ان تأتي من العرب انفسهم ... وحتى الآن لم تقدم خطة اكتسبت الرضا العام(٢) .

---

(١) نقلها دكتور فايز صايغ في كتابه : Sayegh, F.: Arab Unity - Hope and Fulfilment (New York: David - Adair, 1958), pp. 117- 118.

2- Ibid., p. 119

ولم تبد بوارق الامل في تحقيق مشروع لمثل هذه الغاية حتى تقدم مصطفى النحاس باشا ـ وكان رئيسا لوزراء مصر في ذلك الحين ـ الى الحكومات العربية ـ وليس لبريطانيا ـ بمحاولات استطلاعية في هذا المجال ، ففي ٣٠ مارس اخطر النحاس باشا البرلمان المصري بعزمه على « استكشاف وجهات نظر الحكومات العربية بخصوص الوحدة ، وتحقيق الانسجام بينهما على قدر الامكان » وانتهت هذه المحاولة المصرية باعلان ميثاق الجامعة العربية في الثاني والعشرين من مارس عام ١٩٤٥ .

ولكن الجامعة العربية لم تكن وليدا طبيعيا ولا منظمة للشعوب العربية بقدر ما كانت مسرحا لصراع الزعامة والمطامع الشخصية والاقليمية من جانب الكثير من الحكومات العربية ورؤسائها في ذلك الوقت . ان المادتين خمسة وثمانية من ميثاق الجامعة اوضحتا ان الدول العربية قد دخلت في ترابط او حلف وليس في وحدة من اي نوع ، كما حرص الموقعون على حرمان المنظمة من اي سلطة على اعضائها ، بل حرص الاعضاء مقدما على عدم الارتباط بتنفيذ قرارات المنظمة .

وهكذا ـ بالرغم من النوايا الطيبة التي بدت في اول الامر ـ تحول الميثاق الى عرض لاحتراسات الدول العربية ، بل وشك في نوايا وتصرفات بعضها البعض ، فحملت الميثاق بعبارات الاحتراس والشروط . حتى عجز الوليد منذ بدأ يرى النور .

بل ان الجامعة حاولت ان تجمد الموقف السياسي في البلاد العربية ، وان تقاوم اي جهود تقدمية نحو تعاون اوثق بين البلاد العربية ، وتقول كاتبة بعد ثماني سنوات من انشاء الجامعة « قضت الجامعة في تطورها على الكثير من الامل الذي كان معقودا عليها فبدلا من العمل على ترابط اكبر بين العرب ، ظلت الدول العربية حيث وجدتهم الجامعة ، واظهرت في خلال هذه السنوات الثمانية من عمرها انها ليست خطوة في سبيل اتحاد اكثر تمسكا ، بل اداة للحفاظ على الوضع الراهن »[١] .

ولكن ، هناك محاولات متكررة لتبرير هذا العجز في الاداء الوظيفي للجامعة ، فتقول احدى هذه الدراسات بأنه : « لا جدال ان الحيوية التي

---

(١) نجلاء عزالدين كما نقل عنها فايز صايغ في Ibid., pp. 137 - 138

يتمتع بها النظام الاقليمي العربي استندت اساسا الى درجة كبيرة من الشرعية ، طبقا للمفهوم الذي اوضحناه . اذ تخللت مراحل تطور النظام منذ نشأته عديد من فترات الازمات اجتازها وتجاوزها بفضل هذه الشرعية . وفي عديد من الفترات امكن للنظام ان يحتفظ بقواعد عمله واهدافه العامة »(١) .

كما تقول دراسة اخرى :

« ان توازن القوى داخل الجامعة ــ هو دليل على حياة هذه المنظمة وعلى ما يسودها من ديموقراطية ــ لم يكن بين مجموعات بعينها ، وذات تكوين خاص لازمها ، ولكنه بين مجموعات كانت تختلف الدول الاعضاء فيها ، وتختلف الاهداف التي في ظلها تتكون المجموعة(٢) .

حقيقة ان الجامعة العربية تعد من اقدم المنظمات الاقليمية واكثرها قدرة على الاستمرار ، ولكنه استمرار للشكل وليس للجوهر ، فقلما كان هناك امر اتفقت فيه آراء اعضائها عندما كانوا محدودي العدد او بعدما توسعت فيها العضوية ، اللهم إلا الاتفاق حول مزايدات يتطارحها الاعضاء للاستهلاك المحلي بين شعوبهم لا تعني كثيرا عند التنفيذ الفعلي لقراراتهم ، ومن ثم كان الخلل في الشكل والموضوع .

اما في الشكل فلم تستطع الجامعة الحفاظ على مجرد المبادىء الاجرائية لقبول الاعضاء الجدد : فهي تارة تلتزم بالقاعدة المتعارف عليها ضمنا في المنظمات الدولية (في غياب نص مغاير) وهي اجماع الاعضاء على قبول عضوية دولة تستوفي شروط الانضمام اليها(٣) . وتارة باجماع الاعضاء

---

(١) علي الدين هلال وجميل مطر : النظام الاقليمي العربي ــ دراسة في العلاقات السياسية العربية (بيروت : مركز دراسات الوحدة العربية ، ١٩٨٠) ص١٥٨ ، ويعرفها الكاتبان بأنها « المدى الذي يذهب اليه اعضاء النظام في شعورهم بالانتماء لهذا النظام واستعدادهم للتضحية في سبيل حماية مضمونه وقيمه ورموزه وحيويته » .

(٢) بطرس غالي : دراسات في الدبلوماسية العربية (القاهرة : الانجلو المصرية ، ١٩٧٣) ، ص٩٢ .

(٣) من بين شروط العضوية الاساسية في جامعة الدول العربية شرط الاستقلال ، وان كان من الطريف ان نلاحظ ان الدول المؤسسة كانت هي نفسها غير كاملة الاستقلال عند الانشاء فمصر كانت خاضعة للاحتلال البريطاني وسوريا ولبنان كانتا تحت الانتداب الفرنسي وشرق الاردن وفلسطين تحت الانتداب البريطاني .

المشتركين في الجلسة فقط[١] ، وتارة اخرى بالاغلبية[٢] .

اما من ناحية الموضوع فاننا نلمح الى جانبين : احدهما تنظيمي والآخر وظيفي :

ففي الجانب التنظيمي :

نلاحظ ان الجامعة العربية بعد ان اكتمل قيامها ظلت تعكس على مر السنوات صراع المصالح المحتدمة بين اعضائها وتعمل على تسكين متاعبها عن طريق ارضاء ومصالحة كل الاطراف المعنية – حتى لو كان هذا على حساب كفاءة الاداء فيها ودون علاج حقيقي فعال ، فكلما اخفقت الجامعة في انجاز مهمة من مهام العمل الوحدوي العربي بادرت الى انشاء هيئة جديدة او فرع جديد توكل اليه مهام هذا العمل الوحدوي وذلك دون الغاء الهيئة التي كانت تعمل من قبل في هذا الميدان او دون محاولة تطويرها[٣] ومن ثم فمن عدد اللجان الست الفنية التي أنشئت بموجب المادة الرابعة من ميثاق الجامعة منذ ١٩٤٥ اصبح عدد الهيئات نحوا من ثلاثين ، تتعارض مهامها وتتداخل في شكل يدعو الى اعادة النظر في شأن الغاء بعضها او دمجها في بعضها البعض.

اما الجانب الوظيفي :

فهو بديهيا يعاني من حالة التخبط وعدم الاستقرار او عدم وضوح الرؤية التي تعاني منها بعض من حكومات الدول العربية فرادى ومجتمعة ، وكل منها يلقى تبعة القصور – في قيام الجامعة العربية بوظائفها – على طرف او اطراف اخرى ، مع ما يحيط بهذا من ظروف وملابسات ، تتبلور جميعها في ظهور ازمة ثقة بين بعض شعوب وحكومات الدول الاعضاء وعلاقاتهم ببعضهم البعض

---

(١) احدث هذا عندما انسحب مندوب العراق احتجاجا على عرض قبول عضوية الكويت في الجامعة ففسرت قاعدة التصويت على انها باجماع الاعضاء الحاضرين .

(٢) حالتا قبول عضوية سلطنة عمان في مواجهة تحفظ جمهورية اليمن الديموقراطية والمملكة العربية السعودية وقبول عضوية دولة الامارات العربية المتحدة في مواجهة اعتراض جمهورية اليمن الديموقراطية وامتناع المملكة السعودية عن التصويت وتعليق الجمهورية العراقية موافقتها على تحقيق الامور الآتية : ان تعلن امارة الشارقة الغاء اتفاقها مع ايران ، وان تعلن دولة الامارات شجبها لموقف ايران العدواني من احتلال الجزر الخليجية الثلاث طنب الكبرى وطنب الصغرى وابو موسى ، والا تقيم دولة الاتحاد علاقات دبلوماسية مع ايران وان تنص قوانين الاتحاد على تشجيع الهجرة العربية الى اراضيها ، وان تتعهد كذلك دولة الاتحاد بتشجيع سفر الرعايا العرب اليها ، وبشكل متساو لجميع الرعايا العرب انظر في هذا مؤلف . بطرس غالي سابق الذكر ص٨٣ – ٨٤ .

(٣) د. بطرس غالي : المرجع سابق الذكر ، ص٩٤ – ٩٥ .

وعلاقاتهم بالجامعة ذاتها ، وتتسارع الآراء كالعادة لاقتراح البدائل ، وان اعوزتها الوسائل ، ونستطيع ان نجمع شتات هذه الآراء عموما في ثلاثة اتجاهات رئيسية :

(١) تأسيسا على قناعة بفشل دائم ومستمر لهذه المنظمة الاقليمية في حل قضايا المجتمعات العربية الرئيسية (الوحدة التكاملية العربية ، وفلسطين) يكون القضاء على الجامعة مطلبا تنبثق عنه محاولة البحث عن بديل اكثر قدرة على الاستجابة لتطلعات الشعوب العربية النامية اقتصاديا وسياسيا ووجدانيا .

(٢) انطلاقا من مدرك نفسي يتمسك بالواجهة المظهرية — تنادي اصوات اخرى بالابقاء على « الرمز » فان لم يكن فيه نفع فهو لا يضر ، ولعل الحياة تدب في رميم عظامها يوما .

(٣) اتجاه ثالث ينادي بتدعيم قدرات الجامعة وتقوية اجهزتها ، حتى لو تطلب هذا تعديل ميثاقها ، واعادة تشكيل مجالسها وهيئاتها على اساس من واقع التجربة التطبيقية الفعلية عبر اكثر من ثلث قرن من الزمان ، استطاع هيكل الجامعة الشكلي على الاقل ان يصمد في مواجهة ازمات اقليمية ودولية قاسية صاحبت تطورات كبيرة في متغيرات التفاعلات على المستوى الدولي والاقليمي ، بل في داخل وحدات البنية الاساسية للجامعة ذاتها(١) .

ولنا على هذه الآراء والاتجاهات ملاحظات نوجزها في الآتي :

اولا : جامعة الدول العربية بنص ميثاقها الذي وضع موضع التنفيذ في ١٩٤٥/٥/١٠ في البند (ب) من المادة الثانية يدعو الى ان تحرص الدول الاعضاء على « تنسيق خططها السياسية تحقيقا للتعاون بينها وصيانة لاستقلالها وسيادتها » كما نص في موقع آخر على ان تحترم كل دولة من الدول المشتركة في الجامعة نظام الحكم القائم في دول الجامعة الاخرى وان تعتبره حقا من حقوق تلك الدول ، وتتعهد بالا تقوم بعمل

---

(١) لمزيد من الاطلاع حول هذا الموضوع : د. محمد حافظ غانم : محاضرات عن جامعة الدول العربية (القاهرة : ١٩٦٠) ص٩٧ — ٩٨ . وكذلك د. محمد طلعت الغنيمي : نظرات في العلاقات الدولية العربية ص ٢٢٢ — ٢٤٣ . ود. مفيد شهاب : جامعة الدول العربية — ميثاقها وانجازاتها (القاهرة : جامعة الدول العربية — معهد الدراسات والبحوث العربية ، ١٩٧٨) .

يرمي الى تغير ذلك النظام فيها . ومن ثم يجب التفرقة بين مفهوم جامعة الدول العربية كمنظمة اقليمية تنسق اعمال الدول الاعضاء فيها وبين كونها غاية او حتى وسيلة تحقيق وحدة تكاملية عربية في كافة المجالات .
ولعل هذا قد نتج عن ان مفهوم المنظمة الاقليمية هنا لا يلتزم بالضرورة بالموقع الجغرافي بقدر ارتباطه وتأسيسه على حقائق مجتمعيه اخرى تشترك فيها شعوب الدول الاعضاء في تلك المنظمة كالدين واللغة ، وخبرات ومعاناة التاريخ ماضيه وحاضره ، وتطلعات ، وآمال مستقبله في اطار من تصور عام لمصالح مشتركة ، ومن ثم كان الخلط في واقع الجامعة كمنظمة اقليمية ودعاوى الوحدة والترابط بين اجزاء العالم العربي ، ونتفق هنا مع الرأي القائل :

« لقد ولدت الجامعة العربية لتعكس تناقض ظاهرتين في المنطقة العربية ، ظاهرة القومية العربية واهدافها في الوحدة العربية التي تتضمن اعادة النظر في الحدود السياسية القائمة ، وظاهرة وجود دول مستقلة ، او في سبيل الحصول على استقلالها وسيادتها . لذلك جاءت الجامعة ظاهرة فريدة في التنظيم الدولي ، منظمة اقليمية تضم دولا متجاورة جغرافيا وبحكم ميثاقها تحترم سيادة كل من هذه الدول ، ولكنها في الوقت نفسه منظمة تعبر ، بحكم وجودها ذاته ، عن فكرة قومية »(١) .

ثانيا : جامعة الدول العربية كمنظمة اقليمية تمثل كسبا لاعضائها بالمفهوم سابق الذكر بمعنى ان العالم الآن يمر بمرحلة تحالفات ومنظمات تسعى لتحقيق اكبر قدر ممكن للمصلحة المشتركة والتي تنعكس بدورها على مصالح لاعضائها ، وقد كان لمنظمة جامعة الدول العربية قصب السبق في هذا المجال – ومن قبل ان تكون هناك منظمة دول امريكا ومنظمة حلف وارسو وحلف الاطلسي والسوق الاوروبية المشتركة وغيرها ، هذا ان استطاع اعضاؤها ان يتعرفوا على دورها الحقيقي بعيدا عن زيف المزايدات والشعارات الناتجة عن الخلط بين كونها منظمة اقليمية ودعاوى وحدة الشعوب العربية .

حقيقة ان هناك نقاطا في الجهاز الوظيفي للجامعة نفسها ، وهي قابلة للعلاج . فقط ان صلحت نوايا الاعضاء وارتفعت مدركات الكثيرين

---

(١) د. علي الدين هلال وجميل مطر : مرجع سابق ، ص٥٦ .

منهم الى مستوى الاحداث العالمية في عصر التطور التكنولوجي السريع الذي نعيشه .

ان ميثاق الجامعة وجهازها الوظيفي يحتاج دون شك الى اعادة النظر بعد نيف وسبعة وثلاثين عاما من تجاربها التاريخية القاسية :

(١) تنص المادة ١٩ من الميثاق على ضرورة تعديله حتى تصبح « الروابط بين الدول امتن واوثق ... وتنظيم صلات الجامعة بالهيئات الدولية التي قد تنشأ في المستقبل » ، ومن ثم يصير اعادة النظر في العديد من اللجان والهيئات التي تتداخل اعمالها فتعوق كفاءة ادائها ، ومن ثم يكن دمجها والتخلص من اللجان التي تكون قد استنفدت اغراضها .

(٢) لا بد من تدعيم الامانة العامة للجامعة كمنسق لمصالح جميع الاعضاء فيما بينهم وكممثل لهم ككل في مواجهة الدول او المنظمات الدولية الاخرى .

(٣) ابعاد المقر الدائم للجامعة عن عواصم الدول الاعضاء بما يكفل لها وممثلي هذه الدول حرية الحركة ودون حساسيات ، خاصة في اوقات الازمات .

(٤) تشجيع تشكيل وحدات فرعية للدول ذات الاوضاع الحضارية المتقاربة وذات المصالح الاكثر تجانسا على غرار مجلس التعاون الخليجي العربي[١] بحيث يكون هناك توازن أكثر استقرارا ، مع مراعاة الا تطغى هذه الوحدات على الوحدة الكلية المتمثلة في الجامعة ذاتها .

---

(١) سنفرد لهذه التجربة تعليقا في صفحات قادمة كنموذج حديث لوحدة فرعية في النظام الاقليمي العربي .

المطلب الخامس :
مؤتمرات القمة العربية

أشرنا في الصفحات السابقة الى ان المشكلة الفلسطينية كانت وما تزال احد اهم عقبتين تتحديان مصداقية وجود جامعة الدول العربية كمؤسسة اقليمية قادرة ، فقد كان لاخفاقها في مواجهة تحديات الصهيونية العالمية كحركة قومية يهودية منظمة سواء في مجالات السياسة او الحلول العسكرية اثره الواضح في ان فقدت الشعوب العربية الثقة فيها الى حد كبير ، ثم اخذ فقدان الثقة هذا يتحول مع الزمن وتكرار الفشل الى حالة انفصام في الشخصية العربية العامة ، تنعكس في تصرفات كثير من العرب فرادى وجماعات ، وعلى المستوى الشعبي والرسمي على السواء ، موضحة بعد الشقة بين ما يتحدث به بعض القادة والزعماء ، لاستهلاك الأمة العربية المحلى ، وبين ما يضمرون حقيقته .

انشئت اللجنة السياسية في ٣٠ نوفمبر ١٩٤٦ على ان تكون مؤلفة من وزراء خارجية الدول الاعضاء ، عساها تتمكن من مواجهة التحدي ، خاصة وان انعقادها لا يخضع لقيود ، كما ان وقائع مداولاتها لا تلتزم بتدوين ، ولا تقدم تقريرا عن اعمالها لمجلس الجامعة ، وفي هذا يقول امين عام الجامعة :

« لم تعد للجنة السياسية صفة اللجان العادية الاخرى فتعرض اعمالها على المجلس لأن المسائل التي عالجتها متعلقة بظرف خاص هو ظرف حرب فلسطين ، وليس من المصلحة تدوين ما تتخذه اللجنة من قرارات في مضابط المجلس .. » .

وفي ١٧ يونيو ١٩٥٠ وبعد الهزيمة الاولى للجيوش العربية . تم التوقيع على معاهدة الدفاع المشترك ، وانبثقت عنها خمس هيئات هي : مجلس الدفاع المشترك ، اللجنة العسكرية الدائمة ، الهيئة الاستشارية العسكرية ، الامانة العامة العسكرية ، والمجلس الاقتصادي ، وان كانت لم تبدأ في مزاولة مهامها الا عام ١٩٥٢[1] وتتالت اجتماعات تلك الهيئات ولكن دون جدوى حتى عندما وقع العدوان الثلاثي على مصر عام ١٩٥٦ وعندما قررت اسرائيل واعلنت عن

---

(١) د. سيد نوفل : العمل العربي المشترك ـ ماضيه ومستقبله (القاهرة · معهد البحوث والدراسات العربية ١٩٦٨) ص١٣٧ .

عزمها على تنفيذ مشروع تحويل مياه نهر الاردن استنفرت اللجنة العسكرية الدائمة لمواجهة التحدي . ومرة اخرى تعاقبت اجتماعات اللجان دون جدوى حتى كانت بداية انعقاد مؤتمرات القمة في ١٣/١/١٩٦٤ ، ولكن هذه المؤتمرات بدورها بدأت بانشاء هيئات ستة جديدة هي : مجلس ملوك ورؤساء الدول العربية ومن المفروض انعقاده في شهر سبتمبر سنويا ، لجنة المتابعة من الممثلين الشخصيين للملوك والرؤساء وينعقد مرة كل شهر كما يجتمع رؤساء وزراء الحكومات مرة كل اربعة اشهر ، وهيئة ادارة استغلال مياه نهر الاردن ، ومنظمة الشعب الفلسطيني ، والقيادة العربية الموحدة ، والمجلس العربي المشترك للبحوث الذرية ، كل هذا دون الغاء او حتى التنسيق بين هذه اللجان وسابقاتها .

وتوالت اجتماعات القمة او مجلس الملوك والرؤساء حتى وصلت اثني عشر اجتماعا(١) حتى لحظة كتابة هذه السطور ، وعالجت هذه المؤتمرات

---

(١) باستثناء مؤتمر انشاص السابق على ذلك ــ وبيان هذه المؤتمرات واهم موضوعاتها كالآتي :

(١) مؤتمر القاهرة ١٣ ــ ٦٤/١/١٧ مياه نهر الاردن .

(٢) مؤتمر الاسكندرية ٥ ــ ٦٤/٩/١١ مياه نهر الاردن + انشاء جيش التحرير الفلسطيني .

(٣) مؤتمر الدار البيضاء ١٣ ــ ٦٤/٩/١٧ تحقيق التضامن خاصة حيال قضية تحرير فلسطين .

(٤) مؤتمر الخرطوم ٢٩ ــ ٦٧/٩/٢ مؤتمر اللاءات الثلاث (لا اعتراف/ لا مفاوضات/ لا سلام مع اسرائيل) .

(٥) مؤتمر الرباط ٢١ ــ ٦٩/١٢/٢٣ فشل وليس له بيان ختامي .

(طارىء) مؤتمر القاهرة ٢٣ ــ ٧٠/٩/٢٧ انهاء صراع الجيش الاردني مع قوات المقاومة الفلسطينية .

(٦) مؤتمر الجزائر ٢٦ ــ ٧٣/١١/٢٨ الانسحاب من الاراضي العربية المحتلة ، ومنح الحقوق الشرعية للشعب الفلسطيني والموافقة على لقاء الاسرائيليين في جنيف .

(٧) مؤتمر الرباط ٢٦ ــ ٧٤/١٠/٢٩ منظمة التحرير هي الممثل الشرعي الوحيد للفلسطينيين .

(طارىء) مؤتمر الرباط ١٦ ــ ٧٦/١٠/١٨ حل مشكلات القوات السورية مع منظمة التحرير .

(٨) مؤتمر القاهرة ٢٥ ــ ٧٦/١٠/٢٦ انشاء قوة الردع العربية في لبنان .

(٩) مؤتمر بغداد ٢ ــ ٧٨/١١/٥ تأكيد مقررات « جبهة الصمود والتصدي » . وتجميد عضوية مصر بعد كامب ديفيد .

(١٠) مؤتمر تونس ٢٠ ــ ٧٩/١١/٢٢ لبنان (مشكلة الجنوب والمنظمة) .

(١١) مؤتمر عمان ٢٥ ــ ٨٠/١١/٢٧ رفض اتفاقات كامب ديفيد ، قطع العلاقات مع اي بلد يعترف بالقدس عاصمة لاسرائيل ، تأكيد المقاطعة لمصر .

(١٢) مؤتمر فاس المغرب (٢٥ نوفمبر ١٩٨١ ، ٦ ــ ٩ سبتمبر ١٩٨٢) .

موضوعات مختلفة ، وان كان موضوع فلسطين كان هو العنصر الاساسي والقاسم المشترك الاعظم بينها جميعا .

من هذا العرض المختصر السريع نجد ان القضية الفلسطينية كانت وما تزال الموضوع الاول الذي يشغل مؤتمرات القمة العربية منذ ما يقرب من عشرين عاما . ولقد انعقد مؤتمر القمة مرة اخرى في اعقاب مذابح لبنان عام ١٩٨٢ استكمالا لمؤتمر فاس ــ وتم الاجتماع في نفس المكان في الفترة ما بين ٦ ــ ٩ سبتمبر من نفس العام برئاسة الحسن الثاني ملك المغرب .

وقد شارك في اعمال المؤتمر جميع الدول العربية باستثناء ليبيا ومصر ، وقد جاء في البيان الختامي للمؤتمر انه :

اعتبارا للظرف الخطير الذي تمر به الامة العربية وبوحي من الشعور بالمسؤولية القومية التاريخية درس اصحاب الجلالة والفخامة والسمو والسيادة ملوك ورؤساء وامراء الدول العربية القضايا الهامة المطروحة على المؤتمر واتخذوا بشأنها القرارات التالية :

أولا : الصراع العربي ــ الاسرائيلي :

حيا المؤتمر صمود قوات الثورة الفلسطينية والشعبين اللبناني والفلسطيني والقوات المسلحة العربية السورية واعلن مساندته للشعب الفلسطيني في نضاله من اجل استرداد حقوقه الوطنية الثابتة . وايمان المؤتمر بقدرة الامة العربية على تحقيق اهدافها المشروعة وازالة العدوان وانطلاقا من المبادىء والاسس التي حددتها مؤتمرات القمة العربية وحرصا من الدول العربية على الاستمرار بالعمل بكل الوسائل من اجل تحقيق السلام القائم على العدل في منطقة الشرق الاوسط واعتمادا على مشروع فخامة الرئيس التونسي الحبيب بورقيبة الذي يعتمد الشرعية الدولية اساسا لحل القضية الفلسطينية وعلى مشروع جلالة الملك فهد بن عبدالعزيز عاهل المملكة العربية السعودية حول السلام بالشرق الاوسط وفي ضوء المناقشات والملاحظات التي ابداها اصحاب الجلالة والفخامة والسمو والملوك والرؤساء والامراء قرر المؤتمر اعتماد المبادىء التالية :

١ ــ انسحاب اسرائيل من جميع الاراضي التي احتلتها عام ١٩٦٧ بما فيها القدس العربية .

٢ ـ ازالة المستعمرات التي اقامتها اسرائيل في الاراضي العربية بعد عام ١٩٦٧ .

٣ ـ ضمان حرية العبادة وممارسة الشعائر الدينية لجميع الاديان بالاماكن المقدسة .

٤ ـ تأكيد حق الشعب الفلسطيني في تقرير مصيره وممارسة حقوقه الوطنية الثابتة غير القابلة للتصرف بقيادة منظمة التحرير الفلسطينية ممثله الشرعي الوحيد وتعويض من لا يرغب في العودة .

٥ ـ تخضع الضفة الغربية وقطاع غزة لفترة انتقالية تحت اشراف الامم المتحدة ولمدة لا تزيد عن بضعة اشهر .

٦ ـ قيام الدولة الفلسطينية بعاصمتها القدس .

٧ ـ يضع مجلس الامن الدولي ضمانات سلام بين جميع دول المنطقة بما فيها الدولة الفلسطينية المستقلة .

٨ ـ يقوم مجلس الامن الدولي بضمان تنفيذ كل المبادىء .

ثانيا : العدوان الاسرائيلي على لبنان والشعب الفلسطيني ..

١ ـ يعلن المؤتمر ادانته الشديدة للعدوان الاسرائيلي على شعب لبنان وارضه وعلى الشعب الفلسطيني ولفت نظر الرأي العام الدولي الى خطورة هذا العدوان ونتائجه على الاستقرار والامن في المنطقة .

٢ ـ يقرر دعم لبنان في كل ما يؤدي الى تنفيذ قرارات مجلس الامن وخاصة القرارين رقم ٥٠٨ و ٥٠٩ القاضيين بانسحاب اسرائيل من الاراضي اللبنانية حتى الحدود الدولية المعترف بها .

٣ ـ يؤكد المؤتمر تضامن الدول العربية مع لبنان في مأساته واستعداده لتقديم اي مساعدة يطلبها في سبيل معالجة هذه المأساة ووضع حد لها .

وقد احيط المؤتمر علما بقرار الحكومة اللبنانية بانهاء مهام قوات الردع العربية في لبنان على ان يجري التفاوض بين الحكومتين اللبنانية والسورية لوضع الترتيبات في ضوء الانسحاب الاسرائيلي من لبنان .

ثالثا : حرب الخليج والموقف العربي منها ..

درس المؤتمر الوضع في الخليج ولاحظ ببالغ الالم والاسف استمرار الحرب العراقية الايرانية بالرغم من المحاولات المتكررة لوقف النار وبالرغم من عروض الوساطة والمساعي من قبل المنظمات الدولية ، واذ يقدر مبادرة العراق الايجابية بسحب قواته العسكرية الى الحدود الدولية .

وانطلاقا من مبدأ التضامن ووحدة الصف العربي ، وحرصا من المؤتمر على ان يسود الصفاء والوئام وحسن الجوار بين البلاد العربية والبلاد المجاورة لها قرر :

أ ــ اعلان التزامهم بالدفاع عن كامل الاراضي العربية واعتبار كل اعتداء على اي قطر اعتداء على الامة العربية جميعا .

ب ــ دعوة الطرفين المتنازعين الى ضرورة الالتزام الكامل بقراري مجلس الامن رقم ٤٧٩ لعام ١٩٨٠ ، ورقم ٥١٤ عام ١٩٨٢ والعمل على تطبيقهما .

جـ ــ الطلب الى الدول كافة الامتناع عن اتخاذ اي اجراء من شأنه تشجيع استمرار الحرب بصورة مباشرة او غير مباشرة .

رابعا : القرن الافريقي ...

اخذ المؤتمر علما بما عرضته جمهورية الصومال الديموقراطية من دخول اثيوبيا الى الاراضي الصومالية وقرر :

١ ــ مساندة الصومال في مواجهة المستلزمات والمحافظة على سيادتها واراضيها واخراج القوة الاثيوبية من الاراضي الصومالية .

٢ ــ ان يحترم البلدان اثيوبيا وجمهورية الصومال سيادة كل منهما على اراضيه واستقلاله بعد انسحاب اثيوبيا من الاراضي الصومالية .

٣ ــ تأييد المؤتمر للمساعي السلمية لحل المشاكل بين الطرفين على هذه الاسس .

وقد قرر المؤتمر تكوين لجنة لاجراء اتصالات بالاعضاء الدائمين في مجلس الامن الدولي لشرح قرارات المؤتمر المتعلقة بالصراع العربي الاسرائيلي ، كما تقوم اللجنة بالاتصال بالولايات المتحدة للتعرف على موقفها الذي اعلنت عنه مؤخرا فيما يتعلق بالصراع العربي ــ الاسرائيلي على ان تعرض اللجنة نتائج اتصالاتها ومساعيها على الملوك والرؤساء بكيفية منتظمة .

وفي الجلسة الليلية تقدمت منظمة التحرير الفلسطينية بمقترحات الى مؤتمر القمة العربي لمعالجة الاوضاع في لبنان .

وقد وردت هذه المقترحات في الخطاب الذي القاه ياسر عرفات رئيس اللجنة التنفيذية للمنظمة في الجلسة المغلقة التي عقدها المؤتمر فجرا وهذه المقترحات هي :

العودة فورا للامن العربي الجماعي والالتزام باتفاقيات الدفاع المشترك ودعوة فورية لوزراء الدفاع والخارجية والاقتصاد العرب لرسم استراتيجية عسكرية وسياسية واقتصادية عربية تمكن امتنا من التصدي للعدو وحلفائه .

اتخاذ الخطوات اللازمة لتحقيق وحدة العمل العربي الحقيقي رسميا وجماهيريا وانهاء الخلافات والصراعات الجانبية المدمرة والمستنزفة لقدرات امتنا المادية والعسكرية والاقتصادية والسياسية للاستمرار بها لتحرير ارضنا المحتلة وتحقيق طموحات جماهيرنا في غدها ومستقبلها .

مواجهة التحديات المطروحة بخطة سياسية متكاملة على مختلف الاصعدة تأخذ في اعتبارها التمييز بين الاصدقاء والاعداء والتعاون مع الاشقاء والحلفاء وتنطلق من معطيات الواقع لمعالجة كافة قضايا امتنا العربية على صعيد الالتزامات الوطنية والقومية والدينية .

تقديم الدعم المادي الفوري للشعب اللبناني البطل لاعادة تعمير لبنان وبنائه وتعويض الخسائر الضخمة الناجمة عن هذه الحرب والتي استهدفت بشكل خاص بيروت والمناطق الوطنية في الجنوب والبقاع .

تقديم الدعم المادي والمعنوي للشعب الفلسطيني داخل الاراضي المحتلة وذلك لتمكينه من متابعة نضاله وجهاده لتحرير الارض واقامة الدولة الفلسطينية .

تعويض الخسائر العسكرية والمادية للمقاتلين والمجاهدين الفلسطينيين والقوات المشتركة .

وقد اعلن عرفات في خطابه ان القوات اللبنانية والفلسطينية المشتركة تكبدت في حرب بيروت ٤٩ الفا و ٦٠٠ شهيد وجريح مدني فلسطيني ولبناني وخمسة آلاف و ٣٠٠ شهيد وجريح عسكري بما فيهم الذين تطوعوا في صفوف الثورة اضافة الى ستة آلاف مقاتل ما زالوا في عداد المفقودين .

واوضح الوزير المغربي بوستة ان كل المواضيع التي تمت دراستها كانت من الاهمية بحيث تركزت على مسائل مصيرية بالنسبة للامة العربية ولوضعها في العالم وضرورة ايجاد حلول للمشاكل العربية وبينها وبين باقي العالم معربا عن امله في ان يتضمن البيان الختامي الذي سيعلن فجر اليوم جميع الاجوبة على الاسئلة التي يترقبها العالم .

المطلب السادس :

مجلس التعاون الخليجي العربي
نموذج لوحدة فرعية في النظام الاقليمي العربي

شرعية نشأة المجلس :

في ظل المادة التاسعة من ميثاق جامعة الدول العربية والذي يقول « لدول الجامعة العربية الراغبة فيما بينها في تعاون اوثق ، وروابط اقوى مما نص عليه الميثاق ان تعقد بينها من الاتفاقات ما تشاء لتحقيق هذه الاغراض» . عقد وزراء خارجية المملكة العربية السعودية ودولة الامارات العربية المتحدة وقطر والبحرين والكويت وسلطنة عمان مؤتمرا بالرياض لاعلان قيام (مجلس التعاون الخليجي العربي) ومقره الرياض ، وقد جاء في نص بيانه :

« ادراكا من كل من دولة الامارات العربية المتحدة ودولة البحرين والمملكة العربية السعودية وسلطنة عمان وقطر ودولة الكويت لما يربط بينها من علاقات خاصة وسمات مشتركة نابعة من عقيدتها المشتركة وتشابه انظمتها ووحدة تراثها وتماثل تكوينها السياسي والاجتماعي والسكاني ، وتقاربها الثقافي والحضاري ورغبة من هذه الدول في تعميق وتطوير التعاون والتنسيق بينها في مختلف المجالات بما يعود على شعوبها بالخير والنمو والاستقرار ... قد اتفقوا على انشاء مجلس للتعاون بين دول الخليج العربية المذكورة وتكوين امانة عامة لهذا الهدف وعقد اجتماعات دورية على مستوى القمة وعلى مستوى وزراء الخارجية وصولا الى الغايات المرجوة لهذه الدول وشعوبها في جميع المجالات .

وقد جاءت هذه الخطوة تمشيا مع الاهداف القومية للامة العربية وفي نطاق ميثاق جامعة الدول العربية الذي حث على التعاون الاقليمي الهادف الى تقوية الامة العربية وما يؤكد تدعيم انشاء هذه الدول لجامعة الدول العربية وتعزيز دورها في تحقيق اهداف ومبادىء ميثاقها بما يخدم القضايا العربية والاسلامية » .

الهيكل التنظيمي للمجلس :

يتكون مجلس التعاون من :
(أ) المجلس الاعلى وتتبعه هيئة فض المنازعات .
(ب) المجلس الوزاري ،
(جـ) الامانة العامة .

(أ) المجلس الاعلى :

١ ــ يتكون من رؤساء الدول الاعضاء .

٢ ــ تكون رئاسة المجلس دورية حسب الترتيب الابجدي .

٣ ــ يجتمع المجلس في دورتين عاديتين كل سنة ويجوز عقد دورات طارئة .

٤ ــ لكل عضو الحق في الدعوة لاجتماع طارىء ويتم الاجتماع بعد ان تؤيد الدعوة من قبل عضو آخر .

اختصاصات المجلس الاعلى :

يضع المجلس الاعلى السياسة العليا لمجلس التعاون والخطوط الاساسية التي يسير عليها ، ويناقش التوصيات والقوانين واللوائح التي تعرض عليه من المجلس الوزاري والامانة العامة تمهيدا لاعتمادها ويشكل هيئة فض المنازعات .

هيئة فض المنازعات

تتبع المجلس الاعلى وتتولى القيام بفض المنازعات القائمة او التي قد تقع بين الدول الاعضاء كما تكون المرجع لتفسير النظام الاساسي لمجلس التعاون .

(ب) المجلس الوزاري :

١ ــ يتكون من وزراء خارجية الدول الاعضاء او من ينوب عنهم من الوزراء .

٢ ــ يضع النظام الأساسي للامانة العامة .

٣ ــ يهيىء المجلس الوزاري الاجتماعات للمجلس الاعلى ويعد الدراسات والمواضيع والتوصيات واللوائح والقوانين التي تعرض على المجلس الاعلى وكذلك اعداد جداول اجتماعات المجلس .

٤ ــ يجتمع المجلس ست اجتماعات كل سنة ، مرة كل شهرين ، ويجوز عقد دورات طارئة بناء على اقتراح دولتين من الدول الاعضاء .

٥ ــ يضع السياسات والتوصيات والدراسات والمشاريع التي تهدف الى تطوير التعاون والتنسيق بين الدول الاعضاء في مختلف المجالات .

٦ ــ يشجع اوجه التعاون والتنسيق بين الانشطة المختلفة للقطاع الخاص .

٧ ــ يعتمد التقارير الدورية وكذلك الانظمة واللوائح الداخلية والمتعلقة بالشؤون الادارية والمقترحة من الامين العام ، وكذلك التصديق على الميزانية والحسابات الختامية للامانة العامة لمجلس التعاون .

٨ ــ يعمل على تشجيع وتطوير وتحسين الانشطة القائمة بين الدول الاعضاء في مختلف المجالات وتعتبر تلك الانشطة ملزمة في حالة اقرارها من قبل المجلس الوزاري .

كما على المجلس ان يوصي الوزراء المختصين بوضع السياسات ودراسة المواضيع الكفيلة بتحقيق أهداف مجلس التعاون .

(جـ) الأمانة العامة :

يكون لمجلس التعاون امين عام يعين من قبل المجلس الاعلى ويحدد المجلس الاعلى شروط ومدة تعيينه ويتم اختياره من رعايا دول مجلس التعاون .

ويكون الامين العام مسؤولا مسؤولية مباشرة عن اعمال الامناء المساعدين وعن الامانة العامة للمجلس وحسن سير العمل في مختلف قطاعاته ، ويكون للامانة العامة جهاز للمعلومات .

اختصاصات الامانة العامة :

١ ــ اعداد الدراسات الخاصة بالتعاون والتنسيق .

٢ ــ متابعة تنفيذ قرارات وتوصيات المجلس الاعلى والمجلس الوزاري من قبل الدول الاعضاء .

٣ ــ اعداد التقارير والدراسات التي يطلبها المجلس الوزاري .

٤ ــ اعداد التقارير الدورية عن اعمال مجلس التعاون .

٥ ــ اعداد الميزانيات والحسابات الختامية .

٦ ــ اعداد مشروعات اللوائح المالية والادارية والتي من شأنها جعل الجهاز متطورا يتمشى مع نمو مجلس التعاون وتزايد مسؤولياته .

هذا وتنص المادة الخامسة من النظام الاساسي للمجلس على انه « يتكون مجلس التعاون من الدول الست التي اشتركت في اجتماع وزراء الخارجية في الرياض بتاريخ ١٩٨١/٢/٤ ، بمعنى قصور العضوية فيه عليها فقط .

كما جاء في نص البيان الختامي لمؤتمر المجلس الاعلى الاول في مدينة ابوظبي (٢٥ ــ ١٩٨١/٥/٢٦) ما يلي :

وادراكا منهم لحتمية التكامل الاقتصادي بين دولهم والاندماج الاجتماعي بين شعوبهم يرون ان الظروف المرحلية التي تعيشها دولهم والقضايا والمشاكل المتشابهة التي تواجهها علاوة على تماثل نظمها الاقتصادية والاجتماعية التي تقضي بوجوب وضع الاسس واقامة المؤسسات وانشاء الاجهزة المؤدية الى جعل ذلك التكامل والاندماج الاجتماعي حقيقة ماثلة للعيان .

وقام اصحاب الجلالة والسمو باستعراض الوضع الراهن في المنظمة وجددوا تأكيدهم بان امن المنطقة واستقرارها انما هو مسؤولية شعوبها ودولها وان هذا المجلس انما يعبر عن ارادة هذه الدول وحقها في الدفاع عن امنها وصيانة استقلالها كما اكدوا رفضهم المطلق لأي تدخل اجنبي في المنطقة مهما كان مصدره وطالبوا بضرورة ابعاد المنطقة باكملها عن الصراعات الدولية وخاصة تواجد الاساطيل العسكرية والقواعد الاجنبية لما فيه مصلحتها ومصلحة العالم .

وأعلنوا بان ضمان الاستقرار في الخليج مرتبط بتحقيق السلام في الشرق الاوسط ، الامر الذي يؤكد على ضرورة حل قضية فلسطين حلا عادلا يؤمن الحقوق المشروعة للشعب الفلسطيني بما فيه حقه في العودة الى وطنه واقامة دولته المستقلة ويؤمن الانسحاب الاسرائيلي من جميع الاراضي العربية المحتلة وفي طليعتها القدس الشريف .

ويتضح الشعور بالمسؤولية الخليجية خاصة والعربية عامة في نص ورقة العمل التي قدمت الى المؤتمر حيث ابرزت انه :

(١) اذا كانت التحديات تكفي لايجاد تعاون فعال في اي منطقة من العالم فان ظروف منطقة الخليج مؤاتية اكثر ، فنحن هنا نشكل جزءا من قومية تدين بدين واحد ولنا تراث حضاري مشترك وقيم وعادات مشتركة ، ونظرا لموقعنا الجغرافي والسياسي وثروتنا النفطية التي تكون عرضة للاطماع السياسية الدولية الى درجة تقرب من الابتزاز الذي يدفعنا جميعا الى الاتجاه للتعاون المشترك .

ان عالم اليوم يؤكد اهمية الترابط بين الامم وبالتالي فان الاندماج الاقليمي خاصة في منطقة الخليج سيكون عونا ودعما لاهداف الامة العربية والاسلامية ويصبح اكثر الحاحا ومطلبا محليا في هذه الفترة التاريخية .

(٢) ان التعبئة الفعالة للموارد والكفاءات في بناء منظمة خليجية تعزز الوضع وتعينه جديرة بان تحمل هذا الاقليم العربي الى آفاق تنموية متوازنة يستفيد منها ابناء المنطقة بصفة خاصة والعرب بصفة عامة .

(٣) ان التحديات التي تواجه هذه المنطقة بتعاظم حاجة العالم الصناعي للنفط ، واصبح الاندماج الخليجي هو العامل الحاسم نحو توجه جديد ورحب لصياغة سياسة اقتصادية واجتماعية تبعد المنطقة عن التنافس الدولي .

(٤) ان الحديث عن « فراغ القوة » في المنطقة والثروة التي ليس لها أصحاب يمكن أن ينتهي الى الابد اذا قام اصحاب البيت بعزم ثابت واكيد بدورهم الجماعي .

(٥) وتستطيع اقطار مجلس التعاون مجتمعة ان يكون لها صوت في المجال العالمي والاقليمي يعبر عن مكانتها في الاقتصاد العالمي ، صوت محترم ومهاب في علاقاتها مع الشرق والغرب ، مع الشمال والجنوب ، ويكون عضدا فاعلا في قضايا الامة العربية .

(٦) من اولويات التفكير العلمي المنظم هو (الوصول) الى اندماج حقيقي وشامل للقطاعات الاقتصادية والاجتماعية والسياسية .

وكان رد الفعل ايجابيا من الدول العربية فرادى ، وعلى لسان الامين العام لجامعة الدول العربية الذي اشاد بقيام المجلس ووصفه بانه حدث تاريخي عظيم حيث انه سيمكن دول الخليج من تنسيق جهودها وتنظيم اعمالها خاصة في ميادين الامن والتنمية ، كما اكد على ان كل الدول العربية تبارك اقامة المجلس وترى فيه « خطوة متقدمة نحو تأمين التعاون وتضافر الجهود لهذه المنطقة من الوطن العربي »[1] ، كما اكد سيادته على ان « انضمام قوى وطاقات دول الخليج ... سوف يكسب مجموعة مجلس التعاون وزنا خاصا في داخل الوطن العربي لحل المشكلات العربية الى جانب وزنه الخاص في الساحات الدولية » واوضح ان هناك تكاملا شاملا بين الجانبين الخليجي والعربي[2] .

كما حرص البيان الختامي لاجتماعات الدورة الاولى للمجلس الوزاري لمجلس التعاون الخليجي العربي على تأكيد ان :

(١) امن الخليج واستقراره هو مسؤولية دوله فقط ، وانه يعارض محاولات الدول الكبرى للتدخل في شؤون المنطقة

(٢) مؤازرته لنضال الشعب الفلسطيني في سبيل تقرير مصيره بنفسه وانشاء دولته المستقلة على أرضه تحت قيادة منظمة التحرير الفلسطينية .

(٣) برنامج السلام السعودي (مشروع فهد) يحظى بتأييد المجلس ، وطالب بوضعه على جدول أعمال القمة العربية التالية .

(٤) حرية الملاحة في الخليج يجب ان تكون مكفولة ، وعن تأييده للمساعي الاسلامية لانهاء النزاع العراقي الايراني .

ولا شك ان الرأي العام العربي – وعلى الرغم من خبرات قاسية في مجالات الوحدة الجزئية السابقة – يؤيد ويبارك هذا الاتجاه الوحدوي الخليجي القائم على اساس من وحدة المصالح ، والجذور الحضارية ، بل ان الكاتب لا يتجاوز حدود الموضوعية اذا هو عبر عن تطلع الشعوب العربية

---

(١) وكالة الانباء القطرية : وثائق مجلس التعاون الخليجي (الدوحة : وكالة الانباء القطرية ، بدون) ص١٣٩ – ١٤٠ .

(٢) من نص حديث السيد الشاذلي القليبي امين عام جامعة الدول العربية في اذاعة صوت ابوظبي يوم ١٩٨١/٥/٦ ، كما ورد في المرجع سابق الذكر ، ص١٤٠ .

الهادفة الى قيام لبنات وحدوية ، تمثل نظما فرعية للنظام الاقليمي العربي ، تساعد على ايجاد ورعاية توازن القوى العملي والتطبيقي في اعمال وانشطة الجامعة العربية يخرجها ويخرج الشعوب والدول العربية من متاهة الضياع في مواجهة الدول الكبرى من جانب والصهيونية العالمية والغطرسة الاسرائيلية من جانب آخر ، ولعل في مثل هذه النظم الفرعية بديلا عما ينادى به بعض المفكرين العرب[1] من العودة الى تأكيد دور « الاقليم القاعدة » وتوفير « السلطة المشخصنة » التي تعمل على استقطاب بقية اعضاء المجتمع العربي استعدادا لمرحلة الانطلاق نحو الوحدة العربية الشاملة .

---

(١) د. نديم البيطار : من التجزئة ... الى الوحدة (بيروت : مركز دراسات الوحدة العربية ، ١٩٧٩ ، ص٣٦٨ ــ ٣٩٦ .

الفصل التاسـع

القضية الفلسطينية

الدكتور عبد الوهاب أحمد

المبحث التاسع

القضية الفلسطينية

القضية الفلسطينية هي قضية العرب الاولى بل هي قضية العالم بأسره . وقد لعبت استراتيجية موقع فلسطين والعوامل الاقتصادية والسياسية والدبلوماسية والعسكرية والصراعات الايدولوجية دوراً هاماً وخطيراً في خلق وتعميق المشكلة الفلسطينية .

وكانت فلسطين قبل الحرب العالمية الاولى واقعة ، كغيرها من البلاد العربية ، تحت الحكم العثماني . ولما انهارت الدولة العثمانية في نهاية الحرب وقعت فلسطين تحت قبضة الاستعمار البريطاني من جهة ، وجشع وأطماع الصهيونية العالمية من جهة أخرى .

مطامع بريطانيا في فلسطين :

لقد كانت بريطانيا تدرك تماماً أهمية فلسطين الاستراتيجية للدفاع عن مصر وقناة السويس وبالتالي لحماية مصالح الامبراطورية البريطانية الاقتصادية والعسكرية في منطقتي الشرق الأوسط والشرق الأدنى .

والتقت مصالح بريطانيا ومخططاتها الاستراتيجية الاستعمارية في فلسطين مع مصالح الصهيونية ومخططاتها الاستعمارية والاستيطانية ، وأخذا يعملان سوياً على تحقيقها .

وكان هذا الاتجاه متمشياً مع مقررات المؤتمر الصهيوني الأول الذي عقد في بال عام ١٨٩٧م ، ومع توصيات مؤتمر الدول الاستعمارية الذي عقد في عام ١٩٠٧م ، وأوصى بضرورة مقاومة أي شكل من أشكال الوحدة العربية ، والعمل على فصل الجزء العربي الآسيوي عن الجزء العربي الافريقي وإقامة حاجز بشري قوي وغريب على الجسر الذي يربط بين آسيا وأفريقيا .

وأدرك زعماء اليهود مخططات بريطانيا الاستراتيجية والاستعمارية ورأوا أنها تتمشى مع مخططاتهم الاستيطانية في فلسطين فأخذوا ينسقون ويوطدون الصلات بالحكومة البريطانية ويسعون للحصول على دعمها وتأييدها لاقامة الوطن اليهودي القومي في فلسطين .

وانتهزت الحركة الصهيونية فرصة الحرب العالمية الأولى ، والتي وجدت فيها فرصة مواتية لتحقيق أحلامها وأطماعها في فلسطين ، فأخذت تكثف اتصالاتها بالحلفاء لا سيما بريطانيا ، لتحقيق تلك الغايات .

ولما كانت بريطانيا تطمع في السيطرة على فلسطين لتتحكم في مصر وقناة السويس وتحمي خطوط مواصلاتها التجارية والعسكرية إلى الهند ، فقد تنكرت لكافة وعودها للعرب بالحرية والاستقلال في مراسلات حسين ــ مكماهون ، ولاتفاقية سايكس ــ بيكو التي وافقت فيها على تدويل فلسطين ، وسارعت باصدار تصريح بلفور في ٢ نوفمبر عام ١٩١٧م الذي تعاطفت فيه مع أماني اليهود القومية وتطلعاتهم في فلسطين ، ووعدتهم بانشاء وطن قومي لهم هناك .

ويبدو أن بريطانيا لم تمنح اليهود هذا التصريح إلا بعد أن وثقت من أنهم سيطالبون بأن تكون بريطانيا هي الوصية على فلسطين مما يمكنها من حصر فرنسا في شمال الشام والفصل بينها وبين مصر وقناة السويس .

وبالفعل ضغط زعماء الحركة الصهيونية على كل من فرنسا وأمريكا وحصلوا على موافقتها بأن تكون بريطانيا الدولة المنتدبة على فلسطين لتمهد لهم للسيطرة عليها تدريجياً دون أي اعتبار لرغبة الشعب الفلسطيني العربي الذي كان يشكل حوالي ٩٠٪ من تعداد السكان ، والذي كان يعارض الانتداب البريطاني معارضة قاطعة وينظر اليه كستار للتغلغل الاستعماري الصهيوني في فلسطين العربية .

الانتداب البريطاني في فلسطين :

يمثل الانتداب البريطاني على فلسطين (١٩٢٠ ــ١٩٤٨م) أول مرحلة من مراحل المؤامرات الاستعمارية الصهيونية لاقتلاع جذور فلسطين العربية الاسلامية والتمهيد لاستيلاء اليهود عليها وتهويدها تدريجياً .

وتضمن صك الانتداب الذي أقره مجلس عصبة الأمم في ٢٤ يوليو ١٩٢٢م اعترافاً « بالصلة التاريخية التي تربط اليهود بفلسطين وبالأسباب التي تبعث على إعادة انشاء وطنهم القومي في تلك البلاد » كما تضمن الصك تصريح بلفور والاعتراف بكل ما ورد فيه وألزم الدولة المنتدبة (بريطانيا) بالعمل على إنشاء الوطن القومي لليهود في فلسطين وذلك بتسهيل هجرة اليهود إلى فلسطين وشرائهم للاراضي .

وأشار صك الانتداب كذلك إلى أن تكون اللغتان الانجليزية والعبرية على قدم المساواة مع اللغة العربية ، اللغات الرسمية لفلسطين .

وصار صك الانتداب هذا وثيقة دولية ملزمة لبريطانيا بعد أن أقرته عصبة الأمم ووافقت عليه الولايات المتحدة الامريكية .

وهكذا ورغم إدعاءات بريطانيا المتكررة التي تؤكد أن الالتزامات المفروضة على الدولة المنتدبة بشأن اليهود والعرب متساوية ، وأنه لا تناقض في تلك الالتزامات التي يمكن تنفيذها ، إلا أن الأحداث تكشف لنا جلياً تناقض تلك الالتزامات واستحالة تنفيذها ، وتفضح مخططات الحكومة البريطانية الاستعمارية التي تبنت منذ البداية ، وبالتعاون مع الحركة الصهيونية ، سياسة إيجاد وطن قومي لليهود في فلسطين يتطور تدريجياً إلى دولة يهودية عنصرية في قلب الوطن العربي .

وكان البريطانيون يعتقدون أن هذا الكيان اليهودي سيظل خاضعاً لنفوذهم ودائراً في فلكهم وفي حاجة دائمة إلى حمايتهم ورعايتهم ، كما أنه سيكون في نفس الوقت مشغلة للعرب ينهك قواهم ويعرقل وحدتهم ويخيفهم ويجعلهم دائماً وأبداً بحاجة إلى مساندة الانجليز وحمايتهم والبقاء في فلكهم .

وفي عام ١٩٢٠م ألغيت الادارة العسكرية لفلسطين وأقيمت بدلا منها ادارة مدنية برئاسة اليهودي الانجليزي المعروف هربرت صموئيل الذي اختارته الحكومة البريطانية كأول مندوب سامي لبريطانيا في فلسطين .

ورحب الصهاينة بهذا التعيين وصرح وايزمن بأن هربرت صموئيل هو صديق للصهيونية ولم يقبل منصب المندوب السامي البريطاني في فلسطين إلا نزولا عند رغبتهم .

ولا شك أن تعيين هربرت صموئيل لهذا المنصب الحساس يحمل أكثر من دلالة فهو يعني في المكان الاول صبغ فلسطين بصبغة يهودية مما يلفت نظر يهود العالم إليها ويثير عواطفهم وحماستهم الدينية والسياسية ونزعتهم العنصرية للعودة إلى فلسطين من مختلف أنحاء المعمورة حتى يصبحوا أكثرية وتصبح لهم السيطرة الاقتصادية والسياسية على البلاد ويتمكنوا من إنشاء حكومة يهودية صرفة .

وتحقيقاً لهذه الغاية فقد فتح صموئيل أبواب فلسطين على مصراعيها المهاجرين اليهود من كل أرجاء العالم وقفلها في وجه عرب فلسطين العائدين لبلدهم الذي فارقوه طلباً للرزق ، كما انتهج سياسة متحيزة لليهود وممالية لهم ومحاربة للعرب في النواحي الادارية والاقتصادية والتعليمية والتشريعية وأقام جهازاً ادارياً مدنياً في فلسطين عهد بالمراكز العليا فيه إلى موظفين بريطانيين معروفين بتعاطفهم مع الحركة الصهيونية بل وانتمائهم إليها .

وقد ظهرت في عهده ولأول مرة ، طوابع البريد وقطع العملة التي تحمل كلمة أرض اسرائيل بالعبرية كترجمة لكلمة فلسطين العربية .

الهجرة وشراء الأراضي :

حرصت الحكومة الفلسطينية البريطانية طوال فترة الانتداب على الوفاء بالتزامات بريطانيا تجاه اليهود والحركة الصهيونية وذلك بالعمل المتواصل من آجل « وضع البلاد في أحوال سياسية وإدارية واقتصادية تضمن إنشاء الوطن القومي اليهودي » ، كما نصت على ذلك المادة الثانية من صك الانتداب ، وقامت سلطات الانتداب بتسهيل هجرة اليهود إلى فلسطين وشرائهم الأراضي لا سيما الأراضي الأميرية وأراضي الموات دون مراعاة لظروف البلاد الاقتصادية والسياسية التي لم تكن تسمح بذلك ، ودون الاهتمام بالحقوق المدنية والدينية للطوائف غير اليهودية ، والتي أضيرت فعلا من جراء ذلك ، إذ أن تنمية الوطن القومي اليهودي بشرياً واقتصادياً وثقافياً واجتماعياً وسياسياً كانت تتم على حساب العرب ، السكان الاصليين لفلسطين .

ونتيجة لهذه السياسة المتحيزة لليهود والمجحفة للعرب فقد ازداد عدد اليهود المهاجرين لفلسطين من ٩ آلاف في عام ١٩٣٢م ، إلى ٣٠ ألفا في عام ١٩٣٣ ، وإلى ٤٢ ألفا في عام ١٩٣٤م ثم قفز إلى ٦١ ألفا في عام ١٩٣٥م . وأدت هجرة اليهود الشرعية وغير الشرعية إلى ازدياد اليهود في فلسطين من ٨٥ ألفا في عام ١٩٢٢م إلى ٤٠٠ الف في عام ١٩٣٦م . وارتفعت بذلك نسبتهم من حوالي ١٠٪ من تعداد السكان إلى حوالي ٣٠٪ واستمر هذا الارتفاع يسير بمعدل أعلى ومضطرد طوال فترة الانتداب .

وعلى غير ما كان عليه حال المهاجرين الأوائل الذين كانوا يحضرون إلى فلسطين بوصفها أرض الميعاد « ليجاوروا ويموتوا » كان المهاجرون الجدد الذين دربوا تدريباً جيداً في مراكز خاصة للحركة الصهيونية في أواسط وغرب

أوروبا ، وتشبعوا بأهداف وأفكار الصهيونية ، ومن ذوي الخبرات والمهارات الفنية العالية يحضرون لفلسطين من أجل إنشاء الوطن القومي اليهودي هناك ويتفانون في القيام بهذه المهمة ويطبقون الاساليب العلمية وغيرها . وصحب هذه الهجرة اليهودية تدفق هائل في رأس المال اليهودي إلى فلسطين وصل في عام ١٩٣٠م الى ثمانين مليوناً من الجنيهات الاسترلينية .

واستفادت الحركة الصهيونية من تدفق المهاجرين ورأس المال اليهودي إلى فلسطين وأخذت تستغل ما ورد في المادة السادسة من صك الانتداب والتي أشارت إلى تمكين اليهود من الأراضي الأميرية والموات ، وتعمل للحصول على أخصب الأراضي في فلسطين العربية ، بالاضافة إلى الأراضي الحكومية والموات التي كانت تمنحها سلطات الانتداب إلى اليهود . وتمكنت الجمعية اليهودية للاستعمار في فلسطين ، والصندوق القومي اليهودي من شراء مساحات شاسعة من أخصب أراضي فلسطين بأسعار باهظة من ملاك الأراضي الغائبين الذين كانوا غالباً ما ينتمون إلى جنسيات غير عربية كعائلة سرسق الرومية الأصل والتي تمتلك حوالي ٣٪ من أراضي فلسطين الخصبة ، كما كانوا يشترون الاراضي من صغار المزارعين العرب الذين أرهقتهم ضرائب الحكومة الباهظة والديون المتراكمة عليهم . وكانت المؤسسات الصهيونية تستعمل كافة الوسائل من إغراء وتدريج وتشكيك وتهديد وتخويف للحصول على الأراضي العربية .

هذا وقد زارت فلسطين عدة لجان صهيونية متخصصة قامت بدراسة الأراضي والأمطار والمياه في كل منطقة من مناطق فلسطين ، ووضعت توصياتها تحت تصرف الجمعيات الصهيونية المعنية التي أخذت تعمل بدورها ، ونتيجة لهذه الدراسات العلمية ، الحصول على أخصب وأجود الأراضي العربية وأصلحها للزراعة والاستيطان ، كما أخذ التوطين يتجه إلى الأراضي الاستراتيجية الخصبة التي تتوفر فيها المياه ، والتي يمكن الدفاع عنها في حالة مهاجمتها من قبل العرب .

المقاومة العربية للانتداب البريطاني والنفوذ الصهيوني :

توجس عرب فلسطين خيفة من مخططات الحركة الصهيونية الاستعمارية في فلسطين فثاروا عليها في عام ١٩٢١م ، وتوجه أول وفد فلسطيني (الوفد الفلسطيني الأول) برئاسة موسى كاظم الحسيني إلى لندن في عام ١٩٢٢م ليرفع للمسؤولين البريطانيين شكوى عرب فلسطين ويطالب بحقهم الشرعي في تقرير

مصيرهم وإقامة دولة فلسطينية وطنية ومستقلة ، وليستفسر عن حقيقة السياسة البريطانية في فلسطين وما تعنيه عبارة وطن قومي ، ومكث الوفد في بريطانيا نحو عام يقوم بمهمته الشاقة لشرح أبعاد القضية الفلسطينية وكسب التأييد لها والتعاطف معها رسمياً وشعبياً . ورغم ما ظهر من تعاطف بعض الأوساط الانجليزية ، إلا أن السياسة البريطانية تجاه فلسطين ظلت كما هي ، وأخبر تشرشل وزير المستعمرات أعضاء الوفد بصراحة تامة ، أن إنشاء حكم وطني بأكثرية عربية سيحول دون تنفيذ الوعد المعطى لليهود باقامة وطن قومي لهم في فلسطين ، ولهذا فانه ليس هناك شيء يقال له « حكومة وطنية » في برنامج الحكومة البريطانية .

وعاد الوفد الفلسطيني بالخيبة والفشل ، وأدرك أعضاؤه أبعاد السياسة البريطانية في فلسطين وتماديها في تجاهل الحقوق العربية .

وكل ما فعلته الحكومة البريطانية أن أصدرت كتاباً أبيض لفلسطين عام ١٩٢٢م عرف بكتاب تشرشل ، حاولت فيه تفسير الوطن القومي بصورة تخفف من مخاوف العرب(١) .

ولم يلبث عرب فلسطين أن تبينوا حقيقة السياسة البريطانية وصدقت كل تخوفاتهم وتحذيراتهم من مطامع الحركة الصهيونية الاستعمارية في فلسطين فوطدوا العزم على محاربة الحكم البريطاني والمطامع الصهيونية بالعمل الجاد لوقف الهجرة اليهودية إلى فلسطين ، وإصدار قوانين واضحة لمنع انتقال الأراضي ، وإقامة حكومة وطنية مستقلة ، واتسمت حركة المقاومة العربية الفلسطينية التي امتدت طوال فترة الانتداب بالعنف والاصرار .

بدأ عرب فلسطين مقاومتهم للانتداب البريطاني والتغلغل الصهيوني عن طريق تطيير البرقيات وتقديم عرائض ومذكرات الاحتجاج والاستنكار للسلطات البريطانية والهيئات الدولية ، ثم نظموا المظاهرات والاضرابات ومقاطعة المؤسسات البريطانية والصهيونية ، ولما لم تجد هذه الوسائل إتجه عرب فلسطين إلى الاضطرابات الدامية العنيفة والثورات المسلحة ضد الانتداب البريطاني والخطر الصهيوني .

---

(١) نص الكتاب الابيض لعام ١٩٢٢ م ، ملحق رقم ١ / محمد عزة دروزة ، حول الحركة العربية الحديثة ، الجزء الثالث ، ص٢٥٢ .

لقد بدأت بوادر الثورة المسلحة في عام ١٩٣٣م وتبلورت في عام ١٩٣٥م عندما شكل المجاهد الشيخ عزالدين القسام أول جماعة عربية مسلحة وبدأ عملياته الفدائية ضد الاستعمار الأجنبي البغيض ممثلا في الانجليز واليهود ، على السواء .

ورغم أن السلطات البريطانية قد طوقت حركة القسام وتمكنت من قتله مع بعض رفاقه في معركة دموية غير متكافئة ، وحالت بذلك دون تحقيق أهدافه المرجوة ، إلا أن استبساله واستشهاده في ميدان المعركة قد ألهب حماس الشبيبة العربية وأنبت فيهم غرسة النضال المسلح التي سرعان ما أينعت وأثمرت في ثورة ١٩٣٦م العارمة التي تجاوزت الزعامة الوطنية شبه العشائرية والأحزاب التقليدية .

ثـــورة ١٩٣٦ ـ ١٩٣٩م :

بدأ عرب فلسطين ثورتهم بتكوين لجان قومية في جميع أنحاء فلسطين تدعو إلى الاضراب الشامل حتى تستجيب الحكومة البريطانية لمطالبهم المتكررة بوقف هجرة اليهود إلى فلسطين وإصدار قوانين واضحة وحاسمة تمنع انتقال الأراضي ، وتأليف حكومة وطنية . وكانت استجابة العرب تامة وشمل الاضراب كافة فلسطين ، فأقفلت الحوانيت والمدارس وتوقف العمال بمن فيهم عمال الموانىء وسائقو السيارات . وتبلور الموقف السياسي سريعاً ، وتشكلت اللجان القومية في كافة مدن وقرى فلسطين وباشرت الاشراف على سير الاضراب وقامت بتوزيع المنشورات وتسيير المظاهرات .

وأدرك زعماء فلسطين التقليديون أن الأحداث قد تجاوزتهم فأرادوا اللحاق بها ، فأعلنوا بعد خمسة أيام من بداية الاضراب عن اتفاقهم على تأسيس « اللجنة العربية العليا » التى ضمت ممثلين عن جميع الأحزاب برئاسة الحاج أمين الحسينى مفتى فلسطين . وقد دعت اللجنة عرب فلسطين إلى الاستمرار فى الاضراب حتى تستجيب الحكومة البريطانية لمطالبهم المعلنة .

وتوحد عرب فلسطين ، مسلمين ومسيحيين ، فى نضالهم ومقاومتهم العنيدة للخطر الصهيونى والاستعمار البريطانى ، واشتـدت المظاهـرات وتكاثرت وارتفعت درجة الحماس الوطنى والشعور القومى وتأصلت الرغبة فى البذل والعطاء والتضحية ، وأعلن المؤتمر العام للجان القومية الذى اجتمع فى القدس فى ٨ مايو (آيار) ١٩٣٦م ، الاستمرار فى الاضراب الذى أعلن منذ ٢٠

ابريل (نيسان) ودعا إلى العصيان المدنى والامتناع عن دفع الضرائب . وطار عقل سلطات الانتداب فأعلنت قانون الدفاع وقانون الطوارىء ونظام منع التجول ومارست شتى أنواع الضغوط النفسية والسياسية والاقتصادية ضد عرب فلسطين ، ودار الصراع غير المتكافىء ، بين الاستعماريين البريطانى والصهيونى من جانب والشعب الفلسطينى المناضل من الجانب الآخر .

ولجأت الحكومة البريطانية إلى أساليبها وحيلها المعهودة فأعلنت عن عزمها على إرسال لجنة ملكية للتعرف على أسباب العصيان والاضطرابات فى فلسطين والعمل على إزالة أسبابها . ولم يأبه عرب فلسطين البواسل بهذه التحركات البريطانية المكشوفة ، والتى كانوا ينظرون إليها كمحاولة لكسب الوقت وإعطاء المستعمرين فرصة للتمويه والمماطلة مع استمرارهم فى تنفيذ مخططاتهم الاستعمارية وواصلوا إضرابهم الذى استمر طوال ستة أشهر .

وأمام هذا الاصرار العربى على مواصلة النضال السياسى الذى تطور إلى كفاح مسلح شنته العصابات العربية المسلحة فى سهول وتلال فلسطين على اليهود والانجليز على حد سواء ، ضاعفت الحكومة البريطانية من قواتها فى فلسطين باستدعاء النجدات من مصر ومالطة حتى بلغت (٨٠) ألف جندى مدججين بالسلاح ومزودين بالطائرات الاستكشافية والمقاتلة ، وعملت السلطات البريطانية فى فلسطين على التنكيل بالثوار وكافة المواطنين المتهمين بالتعاون معهم وأعطت لنفسها الحق فى تفتيش المنازل والمساكن التى تشك فى تعاون أهلها مع الثوار ، والاستيلاء عليها وإخلائها ونسفها أمام أعينهم بكل ما فيها من أمتعة وممتلكات .

واستخدمت نظام العقوبات الجماعية فى القرى والأحياء التى يأوى إليها الثوار وتتعاون معهم أو يقع فيها أي نوع من أنواع التصادم والاشتباك مع قوات الأمن .

وبالرغم من هذا فقد تطور العمل الفدائى وأخذ أبعاداً جديدة بعد تدفق المتطوعين من عرب سوريا والعراق وشرق الاردن تحت إمرة فوزى القاوقجي الذى كان يعمل ضابطاً فى الجيش العثماني وتدرب على حرب العصابات وشارك فى عدة حركات ثورية لتحرير سوريا ولبنان من الاستعمار الفرنسى . وأعلن القاوقجي عن تشكيل « قيادة الثورة العربية العامة فى سوريا الجنوبية » « فلسطين » وعن التزام قواته بأوامر القيادة السياسية الفلسطينية . وتمكن

القاوقجي ورفاقه من تطوير حرب العصابات فى فلسطين بصورة واضحة أذهلت قواد القوات البريطانية وأجبرتهم على الاعتراف بدقة التخطيط والتنفيذ للعمليات الفدائية التى استهدفت الأماكن الاستراتيجية والمرافق العامة . وكانت المستوطنات اليهودية ومراكز الشرطة وخط أنابيب البترول من الأهداف الأساسية لرجال العصابات . وتبلورت حرب العصابات وأخذت شكلا واضحاً وأخذ القاوقجي يصدر النداءات والبلاغات العسكرية عن المعارك الضارية التى يخوضها الفدائيون ضد القوات البريطانية .

وانتشرت العصابات المسلحة فى فلسطين وازدادت الانتصارات العربية فى الميدان كلما زاد عدد المتطوعين العرب الذين بهرتهم الانتصارات التى حققها الفدائيون بقيادة القاوقجي .

وعندما فشلت حكومة الانتداب فى قمع الثورة ، أو الوصول إلى أي اتفاق مع عرب فلسطين الذين رفضوا كل مساومة على حقوقهم أوحت إلى حكام العرب بالتوسط لانهاء الاضراب والاضطرابات فى فلسطين باعتبار أنها تلحق الضرر بالعرب أنفسهم قبل اليهود والبريطانيين ، كما وعدت بالاسراع فى إرسال اللجنة الملكية لاستقصاء الحقائق وحل المشاكل . وبالفعل تدخل الحكام العرب لانهاء ثورة عرب فلسطين ، ووجه الملك عبدالعزيز آل سعود نيابة عن الحكام العرب برقية إلى « اللجنة العربية العليا » أعلن فيها « أنه بالاتفاق مع إخواننا ملوك العرب والأمير عبدالله ندعوكم للاخلاد للسكينة حقناً للدماء معتمدين على حسن نوايا صديقتنا الحكومة البريطانية ورغبتها المعلنة لتحقيق العدل وثقوا بأننا سنواصل السعى فى سبيل مساعدتكم » .

وسارعت القيادة السياسية ممثلة فى اللجنة العربية العليا التى أحست بالارهاق الاقتصادى واليأس السياسى الذى يعانى منه عرب فلسطين ، فأعلنت قبولها للنداء واستجاب لها الشعب العربى الفلسطينى فأنهى الاضراب الذى استمر ستة أشهر ، والعمليات الفدائية على أمل أن تفى بريطانيا بوعودها ولكن دون جدوى .

وبالرغم من أن ثورة ١٩٣٦م لم تنجح فى تحقيق أهدافها المرجوة ، إلا أنها مازالت تمثل معلماً بارزا من معالم الكفاح الفلسطينى المسلح ضد الصهيونية والاستعمار من أجل الحرية والاستقلال ، كما أنها أثبتت إمكانية

انصهار كافة القوى الوطنية الفلسطينية فى جبهة واحدة ، ومشاركة العناصر العربية المجاورة كسوريا والعراق وشرق الاردن فى كفاح عرب فلسطين المسلح الذى هو فى حقيقته كفاح كل الأمة العربية .

لجنة بيل وتقسيم فلسطين :

وبعد وقف حرب العصابات وإنهاء الاضراب السياسى الشامل الذى استمر ستة أشهر أوفدت الحكومة البريطانية لجنة ملكية برئاسة اللورد بيل للتحقيق فى اضطرابات فلسطين ، واستقصاء الحقائق ، ورفع التوصيات اللازمة . وبعد دراسة شاملة للمشكلة الفلسطينية تناولت جميع جوانبها التاريخية والدينية والاجتماعية والسياسية والاستراتيجية وقفت اللجنة على حقيقة أبعاد الصراع الفكرى السياسى العميق بين العرب واليهود وعلى استحالة عيشهم سوياً فى فلسطين بسلام فقد طالب بعض الصهاينة المتطرفين ، أمثال جابوتنسكى بأن تكون فلسطين كلها بما فيها شرق الاردن وطناً قومياً لليهود ، كما طالبت اللجنة العربية العليا باقامة حكومة فلسطينية مستقلة فوراً تتم فيها سيطرة العرب الكاملة على كافة شؤون فلسطين بما فى ذلك الهجرة .

وتوصلت اللجنة الملكية إلى أن أسباب اضطرابات فلسطين ترجع فى المكان الأول إلى نمو الروح القومية عند العرب ، ورغبتهم الملحة فى الحصول على الاستقلال ، وتخوفهم من هجرة اليهود المتزايدة إلى فلسطين وشرائهم للأراضى ، وفقدانهم الثقة فى سياسة الحكومة البريطانية المتحيزة لليهود والمتجاهلة لحقوق عرب فلسطين .

ونصحت اللجنة بتحديد عدد المهاجرين باثنى عشر ألفاً من اليهود سنوياً ولمدة خمس سنوات ومراقبة الهجرة فى الوقت الذى تخضع فيه لقدرات فلسطين الاقتصادية على استيعاب المزيد منهم .

وأكدت اللجنة عجز حكومة الانتداب عن الوفاء بوعودها والتزاماتها المتضاربة لكل من العرب واليهود ، أو التوفيق بينهما ، وإعترفت اللجنة بحق عرب فلسطين فى الاستقلال وصلاحيتهم لحكم أنفسهم إذ أنهم ليسوا بأقل من عرب سوريا وعرب العراق ، كما اعترفت اللجنة كذلك بحق اليهود وصلاحيتهم لحكم أنفسهم بأنفسهم .

وخرجت اللجنة الملكية من كل ذلك بضرورة تقسيم فلسطين بين العرب واليهود .

وهذه هى المرة الأولى فى التاريخ التى يرد فيها رسمياً ذكر لتقسيم فلسطين ، واعتبرت اللجنة أن التقسيم هو الحل الوحيد والأمثل لهذه المشكلة المتفاقمة ، واعترفت اللجنة بصعوبة تنفيذ التقسيم الذى يحقق للعرب واليهود جزءاً هاماً من مطالبهم الأساسية والتى لا يمكن تحقيقها جميعاً .

ولابد لنا من الاشارة هنا إلى أن توصيات اللجنة الملكية الخاصة بالتقسيم تعطى اليهود أخصب أراضى فلسطين العربية ، كما تعطيهم مناطق عربية خالصة يبلغ سكانها من العرب ثلاثة أضعاف المستوطنين اليهود ويملكون من الأراضى الزراعية أربعة أضعاف ما يملكه اليهود مثل مناطق عكا وحيفا وصفد ، كما يؤدى التقسيم الى تهجير ٣٢٥,٠٠٠ مواطن عربى من المنطقة اليهودية التى لا يصل تعداد اليهود فيها إلى أكثر من ٢٠٠,٠٠٠ بينما لا تتجاوز أعداد اليهود القاطنين فى المناطق العربية ١٢٥٠ يهودياً .

ووافقت الحكومة البريطانية على تقرير اللجنة الذى نشر فى مجلدين ضخمين فى يوليو ١٩٣٧م ، وأعلنت عن عزمها الأكيد للعمل به وتنفيذ كل توصياته لاسيما مشروع التقسيم .

ردود الفعل العربية :

أعلن عرب فلسطين رفضهم لمشروع التقسيم جملة وتفصيلا ، وأكدوا تصميمهم على محاربته والحفاظ على وحدة فلسطين العربية الخالصة ، وعدم السماح لليهود الدخلاء باقتطاع جزء غال وعزيز من أرضها الطاهرة المقدسة مهما كلفهم الأمر . وتحقيقاً لهذه الغاية فقد أعلنوا مواصلة ثورتهم وكفاحهم المسلح وتجددت ثورة عرب فلسطين وانفجرت أعمال العنف من جديد وبدأت العصابات المسلحة نضالها السياسى تحت قيادات فلسطينية سبق لها أن تدربت وتمرست على العمل الفدائى إبان المرحلة الأولى للثورة .

وانتشرت العصابات المسلحة فى أنحاء البلاد تهاجم مراكز الشرطة والجيش والمستوطنات اليهودية وتفجر أنابيب البترول وتقطع خطوط السكة الحديدية وأسلاك البرق والهاتف . وتمكن الفدائيون من السيطرة على أجزاء المدن الفلسطينية العامة كمدينة القدس القديمة كما احتلوا جزءا من الخليل ومنطقة بئر السبع وطبرية وأصبحت جميع مراكز الحكومة والمستوطنات اليهودية معرضة لهجمات قوية ومنظمة من قبل الفدائيين .

ووقفت البلاد العربية المجاورة إلى جوار عرب فلسطين وساندتهم ماديا ومعنويا فى كفاحهم المستميت من أجل استقلال فلسطين وتحريرهـا من الاستعمار البريطانى والمطامع الصهيونية . وتألفت اللجان للدفاع عن فلسطين، فى كل العواصم العربية لتمد الثورة بالمساعدات المادية والدعم السياسى اللازم كما قامت المظاهرات المؤيدة لجهاد عرب فلسطين فى معظم البلاد العربية والاسلامية .

ورغم الاجراءات البريطانية التعسفية التى تضمنت أحكام الاعدام والسجن المؤبد والتعذيب ونسف المنازل وفرض الغرامات على الشعب العربى الفلسطينى المناضل ، إلا أن الثورة استمرت وتصاعدت وازدادت أعمال العنف وحرب العصابات وبلغت الثورة ذورتها فى عام ١٩٣٨م ، حيث أصبح الشعب لا يأبه للسلطة الحكومية ولا يحترمها ولايرى هيبة إلا للثورة التى فرضت سلطاتها وإدارتها على أجزاء متفرقة من البلاد .

العدول عن التقسيم :

وأمام هذا الاصرار العربى وتصاعد العمل الفدائى والسياسى ضد مشروع التقسيم اضطرت بريطانيا لمهادنة العرب بالعدول عن التقسيم ، واستندت بريطانيا فى ذلك إلى الصعوبات السياسية والادارية والمالية التى ستنشأ عن التقسيم ، والتى أشارت إليها اللجنة الفنية التى كلفت بالنظر فى إمكانية تنفيذ المشروع ، وأوصت بالعدول عنه لاستحالة تطبيقه . وأعلنت بريطانيا أنها ستستمر فى القيام بمسؤولياتها لحكم فلسطين كلها إلى أن تجد الحل المناسب .

وأشارت الحكومة البريطانية فى بيانها الرسمى الذى أعلنت فيه عدولها عن مشروع التقسيم إلى أن أهم الأسس لانهاء المشكلة الفلسطينية هى وصول العرب واليهود إلى تفاهم فيما بينهم . وعليه قررت الحكومة البريطانية توجيه الدعوة إلى عرب فلسطين والدول العربية المعنية من جهة وإلى الوكالة اليهودية من جهة أخرى ، للحضور إلى مؤتمر يعقد فى لندن بقصد التفاهم معهم حول السياسة المستقبلية فى فلسطين بما فيها مسألة الهجرة . وأوضحت الحكومة البريطانية أنه فى حالة فشل مباحثات لندن فانها ستتخذ قراراتها بنفسها على ضوء الدراسات التى تمت حتى ذلك الوقت .

مؤتمر لندن :

وافتتح مؤتمر لندن جلساته في ٨ فبراير/شباط ١٩٣٩م . وبالاضافة إلى الوفد العربي الفلسطيني فقد حضرته وفود عربية تمثل العــراق ومصر والسعودية وشرق الاردن واليمن ، كما حضره ممثلون عن يهود فلسطين ويهود العالم .

واتفق ممثلو الحكومات العربية مع الوفد الفلسطيني على عدم الجلوس مع اليهود في مائدة واحدة وعدم اعتبارهم طرفاً في النزاع القائم .

ووافقت الحكومة البريطانية على الأمر الأول وأخذ ممثلوها يجتمعون بالوفد العربي والوفد اليهودي كل على حدة .

وطالب العرب في المؤتمر بوقف الهجرة ومنع انتقال الأراضي العربية لليهود وقيام دولة مستقلة في فلسطين العربية ترتبط ببريطانيا بمعاهدة تضمن الحقوق السياسية والمدنية لليهود والمصالح الاستراتيجيــة والاقتصاديــة لبريطانيا ، وطالب اليهود بفتح فلسطين للهجرة اليهودية غير المحدودة ، وعدم الحد من انتقال الأراضي لليهود ، وأكدوا على اعتراضهم الشديد على كل إجراء من شأنه أن يحد أو يقيد من تطور الوطن القومي لليهود .

ولما فشلت كل مساعي بريطانيا الدبلوماسية للتوفيق بين الطرفين طرحت بريطانيا تصورها الخاص لحل المشكلة الذي يتلخص في إقامة دولة فلسطينية مستقلة ترتبط مع بريطانيا بمعاهدة تضمن مصالحها العسكرية والاقتصادية ، بعد فترة انتقال تمتد عشر سنوات ، إذا ما نجحت التطورات الدستورية وتعاون العرب واليهود في فلسطين في تلك الفترة .

ولكن العرب واليهود رفضوا هذه التسوية المقترحة ، وانهارت المحادثات نهائياً بعد أن قاطعها الوفد اليهودي . وأعلنت بريطانيا أنها ستنفذ ما تراه مناسباً رغم معارضة الطرفين ورفضهم له .

الكتاب الابيض : (١٩٣٩م) :

أصدرت الحكومة البريطانية في ٧مايو / آيار الكتاب الابيض الخاص بسياستها تجاه فلسطين والذي احتوى على نفس المقترحات التي قدمت في مؤتمر لندن ورفضها كل من العرب واليهود . واستهلت الحكومة البريطانية كتابها

الأبيض بمقدمة عددت فيها التزاماتها ، كدولة منتدبة ، نحو اليهود والعرب واعترفت بوجود بعض التناقضات في تلك الالتزامات وأعربت عن رغبتها في إزالة الغموض المحيط ببعض العبارات الواردة في صك الانتداب كعبارة « وطن قومي للشعب اليهودي » وأوضحت أن واضعي صك الانتداب ، كما أكد كتاب تشرشل في عام ١٩٢٢م ، لا يمكن أن يكونوا قد قصدوا تحويل فلسطين إلى دولة يهودية خلافاً لارادة العرب سكان البلاد .

وتقدمت الحكومة بعد ذلك باقتراحاتها لحل المشكلة الفلسطينية تحت ثلاثة بنود رئيسية هي الدستور والهجرة والاراضي .

(١) الدستـــور :

اعترفت بريطانيا بأن إبقاء فلسطين تحت الانتداب إلى الأبد أمر يخالف روح ونظام الانتداب من أساسه ، وأعلنت التزاماتها بالعمل كي يتمتع أهل فلسطين وعلى وجه السرعة بحقوق الحكم الذاتي التي يمارسها أهالي البلاد المجاورة وقررت أنها ترمى إلى قيام دولة فلسطينية مستقلة خلال عشر سنوات ترتبط مع المملكة المتحدة بمعاهدة تضمن للبلدين تطلعاتهما التجارية والحربية في المستقبل ضماناً مرضياً ، وينتهي الانتداب تدريجياً بعد التشاور مع مجلس عصبة الأمم وخلال هذه الفترة الانتقالية تتخذ التدابير اللازمة لاعطاء أهل فلسطين نصيباً متزايداً في حكومة بلادهم .

(٢) الهجرة :

أما بالنسبة للهجرة فقد اعترفت بريطانيا بأنه لا يمكن تحقيق الوطن القومي لليهود في فلسطين بالسماح لهم بالهجرة المطلقة ، خاصة وأنها تؤثر في وضع البلاد الاقتصادي والسياسي ، ولذلك رأت الحكومة البريطانية ضرورة تقييد الهجرة على أساس قدرة البلاد الاقتصادية من جهة ، وعدم استفزاز العرب من جهة أخرى ، وقررت السماح ولآخر مرة بادخال ٧٥ ألف يهودي خلال خمس سنوات ، ثم لا يسمح بعد ذلك بهجرة يهودية أخرى إلا إذا قبل بها عرب فلسطين .

(٣) الأراضي :

كما رأت الحكومة البريطانية ضرورة إصدار تشريعات من شأنها منع أو تحديد أو إباحة انتقال الأراضي العربية لليهود حسب ظروف مناطق فلسطين

المختلفة ، ومنحت المندوب السامي في فلسطين السلطات اللازمة للقيام بذلك ، وأكدت تصميمها على تنفيذ سياستها الجديدة بغض النظر عن قبولها أو رفضها من أي من الفريقين ، العرب ، واليهود .

وهكذا نرى أن بريطانيا قد اضطرت ، نسبة لظروف فلسطين الداخلية والظروف العالمية التي كانت تنذر باندلاع حرب كونية ثانية ، لمهادنة العرب والعدول عن فكرة التقسيم ، والاعتراف باستقلال فلسطين خلال عشر سنوات والحد من الهجرة وتقييد بل ومنع انتقال الأراضي العربية لليهود . ولكننا نلاحظ أن بريطانيا قد اشترطت تعاون اليهود والعرب خلال الفترة الانتقالية لقيام دولة فلسطين المستقلة . وتأرجحت ردود الفعل العربية لسياسة بريطانيا بين الرفض والقبول ، ولكنها تبلورت نهائياً في قبول العرب لها ، ومطالبتهم للحكومة البريطانية بتنفيذها .

أما اليهود فقد سارعوا إلى رفض الكتاب الأبيض رفضاً باتاً وقاطعاً ، وأذاعت الوكالة اليهودية بياناً بهذا الشأن جاء فيه : أن سياسة الكتاب الأبيض منافية لحقوق اليهود الطبيعية في فلسطين وأن أبطال اليهود الذين برهنوا على قوتهم وصلابتهم في تأسيس الوطن القومي اليهودي يعرفون كيف يدافعون عن الهجرة اليهودية والوطن القومي اليهودي والحرية اليهودية(١) .

تزايد الخطر الصهيوني في فلسطين :

استغل الصهاينة اضطهاد اليهود على أيدي النازيين في المانيا فهولوه وبالغوا فيه وأظهروا اليهود بمظهر الضعف والذلة والتشرد ، استدراراً لعطف الرأي العام العالمي وتحقيقاً لمطامعهم في فلسطين بزيادة هجرة اليهود إليها .. وقد أدت هجرة اليهود المتزايدة إلى فلسطين وشرائهم للأراضي وإنشائهم للمستوطنات والمشاريع الزراعية والمصانع والجامعات والمدارس ومراكز البحوث إلى تطوير الوطن القومي بصورة مذهلة ألحقت الأضرار بحقوق عرب فلسطين الدينية والسياسية والاجتماعية والاقتصادية ، وبكافة حقوقهم الشرعية وتطلعاتهم إلى الحرية والاستقلال .

واستغلت الوكالة اليهودية في فلسطين فترة الاضطرابات التي صاحبت قيام واستمرار ثورة عرب فلسطين على الانتداب البريطاني والنفوذ الصهيوني

---

(١) محمد امين الحسيني ، حقائق عن قضية فلسطين ، ص ٢١٢ .

وأخذت تطالب الحكومة البريطانية بحمايتهم وحماية وطنهم القومي ، وقمع الثورة العربية . وتحت شعار الحماية والدفاع عن النفس الذي استتر اليهود وراءه كثيراً ، أخذت المنظمات الصهيونية بالتنسيق الكامل مع الوكالة اليهودية في شراء وتهريب الأسلحة والذخيرة داخل فلسطين ، وتشييد الحصون والقلاع العسكرية ، وزيادة المستعمرات الزراعية التي تكاثرت بصورة مذهلة ، كما أخذت تضاعف من تدريب الفرق اليهودية لا سيما فرق الهجناه وتمدهم بالأسلحة الحديثة الفتاكة لمهاجمة العرب .

هذا في الوقت الذي كانت فيه السلطات البريطانية تجرد العرب حتى من أسلحتهم البدائية وتوزع الأسلحة الحديثة على المستوطنات اليهودية بحجة حمايتها من العرب . وقد لعب الضباط البريطانيون وخاصة لورد ونجت الذي اعتنق اليهودية وسماه اليهود « لورنس العبريين » على وزن « لورنس العرب » دوراً هاماً وخطيراً في إعداد وتدريب فرقة الهجناه التي صارت نواة للجيش الاسرائيلي فيما بعد .

وسرعان ما قويت شوكة اليهود واستفحل خطرهم على العرب وأخذوا يتحرشون بهم ويهاجمونهم في قراهم ومزارعهم بل وفي الطرق العامة ويثيرون الرعب والهلع في نفوسهم ويجبرونهم على ترك أراضيهم وإخلاء منازلهم والفرار منها . وقد اشتهرت عصابة الاستيرن والارجين التي كان يتزعمها « مناحيم بيغن » رئيس وزراء اسرائيل الحالي بارتكاب أبشع المذابح ضد المواطنين العرب ، وقد بلغت الجرأة بتلك العصابات بأن أخذت تتحرش وتتآمر على البريطانيين أنفسهم لا سيما رجال الشرطة والجيش .

واستغلت الحركة الصهيونية الظروف التي أوجدتها الحرب العالمية الثانية (١٩٣٩ ــ ١٩٤٥م) وأخذت تعمل على مناهضة وإبطال سياسة بريطانيا الجديدة المتمثلة في الكتاب الأبيض في فلسطين . وتحقيقاً لهذه الأهداف اتجهت المساعي الصهيونية نحو الولايات المتحدة الامريكية التي صارت تمثل مركز الثقل بالنسبة للسياسة الدولية .

وتنافس كل من ممثلي الحزب الجمهوري والحزب الديموقراطي للحصول على تأييدهم وجعل كل منهما قضية اليهود ومساعدتهم على تحقيق آمالهم في فلسطين من مواد دعايتهم الرئيسية وقطع ديوي مرشح الحزب الجمهوري على نفسه العهد بفتح أبواب فلسطين للهجرة اليهودية وتحقيق قيام الدولة

اليهودية ، كما أعلن روزفلت أن حكومته لم ولن توافق على الكتاب الأبيض ، وأن عطف أمريكا على اليهود قوي ، وأنه سيعمل على فتح أبواب فلسطين لهجرتهم الواسعة .

وهكذا اتجهت الحركة الصهيونية إلى الولايات المتحدة الامريكية التي كان يبدو واضحاً أنها ستلعب دوراً هاماً في سياسة العالم بعد الحرب ، واستطاعوا أن يؤثروا في الرأي العام الأمريكي ويحصلوا تبعا لذلك من الزعماء السياسيين على وعود قاطعة بالمشاركة في حل المشكلة اليهودية وتقديم كافة المساعدات المادية والمعنوية اللازمة .

ولم يقتصر نشاط اليهود وجهدهم في مجال الدعاية والسياسة فقط ، بل تعداهما إلى العمل المسلح لازالة ما أحدثته الثورة العربية وظروف الحرب العالمية الثانية من تغيير في السياسة البريطانية لصالح العرب . وقامت الحركة الصهيونية بتنظيم وتدريب فرقة الهجناه ، القوة العسكرية الدفاعية التابعة للوكالة اليهودية ، وتدريب أعداد كبيرة من شباب اليهود وشاباتهم على أيدي الضباط والمدربين البريطانيين واليهود ، كما نشطت المنظمات اليهودية المختلفة والأفراد في اقتناء الأسلحة الحديثة بكل وسيلة ممكنة كالتهريب وسرقة المخازن الحكومية ، وفي إقامة السراديب والخنادق التي أنشئت تحت الأرض في المستعمرات اليهودية لاخفاء الكميات الكبيرة من القنابل والمدافع والمتفجرات والبنادق والمسدسات والأجهزة المتنوعة الأخرى التي حصلت عليها بكافة الوسائل غير الشرعية انتظاراً لمنازلة العرب . كما أخذ اليهود يطالبون أيضاً بانشاء فيلق يهودي يحارب إلى جانب الحلفاء ولكن تحت علمه الخاص . وبث اليهود دعاية واسعة بين الحلفاء واليهود لتحقيق هذه الغاية التي كانوا يرمون من ورائها إلى تجميع كافة الجنود والضباط اليهود الموجودين في جيوش الحلفاء تحت قيادة يهودية موحدة وجعل ذلك وسيلة لتوطيد مطالبهم من جهة وملء أيديهم بالسلاح وتدريب رجالهم على الأعمال الحربية من جهة أخرى . وحصل اليهود بالفعل على اقتراح موقع من ٥٣ نائباً انجليزياً بتأييد مطالبهم ، ونجحوا أخيراً في تحقيق هذا المطلب بمساعدة تشرشل الفعالة عندما أصدر أوامره المباشرة — بوصفه وزيرا للحربية — بتكوينه رغم اعتراضات قيادات القوات البريطانية واحتجاجات العرب الرسمية . وهكذا أصبح هناك فيلق يهودي بقواده وضباطه وجنوده ونظامه الخاص ، واندمج فيه عدد كبير من يهود فلسطين بالاضافة إلى يهود البلاد الأخرى . وبعد انتهاء الحرب عاد أفراد ذلك الفيلق إلى فلسطين ومع أكثرهم أسلحتهم الخفيفة .

ولما اقتربت نهاية السنين الخمس المحددة في الكتاب الأبيض لوقف الهجرة نهائياً إلى فلسطين ورأى اليهود أن الحكومة البريطانية متمسكة ظاهرياً ، بسياستها المعلنة تحسباً من العرب الذين كانت بلادهم ميداناً هاماً من ميادين الحرب لما فيها من مراكز استراتيجية وتموينية هامة ، قرروا أن يرغموها على التخلي عن سياستها المهادنة للعرب بالقوة فأعدوا عدتهم في أوائل عام ١٩٤٤م ونقلوا قضيتهم إلى مجال العمل الارهابي المسلح ضد الانجليز والعرب لاستعجال السلطات البريطانية بتسليمهم فلسطين . وأخذت عصابات الاستيرن والارجين تقوم بأعمال إرهابية عديدة ضد الانجليز والعرب لارهابهم وترويعهم وحملهم على ترك ممتلكاتهم والنزوح عن فلسطين .

ونجح اليهود في مناهضة الكتاب الأبيض وبدأوا يجنون ثمار أعمالهم الارهابية عندما أرسل الرئيس ترومان الذي خلف روزفلت على رئاسة الجمهورية في ٣١ اغسطس / آب ١٩٤٥م كتابا إلى المستر اتلي ، رئيس الوزارة البريطانية ، يطلب فيه إدخال مائة ألف يهودي دفعة واحدة إلى فلسطين وأن تفتح أبواب فلسطين فيما بعد للهجرة اليهودية دون قيد أو شرط .

وانتهزت الحكومة البريطانية هذه الفرصة لتتنصل تدريجيا عن سياستها المعلنة في الكتاب الأبيض لعام ١٩٣٩م ولتشرك الولايات المتحدة في معالجة قضية فلسطين ، فأعلنت عن تشكيل لجنة تحقيق أنجلو ــ أمريكية ، للبحث في مشكلة اليهود في أوروبا الوسطى ولاعادة النظر في مسألة فلسطين بعد التشاور مع اليهود والعرب . وأعربت الحكومة البريطانية عن عزمها على اتخاذ أبحاث هذه اللجنة كأساس يبنى عليه تقرير ترفعه إلى الأمم المتحدة تمهيداً لوضع فلسطين تحت الوصاية ، كما قررت فتح أبواب فلسطين للهجرة بنفس المعدل الذي سارت عليه في الماضي بحجة تهدئة الجو للتحقيق الجديد. ، والرأفة بالانسانية المعذبة في لاجئي اليهود ضاربين باعتراض العرب وهياجهم عرض الحائط .

لجنة التحقيق الأنجلو ــ أمريكية :

وتشكلت لجنة التحقيق الأنجلو ــ أمريكية ، وقامت بالاتصالات اللازمة بين اليهود والعرب وتقدمت بتقرير مفصل عن المشكلة المطروحة أوصت فيه بالتصريح لمائة ألف يهودى بالهجرة إلى فلسطين فى الحال ؛ كما أوصت باستمرار

سياسة الانتداب البريطانى فى فلسطين ، واستمرار الحال على ماهو عليه إلى أن يتم الاتفاق على تنفيذ وصاية الأمم المتحدة عليها .

أما فى مسألة الأراضى فقد أوصت اللجنة بضرورة تطبيق سياسة حرية بيعها واستئجارها واستغلالها بغض النظر عن الجنس والدين والمذهب ، وبهذا تنصلت بريطانيا عن سياستها التى حددتها فى كتابها الأبيض وتجاهلت حقوق عرب فلسطين .

ردود الفعل العربية :

وما أن نشر تقرير لجنة التحقيق الأنجلو ـ أمريكية حتى ثارت ثائرة العرب ، وقاموا بالاحتجاج أفراداً وهيئات وحكومات ، على حكومتى لندن وواشنطن ، وطعنوا فى شرعية قيام اللجنة نفسها إذ أنها شكلت دون الرجوع إلى الأمم المتحدة ولم تمثل فيها الدول العربية ذات المصلحة المباشرة ، ورفضوا الاعتراف بتوصياتها التى تجاهلت حق الشعب الفلسطينى الشرعى فى تقرير مصيره .

وكالعادة لم تجد الاحتجاجات العربية فتيلا . ولكن الجامعة العربية التى تكونت آنذاك ونصت فى بروتوكول الاسكندرية الذى صدر فى أكتوبر ١٩٤٤ على أن فلسطين هى ركن هام من أركان العروبة ، وأن حقوق العرب لا يمكن أن تمس دون إضرار بالسلم والاستقرار فى العالم العربى ، كانت ترصد الموقف عن كثب وتقوم بالتدابير اللازمة للحفاظ على عروبة فلسطين .

ورفضت الجامعة العربية مع اللجنة العربية العليا الاعتراف بفتح باب الهجرة ونادت بضرورة إعطاء عرب فلسطين حقوقهم الشرعية كما أعلنت الجامعة دهشتها لاشراك بريطانيا للولايات المتحدة فى القضية الفلسطينية التى لا يوجد أي مبرر شرعى أو قانونى لتدخلها فيها .

وفطن زعماء العرب والجامعة للمعنى الحقيقى لتأييد الولايات المتحدة للحركة الصهيونية وأثر ذلك على الحالة الاقتصادية فى فلسطين وبقية العالم العربى فقرروا فى ديسمبر (كانون أول) مقاطعة يهود فلسطين مقاطعة اقتصادية تامة ، وكلفت الجامعة الدول المشتركة فيها بالعمل على سن القوانين واللوائح التى تمنع دخول المنتجات والمصنوعات اليهودية ، ودعت الشعوب غير الممثلة فى الجامعة العربية إلى التضامن فى تنفيذ القرار ، كما ألفت لجنة

للاشراف على تنفيذ هذه المقاطعة[1] .

واجتمع ملوك ورؤساء العرب فى انشاص مصر فى مايو ــ آيار ١٩٤٦م وتداولوا فى قضية فلسطين خاصة والقضايا العربية عامة ، فرأوا أن قضية فلسطين هى قضية الأمة العربية والعالم الاسلامى بأسره ويتحتم على الدول العربية وشعوبها الدفاع عنها وصيانة عروبتها ورفضوا الموافقة على أي هجرة يهودية جديدة الى فلسطين ، واعتبروا ذلك نقضاً صريحاً للكتاب الأبيض الذى ارتبط به الشرف البريطانى[2] ورجوا من بريطانيا وأمريكا ألا يقوما بأي عمل يرمى إلى إقرار تدابير ماسة بحقوق عرب فلسطين ، حرصاً على صداقة تلك الدول وتفادياً لردود الفعل التى قد تنشأ بسبب ذلك والتى قد يكون لها أسوأ الأثر فى السلم العام ، كما كلفوا الأمين العام للجامعة العربية باتخاذ أفضل الوسائل لصيانة مستقبل هذا الوطن العزيز على قلوب العرب أجمعين[3].

وفى ظروف هذه القضية العربية الشاملة عقد مجلس الجامعة العربية اجتماعاً فوق العادة فى بلودان بسوريا فى ٨ يونيو ــ حزيران للنظر فى تقرير لجنة التحقيق الأنجلو ــ أمريكية ــ ونتائجه والخطة التى يجب أن يسيروا عليها فى قضية فلسطين التى أخذت تدخل فى دور دقيق . وأدرك المؤتمرون خطورة ودقة المرحلة التى تمر بها القضية الفلسطينية وصمموا على الوصول إلى نتيجة حاسمة تحفظ عروبة فلسطين وحقها . وحذر المؤتمرون الدولتين المعنيتين بريطانيا وأمريكا بأن أى موقف منهما ضد العرب وحقوقهم يعد عملا عدائياً موجهاً للعرب جميعاً ، ويعكر الصفو بينهما وبين العرب ويؤدى إلى تهديد السلم فى الشرق العربى[4] . وانتقد المجلس بشدة لجنة التحقيق الأنجلو ــ أمريكية وتحيزها لليهود ، ورفضوا الاعتراف بتوصياتها وطالبوا بتجريد اليهود من السلاح وبانشاء مكاتب للمقاطعة ، وبتأليف لجنة دائمة فى أمانة الجامعة العربية للاشراف على سير القضية . وطالب المجلس المفاوضة مع الحكومة البريطانية لانهاء الحالة فى فلسطين ، وعرض القضية على هيئة الأمم المتحدة إذا لم تنته المفاوضات مع بريطانيا إلى حل وقرر المجلس مساعدة عرب فلسطين ودعمهم مادياً وأدبياً للدفاع عن أنفسهم أمام الخطر الصهيونى المسلح ، كما اتخذ عدة قرارات سرية سياسية واقتصادية ، يطبقها ضد بريطانيا والولايات المتحدة عند الضرورة .

---

(١) جلال يحيى وآخرون ، الحركة الصهيونية والعالم العربي ص٨٣ ــ ٨٤ .

(٢) محمد عزة دروزة ، حول الحركة العربية الحديثة جـ ٤ ص٥٢ .

(٣) نفس المصدر ص٥٣ .

(٤) نفس المصدر صفحة ٥٦

مشروع موريسون :

واستجابت الحكومة البريطانية إلى طلب العرب بالمفاوضة وعقدت مؤتمر لندن فى سبتمبر – أيلول ١٩٤٦م الذى دعت اليه وفود الدول العربية المعنية لمناقشة القضية الفلسطينية . وتقدمت الحكومة البريطانية لهذا المؤتمر بمشروع جديد لتقسيم فلسطين عرف باسم « مشروع موريسون » نسبة إلى نائب رئيس الوزارة البريطانية العمالية الذى تبناه . ويقوم المشروع على أن فلسطين بأكملها يجب أن لا تكون دولة عربية ولا يهودية فلا سيادة لليهود على العرب ولا للعرب على اليهود وأن من المستحيل التوفيق بين الأمانى السياسية للعرب واليهود ، ولهذا فلا يمكن تأسيس دولة موحدة بينهم ، وأن المجال الوحيد لضمان السلم فى فلسطين هو وضع نظام يكفل حكماً ذاتياً لكل من العرب واليهود تحت إدارة حكومية مركزية .

وعليه أوصت الحكومة البريطانية فى مشروعها الجديد بتقسيم فلسطين إلى أربع مناطق : منطقة عربية ، منطقة يهودية ، منطقة القدس ، ومنطقة النقب .

ورفضت الوفود العربية مشروع التقسيم وقررت أنه لا يصلح لأن يكون أساساً لحل قضية فلسطين لاسيما وأنه يقوم على أساس التقسيم الذى يرفضه العرب مبدئياً وأن فيه نقضاً واضحاً لسياسة بريطانيا المعلنة فى الكتاب الأبيض لعام ١٩٣٩م ، وعندها أوضحت الحكومة البريطانية أنها لا تتمسك بالمشروع وإن كانت تراه خير حل عملى للمشكلة ، وطلبت من العرب تقديم حل بديل .

وتقدم العرب بمشروع مقابل يتلخص فى إنهاء الانتداب وإعلان استقلال فلسطين الموحدة وإنشاء حكومة ديمقراطية بمقتضى دستور تضعه جمعية تأسيسية منتخبة ، وتأليف حكومة انتقالية برئاسة المندوب السامى وعضوية سبعة من العرب وثلاثة من اليهود ، واتخاذ الخطوات اللازمة لضمان تمتع اليهود بحقوقهم والمحافظة على حقوق الاقليات .. ونص المشروع على وقف الهجرة اليهودية إلى فلسطين فوراً على أن يترك أمرها فى المستقبل إلى الحكومة المستقلة المقبلة .

كما نص على عقد معاهدة تحالف بين حكومة فلسطين المستقلة وبريطانيا لتوثيق العلاقات الودية بينهما . وعلى اعطاء الضمانات الكافية لاحترام الأماكن

المقدسة والمحافظة عليها وضمان حرية زيارتها للجميع دون تفرقة بين الأديان أو العقائد أو اللغات (١) .

وطالبت الحكومة البريطانية إتاحة الفرصة لها لدراسة الاقتراح العربى البديل ، ولكنها أخذت تعمل على تعليق جلسات المؤتمر ووضع العراقيل أمام نجاحه بتجاهل حقوق الهيئة العربية العليا فى تمثيل عرب فلسطين مما أدى بدوره إلى مزيد من المماطلة والتسويف فى البت بالموضوع بل وإلى تجاهله ورفضه تدريجيا .

أما الحركة الصهيونية فقد رفضت بدورها مشروع موريسون لتقسيم فلسطين وتجاهلت بريطانيا فى هذا الصدد ولم تعد تعبأ بها كثيراً وركزت جهودها على الولايات المتحدة التى صارت تمثل مركز الثقل بالنسبة للسياسة الدولية . وكان الرئيس ترومان قد اندفع آنذاك فى تأييده لمناصرة اليهود ، وتهجيرهم إلى فلسطين ، وتزايد ضغطه على الحكومة البريطانية لتحقيق ذلك ، وأصدر بياناً جديداً قال فيه إن تهجير المائة ألف يهودى لا ينبغى أنْ يعلق على نتيجة مؤتمر لندن لأن حالة مشردى اليهودى لا تحتمل التأخير .

استمرار وتزايد العنف والارهاب اليهودى :

وفى تلك الأثناء ازدادت حدة العنف والارهاب وتفاقم خطره على العرب والانجليز على حد سواء وكثفت الفرق اليهودية الصهيونية الارهابية من نشاطها وقامت باشتباكات دموية رهيبة ضد الانجليز والعرب وبأعمال تدميرية وتخريبية شاملة ضد مراكز البوليس والقيادة العامة فى فلسطين وخطف الضباط الانجليز وجلدهم وتعذيبهم . كما قامت بقطع الطرقات العادية والحديدية ، ونسف البواخر البريطانية التى كانت تشترك فى مطاردة سفن التهريب اليهودية كما نشطت تلك الفرق فى تهريب الأسلحة والمهاجرين اليهود إلى فلسطين بكافة الوسائل والطرق .

وعلى الصعيد السياسى قامت الوكالة اليهودية بتكثيف حملاتها الاعلامية لكسب تأييد الرأى العام العالمى ، ولعزل بريطانيا سياسياً واقصائها عن المشكلة الفلسطينية تدريجياً ، وفتح المجال أمام الولايات المتحدة الأمريكية للتدخل المباشر لصالح الحركة الصهيونية .

---

(١) نفس المصدر

وعقدت الحركة الصهيونية مؤتمرها العالمى فى بال بسويسرا فى عام ١٩٤٦م وحمل زعماؤها على بريطانيا حملة عنيفة ونددوا بمشروع موريسون وطالبوا بقيام دولة يهودية ووافقوا على المشروع اليهودى المقدم كبديل لمشروع موريسون[١] .

وإزاء هبوط قوة بريطانيا العظمى دولياً . وماتبعه من إحساس بعدم قدرتها على الاحتفاظ بفلسطين أمام الضغط اليهودى الارهابى من جهة ، والضغط الأمريكى السياسى المتزايد من جهة أخرى قررت الحكومة البريطانية رفع الأمر إلى هيئة الأمم المتحدة لتقرر الحل الذى تراه .

وفى أول ابريل / نيسان ١٩٤٧م أرسلت بريطانيا مذكرة للأمين العام لهيئة الأمم المتحدة تطلب فيها عرض قضية فلسطين فى دورة خاصة . وبالرغم من احتجاج واعتراض الدول العربية فقد تم انتخاب لجنة تحقيق دولية جديدة منحت صلاحيات واسعة لاستقصاء الحقائق فى فلسطين .

وجاء تقرير لجنة التحقيق الدولية محققاً لتشاؤم العرب وتوجسهم ، إذ اتفق الأعضاء على توصيات عامة تتضمن وجوب إنهاء الانتداب البريطانى واستقلال فلسطين وأوصت الأكثرية بتقسيم فلسطين إلى دولتين عربية ويهودية تمكثان تحت الوصاية لمدة عامين يعلن بعدهما استقلالهما ، ويسمح بادخال مائة وخمسين ألف مهاجر يهودى جديد فى المنطقة اليهودية .

العرب يرفضون التقسيم :

وثارت ثائرة العرب على تقرير لجنة التحقيق الدولية ، وأذاعت الهيئة العربية العليا بياناً قوياً رفضت فيه التقسيم ونددت به وأنذرت بالحرب فى حالة تنفيذه ، وأرسلت وفودها إلى عواصم أوروبا وأمريكا لشرح الموقف وكسب الأنصار والمؤيدين .

واجتمعت اللجنة السياسية للجامعة العربية فى صوفر بلبنان فى ١٦ سبتمبر/أيلول ١٩٤٧م ونددت بسياسة بريطانيا وتدخل أمريكا فى شؤون فلسطين ورفضت مقترحات لجنة التحقيق التى تنطوى على إهدار حقوق عرب فلسطين الطبيعية فى الحرية والاستقلال وعلى خرق جميع العهود التى أعطيت للعرب ورأت أن تنفيذ تلك المقترحات يهدد أمن فلسطين بل الأمن والسلام فى

---

(١) نفس المصدر

كافة البلاد العربية . ولهذا وتحقيقاً لاستقلال فلسطين وحريتها ودفاعاً عن كيان الدول العربية ، فقد قررت اللجنة السياسية مقاومة مقترحات لجنة التحقيق بجميع الوسائل العملية الفعالة ، ومقاومة كل تدبير آخر من شأنه أن يقضي على وحدة بلادهم ولا يحقق استقلالها كدولة عربية موحدة .

وأبلغت الأمم المتحدة بأن أي محاولة لتطبيق هذه المقترحات ستدفع عرب فلسطين ومن ورائهم كافة البلاد العربية للقيام بالدفاع عن بلادهم وكيانهم العربي الاسلامي المهدد من قبل الصهيونية والاستعمار .

وسجلت اللجنة استعداد كافة الشعوب والحكومات العربية لتقديم كل معونة عاجلة لعرب فلسطين من أموال ورجال وسلاح وأوصت بتشكيل لجنة فنية لدراسة الحالة في فلسطين وتنظيم وتنسيق المعونة ووسائل الدفاع .

ثم اجتمع مجلس الجامعة العربية في بيروت . في شهر اكتوبر / تشرين الأول من نفس العام في ظروف حرجة من تاريخ الأمة العربية اشتد فيها قلق العرب وخوفهم على مستقبل فلسطين وازداد حماسهم للعمل والجهاد والتضحية . وعرضت اللجنة الفنية على المجلس تقريراً مفصلا عن اليهود وامكاناتهم القتالية وتدريبهم وتسليحهم بأسلحة حديثة متطورة ، واستعدادهم للحرب وتوفر امكاناتهم لجلب المزيد من الأسلحة والذخيرة وعن ضعف العرب وسوء تنظيمهم وتدريبهم وتسليحهم وعدم استعدادهم للحرب ، رغم حماسهم واستعدادهم للبذل والتضحية وعدم توفر الامكانيات لجلب الأسلحة والذخيرة لمجابهة الخطر الصهيوني .

وعليه فقد أوصى المجلس دول الجامعة باتخاذ الاحتياطات العسكرية اللازمة على حدود فلسطين لدرء الأخطار الصهيونية التي تتهددها ، والمبادرة بتقديم المساعدات المادية والمعنوية لعرب فلسطين ، لتقويتهم وتشجيعهم في الدفاع عن أنفسهم وعن كيانهم العربي الاسلامي... كما قرر المجلس تأليف لجنة عسكرية فنية تتولى تهيئة وتنظيم الدفاع وتجهيز وتدريب الفلسطينيين والمتطوعين ورصدت الأموال المبدئية اللازمة لذلك كما تقرر حشد وحدات من الجيوش المصرية والسورية واللبنانية والأردنية والعراقية على حدود فلسطين .

وتم تشكيل اللجنة الفنية وأخذت تباشر أعمالها واتخذت من دمشق مركزاً رئيسياً لها ، وأخذت تعمل بجد وإخلاص وتكتم لتحقيق أهدافها

المرجوة ، وبدأت حركة واسعة للتطوع في كافة البلاد العربية وأنشئت معسكرات لتدريب المتطوعين والمجاهدين في سوريا وغيرها من البلاد العربية المجاورة وأخذ أبناء فلسطين وأبناء الأمة العربية من المحيط إلى الخليج ، يتدفقون نحو مراكز التطوع ويتدربون على الأسلحة والوسائل القتالية الحديثة .

بريطانيا تتخلى عن مسؤولياتها في فلسطين :

وفي هذه الظروف الحرجة من تاريخ القضية الفلسطينية قررت الحكومة البريطانية أن ترفع يدها عن فلسطين وأن تتخلى عن مسؤوليتها فيها ، وأعلن وزير المستعمرات البريطاني موافقة حكومته وبدون تحفظ على إنهاء الانتداب كما أوصت بذلك لجنة التحقيق ، وأن حكومته آخذة في تهيئة أسباب انسحابها عسكرياً وإدارياً من فلسطين بأسرع ما يمكنها . وأحالت الحكومة البريطانية الأمر برمته إلى الأمم المتحدة للنظر فيه .

الأمم المتحدة وقرار التقسيم :

وفي ٢٣ سبتمبر/ أيلول عام ١٩٤٧م باشرت هيئة الأمم المتحدة النظر في قضية فلسطين وبذلت جهوداً جبارة في شرح وجهة النظر العربية المناهضة للتقسيم ولكن وبضغوط الحركة الصهيونية على الولايات المتحدة الأمريكية ، وبضغوط الأخيرة المكثفة على كثير من الدول الممثلة في الجمعية ذات المصالح السياسية والعسكرية والاقتصادية المرتبطة بها ، فقد انتهى الأمر بعد مداولات عدة ومشاورات عنيفة ، بموافقة الجمعية في ٢٩سبتمبر/ أيلول من نفس العام على مشروع يقضي بتقسيم فلسطين العربية إلى دولة عربية وأخرى يهودية ، ومنطقة دولية في القدس ، تحت رقابة الأمم المتحدة ، مع اتحاد اقتصادي يضم الدولتين المستقلتين والمنطقة الدولية . وقد صدر قرار التقسيم هذا بأغلبية ٣٣ صوتاً مقابل ١٣ صوتاً وامتناع عشرة وتغيب واحد عن التصويت وقد جاء قرار التقسيم هذا مهدراً لكافة حقوق عرب فلسطين الشرعية في الحرية والاستقلال والوحدة ومنافياً لمبادىء الأمم المتحدة ، بل وللمبادىء الانسانية نفسها .

ورفض عرب فلسطين قرار التقسيم رفضاً قاطعاً . كما رفضته كافة الدول العربية التي أصدرت بياناً جماعياً باستنكاره ، ولكن بريطانيا التزمت بقبول قرار التقسيم وبانهاء انتدابها على فلسطين في ١٥ مايو / آيار ١٩٤٨م ، بعد أن سلمت لليهود ، دون حياء أو خجل ، معظم المواقع الاستراتيجية الهامة

التي انسحبت منها مبكراً مثل حيفا وعكا وصفد وطبرية وغيرها ، واحتفظت بالمناطق العربية إلى آخر لحظة من عمر انتدابها المزيف على فلسطين ، وتسلم اليهود المناطق الاستراتيجية والمطارات واشتروا مخلفات الحرب وطائرات الاستكشاف والتدريب من القوات البريطانية المنسحبة وأعلن بن غوريون قيام دولة اسرائيل في نفس اليوم . وسرعان ما اعترفت الولايات المتحدة الأمريكية بالدولة اليهودية بعد بضع دقائق من إعلانها ، وتبعها الاتحاد السوفييتي وغيره من الدول الكبرى والصغرى .

وتبع صدور قرار التقسيم وإعلان قيام دولة اسرائيل في قلب الوطن العربي ، اضطرابات وتطورات خطيرة في فلسطين بل وفي كافة المنطقة العربية ووجد الصهاينة ومن خلفهم الدعم الأمريكي السياسي والعسكري المطلق ، الفرصة لهم لتنفيذ مخططهم لابعاد وتشريد عرب فلسطين من ديارهم واقتلاع كل جذور الثقافة العربية الاسلامية والتراث العربي الاسلامي في فلسطين بأقامة دولة صهيونية عنصرية تكتم أنفاس الأمة العربية وتحول دونها والوحدة الشاملة ، واعتمدت الحركة الصهيونية في ذلك على وسائل متعددة بنيت على ثلاث قواعد رئيسية هي الضغط السياسي والدعاية الكاذبة والارهاب . وقد قامت العصابات الصهيونية الارهابية التي كانت مدربة تدريباً عسكرياً حديثاً ومزودة بأسلحة فتاكة بتنفيذ كافة مخططاتها الاجرامية ضد عرب فلسطين وضد الأمة العربية ، وشردت عرب فلسطين الذين أجبروا على التخلي عن ديارهم وأرضهم وهاجروا من الارهاب اليهودي ، وأملا في العودة إلى فلسطين بعد دخول القوات العربية الذي كان متوقعاً ووشيكاً .

وبالفعل ، وعندما شهدت الجامعة العربية قمة المأساة الدامية في فلسطين ، أصدرت قراراً بتحريك الجيوش العربية ودخولها فلسطين إثر تخلي القوات البريطانية عنها ، ولكن الجيوش العربية لم تكن مستعدة للحرب ولم تكن مدربة تدريباً جيداً ، كما أن قياداتها كانت تحت ضباط بريطانيين عرفوا بتعاطفهم مع اليهود ، وخيانتهم للقضية العربية .

ورغم هذا فقد حققت الجيوش العربية الزاحفة على فلسطين انتصارات باهرة وسريعة في بادىء الأمر ، وصارت قاب قوسين أو أدنى من تل أبيب ، وقد لعب المتطوعون العرب ، لا سيما الاخوان المسلمون دوراً بطولياً هاماً في تحقيق تلك الانتصارات الرائعة .

ولكن الدول الاستعمارية الكبرى المتواطئة مع اسرائيل لا سيما الولايات المتحدة الأمريكية أرادت أن تدرأ الخطر عنها فأجبرت الدول العربية على عقد هدنة أتاحت لليهود فرصة إعادة ترتيب صفوفهم واستيراد الأسلحة الثقيلة والمتطورة من طائرات ودبابات ومدافع ثقيلة ورشاشات مكنتهم من هزيمة الجيوش العربية غير المدربة وغير الموحدة ، تلك الهزيمة الساحقة التي ما زالت تلاحق الأمة العربية التي تؤمن بأن فلسطين قد ضاعت مؤقتاً وأنه لا بد من تحريرها وإعادتها إلى موكب الأمة العربية الاسلامية مهما طال الأمد وتكاثرت المؤامرات والمحن .

لقد هزت كارثة قيام اسرائيل في قلب الوطن العربي مشاعر الأمة العربية الاسلامية وجعلتها تدرك أبعاد التآمر الصهيوني والاستعماري على البلاد العربية عامة وفلسطين خاصة ، وتدرك أيضاً ضرورة التكاتف والتعاضد لمجابهة العدو الصهيوني الغاصب .

وعقد الضباط العرب ، الذين اشتركوا في حرب فلسطين وأدركوا أبعاد المؤامرة التي تحاك ضد عرب فلسطين وضد الأمة العربية الاسلامية ، ولمسوا بأنفسهم الانهيار التام الذي تعرضت له قدراتهم العربية ، العزم على ضرورة تغيير الأوضاع الداخلية في البلاد العربية ، والتصدي لمواجهة التحديات الخارجية المتمثلة في الخطر الصهيوني والقوى الاستعمارية الأخرى .

وعليه حدثت سلسلة من الانقلابات العسكرية والثورات في البلاد العربية بهدف تحقيق تلك الغايات ومن أشهرها وأهمها الانقلابات التي قامت في سوريا والعراق في الفترة ما بين (١٩٤٩ ــ ١٩٥٨) م ، وثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢م ، المصرية ومنظمة التحرير الفلسطينية في عام ١٩٦٥م ، ولكن الأنظمة العربية آنذاك ظلت ولفترة طويلة عاجزة عن التصدي لمشاكل البلاد العربية الداخلية دع عنك مواجهة الأخطار الخارجية .

واستغلت دولة اسرائيل الغاصبة العجز العربي ، وغيبة الاستراتيجية العربية الموحدة ، وانشغال الأنظمة العربية آنذاك في خلافات وصراعات هامشية رمت بهم في متاهات الفرقة والانقسامات ، وبعض التصريحات العربية المناهضة للوجود اليهودي في فلسطين ، فأخذت توهم العالم بأسره بأنها مهددة بخطر الابادة من جيرانها العرب الذين هددوا ، كما تدعى ، بمحوها من

الوجود ورميها في البحر . وأخذت تعمل بكل صلف وتعنت على تفريغ فلسطين من سكانها العرب وتفسح بذلك المجال لآلاف بل وملايين من يهود الشتات المهاجرين من شرق وغرب أوروبا بل ومن مختلف أنحاء المعمورة لكي يعيشوا في فلسطين .

واتخذت الحركة الصهيونية من الهجرة وإقامة المستوطنات اليهودية في فلسطين استراتيجية ثابتة لفرض الأمر الواقع على العرب وتأكيد الوجود اليهودي في فلسطين ، وواصلت الصهيونية تكثيف الهجرة والاستيطان لتحقيق هذه الغاية .

وجاءت حرب ١٩٦٧م وما تبعها من مواجهات عربية ـ اسرائيلية لتكشف عن مخططات الحركة الصهيونية العدوانية التوسعية وتفضح أمرها ، إذ لم تكتف اسرائيل بالاستيلاء على ما تبقى من أراضي فلسطين العربية بل قامت باحتلال القدس وأجزاء هامة من ثلاث دول عربية أخرى هي مصر وسوريا ولبنان . واعتمدت اسرائيل في كل ذلك ، وبدعم من الولايات المتحدة الأمريكية ، على القوة العسكرية الغاشمة ، وفرض الأمر الواقع على البلاد العربية والاسلامية بل وعلى العالم أجمع .

وفتح هذا التوسع السرطاني شهية الحركة الصهيونية لابتلاع المزيد من الأراضي العربية الاسلامية لتحقيق حلمها الأكبر المتمثل في إقامة دولة اسرائيل الكبرى تنفيذاً لشعارها المعروف « أرضك يا اسرائيل من الفرات الى النيل » .

وعندها أدرك العرب والمسلمون أبعاد المخططات الصهيونية الاستعمارية في المنطقة ، وأيقنوا أن الأخطار ليست قاصرة على فلسطين وإنما تمتد الى كافة البلاد العربية والاسلامية وبذلك تحولت القضية الفلسطينية تدريجياً إلى قضية عربية إسلامية تهم كافة الشعوب العربية والاسلامية بل وتهم العالم أجمع .

وعلينا أن ننظر إلى الصراع العربي ـ الاسرائيلي ـ على أنه صراع عقائدي حضاري بين العرب والمسلمين من جهة ، والصهيونية العالمية والاستعمار من جهة أخرى وأن جوهر هذا الصراع يتمثل في مخططات الحركة الصهيونية والدول الاستعمارية شرقية كانت أم غربية ، لهدم العقيدة الاسلامية ، وتفتيت الوحدة العربية الاسلامية ، واقتلاع جذور فلسطين العربية والاسلامية وتهويدها تدريجياً حتى تتحول إلى دولة يهودية عنصرية

توسعية في قلب الأمة العربية الاسلامية تكون امتداداً للحضارة الأوروبية المسيحية وتعمل على دعم النفوذ الاستعماري في الشرق العربي وعلى تأمين مصالحه الاستراتيجية والاقتصادية في المنطقة ، كما تكون في نفس الوقت مشغلة للعرب والمسلمين تنهك قواهم وتعرقل وحدتهم وتخيفهم وتجعلهم دائماً وأبداً بحاجة إلى مساندة ودعم القوى الاستعمارية الأخرى الطامعة في المنطقة .

وعلينا أن ندرك أيضاً أن المخرج الوحيد من هذا المأزق الذي نحن فيه يتجسد في العمل الجاد والتخطيط السليم لايجاد استراتيجية عربية اسلامية شاملة موحدة ترتكز على العقيدة الاسلامية والوحدة العربية الاسلامية ، تكون قادرة على التصدي للمخططات الصهيونية الاستعمارية ومنازلتها في كافة الميادين لاسترداد الحق العربي الاسلامي الضائع ، وتحرير فلسطين والقدس وكافة الأراضي العربية المحتلة . ولا بد أن تكون تلك الاستراتيجية مدعومة بتحرك دبلوماسي واع قادر على الاقناع ، وبقوة عسكرية ضاربة قادرة على الردع والقتال .

مراجع
الفصل الثالث

(١) المراجع العربية

١ ــ أبو الأعلى المودودي : الحضارة الاسلامية : أسسها ومبادئها ، الطبعة الثانية ، ترجمة محمد الحداد ــ دار العربية للطباعة والنشر ــ بيروت ١٩٧٠ .

٢ ــ أبو خلدون ساطع الحصري : « ابحاث مختارة في القومية العربية » ــ دار المعارف بمصر ــ ١٩٦٤ م .

٣ ــ احمد السمان : « المجتمع العربي » ــ دار الفكر بدمشق ــ ١٩٦٢م .

٤ ــ السيد الباز العريني وآخرون : « المجتمع العربي » ــ دار النهضة العربية للطباعة والنشر ــ بيروت ــ لبنان ــ ١٩٦٨م .

٥ ــ جوستاف لوبــون : « حضارة العرب » ــ ترجمة عادل زعيتر ــ مطبعة عيسى البابي الحلبي ــ القاهرة ــ ١٩٦٩م .

٦ ــ حسن قايــد : « بادية الامارات » عادات وتقاليد ــ مؤسسة الاتحاد للصحافة والنشر والتوزيع ــ (لم تذكر سنة النشر) .

٧ ــ عزالدين فودة ــ « المجتمع العربي » ــ دار الفكر العربي ــ الطبعة الثانية ١٩٦٦م .

٨ ــ علي عبدالرازق : الاسلام واصول الحكم ــ ١٩٢٥م .

٩ ــ عمر فاخوري : كيف ينهض العرب ــ دار الآفاق الجديدة ــ بيروت ١٩٨١ .

١٠ ــ مالك بن بني : شروط النهضة ومشكلات الحضارة ، ترجمة عمر مسقاوي . دار الفكر بالقاهرة ١٩٦٩م .

١١ ــ محمد بن احمد بن الشيخ حسن : « العادات والتقاليد في دولة الامارات » المطبعة العصرية ــ ابوظبي ــ ١٣٩٩هـ .

١٢ ــ محمد ريــاض : « الانسان ــ دراسة في النوع والحضارة » ــ دار النهضة العربية للطباعة والنشر ــ بيروت ــ الطبعة الثانية ١٩٧٤ .

(٢) المراجع الأجنبية

1. Adamson Hoebel, Man in tje Primitive World, N. Y. 1958.
2. Clyde Kluchohn, Mirror for Man, W. Y. : 1949.
3. Paull Sites, Control and Constraint, Macmillan Publuishing Co., Inc., N. Y.

مراجع
الفصل السادس

١ ــ احمد الغندور : الاحوال الشخصية في التشريع الاسلامي ، جامعة الكويت ، الكويت ١٩٧٥ .

٢ ــ احمد الكبيسي : فلسفة نظام الاسرة في الاسلام ــ مكتبة المكتبة ، العين ١٩٧٩ .

٣ ــ احمد طه محمد : المرأة المصرية بين الماضي والحاضر ، مطبعة دار التأليف ، القاهرة ١٩٧٩ .

٤ ــ باسم سرحان : العائلة والقرابة عند الفلسطينيين في الكويت ، منظمة تطوير العلوم الاجتماعية في الشرق الاوسط ، الكويت ١٩٧٦ .

٥ ــ ذكي الدين شعبان : الزواج والطلاق في الاسلام ، الدار القومية للطباعة والنشر ، القاهرة ١٩٦٤ .

٦ ــ سهى عبدالقادر : الانماط المحافظة والمتحررة للاسرة المصرية ، منظمة تطوير العلوم الاجتماعية في الشرق الاوسط ، الكويت ١٩٧٦ .

٧ ــ عاطف وصفي : الانثروبولوجيا الاجتماعية ــ دار المعارف ، القاهرة ١٩٧٥ .

٨ ــ عاطف وصفي : الثقافة والشخصية ــ دار المعارف ، القاهرة ١٩٨١ .

٩ ــ عاطف وصفي وآخرون : المجتمع العربي ــ صوت الخليج ــ الشارقة ١٩٨١ .

١٠ ــ عباس احمد : المجتمعات البدوية ، مكتبة المكتبة ، العين ١٩٨١ .

١١ ــ عباس احمد : الانثروبولوجيا الاجتماعية ، مكتبة المكتبة ، العين ١٩٨١ .

١٢ ــ علياء شكري : الاتجاهات المعاصرة في دراسة الاسرة ، دار المعارف القاهرة ١٩٧٩ .

١٣ ــ عمرو محيى الدين : التنمية والتخطيط الاقتصادي ، دار النهضة العربية ، بيروت ١٩٧٧ .

١٤ ــ فهد الثاقب : علاقات القرابة الاسرية في مجتمع الكويت المعاصر ، منظمة تطوير العلوم الاجتماعية في الشرق الاوسط ، الكويت ١٩٧٦ .

١٥ ــ محمد عبدالسلام محمد : العلاقات الاسرية في الاسلام ، مكتبة الفلاح ، الكويت ١٩٨١ .

١٦ ــ مورو بيرجر : العالم العربي اليوم (ترجمة محيى الدين محمد) دار مجلة شعر ، بيروت ١٩٦٣ .

١٧ ــ ياسين علي الكبير : التحضر والتغير الاجتماعي في الاسرة في مدينة طرابلس (ليبيا) الحلقة الدراسية عن الاسرة والقرابة ــ منظمة تطوير العلوم الاجتماعية في الشرق الاوسط ، الكويت ١٩٧٦ .

مراجع
الفصل السابع

(١) المراجع العربية

١ ــ د. راشد البراوي : اقتصاديات العالم العربي ، مكتبة النهضة المصرية القاهرة ، ١٩٧٣ .

٢ ــ د. سيد نميري ، د. محمد كامل ريحان ، د. خزعل الجاسم : اقتصاديات الوطن العربي ، مكتبة المكتبة ، العين ــ ابوظبي ، ١٩٨٠ .

٣ ــ د. محمد محمود الامام : « النمو الاقتصادي ومؤشراته في العالم العربي » ، محاضرات الموسم الثقافي الأول يوليو ــ اكتوبر ١٩٧٧ ، الامانة العامة لجامعة الدول العربية .

٤ ــ د. محمود عبدالفضل : « عالم ما بعد النفط » المستقبل العربي ، العدد ٦ مارس ١٩٧٩ .

٥ ــ اللجنة الفرعية للتخطيط : مجلس الوحدة العربية : تطور مبدئي حول استراتيجية التنمية العربية ، القاهرة ، ١٩٧٦ .

٦ ــ جامعة الدول العربية : « اتفاقيات تشجيع وتنمية التجارة بين البلاد العربية (دراسة تحليلية) بحث قدم لندوة الصادرات العربية ، ابوظبي ، ١٩٨٢/٥/٥ .

٧ ــ جامعة الدول العربية (الامانة العامة) وصندوق النقد العربي والصندوق العربي للانماء الاقتصادي : التقرير الاقتصادي العربي الموحد ١٩٨١ .

(٢) المراجع الأجنبية

1- Yousif A. Sayigh: the Economics of the Arab World, London, 1978.

2- Bela Balassa: the Theary of Economic Integration, London, 1973.

3- G.P. Casadio: the Economic Challenge of the Arabs, ,London, Saxon House 1976.

4- Colin Clark: Conditions of Economic Progress, Macmillan & Co. London, 1957.

5- R. Nurkse: Problems of Capital Formation in Under developed Con-tries, Oxford University Press, 1953.

6- A.G. Musrey: An Arab Common Marker, A. Praeger, N.Y. 1969.

7- The World Bank: World Development reports, 1978 & 1980.

الفصل الثامن

قراءات مقترحة

أبو الاعلى المودودي : تدوين الدستور الاسلامي (بيروت : مؤسسة الرسالة ، ١٩٨٠) .

أحمد صدقي الدجاني : ماذا بعد حرب رمضان ـ فلسطين والوطن العربي في عالم الغد (بيروت ـ المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، ١٩٧٤) .

أحمد الشقيري : الجامعة العربية ـ كيف تكون وكيف تصبح عربية (تونس : دار ابو سلامة ، ١٩٧٩) .

اسكندر غطاس : اسس التنظيم السياسي في الدول الاشتراكية (القاهـرة : بدون ، ١٩٧٢) .

السيد يسن : الشخصية العربية بين المفهوم الاسرائيلي والمفهوم العربي (القاهرة : الاهرام ، ١٩٧٤) . تحليل مضمون الفكر القومي العربي (بيروت : مركز دراسات الوحدة العربية ، ١٩٨٠) .

بطرس بطرس غالي : دراسات في الدبلوماسية العربية « القاهرة : الانجلو المصرية ، ١٩٧٣) . الجامعة العربيـة وتسويـة المنازعـات المحليـة (القاهرة : معهد الدراسات والبحوث العربية ، ١٩٧٧) .

ثروت بدوي : النظم السياسية ـ النظرية العامة (القاهرة : النهضة العربية ، ١٩٦٤) .

حامـد ربيع : الحوار العربي الاوروبي واستراتيجية التعامل مع الدول الكبرى (بيروت : المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، ١٩٨٠) .

صـبري فـارس : استراتيجية الخليج العربي والصراع الاستعماري حوله (بغداد : دار الحرية ، ١٩٧٩) .

عبـدالرحمـن الـبزاز : هذه قوميتنا (القاهرة : ١٩٦٤) .

عبدالكريم احمـد : القومية والمذاهب السياسية (القاهرة : الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر ، ١٩٧٠) .

عبد المنعـم الطناملي : الخليج العربي في مواجهة التحديات (الكويت : الوحدة للنشر والتوزيع ، ١٩٧٥) .

على احمد عبد القادر : دراسة لظاهرة القومية في المجتمع العربي (القاهرة : النهضة العربية ، ١٩٦٥) .

محمد حافـظ غانم : محاضرات عن جامعة الدول العربية (القاهرة معهد الدراسات والبحوث العربية ، ١٩٦٦)

محمد طلعت الغنيمي : نظرات في العلاقات الدولية العربية (القاهرة : مطبعة اطلس) .

محمــد غانــم الرميحي : مقومات التنمية الاجتماعية والاقتصادية في مجتمعات الخليج العربي المعاصرة (الكويت : كاظمة ، ١٩٧٧) .

محمود علي الداود : الخليج العربي والعمل العربي المشترك (بغداد : الارشاد ، ١٩٨٠) .

مصطفى فهمي ابو زيد : النظرية العامة للقومية العربية (الاسكندرية : مؤسسة المعارف ، ١٩٦٦) .

مفيـد شهاب : جامعة الدول العربية ـ ميثاقها وانجازاتها (القاهرة : معهد البحوث والدراسات العربية ، ١٩٧٨) .

نديم البيطار : من التجزئة .. الى الوحدة ـ القوانين الاساسية لتجارب التاريخ الوحدوية (بيروت ـ مركز دراسات الوحدة العربية ، ١٩٧٩) .

وكالة الانباء القطرية : وثائق مجلس التعاون الخليجي (الدوحة ، ١٩٨٢) جـ١ ، جـ ٢ .

Aka, C.E.: A Theory of Political Integration (Homewood, ILL.: Dorsey Press, 1967).

Badeau, J.S.: The American Approach to the Arab World (New York: Harper and Row, 1968).

Cantori, L.J. and Speigel, S.L.: The International politics of Regions - A Comparative Approach (Englewood Cliffe, N.J. Prentice Hall, 1979).

Deutsch, K.W.: The Analysis of International Relations (Englewood Cliffs, N.J., Prentice Hall, 1978).

Etzioni, A.: Political Unification, a Comparative Study of Leaders and Forces (New York: Holt, Rinehart and Winston, 1965).

Gomaa, A.: The Foundations of the League of Arab States - Wartime Diplomacy and Inter - Arab Politics, 1914 - 1945 (London: Longman, 1977).

Hayes, C.: Nationalism - A Religion (New York: Macmillan, 1960).

Huntington, S.: Political Order in Changing societies (New Haven: Yale University Press, 1970).

Hurewitz, J.C. (ed.): Oil The Arab - Israeli Dispute and the Industrial World: Horizons of Crisis (Boulder, Colorado: Westview Press, 1976).

Kohn, H.: Prelude to Notion - States (Princeton: Van Nostrand, 1967).

Shafer, B.C.: Faces of Nationalism - New Realities and Old Mythe (New York: Harcout, 1972).

Snyder, L.L.: The New Nationalism (New York: Cornell University Press, 1968).

Vatikiotis, P.J.: Conflict in the Middle East (London: George Allen and Unwin, 1971).

W&

Waterbury, J. and el - Mallakh, R.: The Middle East in the Coming Decade: From Well - hear to well - Being (New York: Mcgrew Hill, 1976).

مراجع
الفصل التاسع

١ ـ احمد امين ، زعماء الاصلاح في العصر الحديث ، القاهرة ، ١٩٧١م .

٢ ـ زين نورالدين ، نشوء القومية العربية ، بيروت ١٩٧٩ .

٣ ـ سليمان موسى ، الحركة العربية ، بيروت ١٩٧٧ .

٤ ـ عبدالوهاب احمد ، تاريخ العالم العربي الحديث الخرطوم ١٩٧٩م .

٥ ـ عبدالوهاب احمد ، بريطانيا والخلافة الاسلامية ، وثيقة تاريخية سياسية ١٩٨٠م .

٦ ـ على المحافظة ، الاتجاهات الفكرية عند العرب ، بيروت ١٩٧٥م .

٧ ـ محمد المبارك ، المجتمع الاسلامي المعاصر ، دمشق ١٩٧٩م .

٨ ـ محمد امين الحسيني ، حقائق عن قضية فلسطين ، القاهرة ١٩٥٧م .

٩ ـ محمد عزة دروزة ، حول الحركة العربية ، صيدا ـ لبنان ١٩٥١م .

الفهـرس

الصفحة

تمهـــيد — ٣ —

الدكتور جميل سعيد

الفصل الأول : — ١١ —

اللغة العربية والمجتمع العربي والاسلامي — الدكتور جميل سعيد

الفصل الثاني : — ٢٧ —

المقومات الطبيعية للوطن العربي — الدكتور طه عبدالعليم رضوان

الفصل الثالث : — ٧٥ —

الحضارة الاسلامية والثقافة العربية — الدكتور فوزي العربي

الفصل الرابع : — ٩٩ —

الخلفية التاريخية للمجتمع العربي — الدكتور عبدالوهاب احمد

الفصل الخامس :— ١٤٥ —

السكان في الوطن العربي — الدكتور نوري خليل البرازي

الفصل السادس : — ١٨١ —

العائـــــلة العربيـــــة — الدكتور عاطف وصفي

الفصل السابع : — ٢١٣ —

المقومات الاقتصادية للمجتمع العربي — الدكتور سيد نميري

الفصل الثامن : — ٢٥٥ —

الاوضاع السياسية في المجتمع العربي — الدكتور علي احمد عبدالقادر

الفصل التاسع : — ٢٩٧ —

القضية الفلسطينية — الدكتور عبدالوهاب احمد